

الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس

رواية

طارق إمام

دار العين للنشر

الحياة الثانية
لقسطنطين كفافيس

الحياة الثانية
لقسطنطين كفافيس

رواية

طارق إمام

الطبعة الأولى / ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م



دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، ٢٤٥٨٠٩٥٥، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥

www.elainpublishing.com

الغلاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٩٦١ /٢٠١٢

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 171 - 3

الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس

رواية

طارق إمام

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إمام، طارق

الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس: رواية/ طارق إمام.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

٢٨٨ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٧١ ٣

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٨٩٦١/ ٢٠١٢

إلى "كرمـة"..



"وإذ يمضي كل منهما في طريقه، وقد شاب بعض الارتباك خطواتهما، يتوجسان أن هيئتيهما علق بها شيء يفصح عن أي متعة محرمة، كانا منذ برهة يستمتعان بها.
ولكن، كم أثرت هذه اللحظات حياة الشاعر..
غدًا أو بعد غد، أو ربما بعد سنين، ستُكتَب القصيدةُ العارمةُ التي كانت بدايتها، هنا"

قسطنطين كفافيس

(البداية)

القسم الأول



1

غادر قسطنطين كفافيس السفينة القادمة من أثينا، بصحبة شخص، يكتب رواية عنه، يخبئها في حقيبته، ويضيف إليها كل يوم سطرًا أو بضعة أسطر، فقرة أو فصلاً كاملاً.

هذا الشخص اسمه ألكسندر سينجوبوليس، عشيقه اليوناني، عشيقه الأخير كما ستؤكد بعض الكتب، والشخص الذي ليس له وجود على الإطلاق في كتب أخرى أشد إسهابًا، ستتناول سيرة كفافيس فيما بعد. بدءًا من هذه اللحظات، وطيلة السنوات القادمة، سيصير ألكسندر سينجوبوليس أحد احتمالين، بالقوة نفسها، لشخص وُجِد أو لم يوجد، لكنه، على الأقل في تلك الظهيرة من أكتوبر عام 1932، كان متجسدًا.

الإسكندرية التي تستقبلهما تشهد أن قسطنطين كفافيس، الشاعر

اليوناني وأحد رعاياها، عاد بعد رحلة علاج، فاقدًا صوته، إلى الأبد، حتى ولو كان لدى عودته يمتلك أملاً واهيًا كذب به الأطباء عنيه، ومتأبطًا شخصًا، يتسند عنيه في الحقيقة؛ كابن، أخٍ أصغر، خادم يافع، أحد أقاربه.. نحيفًا لكن قابلاً لأن يُرى، شاحبًا، وتُغطي وجهه نقاط نمش بني كثيفة، أتيح الوقت لعدد ممن رأوه يومها، كي يفتشوا عن ملامحه بين فوضاها. رأى كثيرون ذلك البنيان الهش لشاب أبيض حد الامتقاع، وتأكدوا من أنه موجود، في الشوارع المحيطة بالميناء، حيث لا يزال البحر حقيقيًا أكثر من المدينة، والهابطون من السفن ليسوا، أمام أنفسهم، ذواتًا بعد، (ظلال لأجساد لم تغادر السفن بشكل كامل)، لكنهم، لسوء الحظ، كانوا أشخاصًا عابرين لم يعرفوا اسمه؛ لأن ذلك لن يشغلهم، جميع الواقفين في نقطة مثل تلك اسمهم مسافرون، أشباح بائسون ينعكسون على أعين عملية (مجرد مرايا لا تلتقط الشخص إلا في وجوده المباشر قبالة سطوحها). تراءى وجه ألكسندر سينجوبوليس لحمال، يلح في طلبه، بينما يزيحه المسافر بهدوء، خطوة بعد الأخرى، تراءى لبائع صحف لجوج أشار له المسافر بيد رافضة، لعاهرة أخطأت الطريق للرجل المناسب، كل هؤلاء ليسوا بالأشخاص الذين يمكن أن يؤكدوا تاريخًا، أن يمنحوا شخصًا وجوده أو يجردوه منه.

من بين كل أمتعته، ظل ألكسندر حريصًا على حقيبة صغيرة سوداء، فيها مخطوط، سيتقلص بياض صفحاته، يومًا بعد الآخر، لأنه سيكتب، يومًا بعد الآخر، رواية يجب أن تظل سرًا.. لكن قسطنطين كفافيس الذي ظل يقرأ المشاهد البعيدة الممزقة، أولاً بأول، في المستشفى الأثيني، من

خلف ظهر عشيقه، أو صديقه، أو حتى الشخص الذي لم يوجد، سيقرأ المسودة المكتملة في شقته بشارع ليبسوس بالإسكندرية، ولن يتهاون في تسجيل ملاحظات صارمة، بدفتر صغير في البداية، لن تلبث أن تتضخم وتتشعب، حاملةً اقتراحات، تساؤلات، ملاحظات فنية، إلى أن تُشكل ما يصلح لرواية موازية.

2

بينما يتنفس هواء الإسكندرية من جديد، كان كفافيس يتمنى أن يعيش إلى أن يقرأ الرواية كاملة، لكنه أيضًا يفكر في المدينة التي تتجسد ببطء، كأنها تبني نفسها في الواقع، على عجل، فقط لكي تبدو حقيقية أمام القادمين من وهم البحر، وبدت له الإسكندرية، في أكتوبر، نفس مدينة يوليو، الشهر الذي غادرها فيه لآخر مرة.

يحطان أقدامهما أخيرًا على اليابسة، ويشعر بدوار، الدوار الذي يصيب شخصًا يطأ مكانًا لأول مرة، يعرف أنه ليس وطنه، ويسأل نفسه، حقيقةً؛ إن كان عاش فيه من قبل.

من موقعه في البحر، قبل ذلك بقليل، وبينما يراها تتقدم نحوه؛ فكر أنه بمجرد أن يتحرك على أرصفة الميناء؛ لن يعثر على شيء. هذه التي

ينقشع عنها تدريجيًا ضبابُ عينيه، صورة لمدينة، رسمتها يد كبيرة على ورقة هائلة مجعدة. من ينظر لمدينة وهو عائد من سفر، يهيأ له أنها مجرد خطوط مرتجلة صُفَّت على عجل، و لم تكن الإسكندرية، التي تزحف بأناة لتصطدم في لحظة بمقدمة السفينة، (بينما يسأل نفسه أيهما سيتحطم في هذه المواجهة الوشيكة)، سوى اسم، لفظ على لسان، صوت فقط، لا يدل على أي شيء. الآن؛ هناك ملايين الأشياء، تثبت أن الصوت ليس مجرد صوت، تنسحب بمكر غيمة عماه (كأنه فقد عينيه أيضًا) لترتفع بيوت، وتبرق واجهات محال، وتبرز أقدام بشرية من الإسفلت لا تلبث أن تكتمل حتى يصبح لها رؤوس. بالمقابل؛ صارت هناك، خلف ظهره، كلمة اسمها أثينا! لا شيء يثبت الآن أنها تعني شيئًا، أو تشير لشيء يرقد في الواقع، وقد تخلصت بالتأكيد من كل ما من شأنه أن يجعل منها وجودًا. صوته الذي فقده هناك، لا شيء الآن.. ليس حتى ذكرى. الخرائط، القواميس، ما يتفوه به الناس، وما يتفقون عليه، كل هذه أوهام، لن تقنعه بأن ثمة مكانًا يرقد على الجانب الآخر من البحر، لا يزال بعض المسافرين لم يغادروا حدوده.

لدهشة سينجوبوليس، طلب الشاعر المحتضر أن يستقل الترام. (كان سينجوبوليس يفكر، في اللحظة ذاتها، في الفصل الأول من الرواية، الذي سيكتبه على أنقاض قصاصاته المشوشة، بحيث يتم تقديم كل الشخصيات على خلفية ترام، صوت هادر يخترق المشاهد المتجاورة لشخصيات لا يعرف بعضها بعضًا، تعيش كل منها في زمن)، لكن لا أحد منهما سينظر في عيني الآخر. كلاهما يفقد النظر في هذه اللحظة. كان كفافيس،

واقعيًا، قد أصبح على الأرض، له قدمان يستطيع لو أمال جذعه قليلاً أن يتأكد من وجودهما. هناك حشرة معدنية هائلة تُصفِّر في أحشاء المدينة، عليه أن يستقلها؛ كاختبار لا سبيل إلى تفاديه، لكي يصدق أن كل ما يراه ليس من ورق.

يمكنه، بينما تهتز به عربة الترام، التي شعر فيها كأنه داخل حصالة نقود كبيرة في يد طفل ضخم، (وسينقُض بنفسه ذلك الخيال بعد لحظات عندما يجتاحه اليقين بأنه يجلس على كتف رجل يعظل)، أن يفكر من جديد في الرواية، أو، في الصفحات المهترئة المتباعدة والمتشابكة والكثيفة التي تشبه نية حقيقية لكتابة رواية.

لا يزال يتذكر تلك اللحظة المدهشة؛ عندما عثر، عقب فقدانه صوته، على أول فقرة كتبها ألكسندر، أول مرثية (هكذا اعتبرها في حينها) التي سيُعدِّلها الشاب قليلاً بعد ذلك في ثنايا أحد المقاطع. بعد ذلك سيظل يتذكر الرواية مقترنةً بفقدان صوته، وفي لحظة متقدمة، مع القدر المطلوب من التصالح، ذلك الذي يتكفل به الزمن بغض النظر، أو رغم أنف، الكائن، سيستدعيهما باعتبارهما الشيء نفسه.

(4 يوليو 1932.

اليوم في الصباح، استيقظ شاعر بعد حلم غامض ليكتشف أنه فقد صوته. لقد أدرك قسطنطين كل شيء وهو يحاول الهمهمة بكلمات فور تأكده من أن صحوه ليس وهمًا جديدًا، كلمات خرجت منه صامتة، للدرجة التي هز معها صدى سكونها المخيف عظامَه.. ثم صرخ بكل وسعه: ألكسندر.. ألكسندر.. غير أن صياحه لم يصلني، ليس لأنه خرج مثل طعنة سكون مدوية.. لكن لأني لم أنم في المستشفى ليلتها.. انسللت من فراشه بخفة، لأودع صوته العالي ، الذي كان يحكي حياته كأنه يدافع عن ماضيه أمام جميع أشباح الحاضر.. وتسللتُ على أطراف أصابعي لأغادر جدرانه، كأنني متواطئ بشكل ما مع كائنات أحلامه التي جردته بغتة من النطق.

على سرير ضيق، انتزع الأطباء حنجرته ولم يتمكنوا من إعادتها.

نعم.. كنت آخر شخص سمع صوته، صوته الذي لم يسمعه هو بينما كان في بحر المنام العميق يقاوم الغرق بسرد أشد ذكرياته قِدمًا.. يصرخ ويبكي ويتغنج ويطلق صرخات شبق. لم يكن صوته.. بل كانت سيرة صوته، إن جاز لي التعبير، تحضر.. منذ صرخة الولادة.. إلى بكاء الرضيع.. ثم تلونات الصوت الطفل المخنث الذي يعبر المراهقة.. وصولاً لصوته الأخير الحاد الرفيع المنهك، والشاحب، حد إنه يشبه وجهه.

سمعت صوته منذ ولادته وحتى موته.. عندما تحشرج وبدأ يذوي إلى أن انمحى تمامًا.. ورغم ذلك؛ لم أصدق أن تلك الانطفاءة ستظل على

حالها عندما يستيقظ، ليكتشف أنه لم يعد قادرًا على التفوه إلا بالصمت.

كان يحلم وهو نائم، وهي أغرب حرب يمكن أن يخوضها شخصٌ تعوَّد أن يحلم وهو مستيقظ، وكان ثمة شخص يتلصص على صور ماضيه، التي انسالت، حية وحرة، مع لعابه، على الوسادة.. قبل أن تجف في الصباح، مودعةً عمرًا طويلا من خزائن الجسد الهش.

لن يتذكر ما حدث في منامه الذي بث فيَّ كل الرعب الممكن في هذه الدنيا، بل إن تلك الليلة تحديدًا، والتي تضاجعنا فيها طويلاً قبل نومه، بينما يتقمص شخصية طفل صغير يغرر به رجل كبير -كان يحب تلك التمثيليات العبثية- ستظل في ذاكرته ليلة بلا أحلام.. وسيظل يندهش طويلاً؛ كيف اقترن رحيل صوته بغياب أحلامه.. متأكدًا من وجود علاقة ما، وعاجزًا عن الإتيان بشيء.

لم أره يومها وهو يحاول عبثًا البحث عن صوته في ركن، التفتيش عنه تحت الوسادة والملاءة المبعثرة الغارقة في منيه الشائخ.. تحت السرير وبين القصائد المتناثرة على فراشه، والتي لن تُكتب الحياة لأغلبها، بين التعاويذ الطبية الغامضة المشهرة أمام وجهه كمرايا، وفي أصوات جميع من حوله.. إذ أنصت طويلاً، مجددًا، لكل من يملك صوتًا.. ليتأكد أن أحدًا لم يستعر نبرته.

رغم ذلك؛ أستطيع أن أخمن أنه لم يستقبل الأمر بالرعب الذي سأستقبله به بعد ساعات قليلة، عندما أجد في كل ركن بغرفته تقريبًا ورقة كُتِبت عليها عبارةٌ واحدة بخط ضخم: لن ينطق قسطنطين ب.كفافيس بعد اليوم).

قرأ كفافيس هذا المقطع فور كتابته، ليس بالضبط، لكن في اليوم نفسه، قبل أن يصبح مكتوبًا بيد الأمس. لم يكن يتخيل أنه سيصبح مشهدًا في رواية، نواة لرواية. هو بالفعل كتب على أوراق عديدة "لن ينطق قسطنطين ب. كفافيس بعد اليوم"، بحروف كبيرة واضحة ومرتعشة.. جعلتها أشبه بلافتات كتبها طفل، (إعلان غامض عن ذاته، ربما تأكيد لوجوده لم يكن بحاجة له قبل ذلك، أو: دأب على أن يجافيه قبل ذلك)، وتركها مبعثرة في عدة أركان.. لكن فكرة المنام الطويل المكتظ بجميع أصواته بدت له مدهشة. أعجبه مجاز البحث عن صوته بالمعنى الحرفي، كما دوَّنه ألكسندر سينجوبوليس، (الذي سيذكر أحد الكتب بعد خمسين عامًا أنه رافقه السنوات السبع الأخيرة في حياته، أي منذ العام 1927 على وجه التقريب، في شقة شارع ليبسوس، التي استأجرها كفافيس قبل ذلك بنحو عشرين عامًا، في العام 1908، بعد أن هاجر شقيقه بول إلى باريس).

شعر بامتنان ما، مجهول المصدر؛ لأنه أمسك بطرف لعبة، تمنى أن تستمر. كان ألكسندر، في حدود معلوماته، يتمنى دائمًا أن يكتب رواية، بعد حفنات قصائد متعثرة لم يُكتَب لها الظهور، بسبب ذائقته الصارمة بالذات.

في اللحظة التي بدأ فيها كفافيس يطالع سيرة الشخصية التي يعرف هو فقط- حدود ما فيها من واقع وحدود ما فيها من وهم، كان أمامه أقل من تسعة أشهر أخرى سيحياها، إلى أن يموت في المستشفى اليوناني يوم 29 إبريل 1933، نفس يوم مولده. ألكسندر أيضًا اختار هذا اليوم

لموت كفافيس في روايته، جاعلاً من مشهد احتضاره الطويل نهرًا رئيسيًا يشق الرواية، تنام الحكايات المسترجعة على ضفتيه.

لم يفعل ذلك بمنطق النبوءة، لكن بإلهام بدائي تحول إلى حيلة فنية، كانت ستظل كذلك لو لم يمت قسطنطين كفافيس في ذلك اليوم.

بعد ذلك، في جميع الأيام التالية، وجد الشاعر مقاطع أخرى، وبدأ يشعر أن المسألة تتجاوز حد الخاطرة.

ثمة مشروع يتشكل، وعليه أن يدعمه.

3

في أثينا؛ مكثنا نحو أربعة أشهُر، وضع خلالها ألكسندر مخططًا أوليًا، مثل نية مشوشة، لكتابة رواية، لم تكن أكثر من اقتراح بسيط يضم عددًا من المقاطع القصيرة.

لا أحد يعرف بالضبط طبيعة الشهور الأربعة في العاصمة اليونانية، ربما لم يهتم كثيرون بالبحث في هذه الفترة، لأنها تلخصت في رحلة مرض رتيبة.

كانت الفرص سانحة أمام ألكسندر، دائمًا، خلال الشهور المطفأة، ليقتل وقته بمغامرة. (ليس من الممكن على وجه الدقة تحديد سبب حاسم أو دافع مقنع للانطلاق في كتابة الرواية، ألكسندر نفسه سيُرجع، في مقدمة الرواية، الدافع لمشهد هش لا يمكن التأكد من وقوعه).

بالنظر إلى وضعية كفافيس في سرير المرض، فإنه ينام طويلاً، واهنًا، أو يستسلم للأطباء، مستمعًا ليونانية نقية لا مثيل لها في الإسكندرية، حتى على ألسنة اليونانيين، يقرر أن يحاكي نقاءها عندما يعود وأن يدعو أصدقاءه لذلك، لا يدري أنه لن يتمكن من ذلك أبدًا.

في أوقات الفراغ، أوقات فراغ الأطباء وأوقات صحوه التي يُمليها مرضه، يستقبل الزيارات المحتفية بوجوده، (تبدو حفلات تأبين سابقة لأوانها) مثقفون.. يتعاملون معه كشاعر عاد أخيرًا، وليس كمريض في التاسعة والستين.

ما إن بدأ ألكسندر حتى شعر برغبة ساحقة في أن ينتهي، والقصاصة الصغيرة الأولى التي حملت فكرة، مشهدًا كثيفًا، لن تلبث أن تتعرف على طموحها بين جيرانها، لكن آفة الشخص الذي يرافق مريضًا؛ أنه يمنحه الأمان، كأنه عاد طفلاً، كأنه صار ميتًا، ولا يتخيل أبدًا أنه أشد خطورة من ذلك بكثير، ولو كان لابد من تشبيهه بطفل أو ميت، فهو خبيث كالطفل، خبير كالميت.

بسهولة شديدة، ودون أن يحتاج لإعمال ذهنه الواهن، عرف المريض أن صديقه يكتب شيئًا، وهو يملك الفضول الكافي ليَطّلع على سره.

هناك حقيبة، يتحرك ألكسندر بها على الدوام، هناك سؤال دائم عن بضع أوراق بيضاء، وهناك عينان يعرفهما كفافيس، عينان زائغتان لشخص يكتب.

4

في مرحلة مبكرة من الكتابة، فكر كفافيس أنه بدوره يجب أن يمنح ألكسندر، أشياء، كان الأخير بالتأكيد في حاجة إليها. "ذلك الشاب لا يعرف عني الكثير، ولكي يحرفني، أو يشوهني، يجب أن تكون بحوزته بعض الحقائق، من دون الحقائق كيف سيحولني إلى شخص من خيال؟"، لكن كلمة، من سيل حواره لنفسه، الذي يسمع فيه صوته بنبراته، وقفت في حلقه بغتة.

الحقائق! أي فزع تبثه في قلبه تلك الكلمة، وأي زيف.. **"ما يشبه الحقائق"**، أو **"ما يبدو حقائق"**.. أحد هذين هو التوصيف السليم.

المقاطع المتنامية كانت كلها تتمحور حول مشهد لكفافيس في سرير احتضاره، في وجود كريستينا، (صديقته اليونانية الشابة)، والسارد. هل

ستتحقق القصة كلها من مشهد واحد طويل؟ فكر كفافيس، ثم شعر أن ألكسندر لو توفرت له مادة مغرية؛ فربما يفكر في تغذية ما كتب بشرايين عديدة. تقريبًا، لم يكن ألكسندر يملك من الشخصيات القريبة لكفافيس سوى حفنة أسماء، وهو ما فسر له اكتفاءه بذلك المثلث في غرفة ضيقة. (سيعرف بعد ذلك أن تقديره خانه بعض الشيء)، شعر كفافيس بالشفقة، وهُيّئ له أنه يرى عجز رفيقه متجسدًا على الوريقات القليلة التي تبدو آمالها في التضخم محدودة. وكان عليه، من مكانه في الخفاء، أن يُسدي لألكسندر سينجوبوليس جميلاً أخيرًا.

هناك أوقات فارغة لدى المريض لم ينتبه لها أحد، أوقات خارج النوم المستسلم ومواعيد الأطباء والزيارات الاحتفالية. يستطيع المريض أن ينزوي؛ ليقرأ المراسلات، وليرد عليها. كل شيء في تلك الفترة أصبح مكرسًا لتغذية اللعبة.

(صار من المعروف تاريخيًا أن قسطنطين كفافيس ترك خطابات وهمية عديدة، مسودات خطابات في الواقع، لعدد من الأشخاص، اكتُشف بعد ذلك أنها كُتبت خصيصًا من أجل الرواية، كما عُثر بين أوراقه، على رسائل وصفحات من مذكرات كتبها أشخاص آخرون، بعضهم امتلك ذات يوم حياة في الواقع والبعض الآخر لم يعش إلا في مخيلته، مكتوبة بخط يده الذي غيَّر منه مرة بعد أخرى).

ترك متعمدًا، بضع خطابات من صديقه الحميم، الكاتب الإنجليزي إي إم فورستر، أرسلها له من لندن. ارتجل ردودًا عليها، مختلفة بالطبع عن تلك التي يرسلها في الواقع، باعتبارها مسودات لما أرسله فعلاً. سرد

فيها ثلاث قصص مرتجلة، كاعترافات أخيرة. كنوع من التمويه؛ جعل كفافيس شخصيات اعترافاته تعيش في أزمنة لم يعرفها ألكسندر، ينتمي أحدثها لسنوات قبل تعرفه إليه، قصته الغريبة مع شاعرة كانت تحبه في بدايات القرن، مصرية، اسمها فُتنة. "هذه الفتاة التي أحبتني فعلاً، عزيزي فورستر، والتي لم أعد أعرف شيئًا عنها. لقد اختفت، لم يعد لها وجود، حتى إنني أفكر أحيانا إن كانت وُجدت ذات يوم. إنني أتذكر إنجليزيتها الركيكة التي كانت تكتب بها القصائد، إلحاحها في المجيء بينما أطفئ شموعي في وجهها وأطردها، والأفدح من ذلك، تلك التمثيليات التي جعلتها بطلة لها في لحظات جنوني واكتئابي. كل ذلك أتذكره الآن وأنا أستحضر تلك السكندرية التي عذبتها، كأنني أنتقم عبرها من المدينة نفسها".

ضبط نفسه متأثرًا، وترك ذلك راحةً بداخله. "اعتبرني أتمرن على كتابة يومياتي التي طلبتها مني مرارًا، لقد طلب مني أصدقاء آخرون ذلك أيضًا، بل لقد ألحوا في الطلب.. لكنني متشكك، هل ثمة شخص يعنيه أن يقرأ جانبًا مما كانته حياتي؟".

الخطاب الثاني، قفز فيه اسم توتو، أو "عبد الفتاح". إنه شخص وجد بالفعل هذه المرة، لكنه سيتحول إلى شخص آخر. "أول شيء جردته منه كان اسمه، حولته لتوتو، رغم تأففه في البداية لأنه رأى فيه تدليلاً يلائم طفلاً. هؤلاء الرجال السكندريون، الفقراء، يمكن أن يتسامحوا في أجسادهم، لكنهم غير قادرين على تخيل خيانة أسمائهم، ثم غيرتُ مهنته أيضًا، حولته من ميكانيكي سيارات لبائع صحف يرتدي جلبابًا نظيفًا،

أي عذاب احتمله ذلك الشخص، فقط من أجل غرور جسدي، خاصة لو علمت أنه لا يجيد القراءة. لقد كان دائمًا بحاجة إلى المال، بحاجة إلى شخص أجنبي".

تذكر كفافيس توتو، لم يتحول أبدًا عن مهنته، ظل غارقًا في شحومه وسلوكه الكلبي حتى غادر حياته، لكنه أراد له فعلاً أن يغير مهنته، لكي لا يشعر كلما تحسسه أنه يتشمم سيارة. يمكن لهذا الحلم أن يتحقق الآن.

قصة ثالثة عن حبه، هو، لكريستينا قسطنطين، "الحب الذي حال جسدي دونه".. "إنها حبي بلا شك، لو قدر لي أن أختار لها مهنة لجعلتها ممرضة.. ملاك نحيف بابتسامة مغتصبة".

"أنت لم تعرف شيئًا عن كل ذلك عزيزي فورستر، ربما وصلتك شذرات، وربما ألمحتُ لك بخجل في بعض الأحيان، كنت دائمًا أعرف أنك ذكي مثلما أنت عطوف على الدوام، وقادر على أن تحتوي بائسًا مثلي بكرم بالغ، لكن كان يجب أن تعرف، لأنك قد تكون الشخص الوحيد الذي يمكن أن أأتمنه على تاريخي، تاريخي السري".

تمنى فعلاً أن يضيف قصصًا جديدة، أن يُشيد وهمًا مكتملاً، لكنه اكتشف بحسرة أنه في كل مرة، ومع كل قصة يختلقها، كان يبتعُد خطوات، باتجاه الواقع.

في الأيام التالية، شاهد وجه ألكسندر المتضرج، بحمرة الأمل التي يعرفها حين ينفتح طريق ظنه صاحبه مغلقًا، ولاحظ، رغم وهنه، أن الأوقات التي يختفي فيها أصبحت تطول تدريجيًا، وأن تبريراته تقلصت، إنه يستذكره، لقد جذبه الفخ.

أدرك كفافيس أن الإلهام عرف طريقه للشاب، الحائر مثل ذبابة في كوب، وانتظر أن يرى ما ستسفر عنه يداه.

5

في واحدة من قصاصاته، وبينما كانا يتأهبان للعودة؛ كتب ألكسندر أنه يفكر بشكل خاص في الديباجة التي سيُصَدِّر بها الرواية، وفصل نهائي (عن رحلة يصحب فيها كفافيس إلى أديرة وادي النطرون، تحت إلحاح من الشاعر، الراغب في كتابة قصيدة نهائية عن الصحراء).

أعجبت هذه الفكرة الأخيرة تحديدًا كفافيس، فبدأ، بواعز منها، فور عودته، يكتب واحدة من قصائده الأخيرة "سراب الوادي"، والتي ستصنف بعد ذلك كواحدة من "القصائد الأخيرة غير المكتملة".

أيقظ ذلك في نفسه، رغم ذلك، خوفًا لن يلبث أن يسيطر عليه، أن تبدأ حياته الواقعية، بمهل، في محاكاة ما طرحه ألكسندر من اقتراحات

لحياته، كإنسان وكشاعر، حتى إنه خشي (للحظات فقط) أن يقرأ الرواية التي سينتهي إليها رفيقه.

"إننا نعرف الكثير عن محاكاة الماضي، لكننا نكاد لا نعرف شيئًا عن محاكاة ما لم يقع بعد.. رغم أن ما مضى لا يختلف كثيرًا عن ما هو قادم، فكلاهما لم يحدث".

عندما يشيخ الشخص - طالما فكر كفافيس - يصبح المستقبل شديد القرب من الحاضر، ملتصقًا به على وجه التقريب، مثل يد تدير وجه ورقة فترى وجهها الآخر، وينام في نقطة، يمكن لعين مجردة، لفرط قربها، أن تراها، وكفافيس، الذي لم يعد يحلم بشيء، كان يريد أن يطالع ماضيه في هذا الكتاب، لكنه، على العكس، سيفاجأ أن قدرًا غير هين من حياته، شُيِّد على مستقبله الواهي.

المخطوط - مثلاً - سيستبق موته الفعلي، مقترحًا أن يموت في المستشفى اليوناني بالإسكندرية، بعد أقل من عام من عودته من أثينا، وهو ما سيظل كفافيس يخشاه إلى أن يحدث.

(هنا، ينبغي أن نذكر الملحوظة التي لا يمكن أن تمر ببساطة، والتي يلخصها ذلك المشهد الدال في لحظات الشاعر الأخيرة، عندما رسم قبل موته بدقائق دائرة وضع في منتصفها نقطة، وكتب بيده المحتضرة "هنا يرقد قسطنطين ب. كفافيس". ذلك المشهد هو بالضبط مشهد النهاية في رواية سينجوبوليس).

ربما بسبب هذا الهاجس، بواعز منه، سيقرر كفافيس، الذي وجد

نفسه فجأة قطعة من حياة متوهمة، تعيش في المستقبل من واقعه الفعلي، أنه يجب أن يطور اللعبة من جديد، بما يُمكنه من أن يستبق هو المخطوط، أن يصير ما في الرواية التي تنمو أوراقها يومًا بعد الآخر، تأريخًا لأوهامه.

شعر في لحظة أنه شيد لألكسندر عددًا من الحيوات، ليس من بينها حياته، لذا؛ قرر أن يكتب يوميات وهمية، تنطوي على رؤيته للمستقبل رغم أنها توهم باستدعاء الماضي.

في لحظة، فكر كفافيس أن حافزه هو العجز. يريد، ببساطة، أن يكون محركًا لحدث. في المستشفى سأله ألكسندر ذات يوم: ألا تفكر في كتابة يومياتك؟ يومها اعتبر السؤال إقرارًا من رفيقه بإفلاسه، بخوائه وأفوله وموته، يعني أنه لم يعد يصلح لكتابة الشعر، فصمت. لم يكن عرف بعد أن السؤال أشد براءة، أشد خبثًا.

كان رفيقه يمنحه الفرصة منذ بداية اللعبة ليمد يده، لكنه رفض.

فكر: "اليوميات، حيلة نريدها معًا"، لكنه أيضًا، وإمعانًا في الحيطة، قرر أن من الأنسب أن يمهد لها، ليس لكي يصدق ألكسندر الكذبة، أو ليبلع الطُعم، لكن ليصدق هو، ليصبح أول فريسة لنفسه.

6

الآن، في ذلك النهار من أكتوبر، وبينما ينزل من الترام في محطة الرمل، دائخًا ومشحوذًا، متمنيًا أن يرى صوته الذي فقده، بحسرة، بعدم تصديق، يقرر كفافيس ألا ينحرفا إلى شارع ليبسوس، أن يستأجر سرًا غرفة في فندق يطل على البحر. يخشى مواجهة أصدقائه بهذه الخسارة. ليس الآن، لا يريد أن يرى نظرات شفقة، لكن الشعور الأكيد، أنه كان محرجًا، هذا هو التوصيف الأقرب للدقة، لقد تجرد من شيء ولا يجب أن يراه أحد على هذا النحو المهين من العري.

بدا ألكسندر محبطًا عندما أخبره، كأنه يأمره، بأنهما لن يتوجها مباشرة إلى الشقة.. مفاجأة لم يستعد لها الشاب المأخوذ، وعليه أن يومئ بالموافقة.

ربما أكثر ما أحبط سينجوبوليس أنهما سيقيمان في غرفة مشتركة، تخلو من مخابئ جيدة يمكنه أن يواري فيها سره، على العكس من شقة شارع ليبسوس، "التي صنعها الله كي يخبئ المرء فيها عورته" كما قال كفافيس ذات يوم. أيضًا، هذه المرة، كفافيس ليس مريضًا طريح الفراش، وبالتالي فإن فرص تسلله ليكتب ستصير ضئيلة، كما أن غياب الأصدقاء وسرية المكان ستجعل منه شخصًا تحت الملاحظة. في الحقيقة، شعر ألكسندر في هذه اللحظات أن مواصلة مشروعه صارت فكرة مستحيلة.

فكر كفافيس في ذلك أيضًا، لن يستطيع أن ينكر، بينه وبين نفسه، لكنه وجد فيه ما يدعم قراره. كان مستثارًا، وفي غرفة الفندق ذات السريرين، بدأ يفكر في أنه سيتمكن في هذه العتمة، مجددًا، من كتابة أشياء يحتاجها ألكسندر، "سيشعر بالضجر، فقط، لساعات قليلة، بعدها سيصبح ممتنًا، عندما تبدأ يومياتي في التسلل إلى يديه".

غادر ألكسندر غرفة الفندق، بعد دقائق من وضع حاجياته، مصطحبًا حقيبته الصغيرة، وظل طيلة اليوم يكتب، على طاولة منزوية في نادي السلطان حسين، وبالتزامن، ظل كفافيس يكتب، يومياته: ذكراه مع أمه، أيامه الغامضة في الآستانة مع جده تاجر الماس وجدته المجذوبة – ولم تكن كذلك– وأول تجربة جسدية مع شاب مسلم يعمل مع جده. يتنقل بخفة، يريد أن يمنح ألكسندر نتفة مفيدة من كل وجبة.

ترك كل شيء مبعثرًا على الطاولة، ونام، وعندما عاد ألكسندر شعر به وهو يسترق النظر بين الكنوز المتناثرة، ويقلب الأوراق بخفة، مثل لص. عندما استيقظ، تظاهر بالهلع لأنه ترك أوراقه مباحة، فجمعها ووضعها

في حقيبة وقذف بها إلى الدولاب، ولم ينس أن يرمق ألكسندر بنظرات متشككة، رد عليها "بالتأكيد لم أطلع على شيء من أوراقك، لماذا أنت فزع؟"، ثم أخبر ألكسندر أنه سيحصل على جولة حتى الفجر، "سأذهب إلى حانة، بعيدة، كي لا أتعثر في أحد. أتحب أن تصطحبني؟". "للأسف أنا متعب للغاية. يجب أن أنام". كتب كفافيس الجملة الأولى، ونطق ألكسندر بالثانية. لم يكن تَعوَّد بعد على هذه الطريقة في الحوار. أن يكتب ما يريد قوله، ليقرأه متلقيه، ثم يجيب شفاهة. بدا له أمرًا يفتقد للإنسانية، ومخجلاً للغاية. هل سيضطر لعمل ذلك مع الجميع؟ بهذه الطريقة سيكتب عددًا من الكلمات يفوق ما كتبه في حياته، سيوجه الإهانة الأعظم لقصائده. بالقلم نفسه، وعلى الأوراق نفسها، سيكتب تفاهات تلفظاته العابرة كما يخلق الشعر. حتى هذه الفكرة، التي أراد أن يقولها لألكسندر، منفعلاً، سيضطر لكتابتها.

سيترك ألكسندر يقرأ ويقرأ، منفردًا، بينما يجوس هو في مدينة الفجر الخالية من المتلصصين.. وسيبدأ ألكسندر، في تلك الليلة من أكتوبر 1932، كتابة أول مسودة مكتملة لروايته.

7

ا

عندما وضع قدمه في الشقة، شعر أنه يدخل مقبرته.

انطلق في سعال حاد، ليس له صوت. بمجرد أن فتح النافذة الكبيرة في غرفة الجلوس، تسلل عصفور، وهنا فقط شعر بحياة دقيقة بدأت تنبض في الهواء الميت. لا يعرف لماذا وجد نفسه يطارده بمرح، رغم أن جسده لا يسعفه للركض، مراقبًا هروبه الفزع حتى اختفى في ركن من البيت.

رأى ألكسندر، لأول مرة منذ عودتهما من أثينا، يبتسم، شعر بها ابتسامة انتصاره عليه بعد أن أصبح الفندق بمرور الأيام كابوسًا حقيقيًا للشاعر، انتهكت خلاله جميع آمال كفافيس في السرية. شوهد ألكسندر في أكثر من مكان، وقابل أكثر من صديق للشاعر. وخلال أيام، كانت غرفته بالفندق قد أصبحت مزارًا. لقد هزمه ألكسندر من جديد (مثيرًا

حنقه هذه المرة كما لم يفعل من قبل، فحتى الخلاق الثرثار الذي كان يزوره في البيت في السنوات الأخيرة، أتى وقضى نصف يوم ظل خلاله متحسرًا ولم يترك مناسبة لم يُذكِّره فيها بأنه أصبح أبكم)، بالمقابل، لا يستطيع كفافيس أن يجزم أنه رأى رفيقه خلال هذه الفترة. ظل الشاعر لائذًا بالغرفة، لا يغادرها حتى ليقطع الخطوات التي تفصله عن قاعة الطعام، وصار صمته مضاعفًا، بينما بدأ يكتشف أن أذنيه أصبحتا أكثر رهافة، حتى إن أقل صوت كان يرعبه.

بدأت فكرة الصدى تستغرقه، وبدأ بالفعل كتابة قصيدة، لم يتعد فيها لأكثر من السطر الأول: "الصدى، ذكرى الصوت القادرة على العودة". كذلك بدأ التفكير في قصيدة عن "انطاكية".

يستيقظ ألكسندر مبكرًا، يتناول فطوره في قاعة الطعام، ويعود قرب الفجر. هو على وجه التقريب ينام ساعتين أو ثلاثًا على الأكثر، ولا يتحرك بدون حقيبته. منذ عودتهما لم يتوقف عن الكتابة، ولم يقرأ كفافيس بالمقابل حرفًا مما يكتب.

ألكسندر لم يعبأ حتى بأن يشرح له سبب تغيره المفاجئ. ترك الجفاء يقوده بلا مبالاة، كأنه انتصر بمولوده الجديد على جميع إخفاقاته السابقة واضطراراته للتبرير.

أيقظ ركضه خلف الطائر الدقيق التراب المتكوم في الأركان وفوق الأثاث، وهو ما أفزع ألكسندر. هذا الشاب النحيل يخشى الغبار، يخشى الشمس، يخشى البحر، إنها الأشياء الأليفة في الإسكندرية، هل سيتمكن من كتابة الإسكندرية؟

8

نحو منتصف ديسمبر، عاد ألكسندر ذات ليلة، مبكرًا على غير عادته، مكتملاً وخاويًا. كان ثملاً، وظل يتحدث طيلة الليل، وفي اليوم التالي مكث في البيت، ثم خرج في المساء، دون أن يحمل حقيبته معه، لأول مرة منذ عادا. هل يكون أكمل الرواية؟

أتم ستة فصول، (من المفترض أن يعود إليها مجددًا، كما تؤكد القصاصات التي تركها بين ثنيات الأوراق، والأشبه بيوميات يفكر فيها في الرواية كما يطرح بعض التأملات الشخصية والآراء الحادة في شخص كفافيس).

أصيب الشاب بفتور مفاجئ، ترك مخطوطه في حقيبته المغلقة والمخبأة في دولابه، وظل في الأيام التالية ينزل في الصباح ويعود آخر الليل، (فقط

في أواخر ديسمبر سيعود للكتابة، لينجز مع مطلع يناير التالي الفصلين الأخيرين، واللذين سينتهي كفافيس من قراءتهما قبل أيام من نقله للمستشفى اليوناني، حيث سيمكث الشهور الثلاثة المتبقية من حياته).

9

أخرج كفافيس الحقيبة، وشعرت أصابعه بثقل حزمة الأوراق، المشدودة إلى بعضها بخيوط واهية، بالطريقة نفسها التي كان يعد بها النسخ المحدوة لقصائد مجمعة كل فترة. قلَّبه بين يديه، لم يضع ألكسندر عنوانًا بعد، لكنه كتب كلمة (رواية) على الصفحة الأولى، بخط صغير، واسمه تحتها بخط أكبر. بالداخل عدد من القصاصات، مدسوسة بين الصفحات، في وريقات مختلفة الأحجام.

في الصفحة الثانية مباشرة؛ واجهه مقطع، مقدمة للرواية، ستجعله يبحث طيلة اليوم، متطيرًا، عن أحد أقلامه الضائعة، قبل أن يستسلم يائسًا.

(بدأت هذه الرواية حياتها بسبب قلم يتحرك متوترًا داخل مؤخرة رجل طاعن.

كيف أكتب ذلك، كيف لي أن أبرر بحيل الفن أن هذه اللحظة، في هشاشتها، دفعتني لأنجز المشروع الأخير، وربما الأول في حياتي؟

إنني أفكر، كلما تقدمت في الكتابة، كيف أن مشهدًا عابرًا، قادرٌ على إيقاظ الشر.

يدخل ألكسندر سينجوبوليس، في العتمة المحكمة لشقة شارع ليبسوس، ليفاجأ بأن قسطنطين كفافيس، عشيقه الصامت، يضاجع قلمه، مبتسمًا، كأنه يموت.. متألمًا، كأنه يولد.. حائرًا، كأنه عثر أخيرًا على طريقة ليكتب.

ينفجر ضحكه بمجرد دخوله.. وهو يصرخ منتشيًا بينما يُدخل القلم في شرجه ويخرجه، إنني أكتب.. أنا أكتب يا ألكسندر.. آآآآآآآآآه.. انظر.. إنني أكتب. يتوجع ويقهقه والحبر يسيل من شرجه مثل ماء داكن لرجل غامض.

إنها رواية كتبتها العتمة، ولا تزال تعمل فيها، وهي بسبب ذلك تخشى الضوء، فقد كُتِبت دائمًا في النور الشحيح لغرف وطرقات وحانات وأقبية.. في هذه الإسكندرية الغاربة على الدوام، حتى في أشد النهارات سطوعًا، رواية تنمو أوراقها فقط في الظلمة، ولا تورق سوى في السر.

إنني أستحضره الآن، وهو يقول لي : "الشعراء يعيشون لكي يصيروا كتبًا، أما أنا فأحيا كمخطوط، أنا مخطوط يا ألكسندر، مهيأ طوال الوقت لكي يُكتَب مرة بعد أخرى.. لا أريد أن أصبح كتابًا، تلك الحياة التامة، ذلك الرضا، ذلك اليقين، ذلك الوجود الذي لا رجعة فيه ولا سبيل إلى إنكاره".

أخشى على هذا المخطوط، فلدي قناعة أن لو شخصًا قرأه قبل أن ينتهي؛ سأصعق وأموت على الفور، أيًا كان المكان الذي أنا فيه.. غير أن رعبي الحقيقي، أن يقرأه هو. لقد كان رهاني الوحيد ألا يكتمل هذا المخطوط إلا بموته.. في اللحظة التي ستوضع فيها النقطة في نهاية السطر الطويل الذي كانته حياته، ستوضع نقطة أخرى في نهاية السطر الطويل الذي كانته هذه الرواية.. لكنني بعد فترة، فكرت أن العكس هو ما يجب أن يحدث، أن تنتهي الرواية فتنتهي حياته، إنها اللعنة التي يجب أن أرعاها إن أردت أن أضيف مخطوطًا يلائم وجه الإسكندرية الشاحب.

سمعت عن مخطوطات ملعونة كثيرة تنام في أقبية هذه المدينة الغامضة، يكفي النطق بأسمائها كي يرتعد الواقف أمامك ويقرأ تلاواته الخاصة ليتحصن، مكتوبة بالعربية واليونانية، بالسريانية والديموطيقية ولغات أخرى لم تعد معروفة. الإسكندرية مدينة يعيش وجهها الحقيقي في الخفاء، كأن حقيقتها الوحيدة دفنت قبل أن تولد، ولا يجب أن يراها النور.. ولا أطمح ليكون هذا المخطوط ملعونًا، فلن يكون من تلك المخطوطات التي تحمل سمًا يتمدد في شرايين القارئ بمجرد أن

يبدأ في مطالعته، ولا هو يتحول لصفحات بيضاء فور أن تفتحه، وليس من المخطوطات التي تتحول كلماتها لدماء غزيرة عند فتحها. لقد قال لي شخص ما ذات يوم إن لا أحد يمكنه أن يحيا في هذه المدينة دون أن يكون لديه ما يكتبه في الخفاء، وقد ألهمتني الفكرة في حينها، غير أني لم أنتبه لها إلا متأخرًا.. عندما رأيت القلم يكتب داخل مؤخرته. إنها لحظة لا توصف، بين الإلهام والألم.. وقد كان علي أن أختار بين الكتابة والقتل في تلك اللحظة، وكعادتي ترددت في اتخاذ القرار بمطالعة دمه.

لم يكن أول ما شعرت به هو الاندهاش أو الحيرة أو حتى الرعب، لكن مرارة حاقدة.

ربما في هذه اللحظة تحديدًا قررت أن أخونه.. مع القلم ذاته.. ذلك القلم الملوث بشرج عشيقي.

أقول... ربما.. غير أن الأكيد أنني في هذه اللحظة قررت أن أكتب، بقلمه هذا نفسه الذي أخفيته عنه بعدها، وسيظل يسأل عنه إلى الأبد).

«ألكسندر سينجوبوليس»



تـــرام

(الفصل الأول من رواية ألكسندر سينجوبوليس)



إبريل 1933

المستشفى اليوناني - الإسكندرية

*أيقظه هدير ترام، بعيد، خافت، لكنه قادر على انتزاعه من منام، من حلم لن يتذكره.

رغم ذلك رفض أن يستيقظ زائغ العينين، كجميع المفقودين هنا، على أسِرَّة المستشفى اليوناني، النعوش المؤقتة لكل من شاخوا في الطريق من بيوتهم.

نهض بيقين أن البحر تسلل إلى غرفته. وجد نفسه يفتح عينيه وقد غمره الملح، وصَدَّق أنه يرى سمكات دائخة تدور حول نفسها بامتداد البلاط، فوق الملاءة، وعلى جسده.. واستطاع أنفه أن يتنسم عبير الجدران البحرية، رغم أن غرفته لا ترى البحر.

يستيقظ، ليواجه هواء الواقع مغادرًا وهم المنام، ويبقى مذهولاً كأنه بُعث في الملاءات.

يظل يهذي بأبيات متداخلة من قصائده، أو يفشي أسرارًا قديمة عن جسده، بلا صوت.. غير أنني، أنا فقط، كان يمكنني أن أتلمس الكلمات التي تنساب في صمته.. أن أرد بوضوح على ثرثراته البكماء التي لم تكن بالنسبة للآخرين أكثر من تمارين خرساء لفمه.

يظنني الأطباء مجنونًا. تلك الآلات الباردة المغطاة بأردية بيضاء

متشابهة، لا تعرف سوى القليل عن العالم. يعتقدون أنهم يملكون المنطق، وأن أجهزتهم يمكن أن تعرف الحقيقة أكثر من أي إله. يوقرونه، يعرفون أنه شاعر، يعاملونه بالاحترام الكافي، لكن بما يليق بميت.

"إنهم أشباح بيض"، هكذا ببساطة كان يطلق عليهم.

كريستينا أيضًا تظنني مجنونًا، تراني أرد على أسئلة لم ينطق بها، أو أتبادل حوارًا مع ارتعاشات شفتيه، وتمتقع.

ا

أول شيء فكر فيه لدى استيقاظه هو الترام، الذي شعر به يعبر بوابة المستشفى ليتجول داخله، وعندما استيقظ، أطل بسرعة عبر نافذته، كأنه سيراه يترنح في الحديقة.

- لقد ركبت الترام مرة واحدة على ما أذكر.. مع العزيز فورستر.. ربما عام 1917.. ذلك العام الذي لا يُنسى!

في شهر احتضاره هذا؛ صارت جميع الأعوام الفائتة لا تُنسى.

كان يحدق، بالنظرة نفسها التي رأيتها في عينيه يوم فقد صوته في المستشفى الأثيني.

- .. لقد بدأ حياته في الإسكندرية في نفس عام ولادتي.. هل تتخيل؟ ظلت خاريكليا تتندر بأنني والترام ولدنا في عام واحد.. لكنه سبقني للحياة بثلاثة أشهر!

أرقبه، بينما أفكر في الأشهر التسعة، منذ عدنا من مستشفى الصليب الأحمر في أثينا وحتى الآن، والتي أحكمت خلالها المدينة حصارها

علينا حتى بتنا أشبه بكائنات تدور حول نفسها وهي تختنق، أسماء مشدودة لبعضها بخيط رفيع، غير أنه شديد المتانة، خيط كالحياة المشتركة أو الموت المشترك.

أشعر كأن حياة كاملة ولدت، وعليها أن تنتهي، في تلك الشهور التسعة بين مستشفيين، بين فقدانه الأكيد لصوته وفقدانه الوشيك لحياته، كأن المدينة بالذات كانت حبلى بنا، وحيث لا يهم كل ما سبق ذلك مثلما لن يكون مهمًا ما سيتلوه.

(الشهور التسعة! إنها عمرنا الحقيقي، عمرنا الوحيد.. وهي تقودنا جميعًا نحو النهاية بأناة.. نحو الموت والجنون وفقدان الطريق).

- أعتقد أنني حلمت من جديد بأثينا.. وقد كنت في المنام أفتش عن صوتي في البحر بعد أن بحثت عنه في كل شبر على اليابسة.

سيظل يسأل نفسه كيف فقد صوته بهذه الصورة، كيف سُلِب منه كأن قاطع طريق جرده منه.. ولأنه، قبل أن يأوي إلى فراشه مباشرة ليلتها، أطلق صرخة.. صرخة مزلزلة، عبرت المستشفى الأثيني لتهز سكون شارع ليبسوس السكندري كله.. فقد تأكد أن صوته فقد أثناء المنام.

4 يوليو 1932.

لقد أدرك قسطنطين في ذلك الصباح البعيد كل شيء وهو يحاول الهمهمة بكلمات فور تأكده من أن صحوه ليس وهمًا جديدًا، كلمات

خرجت منه صامتة، للدرجة التي هز معها صدى سكونها المخيف عظامه.. ثم صرخ بكل وسعه: ألكسندر.. ألكسندر.. غير أن صياحه لم يصلني، ليس لأنه خرج مثل طعنة سكون مدوية.. لكن لأني لم أبت في المستشفى ليلتها.. انسللت من فراشه بخفة، لأودع صوته العالي الذي كان يحكي حياته وكأنه يدافع عن ماضيه أمام كل أشباح الحاضر.. وتسللت على أطراف أصابعي لأغادر جدرانه، كأنني متواطئ بشكل ما مع كائنات أحلامه التي جردته بغتة من النطق.

على سرير ضيق، انتزع الأطباء حنجرته ولم يتمكنوا من إعادتها!

نعم.. كنت آخر شخص سمع صوته، صوته الذي لم يسمعه هو بينما كان في بحر المنام العميق يقاوم الغرق بسرد أشد ذكرياته قدمًا.. يصرخ ويبكي ويتغنج ويطلق صرخات شبق.. لم يكن صوته.. بل كانت قصة حياة صوته، لو جاز لي التعبير، تحضر.. منذ صرخة الولادة.. ثم بكاء الرضيع.. ثم تلونات الصوت الطفل المخنث الذي يعبر المراهقة.. وصولًا لصوته الأخير الحاد الرفيع المنهك، والشاحب، حتى إنه يشبه وجهه.

سمعت صوته منذ ولادته وحتى موته.. عندما تحشرج وبدأ يذوي إلى أن امحى تمامًا.. وعلى الرغم من ذلك لم أصدق أن تلك الانطفاءة ستظل على حالها عندما يستيقظ، ليكتشف أنه لم يعد قادرًا على التفوه إلا بالصمت.

كان يحلم وهو نائم، وتلك هي أغرب حرب يمكن أن يخوضها شخص تعوَّد أن يحلم وهو مستيقظ، وكان ثمة شخص يتلصص على

صور ماضيه، التي انسالت، حية وحرة، مع لعابه، على الوسادة.. قبل أن يجف في الصباح، مودعة عمرًا طويلاً من خزائن الجسد الهش.

لن يتذكر ما حدث في منامه الذي بث في كل الرعب الممكن في هذه الدنيا، بل إن تلك الليلة تحديدًا، ستظل في ذاكرته ليلة بلا أحلام.. وسيظل يندهش طويلاً، كيف اقترن رحيل صوته بغياب أحلامه.. متأكدًا من وجود علاقة ما، وعاجزًا عن الإتيان بشيء.

لم أره يومها وهو يحاول عبثًا البحث عن صوته في ركن، التفتيش عنه تحت الوسادة والملاءة المبعثرة الغارقة في منيه الشائخ.. تحت السرير وبين القصائد المتناثرة على مكتبه، والتي لن تكتب الحياة لأغلبها. بين التعاويذ الطبية الغامضة المشهرة أمام وجهه كمرايا، وفي أصوات جميع من حوله.. إذ أنصت طويلاً، مجددًا، لكل من يملك صوتًا.. ليتأكد أن أحدًا لم يستعر نبرته.

رغم ذلك أستطيع أن أخمن أنه لم يستقبل الأمر بالرعب الذي استقبلته به بعد ساعات قليلة، عندما وجدت في كل ركن بغرفته تقريبًا ورقة كُتبت عليها عبارة واحدة بخط ضخم: لن ينطق قسطنطين ب.كفافيس بعد اليوم.

*كان قد بدأ يغيب في اليقظة، عندما استدار فجأة، مرعوبًا، على كف أليفة وهشة، واحتاج وقتًا ـ كما يحدث في كل مرة ـ كي يتعرف على وجه المرأة التي تشاركه نهارات مرضه.

كريستينا قسطنطين.

لمح في عينيها الدموع المتفق عليها التي كانت تواجهه بها بعد كل مرة يعود فيها سالمًا من نومه. رغم ذلك لم يبد عليه التأثر، كان يتأملها بعينين كبيرتين لطفل، كأنه يتأكد أنه يعرفها.

تنظر له، غير مصدقة، من جديد، أن كل هذا الطفل الذابل عاش طويلاً قبل أن تولد، وأن حياته ربما تكون بالفعل انتهت قبل أن يجيء إلى هنا. تتأمله، كأنها تُنصت لقسماته.

تنظر للورقة الممددة أمامه، عربات ترام مرتجلة رسمها، مستطيلات مشدودة بخيط رفيع، كأنه من حرير، كتب على كل منها اسم.. بينها وجدت اسمها. توردت.

ستسألني بعد ذلك: لماذا لم يكتب اسمك؟ وسأجيب: لا أعرف.

إنه انتصار صغير آخر لامرأة لم تر جسده قبل ذلك سوى في مناماتها. كان قادرًا حتى الآن على أن يمنحها عزاءات رمزية تجعلها ممتنة، ومدينة تجاهه على الدوام، رغم أن الدين في حالته كان دائمًا لا شيء.

ترتدي واحدًا آخر من فساتينها الصباحية الواسعة، التي تضيق

فقط عند الخصر لتكشف أي جسد ذابل كان يتخفى تحت أحجبته. إنها امرأة للصباح فقط، تجيد الاستيقاظ مبكرًا، تمضغ أول الضوء مع فطورها. تختبئ في ملابس فاتحة الألوان طالما لم يهطل الغروب، وتجعل الشمسُ من شعرها المذهب والنمش الكثيف على وجنتيها وصدرها تفاصيل لا تنسى. امرأة نهارات تستيقظ على الدوام مبكرًا لتفكر في الموت تحت الضوء، غير أنها في المساء تتحول لشيء آخر، نقي في تسليمه.. بتنورات داكنة كانت تتفنن في اختيار ألوانها بحيث تبدو ملائمة لأي حداد مفاجئ، بالوجه المجهد لفتاة تستشعر دمًا يسيل من أركانها بينما تجاهد كي تبتسم. كانت كريستينا دائمًا في المساء المرأة التي ماتت بينما تعيش في الوقت نفسه عزاء ممتدًا على غيابها الذي باغتها.

إنها ماء قلق، لكن برِقّة، داخل مستطيل زجاجي هو حياتها. لم تكن كريستينا أبدًا بحرًا. هل تعرف البحر؟ هل رأته؟..

تود أن تسأله، لماذا رسمت هذا الترام؟ ولماذا وضعت اسمي على عربة؟ لكنه بالنسبة لها شخص فقد النطق.. تسألني، كأنها تقدم اعتذارًا متكبرًا لي، كأنها تصدق أنني عندما أبادله الكلام لا أكون أتحدث إلى نفسي، فأشير إليه باستسلام مصطنع، كأنما أعتذر لها وبنفس القدر من التكبر، عن جنوني.

فجأةً يصرخ، يدوي صمته في أذني كريستينا بينما يصلني حشرجةً قادرة على إصابتي بالصمم. يضع كفيه على أذنيه، وتجحظ عيناه.

يزيح صرخة معدنية عن أوردته. صوت الترام يقتله، يطعن جسده.

يتشبث بي، ويبدأ رحلة سقوط بطيئة بينما تتيبس أصابعه على ملابسي.. ثم يقع على الأرض.. وينحسر الفستان عن فخذيه، بعصف، كأنه يتألب على جسده الذي نال منه كي يغادر أحدهما الآخر.

جثمانه على الأرض، ينحل، يفقد الدماء ويزرق.. يبدو كأنه اختفى.. ويتكوم الفستان على نفسه، خاليًا من الجرم الصغير الذي كان يرقد فيه، من العري الذي كان قبل لحظة يأسره.

*يحل الظلام.

تغادر كريستينا، وينام مجددًا، وفي لحظة يتحول المستشفى إلى خواء بارد وصامت. على أية حال أملك صفحات بيضاء كثيرة تحتاج دائمًا لأن تُملأ. أعتقد أنني لو لم أكن أكتب في ذلك المخطوط لجننت.

أخرج إلى الممر متأبطًا حقيبتي، وعلى كرسي خشبي يبدو أقدم ساكن في المستشفى، أضع أوراقي على ساقيَّ لأواصل كتابة الرواية.

أستلقي من جديد، في ضوء الممر الشاحب، والذي كان يستقبل مرة بعد أخرى جثمانًا منبعثًا من غرفة هنا أو هناك. كانت فوضى الغرف المتشابهة تتراص على جانبي الممر وكأنها تتآمر على سكينته، بينما أكتب وأنا أرى الكلمات بالكاد، متداخلة كأن العتمة جعلت الشجار يدب في أوصالها.

ما آخر عبارة كتبتها؟

"عندما تصادق شخصًا في شيخوخته، فإنك في حقيقة الأمر تكسب عدوًا".

ميتات عديدة قطعت حياة هذا المخطوط، وأجبرته صرخات الليل المتكررة على أن يختبئ.. فكل بضعة أيام كان ميت يغادر غرفة ليحل محله ميت قادم. ورغم رعبي الدائم من ذلك الممر الضيق العابق برائحة طبية مركزة، إلا أنه ما لبث أن صار بيت ألفتي الجديد. لقد دلفتُ إلى أغلب الغرف بطريق الخطأ طيلة الأيام الأولى من وجودنا هنا. وفي كل مرة كنت أدير المقبض ببساطة لأفاجأ بشخص آخر غير الذي أتيت

من أجله، وأندهش لثوانٍ، متسائلاً كطفل: كيف تغيرت هيئته هكذا إلى شاب صغير أو امرأة أو رجل في سن النضج؟ قبل أن أكتشف أنني دخلت إلى الحجرة الخطأ. رغم ذلك كانت العيون تستقبلني للوهلة الأولى بترحاب. أي مفاجأة هنا غير الموت هي مفاجأةٌ سارة، ويهيأ لي بينما أعتذر منسحبًا بسرعة، أن الموجودين يتوسلون إليَّ كي لا أغادر. حتى رقم الغرفة كنت أنساه بعد دقائق، مرة بعد أخرى، إلى أن سمحت لنفسي أن أكتب بخط صغير "غرفة قسطنطين" على بابه.

كتبتها بالقلم نفسه، الذي أتأمله الآن مجددًا، وأقشعر قليلاً وأنا أتخيله قضيبًا نحيفا تقبض عليه يدي.

إنه شعور يلازمني على الدوام، حتى إنني أخفي القلم بسرعة كلما مرت ممرضة أو طبيب.

فُتنة، كريستينا، هيليني، كلوديا، ديمتري، توتو، ثيوفيليس. شخصيات من لحم ودم، ومن وهم وخيال.. بالقدر ذاته. ازدحم بها رحم ضيق وبدا لي أنها في هذه الأيام الأخيرة تجاهد كي تولد أخيرًا.. ولو في رواية.

عندما تبدأ بكتابة شخص، تبدأ في التشكك بوجوده.. وبعد قليل تكتشف أن لا وجود حقيقيًا له خارج أوراقك، وقد اكتشف كل منهم فجأة، (بمعزل عن إرادتي في الغالب)، أن وجودهم الوحيد كان في ظلال حياته، أو بين سطور قصائده. حتى فورستر، الذي يبدو أنه ودع الإسكندرية للأبد، ما يزال يبعث برسائل ممتزجة بدموعه.. كتشبثٍ أخير بشبح الصديق الذي رأى في عينيه جميع شوارع المدينة وهي تُفضي إلى لا شيء.. أما خاريكليا، أم قسطنطين المغدورة، فكانت

ترقبه من عالمها البعيد في بيتها الأبدي، كأنما تهدهده وهو في طريقه ليلحق بها تحت الأرض. سأقدم كلاً منهم بالقصيدة التي خرج منها، بالسطور التي رسمته فيها يد الشاعر.

يحيا كل منهم في زمن. غالبًا يعرف كل منهم شخصًا اسمه قسطنطين كفافيس، يختلف تمامًا عن الذي يعرفه الآخر. دوائر من ماء، متباعدة، غير أن وجهه موزع عليها. الآن أراه، يتحرك في كل هذه الأزمنة، في اللحظة نفسها، بملامح الطفل الذي تخشى عليه خاريكليا وتخشاه، بقسمات الشاب الصغير التي علقت بجد توتو، الرجل الأربعيني الذي ذوَّب فُتنة المصرية وقتلها، الشبح الناضج الذي عرفه فورستر، والعجوز الذي يحتضر في عيني هيليني المرعبتين..

أي شخص في كل أزمنة أشباحه يمكن أن يكون هو؟



قسطنطين

صوتُ ترامٍ بعيد، يخدش صمت العطلة.

يعدو إلى الشرفة قادمًا من عمق الشقة.

ديسمبر 1932.

الإسكندرية غريبة اليوم. سماؤها ملبدة، أغلب المحال مغلقة.

هذا يوم أحد إذن. ليس بحاجةٍ لأن يتأكد. في الآحاد يختفي الناس وتُبعث الإسكندرية، تتوارى أنفاسُها من الشوارع لتعود إلى البحر.. تشتعل في البحر، خالقةً الصوت الغريب ذاته لاندلاع النار في الماء.. (ضوضاء لا يدركها أو يدري كنهها سوى من يجيد الإصغاء لصمت المدينة المتوتر)، وتستيقظ المقابر، يتجول الموتى بين جدران الغرفة الساحلية الضيقة.

شَخَص قسطنطين وأغمض عينيه على المدينة.

يباغت ماءٌ باردٌ جبهته، هل هو المطر؟.. المدينة غريقة، تنتظر يدًا تمتد لها.

في هذه اللحظة يشعر بالشتاء يقطن أحشاءه، حتى يهيأ له أنه قد يتقيأ مطرًا، ويدرك، كمن يصغى لنداء غامض، أنه أمام صباح آخر، في زرقة ملاكٍ ساقط.

جميع الأبنية المغسولة، تجردت من ذاكرتها فجأة، وهو يراها تتخفف من أتربة ماضيها دفعة واحدة، وكأنها تتخلص من أشد ساكنيها قدمًا.

لعله يفكر في مشهد أمطار غزيرة تسقط فوق المقابر. تفتنه هذه القصيدة التي لم يكتبها بعد.. تفتنه وتفتنه. تبزغ نباتٌ قليلة هنا وهناك. ينمو كل شيء فجأة: قطعة حياة باذخة وخطرة تسفك هواء الموت الشاحب، خضرة قاتمة تسطع في أفق من التراب والرماد.

في شروده ارتكن إلى حافة الشرفة، (لقد أتى المطر على الزروع القليلة أيضًا، ونبت شبح زهرة، حياة متخيلة)، ثم مال بجذعه أكثر للأمام، وصار أكثر من نصفه في الهواء.

يرتدي فستان أمه ببراءة، فستان السهرة الأسود الذي طالما أحبه، ويطل كأي امرأة تخطو نحو السبعين: بأصباغ ذابت على البشرة.. بشرته الهيلينية التي طالما طلب مني أن أتلمسها لأدرك أي دم يجري تحت جلده الخافت. يطل بدموع امتزجت بالكحل فحفرت طريقين داكنين على الوجنتين المتشققتين.

يتأمل شارع ليبسوس، في ضيقه وخلوه من الناس.

فقط شبح طفل يمسك بيد أمه، لكنه لا ينظر أمامه، بل يتطلع للبيوت، فوق مستوى بصره. يجاهد كي يصل بعينيه إلى أعلى نقطة يمكنه الوصول إليها. الطفل ينظر لأعلى، لشبح في شرفة، لقسطنطين نصف المتجسد، حتى عندما يبتعد، يظل ملتفتًا خلفه، رغم ألم رقبته النحيلة.

ذاهبان إلى الكنيسة؟.. الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية الصغيرة، الضجة الخانقة، المتاخمة لمبنى البطريركية اليونانية، الشاسع والغامض، والشتوي على الدوام حتى في أشد النهارات قيظًا. إنه طقس يلائم الأطفال فقط.

سيبدأ مجددًا طقس الصلاة. سبعة مصلين: خمس نساء متطابقات الملامح، كأنهن توائم.. ورجلان، القس ومساعده. المساعد مع امرأتين يُكوِّنون الجوقة. تتسلل أنغام الأغنيات الكنسية. لا يسمعها الطفل، بل يتوتر أنفه قليلاً، يتنسمها ويغيب في رائحتها الخاصة التي لن تخفت أبدًا حتى عندما يصير شيخًا، يقف في شرفة، يفكر في ترك جسده للهواء، بينما يتذكر أمه ويبتسم.

يعبر ثملون أيضًا، يتمنون أن تصير حيواتهم كالكحول، خفيفة، بثقل مؤقت لا يلبث أن يكشف عن رقته، ومُدوِّخة لكن لا تلبث أن تتطاير.

الشارع يمتد، ضيقًا، شتويًا، بدوائر ماء، متباعدة، مهتزة، تجاهد

كي تلتئم. في هذه الدوائر يتفرق وجهه، ويهتز، لكنه بهذه الطريقة يتأكد أنه ما زال موجودًا. حتى لو جفت واحدة، لو اندثر جانب من الوجه، ستظل جوانب أخرى ترتعش على صفحات الماء.

واحدة جديدة من نوبات جنونه.

يكتشف اليوم من جديد أن له أمًّا، وأن تلك الأم ماتت، منذ لحظات، منذ ثلاثة وأربعين عامًا فحسب.

ينهار على المقعد فجأة، ويشد طرف الثوب على ساقيه العاريتين، اللتين ضمهما إلى بعضهما بخجل عندما اقتربتُ منه، كامرأة تواجه شخصًا غريبًا.

من جديد يعبره صوت الترام، وصليل العجلات..

ظلت خاريكليا تتذكر بسعادة يوم بزغ الترام لأول مرة في الإسكندرية. حرصت على التواجد. رغم أن بطنها كان مثقلاً بي.. كنت في شهري السادس داخل رحمها.. عندما ألحت على بيترجون في اصطحابها لينالا شرف التواجد في أول رحلة لأول عربة ترام تعرفها الإسكندرية.. واندهش الرجل العملي من تطيرها. هي التي ترفض بإصرار جميع الإغراءات لتتحرك بين جنبات المدينة.. الثامن من يناير 1863.. لقد كان حفلاً.. والقليلون كانوا يصدقون ما يحدث.. كانت نزهةً بطيئة في أحشاء كائن متعثر.. ولد توًا ووجد نفسه مضطرًا لعبور المدينة كلها.. قالت خاريكليا: لقد شعرت

أنه مثلنا تمامًا.. يتطلع مندهشًا للشوارع والبيوت وهو يتعرف على المدينة التي أصبح مضطرًا للعيش فيها.. كان حائرًا. مثلنا بالضبط. يبطئ بين الحين والآخر ليلتقط أنفاسه. يتوقف فجأة بصرير مخيف وكأنه فقد القدرة على المواصلة.. ثم يعود بصعوبة ليكمل الرحلة.. بدأت الرحلة قرب محطة السكك الحديدية.. ظللنا ساعات -فيما أذكر- نتأرجح.. نثرثر ونضحك كأننا في حفل غامض.. وعندما حطّ بنا. أخيرًا. في محطة بولكلي. شعرنا أن المدينة نفسها هي من انتهت لا الرحلة..

لم أسأله عن شيء. كنت بالكاد أجاهد لأتحكم في أنفاسي المضطربة، لأنه عندما تأخر في فتح الباب، ظننته مات.

يتحول ضحكه إلى بكاء مفاجئ، ينشج، وتمتد لزوجة من أنفه ليبتلعها فمه، وهو يقرر من بين دموعه بحسم: لن أعيش في هذه المدينة يومًا آخر.

أومأت موافقًا، غير أنني في الحقيقة لم أعبأ.

في هذه اللحظة فقط عرفت أنه بخير، وأنه لن يموت الآن، على الأقل سيظل حيًا إلى الصباح التالي.

إنها كذبته الخالدة، فلن يترك هذه المدينة أبدًا.

أشحت بوجهي بسرعة عن جسده الغائب في فستان امرأة،

كأنني خجلت فجأة أنا الآخر، فقفز واتجه بسرعة إلى الشرفة. ظللت جالسًا، أرقبه، بينما أتأمل الرسوم التي خطها، كلها لامرأة نحيفة وطويلة في فستان سهرة، منحسر عن صدرها، صدرها العاري، صدرها المسطح، والممتلئ بشعيرات متفرقة.

أخرج إلى الشرفة عندما ألمح جسده محنيًا إلى الخارج، قد يفقد اتزانه في أي لحظة ليموت على هذه الهيئة الأنثوية أمام الجميع.

ترتعش شفتاه، أحاول تخمين ما يقوله لنفسه.

هذا يوم الإجازة. لن يتلصص أحدهم عليَّ. وحتى لو رآني أحدهم.. سيظنونني امرأة تربطها بي صلة رحم.. امرأة تشبهني كثيرًا! ربما يعتقدون أنني خاريكليا بالذات..أنا الآن امرأة تتطلع إلى المدينة.. متأنقة في حداد خاص..إنها مدينة أخرى. لم أرها أبدًا بعيني الذَكَر.

عندما اقتربتُ منه ظننته يتأهب ليقفز، ولم يكن ذلك مستبعدًا في أيامه الأخيرة. كان قسطنطين واقفًا على حافة سور الشرفة، وفاردًا ذراعيه كأن الهواء سيأتيه بزائر.

يحلم بأنه يسبح في الهواء، يرى نفسه يحلق في الماء، ويسأل، مجذوبًا، ببراءة، عن فارق حاسم بين الزرقتين.

لقد تركته منذ قليل مقدرًا دموعه المنهمرة، رغم أنني طالما خشيت عليه من هذا العناق المحتمل، عندما يقف في الشرفة، مستقبلاً أشباحه بالذات.

لا يزال غير مصدق أنه فقد صوته. يتحدث بلا انقطاع، تتحرك شفتاه بجنون ولا يخرج منهما سوى لعاب كثيف بعد أن فقد السيطرة على فمه. (أخيرًا أصبح بإمكاني أن أحول كلماته للعبة تخمين، لن يكون مهمًا فيها ماذا يقول، بل ماذا أريده أن يقول، عبودية أخيرة لن يكون بوسعه أن يتحرر منها بكتابة كل ما يريد أن ينطق به).

يهرول للداخل، يقبض على القلم. يفكر أن يكتب شيئًا، لكنه يفشل فيما يبدو.. فالوريقات تنطلق كالسهام من خلف ظهري، تعبرني لتُحلِّق في الهواء القريب، قصائد مبتورة، غير أنها رغم ذلك تحلق ولا تقع.

عُد إلى قصيدتك. التاسعة صباحًا وقت ملائم لقصيدة خالدة. أي هراء ذلك الذي أقوله؟

على أية حال.. التاسعة صباحًا ليس وقت القصائد السيئة. وذلك يكفي.

أريد أن أكتب قصيدة عن الضوء. عن تلك النوافذ التي تعبرها المدينة يوميًا لتستلقي هُنا.

لا تزال تمطر. هشة جدًا تلك الإسكندرية. قليلٌ من الماء قادرٌ على أن يحيلها لغريقة. الشتاء غاضب هذا العام.

بعد ستة أشهر ستكون في السبعين.. ليكن.. القلم يرتعش

قليلاً. يدك صارت واهنة ومترددة. تفكر في قصيدة جديدة عن الوحدة.. أو ربما عن جدك القديم الذي كنت تراه عجوزًا جدًا عندما كان يصغرك ببضعة أعوام. لا.. عن ملابس أمي الداخلية التي لم تفقد بعد رائحة جسدها. عرقها الذي لم يتخلص أبدًا من رائحة اللذة.

يترك القلم ويعود من جديد إلى الشرفة. تسطع الشمس فجأة.

بدلت المدينة ملابسها بسرعة. يغمض عينيه فجأة كي يتقي الضوء الذي داهمه. خائن هذا المطر، مر قبل أن يتأمله بشكل جيد. لا يمنحك الزمن أبدًا فرصة ملائمة للقبض عليه.

هزيمة صغيرة أخرى إذن؟ وما المشكلة؟ لم يكن تَلمُّس بضع قطرات من المطر في صباح شتوي ليضيف شيئًا لسنواتك السبعين. ولم يكن أيضًا ليخصم منها. فلتراقب الشمس إذن قبل أن تغيب بدورها ويحل المساء ثم تتذكرها بحنين.

كلما رأى الشمس همهم لنفسه: قد تكون آخر شمس.. قد لا تستيقظ في الصباح التالي. ربما لهذا لا تشعر بحنين للمساء. لا تشعر بعبوره. لأنك ستعوضه ـ مُضاعفًا ـ في مكان آخر.

يفكر قسطنطين فجأة في الطفل، في الأم. لقد انحرفا عند نهاية الشارع، هاهو مشهد جديد يختفي من وجوده. يضيفهما للحلم المهتز الذي يتسع في إغماض عينيه.

فقط، بهذه الطريقة، سيوجدان إلى الأبد.

كلوديا

(على طبق من ذهب تأتي سالومي
برأس يوحنا المعمدان
إلى السـفـطاني اليوناني الجديد
الذي يخضع بلامبالاة للحب.
"سالومي"، يرد الشاب
"أريدهم أن يأتوا إلي برأسكِ"
وفي اليوم التالي يجيء أحد خدمها راكضًا،
وهو يحمل الرأس الأشقر لحبيبته، على طبق من الذهب).
....

أكتوبر 1932.

يعبر الترام، يُدوِّم هديره داخل نادي مكابي، ويهيأ لكلوديا أن الموائد ترتج.

تلصق وجهها بالزجاج، تود لو تتنفسه.

لو توقف شخصّ على الجانب الآخر للزجاج، وأطل عليها، سيرى وجهها كما لو كان في مرآة مشوهة، أنفها أفطس، عيناها كأنهما تحدقان في ماء، وفمها مزموم بما يلائم فم سمكة. محاكاة ساخرة لوجه آخر، يعجز مرة بعد أخرى في التعرف على نفسه، يفشل في التقاط ما ينطوي عليه من اكتمال: الأنف الدقيق المستقيمُ، الشفتان المكتنزتان لكن ليس إلى الحد الذي يتحول الفم به إلى غلظة، العينان الزرقاوان، لا تريان على البعد.

كأن كلوديا تهوى أن تنتقم من وجهها كلما سقط شخص في براثنه، على الفور، كدين ينبغي تسديده لحظة الحصول عليه.. وقد كان ضحايا هذا الوجه من رجال الصدفة (ونسائها بالأساس) كثيرين على الدوام، خاصة هنا، في مكابي، حيث يصير اليهود أنقياء أكثر، حتى لا يشك أي غريب دخل بطريق الخطأ، أن جميع الجالسين إخوة.

الجميع هنا يهود فقط، حتى لو صرخت بأنها إيطالية، لن يستمع أحد. إذا أرادت أن تعلن عن أوروبيتها فلتقفز من طاولتها وتنطلق

نحو كازينو سان ستيفانو. معها سيارة تثير الحسد، (هل جلبتها من الغناء في الكازينوهات؟ ليست شهيرة بعد، أو بما يكفي، في هذه السن) وسائق أسود (أخشاه وأجزم أنني رأيته في أماكن عديدة وفي أزمنة مختلفة يتقمص أدورًا متنوعة حتى بدأت هي نفسها، الساخرة من هاجسي البدائي، تخشاه).

ينظر لها الرواد باستغراب، لكنها، في توحدها، لا تعبأ.

تفكر أن اليهود في هذه المدينة ليسوا أكثر من جالية ريفية، ثرثارين ومتلصصين وبيوتهم مغلقة على أطعمتها وروائحها ونقائها المفتعل. (الشاعر قال ذلك، أو عبَّر عنه، في قصيدة ما).

تبتعد قليلاً عن الزجاج المغبش، ليس لأن النادل انحنى أمامها فجأة وهو يضع القهوة السوداء على طاولتها، لكن لتطلق جوفها كثيفًا بامتداد صحراء النافذة الشفافة، تظللها بسحابات زفيرها الممطرة، كأنها تريد أن تمنح نافذتها لونًا قادمًا من أعماقها، تمدها بعتمة تفتقدها في هذا الصباح الشتوي، تحَوُل بين أي متلصص وبين قبحها الطارئ الذي صارت تجيد تسويته على مهل.

تفكر أيضًا في أنفاسها. ما الذي تقوى عليه تلك الأنفاس، التي تود لو تتشممها؟ تريد أن تعرف أي رائحة خاصة ينطوي عليها الهواء الذي يغادر أنفها وفمها، يودِّعها في موجات متلاحقة ملايين المرات كل يوم، لتستقبل غيره. عملية استقبال ووداع مجنونة لا يفكر أحد في ألمها، فيما تنطوي عليه من فجيعةِ فقدٍ متلاحق.

ما يحدث كل يوم، يقع وكأنه لا يقع، يُنسى قبل حتى أن يصير ذكرى.

تعتقد أن الهواء الذي يغادرها له رائحة حلوى وقهوة مرة ودخان ونبيذ، لكنه لا يحمل رائحة شخصٍ آخر، رغم أن هواء كثيرين عَبَر رئتيها، تجوَّل بين عظامها، وبالتأكيد خرجت مخلفاته مع أنفاسها.

أنين الترام مرة أخرى، وصدمة الضوء السريعة، الزلزلة والرجفة كأن حياةً تولد فوق هذين القضيبين، بينما يشق الجسدُ المتمددُ الهواءَ كمن يصنع جرحًا في الوجود، فتقًا لابد منه كي يعبر. المصريون يسمونه "الكهربا"، يخشونه مثلما يخشون السيارات والأجانب وكل شيء. تنتفض كلوديا لكن دون أن تفقد ثباتها، وجفة عابرة تعبر قفاها وتزول.

تمد يدها لحقيبتها النائمة، تغوص كفُّها فيها كأنها تشق بئرًا، وتَخرج من عتمة الحيوان الجلدي المعبأة بالروائح بكتيب صغير. **أربع عشرة قصيدة، قسطنطين ب. كفافيس**. كاد الديوان النحيل أن يهترئ، لكن لا بأس، طالما لم تختف الكلمات بعد. تغيب من جديد. تطالع هوامشها، تفكر أن عدد الكلمات التي كتبتها أكثر من عدد الكلمات في الكتاب. لا فراغ، لا بقعة خالية، وقد استبدلت كل ضمائر الشاعر وذواته بـ "أنا"، شطبت بسلاسة ووضعت ذاتها، وبهذه الطريقة اكتشفت، بحسرة، أنها من كان يجب أن يكتب هذه القصائد. كم عامًا صحبها ديوان الشاعر؟ كم انتظرت لتجد للشبح

نفسه كتيبًا جديدًا (صرخت، تقريبًا، وهي تطالعه، لأنها وجدت القصائد الأربع عشرة تحدق فيها من جديد، أضاف لها اثنتي عشرة قصيدة جديدة، أعادت هي الزج بنفسها فيها، أزاحته ووضعت "أنا" جديدة متكررة، وظلت تنتظر، لا تزال تنتظر). يد المراهقة، (يدها مضافًا إليها الزمن) تراها الآن، تستعيد ما فعلت قبل سنوات طويلة، غير أن اليد ظلت تكبر في كتابه، حتى أنها فكرت كثيرًا أن ذلك الكتيب المهترئ هو تاريخها الشخصي المقروء.

عندما اقتربتُ، وصلتني ظلال شبحها الذي يدخن بعصبية، ورِقة.

أرى ظل كلوديا دائمًا قبل أن تتجسد في عيني، أستشعر طيفها الذي بلا أبعاد قبل أن يتوحش في جسدها.

نزعت عينيها من الكتاب، أوقفت يدها التي تبحث عن أي مساحة خالية كي تكتب، كأن حضوري أحبطها فجأة.

تصافحنا ببرود، بتحضر، بابتسامتين ودودتين، وبما يليق بعاشقين مريضين.

تستعد لإعادة لعبة خاسرة، عرض، نهائي هذه المرة كأنه نهاية الحياة نفسها، تجسد دور أمه، والشخص الذي سيؤدي دور قسطنطين كفافيس موجود، رجل محترق، لا جدوى من البحث عن وجهه. (رجلٌ مثل جرحٍ قديم في إصبعها. اسمه ديمتري؟ شاعر غير مكتمل، منبعث من ذكرى؟). وعليَّ أن أساعدها، تريد فستانًا

حقيقيًا لخاريكليا، واحدة من بذلاته، وملابس نوم، شموعًا حقيقية من بيته (لو أمكن)، وقصائد جديدة، لم يقرأها أحد بعد، لا مانع لو كانت غير مكتملة، (مبتورة، مشوهة، مبتسرة).

"لقد كان عشيقًا له، مثلك بالضبط، لكنه احترق، هو أحرقه، لكنه لا يمانع في إعادة اللعبة الآن، بعد ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، أصبح في الخمسين، وأنا في الثامنة والأربعين، أصلح الآن لدور أم أكثر من أي وقت مضى، وفوق ذلك، عوضًا عن جميع الأطفال المحتملين الذين ظلوا محتبسين بداخلي، وهو لن يخسر شيئًا، أصبح يضحك الآن، سأحترق ثانية؟ سأموت؟؟ إنني أنتظر الموت ولا يأتي".

لماذا علي أن أنصاع؟ من أجل امرأة منسية؟ عشيق محترق، كأنه تكفير نهائي؟ لا أعرف، لكنني أغوص في اللعبة، أقدم لها في كل لقاء شيئًا واحدًا من كل ما طلبت، أضمن أن ينتهي اللقاء باتفاق جديد على موعد. لم أقدم لها حتى الآن ما يمكن أن تنظر إليه كصيد، فقط: قلم، مرآة صغيرة، ساعة يد صدئة. أنصاع من أجل قصة صغيرة عنه، أجمع تفاصيلها بأناة من شذرات حكاية محترقة، بالطريقة نفسها التي تجمع بها أشياءه بصبر، محتملةً مكري. في كل مرة تمدني بندفة من القصة مقابل ندفة من أشيائه (مقايضة غير متفق عليها، غير أنها تمضي في إيقاع متفق عليه، كأنما تعرف أنني بحاجة للم شذرات قصة كأشلاء زجاج مكسور).

"يبدو أن بيته يروق لك أكثر مما تصورت".

قالتها حتى قبل أن أجلس. تمنحني رأس موضوع مباشر، لتُوجه الحديث حتى النهاية في النقطة التي اختارتها، وحسمتها قبل أن تغادر البيت، مثلما حسمت تصفيفة شعرها والفستان الذي سترتديه.

"ومن الواضح أيضا أنك تضاجعه كل يوم.. لقد نحلت كثيرًا.. يقولون إنه يمص دم الرجال!".

عفويةً كل من شاخوا قبل موعدهم. كأنني طفلها الذي عليها أن توبخه.

كنت أريد أن أقول لها إن الشيء الوحيد الذي أعرفه، أنني انفصلت عن الواقع، وأن حياتي لن تعود أبدًا كما كانت.

تشعل سيجارة جديدة، بتوتر، رغم ابتسامتها الساخرة التي تجعل فمها يتكوم في ركن.

(طلبت مقابلتي فور عودتنا من أثينا، قالت لي لو كان ديمتري يملك وجهًا الآن لأمكنك أن تعرف مستقبل وجهك، قالت سأريك وجهه القديم في صورة، شريطة أن تعدني ألا تقع في مكانك، قالت إن الشاعر إذن يملك وجهًا يضعه لجميع عشاقه، يمحو به ملامحهم المتمايزة).

تتماسك من جديد. ربما تريد أن تبدو أقل عدوانية.

(في أقل من شهر، التقينا أكثر من خمس مرات، أي ولع؟).

"كيف تبدو الحياة في بيته؟ هل حقًا يعيش في العتمة الآن؟ لم يكن هكذا قبل خمس وعشرين سنة".

تملك أسطورة صغيرة عنه. شاعر، في التاسعة والستين (تجاوزها، الأدق: شاعر في طريقه للسبعين).

"إنه يتحرك، حتى وهو داخل الشقة، كما لو كان مراقبًا من شخص ما، لا يكف عن التلفت حوله."

بحركة لا إرادية تتلفت كلوديا خلفها، وتطل طويلاً عبر الزجاج، ثم تجوس بعينيها في السقف والحوائط. أعرف أن أسوأ ما يمكن أن تتألم به امرأة حرة، أن تشعر أنها مُراقَبة، لكني فقط أردت أن أبرر لها فقرصيدي في كل مرة، **لا أستطيع أن أسرق كل ما تريدين مرة واحدة.**

تحدق كلوديا مرتعبة. ربما تريد أن تسألني إن كنت أقول الحقيقة أم أهذي، غير أنها ربما تشعر بسوقية ذلك.

رأيت أثر شفتيها على الزجاج، قانيتين، مكتملتين، عكس الشفتين اللتين كانتا ترتعشان فوق مبسم السيجارة الرفيع. اسمها أيضًا محفور في ضباب الزجاج الهش، ناصع وجليٌّ كما لم أره على أية ورقة بيضاء، وربما كما لم ينطقه شخص.

كم من الحيوات تركتها كلوديا على السطوح الملساء؟

صمتنا فجأة، وبدا ذلك ملائمًا تماما لمكابي، الذي أشعر فيه أنني في قبو مزدحم بأشخاص مختبئين. لم أر أبدًا في هذا المكان شخصًا مفرود الظهر على كرسيه. كلهم محنيون ومائلون بجذوعهم للأمام، وبمعجزة ما، كان الجميع يتحدثون دون أن يصدر عنهم أي صوت. الأسقف العالية، التي تتدلى منها ثريات كُمِّثرية ثقيلة، تَعِد المتطلع إليها بأمان ما، كأنها اتقت شر السماء للأبد.. والجدران التي تخترقها الأعمدة في بروزات مفاجئة، باللونين البني والأخضر، توحي بألفة عتيقة، صنعها المذاق الباهت للألوان، والذي كان بالنسبة لشخص مشوش أو ثمل كافيًا ليحيل المكان إلى حديقة اقتُلعت شجيراتها وظلت تحتفظ بألوان ذكراها مع ذلك.

يبدو أن الصمت سمح لها باستجماع ما تبغي أن تقول، ونقله بهمس مرتجف لكن متزن، وبصياغة خاصة كانت كلوديا تحرص عليها، حتى إنني أطلقت عليها لقب "المرأة التي تتكلم عوضًا عن أن تكتب".

".. لن يسمح قسطنطين بذلك.. لن يريده.. لكنني سأفعل.. أرى على الدوام ظله حتى إنني لم أعد بحاجة لرؤية جسده.. إنه يبحث عن عشيقه المحترق.. بعد كل تلك الأعوام لا يزال يبحث.. ويثق أنني الشخص الوحيد الذي يعرف طريقه".

يعبر ترام جديد، وتمسك بأجمة شعرها، فتبدو لي مثيرة أكثر.

"عربات الترام هذه في كل زاوية هنا.. حشرات متطفلة..

صفراء وزرقاء.. هذان اللونان المقبضان.. عندما مات أبي نُقِل جثمانه في عربة ترام، تلك السوداء التي كانت تلحق بالترام لنقل الموتى.. بلون أسود، دون أبواب أو نوافذ.. لقد كان ذلك أقسى ما في موته..".

كلما جلست مع كلوديا تبدي تأففها من الترام، وتربطه بجميع متاعبها، كأنه يسير في دماغها.

"إنه مقبرة.. بطيء ومترنح ويترك فيك شعورًا غير مبرر بالإحباط واللامبالاة.. كنت أستقله مع صديقة في مراهقتي بإصرار منها.. كانت تجيد اصطياد السحاقيات من المصريات فيه.. أقف على مبعدة وأراقبها وهي تقترب من فريستها.. ثم تتهامسان.. ونغادره وقد صرنا ثلاثة.. المصريات سخنات لكنهن يفتقرن للنظافة وهناك رائحة ما في أفواههن يستحيل محوها.."

تشرد قليلاً.. في الثامنة والأربعين الآن، لا يمكن لأحد أن يخمن عمرها، وتستعد لإعادة دور وحيد عرفته حياتها.

سأغير هذا المكان.. يهود متطفلون في الداخل وعربات ترام في الخارج تشعرك أنك تهتز معها.. وفوق كل ذلك مشروبات تتأخر في المجيء وتكون في الغالب سيئة وباهظة الثمن.. أي تعذيب أمارسه على نفسي.. لنتقابل في كازينو سان ستيفانو بعد ذلك..".

كلما جلسنا في مكان، تخبرني كلوديا باسم مكان آخر تراه أفضل. رغبة متكررة ظاهرها الضجر وباطنها الإفلات من شخص ما

تتأكد أنه يراقبها، وترى شبحه عبر الزجاج. له ملامح الشاعر، في الأحلام ترى ملاحقته، يريد أن يخطف نسخة ديوانه التي أتلفتها، غاضبًا من سطوها على قصائده بوضع نفسها مكانه، لكنها تركض في كل مرة، فلو نجح في انتزاع كتابه لن يتبق لها شيء، ستموت في مكانها، لكنها في الواقع تعرف أنها لن تستيقظ، لن ينتهي أي شيء بانفراج مفاجئ للعينين.

مرتبكة تمامًا الآن، حتى إنها تشعل سيجارة جديدة وهي ممسكة بالأخرى. عندما رأيتها لآخر مرة كانت تبدو متماسكة، وحدستُ أنها في أفضل أحوالها منذ عرفتها.. لكنها كلوديا.. موجة البحر العاتية التي لا يمكنك التنبؤ بما ستكون عليه بعد دقيقة. تتجول في أرجاء المكان. تستدعي طفولة شاحبة رغم الضوء الساطع لذكراها.

" كنت آتي هنا وأنا طفلة، مع أبي. كان كهربائيًا.. كجميع الإيطاليين في الإسكندرية.." تضحك... "كانوا يطلبونه ليعد الأنوار للحفلات.. يرسله اليهودي فيكتور مالك المحل.. يأتي من المحل في محطة الرمل.. وأحيانًا كان يمر على البيت ليصحبني معه.. أخرج من الأزاريطة فأصير فجأة خارج إيطاليا.. بمجرد أن يدخل هنا يفقد قوته.. يتلقى التوبيخ فقط. لماذا تأخرت؟ هل جئت مشيًا كالعادة؟ ولماذا لم تستقل ترام بـ"نص افرنك"؟ يُصلح النور.. يوصل الأسلاك.. وذات مرة سمح لنا اليهود بأن نتفرج على حفل..

ورأينا المطربين القادمين من أوروبا..".

تمنحني تعريفًا جديدًا لنفسها، كأننا نتقابل لأول مرة. بارعة كلوديا في إيصال رسائل متتالية، مفادها أنني سأبقى شخصًا غريبًا.

لا تستطرد، تتأمل لوحة في ركن.

تبدو محبطة، لكن بوجدان أقرب للتسليم. قصائدها التي تنتظر بعثرة الضمائر، لا تزال بحوزة شخص آخر، لا يملك فضلاً فيها إلا أنه يكتبها.

تنظر في ساعة يدها، تقطب حاجبيها وتنظر إليَّ متسائلة كأنني أملك إجابة عن تساؤل لا يعرفه شخص سواها.

دون مقدمات، ومثلما تفعل كل مرة، تنهض بسرعة، فزعة، وجلة، كأنها تخشى أن تتأخر عن موعد موتها.

فورستر

(ها أنت ذا بسحرك الغامض
يضفي إبداعي على وجهك جمالاً أخاذًا وحالمًا
هكذا تخيلتك، بصورةٍ كاملة
حد أنني، متأخرًا، في الليلة الماضية
وضوء مصباحي يذوي
تَبدَّى لي أني أراك تدخل غرفتي،
بدا لي أنك وقفتَ أمامي هناك،
كما لابد أنك كنت تفعل في الإسكندرية المهزومة،
شاحبًا ومُرهقًا، مثاليًا في حزنك،
تحلم، ما تزال، بأنهم سوف يشفقون عليك،
هؤلاء الأوغاد الذين غمغموا:
يالهم من قياصرةٍ كثيرين للغاية).
....

كأن كل عربات الترام تهدر في روحه الممزقة.

يغـــادر إدوارد مورجان فورســـتر مستشـــفى الصليب الأحمر بالإســـكندرية مجنونًا، قتيلاً.. يترك كل شيء، حتى الرسائل التي صارت ولعه الجديد.

نوفمبر 1917

لقـــد مات محمـــد العدل، الرجـــل الذي يحبه، مســـلولاً. غادر الإسكندرية والدنيا كلها، محصل تذاكر الترام المغدور أسلم أنفاسه وودع كل شيء فجأة.

يجري فورستر، يصطدم برجال ونساء، يتعثر في أطفال فزعين يحملون مظلات صغيرةٍ وبالونات، وتوقظ قدماه كلابًا نائمة تستيقظ لتتبعه في ركضه بنباح مغتاظ. دموعه تغرق وجهه.. تجعل المشاهد في عينيه مشوشة في الماء، ماء اليقظة التي كالحلم، كأنما يصل إلى قاع البئر بنظرة، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل.

صباح ممطر، يهطل في جيوب معطفه بالذات، فيُحكم إغلاقها.. لن تَغرق تذاكر الترام المزدحمة في جيوبه، والتي كتب عليها تذكارات غرامياته مع المصري النحيف الأسمر، ذي الأسنان الصفراء الشاحبة، وعظام الوجه البارزة.. والعضو الذكري المختون، الذي يقارب حجمه وهو نائم حجم انتصابه اليقظ، الضخم بلا أي مبرر يجعل انتماءه لهذا الجسد مقبولاً، والذي طالما تأمله الإنجليزي بذهول، غير مصدق.

ثروة من الوريقات الهشة، يكفي لعابٌ لإغراقها.. لكنها صنعت تاريخه مع العشيق الغامض.. ذلك المصري الذي ظل يتألم. جميع تواريخ اللقاءات مسجلة على الأوجه الخالية للوريقات.. وأحيانا بعض الكلمات الغرامية.. وملاحظات صغيرة، سيكتبها فورستر في الرواية التي يفكر فيها.. والتي حدَّث عنها محمد العدل، آملاً في مشاركة لا يدري كنهها.. غير أن المصري ظل غير مصدق: "تريد أن تكتب رواية عن الهند؟ الهند؟؟ يكررها غير مصدق.. هل ذهبت إلى الهند؟ وأين الهند؟".

جيوبه منتفخة الآن، هذا هو العزاء الوحيد.

يختلط المطر بدموعه، يتذوقه فيستشعر ملوحة بحرية.. وبمجرد أن يبتلعه، يحس بأسماك مدببة الرؤوس تتجول في أمعائه.

يزعجه الماء لأول مرة في حياته، الماء الذي طالما اعتبره عقيدته الخاصة، ضد النار التي يعيش بوسواس قاتل أنها ستلتهمه ذات يوم، وتترك جسده جثة سوداء متفحمة يصعب التعرف عليها.

"كنت أعتقد أنه طالما بقي محمد العدل حيًا. ستظل تلك المدينة محتملة".

في الشارع الترابي الضيق، حيث كان المصري يحيا وسط هبات من الغبار، تمكن أخيرًا من طرق باب بيته. اندهشت الوجوه

السارحة التي فتحت له، أجنبي في زي عسكري، أية كارثة جديدة؟ لكن بكاءه قاده داخل البيت الضيق. أكثر بقليل من حفنة جدران عارية، وصوت قرآن ينبعث من مصدر ما، دون توقف، في شقة مجاورة. يشد على يديه رجل شائخ، بجلباب أبيض، وتقدم له امرأة تخفي وجهها قهوة مرة. يحرك الرجل شفتيه مع الآيات بإتقان حتى يهيأ لفورستر أنها تخرج من فمه، وكل عدة لحظات يخالف نهر التلاوة ليهمهم "إنا لله وإنا إليه راجعون"، أو "الله يرحمه". وفي الوقت نفسه، وبالإخلاص ذاته؛ يهش الذباب الثقيل الذي لم يكف عن الالتصاق بأفواه الجالسين. يسمع أيضًا همهمات نساء في غرفة داخلية، تخترقها فجأة صرخة، تستجيب لها صرخات أخرى.. أصوات لطمات موجعة.. "يا حبيبي".. "يا اخويا".. "يا ابني".. نداءات المصريين الغامضة للغائب، القوية حد أنها أشعرته أنها قد تعيده فجأة. ينهض الأب ويدخل، فتنكتم الأصوات فجأة.. ثم يخرج ليجلس من جديد بين الرجال. يتطلع الجالسون إليه، يودون لو سألوه: من أنت؟ لكن صمت الموت لا يسمح بسؤال زائر عن هويته. رغم ذلك لا يكف الرجل عن توجيه النظرات المرتابة، شعر بها فورستر تخترق مؤخرته. طلب منه عنوان المقابر، ولكنه لم يقو على الذهاب في ذلك اليوم.

مات ودفن قبل أن يعرف. قبل حتى أن ينتظروا عودة أنفاسه في أية لحظة. أية قسوة يواري بها المصريون موتاهم؟

يقف أمام حديقة النزهة، كيف قادته قدماه إلى هنا، حيث جلسا لأول مرة على العشب؟ نسي أن يسأله لماذا كان يحب الحدائق بالذات، وسيقضي عمره المتبقي كله في التخمين اليائس.

لماذا نؤجل الأسئلة البديهية حتى تستحيل أجوبتها؟

في الحانة نصف المعتمة اختار طاولة قصية، ملتصقة بالحائط البعيد، المتاخم للبار. أدار الكرسي بحيث صار ظهره للزبائن، للعالم، بينما ليس في مواجهة وجهه سوى السماء الجيرية المتقشرة للجدار. شعر أخيرًا بقدر من راحة، هنا يستطيع أن يترك لدموعه العنان، أن يتقيأ الماء المالح الذي استنشقه وتجرعه في الرحلة الموحلة من مستشفى الصليب الأحمر حتى هذا المكعب المعتم في العطارين.

اقترب منه اليوناني النحيف.

"لماذا تجلس هنا مستر فورستر.. ليست عادتك!"

تعوَّد أن يجلس في أقرب طاولة للباب. يتوجس دائمًا أن حريقًا سينشب، أنه سيموت محترقًا وسيظل يعدو، كرة مرتعدة من لهب، قبل أن يسقط متفحمًا، ذائبًا في ملابسه. في البارات، في المستشفى، وفي بيته.. يجلس على بُعد سنتيمترات من أقرب باب للخروج.. حتى إذا بدأت رائحة احتراق تتسرب إلى أنفه يعدو بسرعة. يشم تلك الرائحة على الدوام، كأنها تولد في أي هواء يتسلل إليه. كثيرًا ما كان يأتي إلى الحانة ويغادر لو وجد الطاولتين اللتين على جانبي

الباب مشغولتين.. حتى لو كانت جميع الطاولات الأخرى شاغرة. بعد أن تكرر ذلك، لاحظ صاحب البار اليوناني ذلك المتردد الذي لا يجلس إلا بجوار الباب.. وذات يوم تجرأ وسأله بلباقة إن كان ممن يفضلون الجلوس في أماكن بعينها. أجابه فورستر بالإيجاب، لكن باقتضاب كي لا يفتح مساحة ألفة لم يكن يرغب فيها.

من يومها، صار يكفي أن يدخل، لتخلو له طاولة خلال لحظات. ينجح اليوناني في ذلك بلباقة أيًا كانت طبيعة الجالسين أو أعدادهم.

اليوم لن يتحسب لاندلاع حريق، لن تتحرك شعرة من رأسه لو تراقصت جميع ذؤابات اللهب التي يخشاها أمام عينيه المغرورقتين. وحتى لو زحفت النيران من الشقوق كجرذان قاتلة، سيتركها تتمشى إلى أن تصل إليه، تتزلج فوق حذائه الأملس حتى تتعلق بأطراف بنطاله ثم تبدأ تسلق جسده إلى أن تبدأ في التهام وجهه وتتركه جثمانًا متفحمًا في وضعية جلوسه الغريبة، حيث تعود أن يلصق ساقيه ويعقد ذراعيه في جلسة رسمية متحفظة تليق بإنجليزي حقيقي لا تلائمه فوضى أوروبيي البحر المتوسط ونزقهم.

طلب زجاجة نبيذ أحمر. ما إن استقرت أمامه، وتأكد أن أحدًا لن يتلصص عليه، حتى أخرج حفنات تذاكر الترام. بدأ يفرقها كأنها أوراق لعب على أطراف الطاولة، كأن رفاقًا وهميين يشاركونه الجلوس.

تدخُلٌ جديد، انحنى عليه اليوناني وهمس في أذنه كأنما يلقي سرًا.

"ما أخبار السيد كافافيس؟.. ألا تراه؟".

يقولها اليوناني بينما يجوس بعينيه في التذاكر المتفرقة على الطاولة باستغراب، ويفكر فورستر بجدية أن ينهض ويوجه إليه لكمة.

من جديد يمارس تطفله. كلما أتى إلى هنا يباغته اليوناني بالسؤال عن قسطنطين، كأنه صديق مشترك.. رغم أنه لم يأت سوى مرة واحدة بصحبته، لكن الشاعر رغم ذلك صنع ليلةً لا تُنسى. ثمل، وانداح في سرد التاريخ اليوناني.. وقرأ قصائد.. وراود الشاب الصغير نيكوس عن نفسه، على مرأى من الجميع. ليلة كابوسية يتذكرها ذلك اليوناني النحيف الأصلع، الذي يصعب تحديد عمره، بابتسامة وترحاب غير مبررين.

"سأبلغه تحيتك.. أشكرك".

ردٌ محايد وجاف، ينحني الرجل محرجًا بعض الشيء ويستدير على عقبيه بخفة.

رغم ذلك يشعر بامتنان خفي لذلك المتطفل، كيف غاب عنه قسطنطين في وداع احتفالي كهذا؟ إنه البطل المثالي لمثل هذه الأوقات الحالكة. لو توجه إلى بيته بدلاً من كل تلك الخطوات الصبيانية المتعثرة والدموع العاطفية التي لم يكن يحبها، لوجد

عزاء مناسبًا لدى الشبح القاطن في العمى. لقد جرده الموت من الجميع قبل سنوات قليلة، ماتت أمه وإخوته دون أن يحصل حتى على فرصة لالتقاط أنفاسه بين جنازة وأخرى، وبدا دائمًا مُرحبًا بهبات التراب في هواء المقابر الأبيض.

يبدأ في تقليب التذاكر، لكن متطفلاً جديدًا يقترب منه، يسقط ظله على الطاولة قبل أن يسمع فورستر صوته المرتعش الهادئ. يرفع رأسه ليطالع الشاب ذي العينين الحادتين، أبيض مشرب بحمرة بخصلات ذهبية على جبهته، ورغم أنه قصير بعض الشيء، فإنه جميل. نيكوس مجددًا.

"لن أعطلك يا سيدي.. فقط أرجوأن تمنحه هذا".

ومد يده بورقة التقطها فورستر بحنكة ودسها على الفور في جيبه، فقد لمح اليوناني يتلصص على الفتى. انصرف المراهق بسرعة، وشعر فورستر أن هذه علامة جديدة.

لابد أن أتجه إلى بيته. لن يمنحني هذا المكان مساحة للعزاء. ومعي رسالة له أيضًا. حجة غير متوقعة لاقتحامه دون موعد.

يلم الوريقات الصغيرة بسرعة ويوزعها من جديد على جيوبه.

التذكر أفضل. يغمض عينيه، ويقفز في عربة الترام. ويرى: محصل التذاكر الشاب يقترب منه وتلتقي عيناهما لأول مرة. ينزع تذكرة، كأي تذكرة في تلك اللحظة. ويمد بها يده للإنجليزي

المتأنق. يلتقطها فورستر بلمسة عابرة لليد الخشنة المكسوة بالشعر، تبدو غير مقصودة، بينما عيناه تلتهمان الذكر الهادئ المستسلم في الغالب لمصير بائس.

وهو ينهض، يلمح ذؤابة لهب تتراقص، تسير في خيط غير مرئي أسفل قدميه، تمسك بحواف بنطاله.

يدرك فورستر أنه يحترق، ولأول مرة لا يفقد رباط جأشه.



فُتنة

(عندما تسمعين في منتصف الليل فجأة،
فرقة من المغنين، تمر غير مرئية في الطريق،
بموسيقاها الصاخبة،
بصياحها الذي يصم الآذان،
كفي عن أن تندبي حظك الذي ضاع،
وخططي حياتك التي أخفقت،
وآمالك التي أحبطت..
ودّعيها: ودعي الإسكندرية التي ترحل.
استمعي حتى النهاية إلى الأصداء المبتعدة،
واستمتعي بها،
استمتعي بالنغمات الرائعة من الفرقة الخفية التي تمضي إلى الزوال.
ودّعيها،
ودّعي الإسكندرية،
الإسكندرية التي تضيع منك إلى الأبد).

....

في الصباح المبكر؛ رأت فُتنة الإسكندرية كلها، لكنها لم تغمض عينيها.

رأت اسكندرية أخرى، غائبةً في الدنيا، مخدوشةً بالنور.

خلف صفوف البيــوت الضيقة المتلاصقة، التــي تبدو وكأنها تتداعى، تتثاءب المدينة الحقيقية.

الأول من يناير 1907

من شباك الدور الأرضي فكرت في قسطنطين، هناك. فُتنة فكرت أيضًا في الموت، وقد استيقظت بتصالح عذب مع فكرة أنها يجب أن تموت اليوم، أمام عجلات ترام.

تراه من مكانها الواطئ.. في عتمة شارع ليبسوس.. حيث تختلط الروائح الداكنة للنبيذ بصدى صدأ أجراس كنيسة بحفيف أوراق شجر بُنيَّة تقذف بها شجيرات عتيقة تُسوِر مستشفى.

تلك الشقة الجديدة التي استأجرها مخيفة.

عندما تفكر فيه فُتنة وهي جالسة في الشباك، تتطلع رغمًا عنها لأعلى.

بالتأكيد يقف في الشرفة الآن.. رجل في الرابعة والأربعين يتطلع للورقات التي تغادر غرفته محلقةً عبر النافذة العريضة التي فتحها على مصراعيها. بدأت تسبح في السماء القريبة. هذه القصائد

لا تصلح. طالما طيَّرها الهواء واستسلمت، لم تتشبث بمكانها على مكتبه، فهي لا تصلح. سترفرف قليلاً ثم تسقط تباعًا في البحر، تسيل أحبارها لتغيِّر لونه قليلاً دون أن يلحظ أحد.

القصائد القليلة المتبقية سيعيد قراءتها، في ضوء الشموع الخافت، في العتمة التي تؤلم عينيه وتشعل خياله.

هل عبرتها واحدة من أوراقه الآن؟ هل مرت أمام نافذتها فالتقطتها؟ وهل قرأتها أم لم تفعل؟ هل طوتها برفق ودستها بين ثدييها أم تركتها لمصير غامض كصاحبه؟

تفكر فُتنة أن ترتدي ملابسها وتقطع المسافة إليه مشيًا. ستكون رحلة غامضة في مدينة غارقة.. ربما تعجبه قصيدتها هذه المرة. رغم ذلك ترددت، حاولت أن تقنع نفسها أن المشي تحت مثل هذا المطر الذي حول المدينة لوجه ضبابي غائم شيء خطر، ولكنها أدركت على الفور أن ذلك ليس سببًا.

أنا أخشى ذلك الرجل وأحبه.

كل مرة يشعل شمعتين عند مجيئها. يصافحها ببرود أوروبي متحضر يكتب الشعر في الظلام. بعد سطور قليلة من قراءتها يُطفئ الشمعة الأولى. بمجرد أن تنتهي يطفئ الثانية.

تفضلي سيدتي.. أنتِ لستِ شاعرة.

نفثتان خفيضتان تشعر معهما أنه سيبُعث. هذه طريقته في طرد من يصيبونه بالسأم. تضع هي ورقاتها بهدوء في حقيبة يدها وتغادر بابتسامة مغتصبة.

ليس ضروريًا أن أكون شاعرة جيدة.. ولكنني امرأة حقيقية أيها الشاذ.

لا يرد ابتسامتها. إنه حتى لا يصافحها. يبدأ الكتابة في العمى. الضوء موجود رغم ذلك، يختبئ في ركن. فقط عندما تخطو إلى الشارع تسمح لدموعها بمغادرة عينيها. تلعنه، وتقرر ألا تزوره ثانية:

أنتَ مجنون. هيكل عظمي نحيف ومقزز. رجل أبيض ذاهب إلى الزُرقة، لا . لست رجلاً. محض شاذ متأنق.

تعود إليه في النهاية، كأنها عبدته هو بالذات.

من بين فرجات الشيش، يبدو العالمُ شرائحَ مستطيلة من البقايا الممزقة، والمستوية رغم ذلك. تحب أن تراه هكذا قبل أن تفتح الشيش فجأة، كأنها تفاجئ الدنيا، لترى المشهد الكبير، المتماسك، أخيرًا، ولتدرك كذبه، قبل أن تتصالح معه.

وهي جالسة في الشباك، تفكر أن نصف جسدها منخرط في العالم، بينما النصف الثاني في البيت، نصفها في الضوء ونصفها في العتمة، بالضبط مثل مدينتها.

تستيقظ فُتنة، من جديد تستيقظ غير مصدقة، وتراقب شبح أبيها الذي لم ير الدنيا إلا عبر نوافذ الترام. يتحرك في البيت دون أن يحدث صوتًا، دون أن يتسبب في حرج للصمت.

هل تكرر الحلم بالأمس؟

ترى نفسها واقفة في ترام خالٍ تماما، يترنح كأنه يسير بقدمين إحداهما أقصر من الأخرى بسنتيمترات. ورغم أن جميع المقاعد خالية؛ إلا أنها تصر على الوقوف قابضة بيد على العارضة المعدنية وباليد الأخرى تمسك بالنقود. تنتظر مجيء الكمساري بلهفة ولكنه لا يجيء أبدًا. الترام يمر أمام البحر، الكورنيش كله خطوط ترام بينما الناس يمشون في الشوارع الداخلية. ترى فُتنة البحر ويصلها رذاذه من النوافذ المفتوحة. تستغرب مما يحدث فتقرر أخيرًا أن تجلس، وفي هذه اللحظة يكتظ الترام فجأة بالناس، كلهم واقفون، متلاصقون كالسردين.. يتدافعون بصخب ولكن لا أحد منهم يجلس رغم أن المقاعد خالية.. وفجأة تكتشف أن الترام في طريقه للبحر، وتفكر أنها ستغرق فتنظر للناس ولكنها تجدهم منهمكين في همهماتهم العادية، منهم من يطالع جريدة أو يتحدث للواقف بجانبه. لا تعرف لماذا تقرر في هذه اللحظة أن تخُرج مرآة صغيرة لتنظر في وجهها، لكنها تكتشف أن لها شاربًا ولحية، يبدأ الترام في الغوص بينما هي مفزوعة فقط من الشعيرات التي أطِّرت وجهها المدور، ثم تفاجأ بالكمساري، ليس غير قسطنطين في تلك الملابس

الكالحة، يطلب منها النقود بخشونة، بينما يدها التي تحمل النقود صارت في الماء بالفعل وجسدها المائل تفصله لحظات عن الغرق.

رغم فزعها الدائم من هذا المنام؛ فإنها لم تر فيه أبدا كابوسًا، لأنها كانت تستيقظ منه برغبة مضاعفة في الحياة، وتظل تتنفس بعمق، كما كانت تعرف بشكل غامض أن الأشياء السيئة في المنامات لا تعني بالضرورة سوء الطالع. الشيء الوحيد الذي تركه فيها هذا الحلم، وعمَّقه مع كل مرة كان يزورها فيها، هو خوف فريد من نوعه.

تخاف فُتنة من ركوب الترام مجددًا.. تخاف أن تفقد الدهشة الغامضة لو حطت جسدها في الترام مرة أخرى ذات يوم واكتشفت أن المسألة عادية ويومية.. وأن المدينة التي فقدتها أمام عينيها لا تزال موجودة.

الحلم كما هو، حلمها القديم المتكرر نفسه، لكن قسطنطين هذه المرة اقتحمه بعد أن غرق الترام تمامًا. رأته يمشي فوق الماء، باتجاهها، ويمد يده لها. انتشلها ومشى معها قليلاً حتى بلغا الشاطئ، وطلب منها أن تتعرى، بينما يتجرد من ملابسه. فوجئت به فُتنة بمجرد أن أنزلت "الجوب" القصيرة يُلبسها ملابسه ويرتدي ملابسها، قبل أن يتركها ويمضي.

اليوم، استيقظت فُتنة سعيدة، لأول مرة، حتى إنها اتخذت قرارها بالموت بكل التماسك الذي لم تتخيل يومًا أنها تملكه. استدعت

زيارتها له بالأمس، شعرت بغصة، لكنها ابتسمت من جديد.

بالأمس، وقفت أمام بابه، وطرقت.

فتح لها خادمه عبد الفتاح، لماذا يتمسك بهذا العجوز؟ نظرت في وجهه، وشعرت في لحظة بلعاب سخي يزدحم به فمها، بصقة مثالية يستحقها وجه ذلك المتعجرف الصامت، غير أنها أرجأتها. يتحدث إليها بلهجة المصريين، كأنه يذكرها في كل مرة أن مكانها ليس هنا.. بالمقابل تتعالى عليه وترد باقتضاب، بعبارات إنجليزية تجاهد كي تخرج سريعة وواثقة.. لا أفهم شيئًا مما تقول أيها الوضيع..

حدقت حفنة التجاعيد في وجهها، أي عجز يعرفه ذلك الوجه الذي غزته الحفر؟ خادم مترفع. ما الذي فعله في حياته يجعله هكذا؟ كان عشيقه في وقت ما؟ شاركه جسده؟ ثم تحول إلى قواد.. أليس كذلك؟ وماذا بعد؟ استبقاه كخادم. تفكر أن تسأله ليحني رأسه، ولكنها تعبره بسرعة. احتكت بجسده الهش، النحيف حد التقزز، وصارت وحيدة في قلب الصالة، متذوقة اليتم. وجدته جالسًا عند مكتبه. على بعد أمتار. يعيد من جديد كتابة القصيدة التي لم يكتب سواها هذا العام.

لم ينطق عندما رفع رأسه بالكاد كي يراها. لم يبتسم أو يكشر. كان ميتًا.

مدت يدًا مرتجفة لتصافحه، واندهشت، بكل كيانها، عندما زحفت يدٌ حية من الجثمان الجالس لتصافحها. إنه حتى لم يكن يتنفس. لكن هذه اليد نفسها، كأنما عادت للحياة مرة واحدة، أشارت لها بالخروج، بينما لا تزال هي تفكر في الجسد الذي بلا دماء، تلك الدمية الشائخة في الظهيرة.

هكذا، ببساطة، لا يريدها الآن.

وابتسمت. حاولت أن تتماسك، أن تُعبِّر عن حزنها، تعاطفها، بطريقة الأوروبيين الصلبة النبيلة. لن تصرخ رافعةً يديها في الهواء كالندابات المحترفات التي كانت صديقة لعدد من أفضلهن وأشدهن قدرة على تمثيل الحزن ليُشيعن الميت بما يليق به. لكن اليد استوقفتها من جديد. كانت تلوح للخادم بالخروج وليس لها. وابتهجت، رغم أنها تعرف أن انفرادًا من هذا النوع لن يكون سوى نوع جديد من التعذيب، خلقته مخيلته، وظل في انتظارها كي يحوله إلى واقع.

جلست، ضامة ساقيها بخفر. وجهها في الأرض، انتظارًا لسوطه. لكنه عندما اختفى في غرفة نومه وخرج بفستان قصير، كان يحمل مقصًا. اقترب منها بهدوء. التصق بها، واستشعرت جسد رجل مزيف يداعب جثتها. ثم بدأت اليد تعمل، تجردها من شعرها. ظلت جالسة، متماسكة، مستسلمة، عيناها على الأرض، تحدقان في الجبل الداكن الذي يتضخم أمام عينيها.

تتكوم الخصلات، تسقط بترتيب خاص، كأنها تعرف ما يتوجب عليها فعله، حتى إنه عندما ينتهي، تجد أجمة شعر بتصفيفة طالما تمنتها على الأرض، هي تصفيفة شعر أمه. أية معجزة!.. استغرقتها النتيجة النهائية، مثلما يحدث في كل مرة، عندما يتحول الألم، تتجرد الإهانة من جسدها الموحول، لصفاء لا قِبَل لها بنصوعه. تشعر بالرضا لوهلة، عندما تفكر أن الساحر الذي يحيا بداخله لا يتبدى إلا في هذه التمثيليات، بينما يجردها من ذاتها مرة بعد أخرى، بأناة ودأب، يمسح ببساطة حبات عرق تلمع على جبهته، ويعيد خصلة شعر انفلتت فوق جبينه لرفيقاتها في القطيع.

رغم ذلك، تأكدت أنها في هذه اللحظة، فقدت حياتها. تجردت من مظهر أصيل يساوي وجودها.

لقد فقدت شعرها الطويل الكثيف الذي يشارف مؤخرتها، (الذي يخفي عينيها ويجوس حرًا على جبهتها)، لكنها لم تكن تعرف أنه يحوِّلها إلى رجل. أخرج قلمًا، وبدأ يخط شاربًا دقيقًا من الحبر، لينام فوق شفتها العليا. لقد حوَّل جزءًا من الحلم إلى واقع.

ثم جردها من ملابسها، ببطء أثارها غير أنه لم يحرك قسمة في وجهه، كأنه طبيب تعود هذا النمط من العري. في لحظة صارت ترتدي واحدة من بذلاته الإنجليزية، بدت شديدة الضيق على جسدها المكتنز. كانت تجلس ذاهلة في هذا العرس الغامض، بينما هو، في فستان الزفاف، الذي أخفى جسده بداخله، يتطلع إليها.

تلال شعرها المفقود متناثرة على الأرض، لا ترفع عينيها من فوقها، كأنها تطل على بقاياها.. وتبدو على وشك الإغماء، بينما بذلة بيتر جون تطوق جسدها، وتنبعث منها رائحة مخزونة قديمة. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها فستان زفاف خاريكليا نصف العاري.

تفضل الآن أن ترجئ التفكير في ذلك المشهد الأخير معه، لتستحضره قرب النهاية، سيكون ذلك أفضل، كي يمنحها الشجاعة لاتخاذ قرارها.

...

ستغادر فُتنة البيت، وستمشي بمحاذاة خط الترام، طويلاً إلى أن تكل، إلى أن يصبح الموت خطوة مؤجلة، تقع في نقطة غائمة، خلف ظهرها.. وفي لحظة ما، ستقف أمام العربة القادمة، يصعق عينيها برق الكهرباء ورعد العجلات.

ستسقط، مودعةً الإسكندرية، وهي تلعن الشخص الغامض كظل.

عبد الفتاح

(كانت الغرفة فقيرة رخيصة
منزوية في الخفاء، فوق الحانة المشبوهة.
بإمكانك، من النافذة، أن ترى الحارة الضيقة القذرة،
وتسمع أصوات العمال وهم يشربون سعداء
ويلعبون الورق في الطابق الأرضي.
هناك، على السرير العادي الرخيص
امتلكتُ جسد الحبيب
وتلك الشفاه الشهوانية).

....

من جديد، ينتزع عبد الفتاح نسخة من الجرائد التي يتأبطها، ويفردها بسرعة فوق جسد غارق في الدماء، ككفن مؤقت.

يقف ليلحظ تشرُّب الصفحات بالدم حتى تنمحي الكلماتُ تمامًا. ويشعر براحة غريبة، عندما تصير الصفحات (التي تزدحم فيها كلمات لا يتمكن من قراءتها) مجرد ملاءات حمراء وهشة. الجسد مسجى بعد أن انتزع الترام أنفاسه. الناس متحلقون. الجميع يعرفون أن من يموت أمام الترام هو بالتأكيد منتحر. الترام ليس سريعًا مثل القطار، وعبور الشريطين لا يحتاج أكثر من خطوتين، خاصة لو كان الجسد لشاب.

الأول من يناير 1887.

اليوم بداية عام جديد، أكدت بقعة الدم ذلك في وجدان عبد الفتاح المرتبك. العام الجديد يجب أن يبدأ بكارثة، بدم، هكذا تعلم وهكذا سيظل يعتقد. رغم ذلك شعر براحة لأن ذلك تحقق بعيدًا عن جسده. لقد نجاه الله مرة أخرى، هو الذي لم يودع اليوم الأخير في أي عام دون معصية، لكن معصيته هذه المرة كانت أكبر. بالأمس تهاوى على الأريكة ثملاً، متيقنًا أن الله لن يتركه، وأن العام الجديد سيبدأ بموته هو هذه المرة، بعد أن استسلم لإغواء ذلك اليوناني الشاب النحيف والثري، رغم قراره بألا يفعل عشية عام جديد.

ظل يضاجعه طيلة الليل، غارقًا في الكحول وغير مصدق،

واستيقظ قرب الفجر على سماء غريبة وشاحبة، وصوت آذان قادم من مئذنة قريبة يوخزه، تعقبه الآيات القرآنية التي تمهد للفجر، تذكره بالعذاب الأليم.

يقتلع عبد الفتاح نفسه، مستشعرًا قدرًا من طمأنينة.. ها قد عاقب الله شخصًا آخر، جعله يخرج في الصباح المبكر ويفاجئ الترام ليموت كافرًا.

عندما تنمحي الكلمات من الصفحات المدماة، يعود عبدالفتاح للتصالح مع حقيقة أنه لا يجيد القراءة، ومن جديد لا يفهم "الشاعر" الذي يجلس أمام تلال الصحف مأخوذًا، ويضع خطوطًا تحت كلمات بعينها. من جديد يفكر أنه فقد اسمه، أصبح "توتو"، ليس حتى "عبده"، "توتو".. كلمة تثير رجفةً غريبة في بدنه كلما سمعها.

الآن، تجعله هذه الأوراق الكبيرة يشعر أنه أكثر عجزًا، دائمًا تبدت الإسكندرية أمامه مدينة من الكلمات، يتجول فيها. يعجز لذلك عن قراءتها. جميع الأشياء، والأماكن، هي لافتات، حروف أجنبية في الغالب، وعربية في بعض الأحيان، يميز بينها بعينيه فقط.. كما يميز بين أسماء الصحف. يندهش من أنه يميز الأماكن بالأشخاص بينما يعرفها قسطنطين بالأسماء.

ما كنه هذه الصحف؟ (ظل عبد الفتاح مستغربًا منذ بدأ يعمل في هذه المهنة الغريبة) لها رائحة نفاذة، تجبره كل دقائق على تقريب

أنفه ليتشممها. يندهش أيضًا أنها تتجدد كل يوم. إنها معجزة، يوميًا يجلس ناس ويكتبون كل هذه الموضوعات بحروف صغيرة منمنمة ثم يطبعونها وفي الصباح تكون جاهزة. بالتدريج اكتسب قدرًا من الخبرة جعله يتمكن من رفع صوته بالعناوين المهمة، التي يسأل عنها مورد الصحف. وقوع حادثة، خبرًا يهم اليهود، أو اليونانيين. في نهاية اليوم يتوجه إلى مقهى السلام، ليدخن النرجيلة، وبعد ذلك، هناك الحانة، أو الشقة التي فوق الحانة، ودائمًا، في المقهى أو الحانة أو الشقة، أصبح هناك اليوناني الوسيم والضعيف، معطر الجسد، المتواجد في جميع الأوقات.

سيذهب إليه بالصحف بعد قليل، ويتأمل من جديد الشقة الفسيحة الضخمة في شارع شريف باشا النظيف والمغسول، المليئة بالتماثيل والنجف، باللوحات والكتب، وبالناس المشرقين. لكنه قبل كل شيء يتوجه للمقهى. يتمنى ألا يرى "سبيرو"، الأحدب الجالس على الدوام[1] خلف مكتب صغير يدون الحسابات، ولكنه كالعادة يراه، ويشعر بعدم الارتياح.

يغيب عبد الفتاح في دخان النرجيلة، يسمع صخب الماء بين فخذيه فيتذكر البحر. لم يعد يسبح في "ترعة المحمودية" منذ تعرف إلى الشاعر قبل عدة أشهر، في هذا المقهى بالذات. لماذا؟ لا يعرف، ولكنه صار يخشى الغرق في الشهور الأخيرة.

يوجه له الأحدب نظرات مبتسمة، تفتش في جلبابه النظيف ولحيته التي لم يعد يتركها تطول، ويتمنى عبد الفتاح لو نهض ونشب أسنانه في حدبته المقيتة وهشم نظارته التي كان يشعر بالعينين الراقدتين خلفها تتلصصان على سريره. لكن سبيرو هو الذي نهض، اقترب منه دون مقدمات، وسحب كرسيًا، ثم مال على أذنه، "ما أخبار صديقك اليوناني؟".

من جديد يستفزه غير مدرك أنه قادر على حمله وقذفه خارج المقهى ككيس قمامة.

رغم ذلك لم ينفعل عبد الفتاح، أنصت لشروده وأصغى السمع لجلبة الماء مثل عجوز متوحد يجتر ذاكرة ثقيلة. شغل نفسه بالتفكير مرة أخرى في الحادثة التي وقعت قبل قليل، هل ستنشر في صحيفة الغد؟ عرف من همهمة الناس حوله أن الجثة لشاب. بعد دقائق جاءت امرأة تصرخ وتلطم خديها، وأزاحت الجريدة ثم انكبت فوقه على التراب غارقة في أحضان وقبلات مجنونة.. راحت تتمرغ معه وبصعوبة انتزع الناس جرمها السمين من فوقه وهي ملوثة بالدماء، وطلبوا منه جريدة أخرى فشعر بالضيق.

"الكثيرون يموتون هذه الأيام في حوادث طرق وانتحار.. ما الذي يحدث؟".

يضحك سبيرو بشدة حتى يسعل ويبصق سائلاً لزجا على

الأرض، لاحظ عبد الفتاح أنه يحوي بضع نقاط دموية، وأصابته رجفة.

"كثيرون يموتون يا توتو بهذه الطريقة.. المشكلة أنك جديد في المهنة.. ما زلت لا أفهم لماذا تركت إصلاح السيارات واتجهت لبيع الصحف؟؟".

سؤال خبيث من سبيرو، رغم أنه يعرف إجابته خيرًا من عبد الفتاح نفسه.

رغم أن صمته طال، فإن سبيرو لم يتزحزح. لا بأس، دقائق ويغادر تاركًا ذلك القبيح.

لن يكون أحد في بيت اليوناني الآن سوى أمه، المرأة المغرية، التي لا يراها إلا ممسكة بمرآة رائحة غادية، لكنها في هذا الوقت تكون نائمة كما أخبره قسطنطين. كيف يستيقظ الأبناء في ذلك البيت قبل أمهم؟

يطرق الباب. تفتح له الخادمة. تمد يدها لتلتقط الجرائد، وتهم أن تغلق الباب، ولكنه يقول لها إن السيد كفافيس يريده. تغيب في عمق الشقة الرحبة، ترتج مؤخرتها ويظل يتبعها إلى أن تقترب من مؤخرة قسطنطين.

هل سيكرر مع اليونانى ما فعلاه بالأمس؟ لكنهما بالأمس كانا في شقته الفقيرة. الآن يُدخله اليوناني إلى غرفة نوم لها شباك كبير

تتأرجح فوقه ستائر. ينبهر توتو، سرير كبير نظيف، كتب وصحف في كل الأركان، صوت موسيقى، ومرآة ضخمة رأى فيها جسده بالكامل، قبل أن يقترب الأنف المستقيم من شاربه.

يغمض المصري عينيه تمامًا، ويكتشف بينما يخلع جلبابه أن ثمة دمًا على ملابسه.

يفكر: ماذا سيحدث لو قتلته الآن؟



خاريكليا

(لم أعثر عليها ثانيةً
ضاعت بسرعة خاطفة
العينان الشعريتان، وذلك الوجه الشاحب..
في شارع مظلم.
لم أعثر عليها ثانيَةً أبدًا
تلك التي كانت لي بمحض المصادفة، فتخليتُ عنها بسهولةٍ بالغة..
ثم ظللتُ أحترق إليها في عذاب..
عينان شعريتان، وجه شاحب،
وهاتان الشفتان
كل هذا فقدته إلى الأبد..).

....

عربة ترام تجرها الجياد.

يسمع وقع الحوافر الرتيب. تغزوه القوافي الغامضة للدبيب المنتظم.

لا انحرافة. لا مسافة تُخدش صرامتها بين طرقعة وأخرى.

شعره ممشط ومضفور، بأشرطة حريرية ملونة، يغوص في فستان أبيض تنتشر عليه كرات حمراء قانية، كبثور مبهجة. يداه الصغيرتان تتأملان ضفيرتيه الطويلتين وعيناه شاردتان.

سبتمبر 1870.

نعم هو سبتمبر، بأشباحه وغباره.

يتفرج على المدينة التي لم يرها من قبل، وهو يهتز فوق الأرض غير المستوية للشوارع الداخلية التي بدأت تضيق.

جسد أمه ساخن. ساخن ومبلل ومعروق. يلتصق به أكثر. ذاهبان للمصور. ستلتقط صورًا جديدة لنفسها. ستبتسم مرة أخرى للعدسة الكبيرة مثل عين مخيفة.

ترتدي ملابس الحداد. تُعبِّر عن حزنها بترفع. زوجها صار ذكرى قبل أيام. لاح "الشاطبي". هناك يرقد الرجل، في هذه المقابر التي لا يراها.. غير أنه يستشعر وجودها.

يجيد الموت الإعلان عن نفسه.. يبعث برسائل من رماد في الهواء، يُطيِّر الشارات.

في هذه اللحظة فقط تأكد أن الرجل الذي كان يطالعه في البيت بوجه محايد، الرجل الذي تحول في أيامه الأخيرة إلى محض مفلس عصبي، قد مات، وبكى قسطنطين.

كان أشد ضيوف البيت صمتًا، وهمًّا. في الثامنة والخمسين ربما لم يكن مهيأ لثمرة متعة جديدة مع المرأة التي تشيح بوجهها الآن، كي لا ترى دموعه.

امرأة الغرف والمرايا، ترتد الآن إلى طفولتها، لتشيخ فيها، لتزداد جمالاً.

خاريكليا.

استعادت اسمها الآن فقط. لم تجربه في الإسكندرية قط. عشرون عامًا هنا زوجة تحمل اسمًا آخر، امرأة بلافتة لا تشير إليها. عشرون عامًا في الإسكندرية. لا.. بل في البيت وحسب.. بين ثماني أرواح، ثمانية أجساد تجول في الوحشة، وحشتها بالذات. تتخبط في الجدران، جدرانها، تذكارات وحدتها.. مملكة ذكراها الشاسعة، حيث الأيام تعبر كاهتزاز مدية في الصمت.. وحيث تزداد نحافةً، وشحوبًا، وألقًا.

خاريكليا تهبط من العربة. ترفع حواف فستانها بيديها كي لا يلوثها التراب السكندري، تقوده كضرير، فتاها المفضل، والوحيد في الحقيقة.

المصور ذو الشعر الناعم الغزير، الأنيق، النحيف المشدود يُقبِّل يدها بتحضر، بحيوانية. عيناه تلتقطان جسدها. تنظر لقسطنطين. يبرز وجوده في هذه اللحظة فقط لديهما.

"كم عمرها؟". يسأل المصور بإيطالية الجنوبيين، وتجيب الأم: "سيكمل الثامنة في إبريل". يبدي الرجل اندهاشًا من حقيقة أنه ذكر.

يتشبث الطفل بيد أمه أكثر، لكنها تنسل منه، لتغيب المرأة في غرفة مسحورة، مختبئة في عمق المكان المقبض خافت الضوء، ويتبعها الرجل الغامض. ستلتقط صورًا لتخلد لحظات حدادها.

من خلف الستارة تصله الهمهمات، ويعيد خلق المشهد.

ينصت للتأوهات غير المبررة.. للضحكات المبتورة.. لما يشبه صفعات سريعة متلاحقة. يفكر أنها مجرد ستارة، وأن بإمكانه أن يزيحها ليرى وجه أمه وهو يواجه العدسة، غير أنه لا يفعل. تعبره الصفعات والهمهمات واللهاث كقوافٍ جديدة، يبدأ في الإنصات لإيقاعها الخاص حتى يصل إلى معجزة هندسية.. فيكتشف الحركة والسكون، الصمت والكلام.. المسافات الدقيقة بين آهة وأخرى.. بين صفعة وتاليتها.. بين عبارة إيطالية وأخرى يونانية.

أخيرًا يتجرأ ويزيح الستارة دافعًا جسده للداخل. تلتفت نحوه أمه منزعجة، لحظة ارتعاد الضوء. لا تزال بملابسها، والرجل يخبئ ضعف عينيه خلف عدسته، وبينهما مسافة كافية لحماية أي امرأة من أي رجل.

أيهما يصدق، ما رآه في عتمة الستارة أم ما يراه الآن؟

تخرج. لا شيء تغيَّر سوى كبريائها، الذي يراه بعينيه المجردتين، محتشدًا بالكدمات.

يتوجهان للمقابر. يزور مقابر الأسرة للمرة الأولى. ثمة اثنين هنا، رجل كبير وطفلة صغيرة. يتطلع لوجهها، يتعلق بمسحة الحياة التي تجاهد كي لا تتحول إلى تلويحة وداع، ثم ينقل بصره ليخمن عبر الحجر شكل الهيكلين العظميين. يبحث عن دموع. لا يجد، فيتشبث بيدها. يد باردة، بأظافر مطلية. يلمح بالونات بعيدة، دغل ألوان، يسبح في عينيه، يعبرهما كقطيع سحابات. بهجة غير متوقعة. ثمة أطفال في بقعة ما، يمرحون. تقترب البالونات، تبدأ في التقافز بين الشواهد، خفيفة ورشيقة. أخيرًا تستقر بالونة بين يديه. يغيب في جسدها البلوري الهش، ويحكم يديه الصغيرتين على استدارتها المشدودة ولدونة جثمانها.

بدءًا من الآن، وإلى الأبد، لن يكون الموت سوى هذه الخفة، ذلك اللون المزجج.

10

غمرته سعادة، (سعادة غامضة، طفولية)، لأن ألكسندر لم يجرده من الكلام، لا يزال يتكلم حتى بعد أن فقد صوته. يخمن السارد ما يقول، يعيد خلق الأصوات على شفتيه، في المستشفى، في المشاهد التي تعقب عودته من أثينا. "لقد فقدتُ الصوت لكني لم أفقد الكلام"، (بث فيه ذلك أملاً غامضًا، عمّق ضوءًا خافتًا في أعماقه، كأنه انتزع أخيرًا مواساةً خالصةً من عشيقه).

تساءل، وهو يقلب السؤال على أوجهه، (هل يعي ألكسندر ذلك المغزى العميق؟ هل تنبه للفارق الذي شعرتُ به فلسفيًا؟ أم أراد فقط أن ينتصر لإرادة السارد بتعميق عجز قسطنطين، بتخمين ما يقول، باستكناه ما تهمهم به أعماقه، ليصبح كلام قسطنطين هو نفسه وعي السارد

بخطابه؟ هل يريد ألكسندر أن يوصل ذلك المعنى: ليس ما يعرفه بطلي سوى ما أريد له أن يفصح عنه؟.. أو، لم يعد بطلي يملك معرفةً عن نفسه أكبر مما يتوفر لساردي من معرفة؟).

تمنى لو حدث شيء من ذلك المجاز في الواقع، لو استغنى عن الورقة والقلم، لو همهم فاستطاع أي جالس معه أن يقرأ الحروف على شفتيه.

يُقرر أن يُعد لنفسه قهوة. هذه التفصيلة الصغيرة تبدو للوهلة الأولى خادعة، فهي تمثل في الحقيقة خرقًا سافرًا لروتينه.

في ذلك الوقت من اليوم، قرب الغروب، تَعوَّد أن يتناول كأسًا أو اثنتين من البراندي، يستمتع باللهب المفاجئ في حلقه، كنار صغيرة، بينما الشمس تتحرك من ركن النافذة لركنها الآخر، تولد وتموت في الدقيقة نفسها، ويتحول العالم من الضوء إلى العتمة، بألم خفيف لا يكاد يُلحظ، كانتقال سريع إلى الشيخوخة. شمس في نافذة، معجزة، طالما ألهبه ذلك، السماء أيضًا في النافذة، قطعة منها، مؤطرة بحدودها.. يمكنه، إن أراد، أن يقتطعها ويثبتها على الحائط، لوحة حية، وسيبقى هناك، في السماء، مربع فارغ، لكنه الآن يريد أن ينتبه. قد لا تتاح له الفرصة كي يقرأ عبارة واحدة في هذه الرواية مرتين، عليه أن يلتهم الوجبة مرة واحدة، بسرعة وعلى مهل، وبمضغ جيد، وقد أنهى الفصل الأول مشدوهًا، لأنه رأى أمامه لعبة أخرى، تتطلب منه دورًا جديدًا.

بإحباط، لكن بقدر من الاعتداد بالذات في الوقت نفسه، فاجأه تقديم ألكسندر لكل شخصية بقصيدة له، كأن كل شخصية خارجة من قصيدة، تجسيدٌ لقصيدة، "هل ستصير الرواية صراعًا بين أصوات قصائدي؟".

الشاب أزاح بهدوء ما منحه له كفافيس، ربما يستفيد منه، يتكئ عليه، لكنه لن يستسلم لسلطة إله يحركه في الخفاء. كأنه بعث إليه برسالة تنقض لعبته: "ما سأستعين به عليك، شيء أكثر تجسدًا من حياتك، شِعرك نفسه".

رغم ذلك، لم يُفوِّت كفافيس فرصة مواتية لتكدير نفسه، فرغم كل شيء، أشعرته البنية التي اختارها ألكسندر للرواية أن حياته الواقعية معرضة لقدر من الخطر، (قابلة للتصديق، هذا أول ما جال بذهنه وأربكه، لأنه ظل يدخر حياته ذاتها بعيدًا عن كل ما تمثله كلمة ظهيرة مما يدل على النور) فبسبب من التصدير، تلك الديباجة الاعترافية، المذيلة بتوقيع المؤلف الواقعي، بدا خيط المستشفى اليوناني امتدادًا للتصدير، مشبعًا بالروح البسيطة لكاتب يوميات، يتحدث فيه ألكسندر الواقعي، عن كفافيس الواقعي، قبل أن يحيل للفصول المعنونة بأسماء لشخصيات، والتي يحضر فيها ألكسندر المتخيل، ليروي عن كفافيس المتخيل.

أخطر ما شعر به كفافيس، إحساسه بأنه، هو قسطنطين كفافيس وليس غيره، مستعد لأن يُصدَق أنه يجهل ذاته.

(لم يمنعه ذلك من تسجيل ملحوظة كاد أن ينساها، عن حضور الشخصيات من الأحدث للأقدم، بحيث يبدو الزمن وكأنه يعود للخلف بالتقدم في الرواية، وفكر الشاعر أن هذا يلائم فكرة يعمقها الترام، إذا جلس المرء عكس اتجاه سيره، تحدٍ ناجح للجاذبية في أشد صورها أرضية وابتذالاً، لكنه تشكك في أن يكون هذا المستوى المجازي قد علق بذهن ألكسندر أو استفز يده).

مطَّ شفتيه ليحصل على رشفة جديدة مُرَّة من السائل الداكن. مع كل رشفة تبدو القهوة أشد مرارة، حرب جديدة عليه أن يحتمل غرابتها.

هل يمكن أن تكون تلك لحظات نهايتي؟ تأرق قسطنطين كفافيس، الذي ضبط نفسه متلبسًا في التورط مع ما يقرأ، كأن الأوراق تكشف طالعه. انسحب فضوله الذي ظل بريئًا وهو يقوده ليتنزه بين السطور المبتسرة والمقاطع المبتورة والمخططات المهوشة التي قرأها مستمتعًا في أثينا، وحل محله ارتياب، شعر به قدريًا، لأنه يلائم وجوده في الإسكندرية، التي يعرف المقربون منه أنه أطلق عليها اسم "مدينة الريبة"، وحيث يقرأ مسودة رواية مكتملة، أو في طريقها للاكتمال. بعودة ألكسندر للإسكندرية، لم يعد رجل النوايا الذي تلصص عليه في عاصمة أخرى، بل شخصًا يعمل بمعزل عن حياته نفسها، وكأنه نجح أخيرًا في تقويضها بالعثور على صيغة لكتابتها.

هو يعرف أن اللعبة ليست بالصعبة، غالبًا، لو أصابته انتكاسة، سيُنقل إلى المستشفى اليوناني، وقد يموت فيه، ولا شيء يمنع من زيارات الشابة اليونانية الصغيرة كريستينا قسطنطين، (التي تبدو فيما كتبه صديقه أكثر نضجًا وتجهمًا). لن يصر ألكسندر في هذه الحالة على التأكيد بأنه كان يتنبأ، يستبق، يخرق الحجب، لن ينقذه عندما يحتاج منه فقط أن يقر بما حدث.

يكتب " لو حدث ومت فعلاً في المستشفى اليوناني، سيفسَد شيءٌ ما في هذه الرواية، سيصير قدر غير هين مما كُتِب مستمدًا من واقعة، كثيرون

لن يفكروا في أن الواقعة هي التي حاكت النبوءة المكتوبة، وبالتالي لن يصدق الجميع أن ماكتبه ألكسندر هو رواية داخل الرواية، كي يوهم فقط بتباين بين الحقيقة التي لا وجود لها والخيال الذي قد يصير أفدح من الواقع في تجسده"، لكنه طرح أيضًا تساؤلاً: "هل صرت تخشى الفن؟".

(يحاول أن يلهي نفسه بحفنة انتصارات صغيرة لإرادته، لدوره الملحوظ في اللعبة، يفكر في فُتنة وفورستر وتوتو، يشعر بالرضا لأن أمه خاريكليا موجودة، لأن قدرًا من يومياته يعبر عن نفسه في مقتبسات بين أقواس. لم يتعرف على كلوديا التي كتبها في قصيدة قديمة.. لكنه، بعد انهماك سريع كزفرة على حائط، يعود لدفتر ملاحظاته).

سأل نفسه مجددًا: "ألم تكن بذلك تمنحه فرصة لمضاعفة الإيهام بالواقع؟ لقد كنت منهمكًا، بقلمك بالذات، في تعميق ما صرت تخشاه الآن".

"تخشاه!".. عاد يكتب.. "ما الذي تخشاه؟ سوء السمعة؟! أم الكذب؟ هل حقًا تخاف الكذب؟ هل لك سمعة حسنة، قشرة براقة يجري تلميعها كل صباح بخرقة أخلاقية، يرعبك أن تُمَس، كرجال البورصة في الصالونات؟؟ وما الصدق الذي يمكن كتابته؟ الصدق الفني؟؟ هل حقًا ترغب في ذلك؟ هل تصدق الآن أن هناك ما يُسمَّى بذلك؟؟".

أقنع كفافيس نفسه، أن هناك شرًا يطهوه صديقه على مهل، في أوراقه، أن ذلك ما أرقه، وليس أيٌ من تلك المخاوف الأخلاقية، لكنه كان يعرف، بينه وبين نفسه، أنه يكذب.

"وهل ثمة كتابة خالية من الشر؟" تذكر كفافيس فجأة، بوخزة ضمير

خفيفة، كتابًا وهميًا، نصح ألكسندر منذ عدة سنوات بقراءته. طلب منه في البداية أن يفتش عنه في مكتبته، "أعتقد أني أمتلك منه ثلاث نسخ"، لكن ألكسندر بالقطع لم يجده. لو قال له كفافيس إنه يملك نسخة واحدة منه لمر الأمر بسلام، لكن الكتاب، بنسخه الثلاث، اختفى، إنه لغز.

سيبدأ ألكسندر رحلة مجهدة بين المكتبات للعثور على الكتاب. المؤلف قس سكندري، اقترح له كفافيس اسم "ثيوفيليس"، طردته البطريركية اليونانية الأرثوذوكسية بالإسكندرية لانحرافه، بعد أن انتشرت شائعات قوية، هزت الجالية اليونانية، بأنه ينتهك الأطفال.. لكنه فيلسوف، فيلسوف بالطبع ولا يمكن أن يكون أقل من ذلك، كتب "مدخل جديد للأبيقورية"، كتاب مهم، يندر العثور على نسخة منه، رغم تعدد طبعاته، فالبطريركية تنشر على الفور رجالها الذين يشترون جميع النسخ فور طرحها ويحرقونها. يضحك كفافيس. لقد عاد ألكسندر ذات يوم مؤكدًا أنه عثر على نسخة من الكتاب لكن صديقًا استعارها منه فور أن رآها بين يديه ليقرأها أولا. لماذا كذب ألكسندر يومها؟ لماذا جعله الإخفاق في العثور على الكتاب يشعر بالخجل ويضطر للكذب؟. يفكر كفافيس: لكي ينتصر على شري. بالطبع تأكد الشاب أن لا وجود لهذا الكتاب، فقرر أن يواجهني بالكذب.

"وأنا أيضا علي الآن أن أفعل ذلك".

11

الفكرة الأنانية التي سيطرت على كفافيس، بدءًا من هذه اللحظة، لم تعد اللعب فقط. لقد تمنى أن يمحو سنوات رفيقه هذا من تاريخه. "إذا كان هو يريد تحويل حياتي إلى رواية، مدعومة بالتأكيد بعلاقته بي؛ فهل بإمكاني أن أجعل حياته نفسها كأنما لم توجد؟".

أقنع نفسه أن ذلك قد يغذي ألق الرواية نفسها، إذا ما قُدر لها أن ترى النور ذات يوم.

أحس بسعادة هشة، ذابت في فمه، بسبب ما انطوت عليه الفكرة رغم هشاشتها. يعرف أن محو سينجوبوليس ليس بالشيء السهل، شاهده أصدقاء عديدون هنا في الإسكندرية بصحبته، لسنوات، وأجرى في أثينا عدة مقابلات صحفية عوضًا عن الشاعر، باعتباره المسئول عن أعماله في

المستقبل، أي: بعد موته.. لكنه تذكر أن العشيق أيضًا ظل محاطًا بغموض مُعتبر. عندما يستقبل شخصًا في شقة شارع ليبسوس، كان يطلب من ألكسندر، بلباقة لكن بحسم، أن يتركه وحيدًا مع ضيفه، ليس احتقارًا أو تقليلاً من شأنه، لكن لأن وجوده لن تكون له إلا صفة من اثنتين: عشيق أو خادم.. وفي جميع المرات التي تواجد معه فيها في أماكن عامة وبين أصدقاء ومعارف، كان يظل صامتًا، لا يتحدث إلا ليرد على سؤال عابر باقتضاب أو ليعلق على خبر بكلمات معدودة، ما ضاعف من غموضه.

فكر فجأة كيف أن ألكسندر ينطوي، بالقوة نفسها، على مقومات وجوده ومحوه، وأن ذلك الالتباس، على وجه التحديد، هو المنطقة الذهبية التي يمكنه أن يعيد حرثها، بخيال الشاعر بالذات.

وهكذا، سيصير شغله الشاغل في الشهور المتبقية من حياته، أن يجعل من ألكسندر شخصًا يستعصي على التوصيف. "العشيق؟ إنه خادم!.."، "إنه ابن لأحد أصدقاء "أريستيدس" شقيقي الأكبر، نعم رجل البورصة المهاب، كنت أساعده ببعض المال وأسمح له بالمبيت في بعض الأيام بعد أن انحدرت به الحال".. "ألكسندر سينجوبوليس.. ألكسندر سي.. نجو.. بوو.. ليس.. أووه.. شاعر صغير كان يقلد قصائدي.. إنه أحد إخفاقاتي.. لقد فشلت جميع نصائحي معه!.."، "قدم نفسه لي باعتباره أكاديميًا وناقدًا.. يعد لأطروحة في سالونيك..".

لن يتوانى عن أن يرسل لفورستر خطابات متتالية يؤكد فيها، بين السطور، وبعفوية، أن "خادمي الشاب اليوناني الفضولي، والذي جلبته

لأتخلص من إزعاج المصريين وجشعهم، صار شخصًا غريبًا، يريد يا عزيزي أن يكتب الشعر.. تخيل!".

وفي أيام مقبلة، مع أشخاص آخرين، أقل حميمية، يسهل الكذب عليهم، لن يتذكر بالأساس الاسم، "لا أعرفه.. أعتقد أن المقصود ألكسندر آخر.."، سيفشل في العثور على ملامحه لدى تذكيره بها، سيظل حائرًا، وسيؤكد: لم يشاركني أحد الحياة في هذا البيت منذ قطنته.

شموع

(الفصل الثاني)

.. لا أريد أن أنظر إليها فيتملكني الرعب
عندما أرى الصفَّ المظلمَ يمتد
والشموعَ المطفأة يتزايد عددها...



*بعد أيام سيحل عيد ميلاده السبعون. تستعد له كريستينا بطقوسية، متمنيةً شيئًا واحدًا: ألا يموت في ذلك اليوم.

تعيش أجواء احتفالية بين جدران المستشفى البيضاء، لا يفهمها أحد.

تستعد لحفل، تلهمها صورة الشاعر العاجز الذي يحتفل بيوم مولده على سرير مرضه، بينما يتحلق أصدقاؤه حوله كإكليل يطبق على وردة.

تبحث عن أرقام أصدقائه وعناوينهم، حتى القدامى منهم، وتفكر في استقدام البعض من المدن البعيدة.. أثينا، لندن، روما. ستكون مفاجأة سارة. لعلها اتفقت من الآن على الحلوى مع "ديليس".. كتبت في ورقة صغيرة الأصناف الأساسية التي ستستقدمها. فضلاً عن الكعكة المعدة خصيصًا، سيكون هناك "فينيكيا" و"لوكوماديس" و"انجليش كيك".. ولعل "كليوفولوس موستاكاس" يعد من الآن تلك المأدبة الخاصة. في الورقة نفسها كتبت كريستينا الأصناف الأخرى التي ستأتي من "بودرو"، "الفلوجيريس" و"الجيليكو كيراسي" و"الإكيميك أتايف" التركية.

تفكر أيضًا في القصائد التي يمكن أن تُلقىَ من المتحلقين حول سريره.. ليقرأ كل واحد قصيدة يحبها، قصيدة تشبهه. إنها أفكار كريستينا التي طالما أدهشته بعفويتها الساذجة. مراهقة تبحث عن السعادة لأول مرة، وبأسهل الطرق وأشدها مألوفية.

ـ فتاة مثل تلك، بهذا الإخلاص، لا يمكن أن تكون صديقة لشاعر، فما بالك لو كان هذا الشاعر أنا؟

هكذا كان يؤكد دائمًا، وكأن كريستينا تستقبل الحياة عبر وداعه هو لها بالذات.

لو كان في وضعية أخرى، لكان الاحتفال في إيليت، بيتها الحقيقي. هل كان سيقبل؟ أم كان سيهرب مثلما فعل كثيرًا؟ يختفي فجأة، كأن يوم مولده يُفقده قدرته على التجسد، ليَفنى مؤقتًا، كأنه يذكره بيتم بعيد، كأنه خيانة ما عليه أن يحتفي مرة بعد أخرى بذكراها. يرمي بجثته في أي شقة فقيرة، مع رجل اتفق معه مصادفة ورضي أن يقامر بحياته في أحضانه.

ربما كان هنا، في أَسره، (في متناول اليد أخيرًا)، مجبرًا على أن يستسلم لخططها.

في الطريق إلى المستشفى، تقطع كريستينا شوارع خوفها، متجرئةً كما لم تكن ذات يوم، ومتطلعةً للمدينة كما لم تتوقع أبدًا وكما لم تحب. لا بد أن تأتي في كل يوم بهدية، مفاجأة صغيرة من مفاجآتها، شموع تفوح منها رائحة عطر بمجرد إشعالها، كتاب جديد لن يمهله الوقت ليقرأه، أنتيكات دقيقة الحجم لكنها مصنوعة بإتقان، منها تمثال صغير لعازف وجهه نسخة من وجه المريض، وهو ما جعلها تتطيّر سعادة ورعبًا.. وأحيانًا حلوى وأطعمة يونانية وإنجليزية ثقيلة ممنوع دخولها هنا، غير أنها كانت تتمكن من تهريبها دون أن نعرف كيف.

كل ليلة، تغادر كريستينا المستشفى اليوناني وعلى قلبها عبء هدية اليوم التالي. أصحبها حتى بوابة المستشفى، وترفض بحسم أن أسير

معها خطوة أخرى.. رغم العتمة وأشباح المدينة المخيفة التي تلتقطها عيناها المرهفتان، والمفتوحتان على الفجيعة. لا تنام تقريبًا بينما تقتلها الأفكار عما يجب أن تفصح عنه يداها المخبأتان خلف ظهرها في الغد. وكعادتها، تهاجمها أفكار وسواسية عن الهدية الأخيرة التي ستدخل بها إلى غرفته لتفاجأ أنه لن يراها. ستظل هديةً مخبأة في يديها المعقودتين خلف ظهرها، وستسأل نفسها، بالندم الذي تتقنه، إن كان يتوجب عليها أن تأتي بها مبكرًا، أن تغير ترتيبها في جدول الهدايا، بحيث يلحق الجماد بحياته، لأنها ستتبدى لها في هذه اللحظة الهدية الأقيم، الهدية التي كانت قادرة على تمديد أنفاسه يومًا آخر على الأقل.

تتأمله وقد صار أخيرًا طفلها المفقود، الذي تحاول عبثًا استعادته من بين الأغطية الشاحبة التي تبدو أكفانًا مُبيَّتة.. طفلاً منبوذًا شاخ فجأة في مدينة مجافية لكليهما، وقد خاض جميع الحروب المنهكة التي كان في وسعه أن يموت فيها واحدة بعد أخرى، قبل أن يعود للحياة في كل مرة فاقدًا شيئًا ما، لن يعوضه.

تقول لي: ماذا عليه أن يخسر هذه المرة؟

ورغم أن الإجابة البديهية هي: الحياة.. فإن ردًا كهذا لم يكن ليلائم سؤالاً شاعريًا من مراهقة تعلمت للتو طرح الأسئلة. أصمت، وأدير وجهي نحوه لتنظر هي الأخرى باتجاهه. كنت أتحاشى أسئلة كريستينا مثلما أتحاشى عينيها المرخيتين دائما كأنها على وشك أن تنام.

يتأمل وجهه، ويطلب مرآة بسرعة، ليتحسس شيخوخته ببقايا أصابعه.

(وجهه، مثل حائط تقشر طلاؤه، وقد ارتد إلى لون قديم، مموه، حتى لم يعد التعرف إليه ممكنًا، وهو، بيد طفل، يبدو مشغولا بنزع ما تبقى من طلاء تَحوَّل إلى قطع متيبسة تغري بتفتيتها).

كأنه اطمأن أخيرًا إلى أنه لم يفقد وجهه في المنام الذي ظنه بلا عودة. تقترب منه كريستينا بشغف، وتنظر معه في المرآة مبتسمة، كأن صورة ستلتقط لهما معا. يلهيه ذلك للحظات. يدعوه وجهها الذي زاحمه في عزلة مرآته لتأملٍ ما. عظمتا الوجنتين البارزتين، مثل مسندين مجافيين كما وقرت صورتهما في وجدانه.. وحبات النمش البنية المنثورة على جانبي أنفها الدقيق، أنفها النحيل، بثقبين ضيقين أوحيا له دائمًا أنها تعجز عن استقبال الهواء الكافي لتنفسها. كأن السكينة عاودته لأنه عندما استيقظ وجد على الفور وجهًا لا يزال يحتفظ بنفسه.

يمد يده ليلتقط نظارته. يثبتها فوق أنفه، مغمضًا عينيه قليلاً ليتعوَّد النصوع المباغت للمشاهد أمام حدقتيه، ويفرد للخلف خصلات شعره التي التصقت بجبهته، وأخيرًا يبتسم.

قال لي دائمًا: الجميع في الإسكندرية يرتدون أقنعة.. لا يمكنك أن ترى شخصًا يرتدي وجهه الحقيقي.

كنت أعتبرها واحدة من تلك العبارات الرمزية، التي يسهل فضها، ولا مانع من دعمها بحس أخلاقي، حيث يكذب الجميع، وحيث يتعامل الجميع مع كذبهم كخط دفاع يومي، بالضبط مثلما يداري الناس عريهم بألفة كأن الملابس جلودهم الوحيدة المتفق عليها.

بدا مولعًا بذلك، حتى إنني تأكدت أنه يقصد شيئًا آخر، ممتدحًا

تلك القدرة العفوية على أن يكون كل شخص، في لحظة ما، شخصًا آخر.. ببراءة الأناس الذين لم يقرؤوا الكتب، وإن فعلوا، فلن يفهموها.

لقد ظل مفتونًا، كلما عبر شارعًا أو ألقى بجسده في مقهي، بأنه في كل مرة يرى القامات نفسها لكن برؤوس أخرى. الأفواه، تختلف، لكنها تنطق باللغات ذاتها. المدينة هي التي تتحدث وليس أي من هؤلاء.

لذلك؛ كان يعرف كم هي صغيرة تلك الإسكندرية وإن بدت أكبر حجمًا من المدينة التي كان يتعرف عليها بعينيه، مرة واحدة وكأنه يتناولها في رشفة قصيرة عميقة، فيرى كل الشوارع ويسمع الجميع الجميع.. بينما هو جالس في مكانه، لا يكاد يميز وجه الجالس بجانبه.

.. غير أن قناعًا آخر، شاسعًا وعصيًا على أن يتجول شخصٌ في تيه ملامحه، كان يُدثر على الدوام وجه المدينة.. ليصير طوال الوقت محض وجه غير معلن، قابل للتخيل، كوجوه المصريات المخبأة. إنها المدينة التي تجيد الكذب، وتنطق بلغات لا تعرفها لتحفظ بقاءها.

مثل فُتنة.. تخيل؟.. مثل فُتنة هذه التي دربتني على طرد الناس من بيتي!

كان يندهش كلما ضبط نفسه متلبسًا بالزج بفُتنة في واحدة من عباراته المتفلسفة، ويتعجب، كيف لهذه التافهة أن تترك فيه كل هذا الأثر؟

يحرك شفتيه من جديد، ومن جديد أخمن أن أعماقه تصرخ: أين أنا؟



قسطنطين

ليلة عيد ميلاده الثامن والستين، تجسد شبح طفلة، للدرجة التي لن يمكن معها أن يختفي من البيت بعد ذلك.

أزاحت الرضيعة باب الشقة بيسر، وبدأت تزحف في الصالة. كانت تلهث، بعد رحلة طويلة. وراحت تحبو على السجادة، مبللة وعارية إلا من كفن صغير.

كانت في العمر نفسه الذي فقدت فيه أنفاسها، قبل ما يزيد على سبعين عامًا.. لكنها تشعر بوهن امرأة شائخة. ظلت تزحف، لتتعرف على الشقة.. بين الجدران القاسية التي ذكرتها بمقبرتها.. وفي فوضى الصالة، تشممت أخيرًا روائح ألفتها.

30 إبريل 1930.

الآن، يتجسد حلمه المتكرر، أخيرًا.

"الرضيعة في كفنها. تزيح باب الشقة. أراها تزحف باتجاه الدولاب. تبحث عن ملابسها فلا تجدها. تقترب مني. تجردني من

ملابسي لتفتش تحتها عن فساتينها. وعندما لا تجد شيئًا سوى عربي. تبدأ في التهام لحمي كي تبحث عن فساتينها تحته. تقول لي بعتاب حزين رغم ذلك: هل سأحضر عيد ميلادك بهذا الكفن؟؟"

من بين جميع أشباحه، ظلت هيليني، أخته الميتة، الضيف الأشد ثقلاً على أحلامه في سنواته الأخيرة. يستيقظ من أحلامه بها وقد تجسدت، حتى إنه بات يعرف شكلها.. وأحيانًا تظل عالقة بأحلام يقظته، ولا تغادر البيت في عينيه إلا بعد عدة أيام.

كلما أتت في المنامات، كانت تجرده من شيء. تأكل قصائده، هذا هو أكثر شيء تفعله. ذات مرة التهمت عضوه الذكري فصارت هو، وصار هو طفلة، وعندما يكون مخمورًا يتضاعف حضورها، فيظل ينفض ملابسه منها حتى يُسقطه الإنهاك.

تجسد الشبح في ليلة قمرية، وضوء البدر يُغرق غرفة النوم كأننا نحيا في ظل آلاف الثريات، وكنت في أحضانه، عندما سمعنا حفيف ثوب يقترب. استدرنا. وجدنا الباب الذي كان مغلقًا خلفنا ينفتح، والشبح يتسلل خلف النور، لتطل علينا العينان الفزعتان القادمتان من عالمهما الآخر، قبل أن تنسحب حدقتاها لأعلى لتغيبا في بقعة منسية، تاركتين بياضًا تغزوه شعيرات حمراء متشابكة.

وبينما تجمدت أنا من هيئة الزائرة المجهولة ذات العينين البيضاوين، صرخ هو، **هيليني؟!**

وجهت نظري إليه مباشرة، وهززته بعنف. **من؟؟**

لم يجبني. ظل يحدق فيها بوجه جليدي.. وعندما تجرأتُ لأنظر إليها مجددًا، اكتشفت كم تشبهه.. مثلما حدست أية طفلة طاعنة هي. كان شعرها مثل قطعة قطن شهباء تسقط في ضفيرتين على كتفيها، وتجاعيد وجهها السحيقة تلائم امرأة تجاوزت المائة قبل سنوات طويلة.. وكانت تمسك بقطعة من كعكة عيد الميلاد التي تركناها في الصالة، تقضم منها ندفًا صغيرة وتذيبها في فمها الخالي من الأسنان، ثم تبلعها بوجه يتألم.

بقفزة غير متوقعة صارت على السرير، فوق جسدينا، وبدأت تطلق ضحكة جنينية تلائم طفلة في المهد. غمرتنا رائحةٌ حليبية، ثم بدأت في رفع كفنها لأعلى، قبل أن يبدأ برازها السائل الطري في الانهمار.

قفزت برعب الدنيا، تاركًا الحالم في سكينة لم أرها من قبل. وبينما أعبر الباب للخارج، أتاني صوته الواثق الآمر، **اغلق الباب خلفك**.

ظلا يتحدثان طوال الليل. امتد الحديث لساعات حتى سقطتُ من الإنهاك على أريكة في الصالة.. وعندما استيقظت وجدت جسدي كله ملوثًا ببرازها.

خلال ذلك كان قد ألغى بسرعة جميع اتفاقاته مع ضيوف عيد

ميلاده. لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل، بينما تعبث الطفلة بأي شيء يصادفها، وتضع أي ورقة تصادفها في فمها، ولم يكن عرف بعد أنها لن تكون مرئية لسوانا.

رغم ذلك، احتفلنا بعيد الميلاد الذي أفسدت الزائرة سلامه. أيقظني قرب منتصف الليل والتف ثلاثتنا حول بقايا الكعكة الصغيرة. لعلها قررت أن تخصنا بمعجزة، فكلما أطفأنا الشموع، كانت هي تزفر، لتشتعل من جديد. بدا مبتهجًا تمامًا بذلك، وقال، "إنها طريقة مثالية لهزيمة الزمن.. لو قُدِّر للأحياء أن يتوصلوا إليها".

نامت متخمة، على أرضية الحمام، بينما كنت أفكر في أنسب طريقة لمغادرة البيت، وقد حدستُ أن هذا الشبح الجنيني لن يلبث أن يتآمر علي، خاصة وأن الرضيعة ظلت تنظر لي بحسد طوال الفترة التي ظلت فيها مستيقظة.

فورستر

يلمح قسطنطين شموعًا خلف النوافذ، تضاعف خوفه من الأسطح الشفافة التي هُيِّئ له أنها ستكشف بعد لحظةٍ عن آخرته. تبدو النوافذ هنا أشد طولاً مما هي عليه، قامات فارعة ونحيلة من زجاج، كما لو كانت مهيأة لمرور النعوش طوليًا. يرى وجوهًا قديمة أليفة تختبئ خلفها، ويشعر أنه رأى ذلك المشهد بالضبط من قبل، في مكان آخر، في زمن لم يعد له وجود.

يفكر، فجأة، أن يستدير ليخرج، لكن مضيفه يخرج ليلتقطه، مبتسمًا دون سبب.

فورستر، في بذلة ضابط، جعلته يضطرب قليلاً. شبح في زي تنكر، سلطة لم يع ما تعنيه في هذه اللحظة. كذلك بدا الإنجليزي ثملاً. أجفانه منتفخة وتبدو عيناه كأنما ذرفتا دموعًا غزيرة للتو.

"لقد كان يتذكر شيئًا. يتذكر شخصًا. سأقول له بعد قليل: لا بأس. إننا نعيش الحياة فقط. لنتذكرها".

تدفعه يد فورستر برفق (رآه غلطة) إلى غرفة صغيرة شحيحة الضوء، تضم سريرًا يتسع لشخص واحد وأرفف كتب مرتجلة ومكتبًا. يخطو إلى الزنزانة الصغيرة، ويفكر أن يعدو مغادرًا كل تلك العتمة.

لا يستطيع مقاومة استغرابه حيال شكل متطوع الصليب الأحمر في هذه الحلة المقبضة، لعله أيضا يحتفظ بسلاح في طياتها، قد يقتله، قد يقتل نفسه. الغرفة المربعة بجدرانها الحائلة بدورها، مقبرة معدة للحياة، لها رائحة جسد تم غسله بعطر قاتم، إثم جرى تطهيره بقسوة الموت المعقمة.

"تبدو شخصًا آخر في بذلة الضابط".

يضحك فورستر.

"إن الاستثناء هو أن أتجرد منها.. عندما أستقل الترام على هذه الهيئة يظل الناس يحدقون نحوي بخوف ورهبة.. غير مصدقين، وكأن خدعة ما تحاك لهم.. المصريون أناس خائفون وقساة.. لديهم دائمًا القدرة على الابتسام في وجهك لحظة استعدادهم لشجه.. وقد فهمت مبكرًا أنهم عندما يحبون شخصًا بإخلاص.. لا يبتسمون له".

الكعكة على المكتب، تشقها شمعة نحيلة، لا يزال فتيلها ناصعًا، وحولها ثلاث كؤوس. أصر فورستر أن يحتفل بعيد ميلاده هنا، في المستشفى المقبض.

"ربما تصبح ليلة كهذه ذكراي الوحيدة في مدينتكم!".

دعا ضيفًا على شرفه. ثمة مفاجأة إذن. يبهجه ذلك، ويرهقه.

أصبح في الخامسة والخمسين. ظل قسطنطين يفكر في طريقه من البيت إلى مبنى المستشفى الأنيق، والذي لا توحي أشجاره المتكاثفة بالثكنة التي يبدو عليها في الداخل. الخامسة والخمسون، هل تختلف عن الرابعة والخمسين التي مضت؟ عن السادسة والخمسين التي قد تأتي؟

فجأة، تبرق عبارة، **أيام حياتنا الماضية تذوي خلفنا مثل صف من الشموع المحترقة.** يرضيه ذلك.

ما زالت القصيدة القديمة قادرة على مفاجأته، بصوت يفتت أعماقه، ليس صوته، أو لم يعد.

على الفور ينطلق فورستر.

"ياله من روتين!.. إنني أبدأ في العاشرة صباحًا جولة على المستشفيات.. لا أعرف خلالها الحياة إلا في عربات الترام.. أهتز معه، أرتج.. ويكاد هديره الصاعق أن يصيبني بالصمم.. غير أنه يعيدني إلى الحياة في استراحات قصيرة بين موت وآخر.. في الواحدة أتناول الغداء.. ثم أكمل حتى السابعة.. بعدها يأتي عملي الحقيقي، أو الذي أظنه كذلك.. أكتب تقاريري إلى مركز إدارة الحرب في لندن.. والتي تذهب بعد ذلك إلى أهالي الجنود.. ترتجف يدي مع كل سطر.. بينما أشعر أنني من يُميت ومن يُحيي.. من يختار لهذا جرحًا قاتلا ولذاك إصابة لا تَحُول دون مواصلة الحياة..

إنه شيء مفجع أن تكتشف في لحظة أنك إله بالنسبة لأشخاص آخرين.. مبعوث من الرب، نائب عنه في بقعة ما، معك جميع الصلاحيات لتفعل ما تريد.. أخشى أن هذه الروح تسللت لرسائلي إلى أصدقائي.. لعلك لاحظت ذلك؟.. قل نعم إن كان ذلك حقيقيًا.. أرجوك قلها.. لن أغضب.. بل سيكون جميلاً في عنقي".

مــن أخبره أن الانطــلاق في الكلام هو نوع مــن الترحاب؟.. المصريـــون فقط من يعتقدون فـــي ذلك، أحدهـــم بالتأكيد أصاب الإنجليزي بتلك العدوى.

"لو كانت هناك مهنة كاتب رسائل، لكنت أنت أفضل من يقوم بها."

يضحكان.

"اصدقني أيها العزيز.. ما رأيك فيما أقول؟".

هاهو يقلد المصريين مجددًا، يلح، كأنما لا يعرف كأوروبي أن الدعابة تعني الهروب من الحوار.

في بداية تعارفهما، كان قسطنطين يفكر كم هما متشابهين. كلاهما فقد أباه مبكرًا.. كلاهما فرط في جسده - كنوع من التسامح يصعب أن يصدقه العبيد والساسة على السواء - في أجساد الرجال.. لكن عدميته كانت تقابل تسامح الإنجليزى، وإن بدت في البداية وجهًا آخر لها.. إلا أنه، وبمرور الأيام، اكتشف الفارق الفادح بين الاثنتين.. بفضل الإسكندرية بالذات.

أوراق متداخلة على المكتب: رسائل غير مكتملة لأسر الجرحى والأموات.. رسائل شخصية لأصدقاء (ضمنها واحدة من أجله لم تكتمل بعد).. فصل من رواية "الطريق إلى الهند" التي كان فورستر يتحدث عنها بحماس منقطع النظير ولم يعد كذلك في الأيام الأخيرة.. قصاصات صغيرة يبدو أنه يسجل فيها ملحوظاته العابرة.. كل هذه المشاريع غير مكتملة، مثل صفحة كبيرة ممزقة على سطح المكتب، وأمام كل منها قلم مختلف. يندهش قسطنطين، من كل شيء. يعاوده الشعور بأنه ما كان ينبغي أن يأتي إلى هنا.. خاصة وأنه شعر بيتم غير مبرر وهو يقطع شارع "مارك" بأشجاره ذات الزهور البنفسجية التي جعلته أقرب لكرنفال موحش وهادئ أمام عينيه.

"لا أريدك أن تضجر.. فالسوباولو قادم بعد قليل.. إنه حريص جدًا على التعرف إليك".

يقترب أكثر من فوضى الأوراق على المكتب.

"يبدو كما لو أنك تعمل في عدة مشاريع بالتزامن..".

يطلق الإنجليزي ضحكة متقطعة، كمعاناة مرحة في التغوط.

"طبعًا أنت تعتبر هذه دعابة.. لكنها الحقيقة.. إنني أتجول بين كتاباتي.. وقد وصل بي الجنون حد أنني صرت أصُف الأوراق أمامي وأكتب سطرًا هنا أعقبه بسطر هناك.. تخيل.. مشهد في الرواية.. ثم مقطع من رسالة لصديق.. ثم سطر في خطاب لأسرة قتيل..".

يلمح أيضًا عبارة كبيرة، مشروع تحقيق عن "رؤية يهود الإسكندرية لتصريح بلفور".

"يبدو أنك ستضيف لمواهبك تدبيج تحقيقات صحفية".

"لم أكن مهتمًا كثيرًا بذلك الأمر.. لكنني وجدت نفسي مطالبًا بالرد على أسئلة عديدة لليهود الذين أقابلهم كأنني سياسي بريطاني.. فبدأت على مهل، وبشيء من الخبث الطفولي، أقلب اللعبة لأسألهم هم عن رؤيتهم.. وأقنعت نفسي أنه فضول الروائي قبل كل شيء.. وقد كانت النتيجة مبهرة، فقد أشبع ذلك في اليهود رغبةً قديمةً مجهضةً في تقمص دور البطولة.. وبعد قليل اكتشفت أن ما أنجزته وغذيته ببعض ملاحظاتي الشخصية يمكن أن يُنشر كتحقيق صحفي، لا يخلو من مقاربة أدبية، في لندن، وينقل في الوقت نفسه رؤية مدينة قد تكون معنيةً بذلك أكثر من غيرها، فهي ترقد في النطاق الجغرافي نفسه..".

"لا أعتقد أن المدينة معنية بذلك.. ربما اليهود.. ربما بعض المصريين.. لقد أبعدتُ نفسي مبكرًا عن تلك الألعاب السياسية وأدعوك لعمل المثل.. فمثل هذه الأشياء تبدو كبيرة في زمنها.. وتوهم الكثيرين بأنها تغير التاريخ.. وتجعل كثيرين آخرين يتشبثون بها للحاق أيضًا بعربة التاريخ، على اختلاف المبررات والدوافع التي تبدو للوهلة الأولى صادقة وهي ليست كذلك.. لكنها في النهاية تنتهي إلى لا شيء.. أعتقد أنني تعلمت ذلك من الفترة

الضبابية التي عملت فيها محررًا بصحيفة تليجراف.. وكففت بعدها نهائيًا، كمن أقلع عن عادة سيئة، عن الاهتمام بما يدور في الغرف المغلقة.. لقد رأيت بلاط الخديو إسماعيل كله في بيتنا القديم بشارع شريف.. وقد كانت المدينة، بل والقطر كله، يدار عبر أحاديث ضاحكة، مراهنات طفولية، أفكار وتطيرات حمقاء، لا تلبث أن تُجرَّب ليكسب شخصٌ رهانًا مع صديق أو ليعوق آخر مسيرة ند لا يحبه.. وعرفت مبكرًا، بأي عبث يدار العالم.. فقررت ألا أعتني بشيء من ذلك.. وألا أتعامل بجدية أبدًا، أو حتى باهتمام زائد مع ذلك المنطق الزائف للعبة المصائر..".

يبدو فورستر محرجًا وكأنه تعرض لتوبيخ قاسٍ، رغم أنه كان ينوي سؤال صديقه عن تصوره ليُضمِّنه للتحقيق كأحد رموز المدينة، لكنه بسرعة قرر أن يتحول لموضوع آخر، أراد أيضًا أن يطرحه على الشاعر خلال الأيام الفائتة، ورغم خشيته من إحباط جديد؛ فإنه تجرأ وقذف بالفكرة كأنه يتخلص من عبء ثقيل.

".. ما يشغلني بشكل حقيقي الآن مشروع كتاب عن الإسكندرية..".

يبحث قسطنطين عن كلمة "الإسكندرية" على سطح المكتب، لكنه لا يجد لها وجودًا.

قبل أن يعلق، يفتح فورستر أحد الأدراج بسرعة ويخرج ملفًا، يفتحه أمام عينيه بيدين مرتعشتين.

"الفكرة عبارة عن كتاب من قسـمين.. القسم الأول يستعرض

التاريـــخ، من العصر اليونانـــي وحتى العصـــر الحديث، مرورًا بالعصر المسيحي والعربي.. وينتهي بضرب الإسكندرية بالقنابل.. والقسم الثاني دليل مدعوم بخرائط.. ما رأيك؟".

يرتبك قسطنطين أكثر. لماذا يفكر هذا الزائر في كتاب كهذا؟

"لو وافقت، سأكون سعيدًا بضم قصيدتك "الإله يتخلى عن أنطونيو" للكتاب.. أفكر في وضعها كفاصل بين قسميه.. وفي هذه الحالة ستكون ترجمتها من نصيب فالسوباولو.. إنه مترجم جيد، وهو شغوف جدًا بأشعارك.

لم يعد قسطنطين ينصت. من خلال النوافذ يحاول تخمين الآلام التي تومض في الخارج.

في الخارج. هناك الحرب. الحرب فقط.

في الداخل. يجيء الرجال الجرحى. الرجال الأقوياء. الرجال الحقيقيون.

يفكر، الحرب تدار في غرف، ويختبئ منها الناس في غرف أيضًا. لا أحد يرى الحرب، ومن يراها لا يستطيع أن يحكي عنها، لأنه حتى إن لم يمت، فإنه لن يحيا.

يترك أفكاره، التي قرر منذ زمن ألا يعود إليها. هناك الآن المدينة، جميع الغرف بعيدة.. وحتى لو كانت الإسكندرية نفسها غرفة كبيرة، وخطرة، فإنها تمُكِّنه من النظر لأماكن أخرى ترقد على الشاطئ الآخر.

"كيف لم نتقابل في إنجلترا؟".

هل السؤال مجاملة باردة، أم حسرة مشتعلة؟

الرد البديهي، وكيف نتقابل في إنجلترا.. لقد ذهبتُ في التاسعة وعدتُ في السادسة عشرة.. بينما كنت أنت لا تزال بحاجة إلى عدة أشهر كي تولد!

كانت تستغرق فورستر أحيانًا فكرة أن لندن ودعت كفافيس بالتزامن مع استقباله، ورغم فارق الستة عشر عامًا بين عمريهما، فإنه شعر، بمجرد أن رآه في الإسكندرية، أنهما في السن نفسها. أسر بتلك الأفكار لقسطنطين، لكنه لم يعلق عليها أبدًا. ظل فورستر يشعر أن تقدير اليوناني له كأديب وكمثقف يقابله، بالقدر نفسه، استخفاف عميق بأفكاره الطارئة ووساوسه الطفولية.

من جانبه، كان قسطنطين يشعر أحيانًا أن فورستر شخص سمج، بسبب من رقته وتصوره عن التحضر بالذات، خاصة مع شعوره أنه معنيٌّ بأصدقائه بشكل يمثل تهديدًا لذاته، حتى وهو يجامل، بطريقته التي لا تليق كثيرًا بالإنجليز، إنها حتى لا تلائم لغتهم. الصوت يشبه المشاعر، لو كان فورستر واحدًا من أبناء المتوسط لتقبل قسطنطين الأمر بسلاسة. هذا الشعور صار أكثر كثافة الآن، كان مضيفه ينفث بخارًا كثيفًا من أنفه وفمه على نافذة وعيه.

شعوره بالوجود المؤقت للإنجليزي، والذي لن يستمر أكثر من

أشهر كما حدس في البداية، جعله يدخر القسوة التي يتعامل بها مع الأصدقاء الدائمين، لكن ها هو الإنجليزي يحيا عامه الثالث في هذه المدينة، بتشوشٍ يضاعفه كل يوم جديد هنا، بصبر يبدو نافدًا على الدوام، لكن دون أن يجرؤ على اتخاذ قراره بالرحيل، هل سيصبح سكندريًا؟

متى كانت الحرب الفائتة؟ لن يجهد نفسه في التذكر الآن، سيرجئ ذلك إلى يناير. تهاجمه الذكرى عندما يحط عام جديد، يكون قادرًا على ترويضها وتحويلها إلى كائن أليف يمكن التعايش معه.

المدينة غارقة في الماء. وتشتعل في الوقت نفسه.

كيف لا يطفئ الماء هذه النيران؟ مم خلقت؟.. في كم مدينة يحدث ذلك؟ في نصف العالم؟

تجوس عيناه في الأجساد المحطمة للرجال الأقوياء مجددًا. عروقهم نافرة، تعدو على جلودهم كزواحف دقيقة مُقنَّعة بالرمل، رغم أن قاماتهم مسجاة وأنفاسهم هامدة. دمهم الساخن تحرر أخيرًا من سجون الشرايين الضيقة.

ماذا لو تسلل في الليل؟ هل يطالب فورستر بذلك؟ هل يجرؤ؟ وهل سيوافق الضابط الإنجليزي؟ هل يستطيع مساعدته في هذه المهمة الليلية الخطرة؟

بوسعه أن يغامر بأي شيء. يرتدي ملابس ممرضة، وينحني على أي نائم، يحشر عضوه النائم، الضخم والمندمل، في فمه الجائع، ويتأمل القروح والتقيحات، مناطق التشوهات الغائرة والأطراف المبتورة.. يجنه ذلك، يجعله يفقد صوابه، يتطير بالشهوة.. أعضاء كاملة لرجال ناقصين.

في لمحة، يجد أمامه رجلاً جميلاً، مبتسمًا، يمد يده ليصافحه.

فالسوباولو.

يبتهج، ويتحرك جلده.

في صمت الظلام، وبينما يشعل فورستر الشموع، ثم عندما يطفئها ثلاثتهم بزفرات قوية، يبتسم قسطنطين، لقد تشمم في ريح زفير الضيف رائحةً يريدها. أيضًا، باغته صوت.. وقد تخلله الأمل: أيامنا القادمة تقف أمامنا مثل صف من الشموع. ذهبية ودافئة. ومفعمة بالحياة.



فُتنــة

تبحث عن شموع ذهبية، دافئة، حارة، ومفعمة بالحياة.

كيف لها أن تصف ذلك للبائعة التي ترقبها بعينيها؟

للشمع المنطفئ رائحة الخسارة، دخان نحيل يؤكد لمعة النار التي كانت موقدة قبل قليل.. لكن هذه الشموع المصفوفة على الجدران جديدة، لم تستخدم، لم تداعبها النار. لماذا تشعر إذن أنها مطفأة؟ تفكر فُتنة بينما تتجول في المكان الأنيق. المرأة اليونانية قصيرة الشعر تلاحقها، تبدو عمياء من فرط التحديق في النار، (لا تستطيع فُتنة أن تبعد عن خيالها صورتها في بيت يكتظ بالشموع النحيلة الموقدة، تتنسم ذلك الدخان الشمعي بأنفها الرخامي الذي تغزوه عروق زرقاء، تخيفها، خاصة وهي تتبع بركن عينها السوداء ملاحقتها لها).

أخيرًا تسمح امرأة الشموع لنفسها، وقد مرت نصف الساعة، أن تقترب منها، كأنما تسألها بزفيرها، هل تريدين نوعًا بعينه من الشموع؟

ترتبك فُتنة قليلاً، تفكر أن تخبرها مباشرة ومرة واحدة أنها تريد أن تشتري شموعًا لعيد ميلاد، لشاعر، يوناني، أربعيني، "لا يهوى النساء"، عوضًا عن "يعشق الرجال". هل ستمكِّن بيانات من هذا النوع المرأة الرخامية من ترشيح النوع الملائم؟ (هل هناك نوع ملائم وآخر غير ملائم؟). لكن فُتنة لا ترد، تنتقي بسرعة واحدة وتطلب عشر شمعات مماثلة لها، رغم أنها لا تزال مترددة.

تسمع صوت أعماقها، شموع باردة. خامدة. ومحنية.

بالأمس قالت لها باراسولا، "لا بد أن تأتي غدًا.. إنه عيد ميلاده.. وهو ينتظرك".

لم تكن اليونانية تقدم اقتراحًا، بل أمرًا واجب التنفيذ. تتذكر فُتنة ذلك الآن وهي تستدعي اللهجة الحازمة والعينين المحايدتين، عيني امرأة مطفأة، كشمعة خامدة. يوقظها التشبيه المفاجئ، يدهشها، سأكتبه في قصيدة.

غريبة باراسولا، يونانية متوحدة، تبدو كأنما وُلِدَت في إيليت، تجلس بطفلتها الرضيعة، "كريستينا" التي تشبه دمية نظيفة.

بدا أمر باراسولا مثل مفاجأة، لا؛ بل كخيانة. احتفلت معه هذا العام بعيد ميلاده ثلاث مرات. لم تعد تحتمل كذبة أخرى، وهدية جديدة، جولة عدمية منهكة لاختيار تذكار يضعه بجانبه ببساطة ولا يهتم حتى بمعرفة كنهه. فكرت أن تسأل باراسولا، أي خدعة جديدة

ستحملها؟ أن تستفهم منها إن كان هذا عيد ميلاده حقًا، لكنها بدلاً من ذلك أطرقت، وهزت رأسها بالإيجاب.

ماذا يريد هؤلاء الأجانب منها؟ حتى هذه البائعة المسنة تبدو كأنها تعرف شيئًا.

تدخل البيت، في عيد الميلاد الوهمي الأول، (ستعرف بعد ذلك أنه عيد ميلاد أمه)، حاملةً أزهارًا. ينظر إليها باستخفاف، ثم يمد يده بالباقة لعبد الفتاح، الذي يدس فيها أنفه على الفور بسوقية، قبل أن يختفي داخل إحدى الغرف.

بعد قليل ستمثل موت أمه. ترتدي ملابس أمه، تحمل على رأسها تصفيفات شعر أمه، بسيجارة نحيلة في ركن الفم لا تجيد التعامل معها. تبتسم ابتسامات مغتصبة، وهو يعدل منها، يحذف تفصيلة هنا ويضيف تفصيلة هناك.. كأنها دمية تتنفس. ثم يصورها.. مائة صورة.. بل ألف صورة.. في جميع الأوضاع ومن جميع الزوايا.. تصير أمه أخيرًا امرأة من لحم ودم، ينبعث التراب في جسد فُتنة المرتعب. سيمر وقت قبل أن يمسك بيدها، مرتديًا فستانًا آخر، ولأنه أقصر منها بكثير.. يصير أخيرًا الطفل الممسك بيد أمه القوية.

يحدثها باليونانية.. وترد عليه باليونانية الركيكة التي فشلت في إجادتها رغم جميع دروسه وكتبه.. فيصرخ.. يصرخ.

أنت بلهاء..تعتقدين أنه سيضاجعك في النهاية. أنك ستحصلين منه. مقابل جميع الأمراض التي اجتاحك بها. على قبلة حتى.

في لحظة تجوس يداه في عنقها، قبل أن تحكما تطويقهما للجيد الشهواني. تحتبس أنفاسها وتجحظ عيناها بينما تغادر الحياة عوضًا عن امرأة أخرى. تنقذها يدان أخريان، قويتان وسمراوان، ويطيح عبد الفتاح بجسد سيده الموتور، بقسوة، يخلصها من يديه، ويعيد الدماء لوجهها الأزرق، يعيد إليها روحًا كانت غادرتها بالفعل.

تدخل في يوم آخر، عيد ميلاد جديد، وهم آخر لن يلبث أن يسفر عن وجهه. ثمة موسيقى هذه المرة، تنبعث من ركن. تسري في أوصالها نشوة لا تدري كنهها.

معها نسخة من الأوديسة باليونانية، فخمة حتى إنها خشيت التقليب فيها. قلبَّها بين يديه بفتور، كصانع يهودي، "ما كل هذا البذخ غير المبرر؟.. إنه حفل من الصور أعد على عجل لمن يملكون مالاً ويخشون القراءة". مرة ثانية ترك الهدية بين يدي عبد الفتاح.. مرة ثانية أخذ الخادم يقلب في الكتاب بخشونة ثم اختفى في غرفة.

ستعرف بعد قليل أن ثمة زفافًا في انتظارها، حياة وليس موتًا مثل المرة الفائتة. يخبرها بابتسامة ليطمئنها. من جديد تصير أمه، العذراء خاريكليا وهي تُزف لبيتر جون، ويفاجئها هو ببذلة عرس قديمة، وبشعر مصفف على الجانب، بينما ترتدي هي فستان العرس. لماذا يفكر في أبيه الآن؟ لماذا يتقمصه؟ سيقودها إلى غرفة، ويغلق الباب. سيسدل الستائر حتى إنها ستعتقد أن الضوء

قُتل، ثم سيهطل فوق جسدها دون أن يخلع ملابسه.

بعد لحظات ستكتشف سكونه الكامل، أنفاسه المحتبسه، جسده البارد. أي رعب أعده لها؟ جسد ميت يتوارى في ترابها. في لحظة خمنت أنها هي الميتة، ثم أزاحته عنها، متلمسةً خفة جسده التي لم تتوقع أن تكون على هذا النحو. انقلب على وجهه، بينما راحت تخلع الفستان بدماء متجمدة، وكأنها تقشره عن لحمها، وخرجت عارية إلى الصالة كي ترتدي ملابسها، لكنها لم تجدها. أخذت تفتش بجنون، ثم رأت بابًا ينفتح، امتدت خارجة منه يد عبد الفتاح بملابسها. ماذا كان يفعل بها؟ لن تعرف، لكنها ستظل تعتقد بعد ذلك أنه أعد لها سحرًا أسود، سيدمر حياتها.

في هذه اللحظة أدركتُ أن حياتي دُمرت. لقد صنع الخادم شيئًا بملابسي. وعندما ارتديتها تأكدت أن روحًا شريرة أودعت فيها. أحرقتها جميعًا بمجرد أن صرت في البيت. حمالة الصدر. اللباس. والفستان السماوي. كان أيضًا في الغالب محتفظًا بالزهور. بالكتاب. بخصلات متساقطة من شعري. ماذا يريد مني ذلك الخادم الشائه؟ لا أعرف.

ستلوذ بالبيت لعدة أيام، معتقدةً أنه مات.. ستنتظر طرقات على الباب بين لحظة وأخرى، لتُسأل عما حدث أمام ضابط فظ، ولتُقتاد إلى ظلمة باردة، لكنها ستفاجأ أخيرًا بأنه حي، وستظل محتفظة بالقصيدة التي كتبتها في رثائه، القصيدة التي أفسدها بعودته للحياة.

التمثيلية الأخيرة ستكون مسلية، تستدعي الآن صورتها، ترى أحداثها تتحرك على مرآة البائعة، وتخشى أن تنظر البائعة في الصفحة النقية فتعرف السر، تجلس متثاقلة، ببطن كبير متخم، حَشاه بالوسائد. تسير متثاقلة، ويدها على أدنى نقطة في عمودها الفقري، حيث تبدأ حدود مؤخرتها. يسير إلى جانبها.. بحنان الأخ الأكبر. ينتظر أخًا أصغر. حولهما ثماني وسائد متدرجة الأحجام، كتبت عليها أسماء الإخوة. وسادة هيليني غير موجودة، لا حاجة به لها، فهيليني ستولد بعد قليل، ستنزلق من فرجها.

تلك المرة أحضرت له ربطة عنق، نظر فيها دون انفعال، ومثلما فعل من قبل، تركها بين يدي عبد الفتاح، الذي لفها حول يده قبل أن يدير ظهره، كأنه يمسك سوطًا.

تتأوه من ثقل الطفل الذي قد ينزلق في أية لحظة. قسطنطين يصفق ويرفس بأرجله في سعادة غامرة. يستدعي صوته وهو طفل، قبل أن تنبت له تفاحة آدم المقيتة، ويسألها، "صبي أم فتاة؟".

ترتبك قليلاً، ولكنه يهمس في أذنها، يمليها جملة الحوار المفقودة، متأففًا بعض الشيء من الخيانة التي اقترفتها المصرية للوهم، فتهمس، "فتاة يا حبيبي. سنسميها هيليني.. أليس اسمًا جميلاً؟".

أخيرًا يدعوها للاضجاع على الأريكة، وبحركة مباغتة يباعد بين ساقيها.. ثم يرفعهما لأعلى.. ويرى فرجها الناصع كفم مفتوح.. ولمعة العينين اللتين انتصرتا أخيرًا عليه.. قبل أن يمسك بالوسادة

الصغيرة في نشوة، وينهمك في تقبيلها بكل القسوة الممكنة، يتركها لحقد جديد، بساقين مرفوعتين على الهواء البارد.

يهدهد الجنين القطني، يدخل غرفته ويغلق خلفه الباب.

في ذلك اليوم أيضا خرج الخادم من غرفته. بمجرد أن أغلق هو الباب خلفه. ظل ينظر إلي. كأنه أخرس. لا أعرف كيف تجرأ وأمسك ذراعي بعنف. كان يدخن سيجارة دون أن يخرجها من فمه. سقطت ندفة من رمادها على الفستان فتركت ندبة في الساتان. قال ماذا تريدين منه؟ لن يقدم لك شيئًا.. لن تحصلي في النهاية على شيء.

ستعود إليه، هل سيكون وحده في انتظارها هذه المرة أيضا؟ تسأل باراسولا، "هل ستكونين موجودة؟"..

"للأسف لن أستطيع، لكننا سنتقابل جميعًا في المساء في ايليت".

تريد أن تسألها، من سيكون موجودًا، لكنها تتراجع مستشعرةً صفاقة السؤال.

تمد البائعة يدها بالهدية، وتخرج فُتنة، مُستحوَذةً، فجأة، بفكرة أن باراسولا تدير حياتها في الخفاء.

إذا كانت ثمة تمثيلية كبيرة هي حياته. فماذا يكون دور باراسولا فيها؟ إنها تبدو كما لو كانت لا تريد شيئًا. أي شيء. شخصية بلا دور. شخصية صامتة. ترد فقط إذا فوجئت بسؤال. لكنها لا

تبادر. تراقب الجميع. فقط كي يكون بمقدورها أن تتذكرهم ذات يوم بعيد. يكونون هم فيه أشباح يقظتها. هل تدخر حياتها كي يكون بمقدورها أن تنفق منها عندما تحل الوحدة؟ لكن.. لا يهم كل ذلك.. ماذا تريد باراسولا مني؟ تقتلني بهذه المسافة الموصدة. مسافة ضيقة لدرجة لا تصدق.. وحدَّ أننا متلاصقتان. للدرجة التي لا تستطيع معها واحدة منا أن ترى الأخرى. أي مهارة في أن يلتصق بك شخص حد أن تستحيل عليك رؤية وجهه؟ هل تحمل باراسولا في أعماقها كل هذا الدهاء؟ هل تنطوي على أعماق؟ أم أنه نوع من الحكمة؟ وماذا لو كان كل ذلك لا شيء؟ لا شيء سوى أنها هكذا وعليها أن تعيش آمنة في عالم موحش لا تنفتح أبوابه إلا ليدخل الماء الرابض خلفها ليغرق كل شيء؟".

تطرق الباب.. تندهش عندما ينفتح ولا تجد طوفانًا قادمًا من خلفه ليقتلعها من وقفتها، ليتأرجح بها هابطًا السلم ولا يتركها إلا عندما يتأكد أنها صارت في البحر. ليس موجودًا هذه المرة. في عيد ميلاده الحقيقي ليس ثمة مكان لها. تمد يدها بالشموع لعبد الفتاح، وتستدير بسرعة، قبل أن ترى الدم يستيقظ في عينيه. هذه الشموع لن تراها أبدًا في البيت بعد ذلك، لعله سيتخلص منها فور أن يراها، أو ربما سيحجبها الخادم ولن يطلعه عليها.

المحصلة واحدة.

لن توقد شموعي في هذا البيت. ولن تُطفأ .

كلوديا

ترتدي ملابس خاريكليا فوتياديس، ويقف ديمتري، نسخة مقلدة من الشاعر.

من جديد، تكرارات مجهدة، كل يوم، (يبزغ فيها ارتجالٌ مفاجئ بين حين وآخر، سعادةٌ مباغتةٌ كنزهة)، لا وقت لكلوديا، عليها أن ترعى خاريكليا، شبحها الجديد الدائخ.

.1908

هل سيكتمل العرض؟.. جلب ديمتري كل ما يمكن أن يجعل منها خاريكليا فوتياديس، ومنه قسطنطين كفافيس: فستان، (ارتعبت وهي تراه يسدر على جسدها، كأنه صنع من أجلها)، مرآة حقيقية، صغيرة ومدورة، صدقت وهي ترى وجهها فيها أنها تطالع وجه المرأة الأخرى، أكثر من بذلة للشاعر، ونظارة لم يعد يستعملها، صور عائلية، هل منحه الشاعر كل ذلك طواعيةً كما أخبرها، أم سطا على ما يريد؟

ســـاعة كاملة، الشـــاعر وأمه، لا أحد سواهما، يوم عيد ميلاده، طلقات حوار متبادلة، (حوارية نهائية، حوارية الفقد الوشيك للحياة)، وفي الخلفية صوت رتيب متقطع، يظهر ويختفي، يومض وينطفئ، كورال بسيط من فتى وفتاة، يخترق لحظات صمتهما بقصائد. يجب أن تُلقَـــى القصائد بصوتي رجل وامرأة معًا، صوتي الابن والأم لو أراد أحـــد هذا التأويل، صوت واحد يمزجهمـــا لو رغب آخر في تأويـــل مختلف، لكن ديمتري كان يريـــده صوتًا مخنثًا، مموهًا بين الذكورة والأنوثة، ذلك هو صوت قصائده.

بروفاتٍ مجهدة، وصدرها يعلو ويهبط بينما تركض هربًا من الشموع الموقدة التي ستلتهم القصائد في لحظة، وستمتد النار من الورق المحترق لتلتهمها، وتلتهم الشاعر، ليغلق الستار.

فكرة العرض، تكاد تقتل ديمتري. لكنها تقفز فوق كل شيء مفتونةً بالنهاية، الأم وابنها، نائمان في النهاية على السرير، ملتصقان، متعانقان، في مواجهة المتفرجين، في حوار نهائي طويل، العبارات نفسها على لسانيهما في النهاية، اتفاق أخير على أن ينطقا الكلام نفسه، (ترجمة أخيرة لما ظل الكورال يفعله منذ البداية)، محاطين بنوافذ، تقذف أيادٍ غير مرئية بحفنات قصائد جديدة كل عدة دقائق، على الخشبة.

على الطاولة الصغيـرة شـموع، وبامتـداد الخشبة شموع بلا حصر، زنزانة من النيران الصغيرة المنبعثة من الانتصابات النحيلة

الآخذة في التقلص، (كأعضاء ذكورية تتقلص وترتخي بالتدريج)، عجز أراد أن يجسده وتمنى أن يصل مغزاه لمن سيشاهد العرض، (أم للشاعر تحديدًا؟)، كل عدة دقائق يشعل أحدهما شمعة جديدة. مع نهاية العرض، تكون الخشبة مكدسة بقصائده، تلال أوراقه، تكون مئات الشموع الصغيرة مشتعلة وقد تراوحت قاماتها حسب أعمارها، حسب ميلاد النيران في ذؤاباتها.

سيحترقان في سرير واحد.

يتحدث عنه ديمتري بحماس، (تعرف أن جرحًا ما يصرخ فيه)، كان يحضر اجتماعات جماعة "الحياة الجديدة"، يلقي بالأشعار القليلة التي يكتبها وهو يفكر في نص مسرحي شعري، وتجسد حلمه عندما رأى الشاعر، كتبه بالديميوطيقية، وسيحضر الشاعر افتتاحه، هكذا وعده. ولا يزيد ديمتري. (هل تجمعهما علاقة؟ لا يبدو ديمتري شغوفًا بالنساء)، ويقطن الآن في شقة بشارع ليبسوس بالذات، على مبعدة أنفاس منه، لا يعرف الشاعر عنها شيئًا.

تريد جماعة الحياة الجديدة أن تحتفي به، في تدشين مرور عام على انطلاق الجماعة الشعرية الشابة. العدد الجديد سيخصص ملفًا ضافيًا عنه، ثروة (عشر قصائد جديدة، ما يوازي ديوانًا كاملاً)، حفل أنيق، سيبدأ بالعرض.

"تراقبه يا ديمتري؟ تراقبه؟ أنت مجنون.. وما الذي تستطيع فعله أكثر من أن تراه يغادر البيت ويعود إليه؟".

"هذا في الحقيقة هو كل شيء..".

تتجسد المراقبة في عينيها. يراه ديمتري يغادر البناية. ويقفز إلى الشارع. كأنه يغرق فيه.

الظل الهش يتأرجح في بذلته. تبدو واسعة على هيكله. لم تعد الملابس غطاءً محكمًا للجسد.

يسجل ديمتري ملاحظة. عن مشيته المرتبكة. عن تلفته كل لحظات كأن شخصًا يرقبه. عن وجه الطائر الشائخ الذي يراه في التفاتاته الفزعة.

يغلق النافذة. ويستدير ليتأمل من جديد ظلمة الشقة. غير مصدق أنه أصبح يمتلك جدرانًا سرية في شارع ليبسوس. بالقرب من قسطنطين. من العالم الخفي. قطع أثاث كأشباح تجمدت في أماكنها. قد تتحرك في أية لحظة. في كل غرفة مرآة. اقتراح جيد لكي يتأكد المرء مرة بعد أخرى أنه لا يزال موجودًا. يتأمل ما كتب من ملاحظات جديدة. ويبدأ في رسم تفصيلة.

يقول: "منذ حصلت على هذه الشقة؛ بدأت أخاف منه، يهيأ لي أنه يراني، يعرف أن هناك شبحًا يقف في شرفة قريبة، يتلصص عليه من خلف النوافذ، ويقذف إلي بلعناته. من الشرفة الواسعة،

أرى مدخل البناية، لا تواجهها مباشرة، إن لم ألتفت بوجهي، يمكنني أن أراه بركن عين".

تفكر هي أنها حصلت أخيرًا على لعبة، "لعبة بمذاق الحقيقة" كما ظلت تتمنى وتكرر أمنيتها. هي قالت له ذلك، وكلما مرت بشارع ليبسوس، كانت تصغي، تسترق السمع لأصوات خافتة خلف النوافذ، وتمتلئ بكل تلك الأشباح التي تصرخ وتهمس دون أن تراها. تدخل إلى الشقة شاحبة، كالميتة.

المسرح الصغير، صار قطعة ظلمة.

ثمة روائح كحول تلتهم الهواء، وشمعدانات معلقة في جميع الأنحاء تضفي أخيلة شبحية على المكان، تجعله كمعبد يهودي.

تتململ كلوديا، تجوب بعينيها جنبات المسرح الذي تهمهم أصوات في أركانه.

يهمس في أذنيها صدى كالموت.

أيامنا الماضية تذوي من خلفنا

صفًا من الشموع المحترقة

لا يزال الدخان ينبعث من أقربها

شموع باردة. خامدة. ومحنية.

تعجبها هذه القصيدة. تتنسم البقايا الدخانية فيها، تكاد ترى الشموع المتقزمة وقد التفت على نفسها.

في الظلام المتزايد يمكنها أن ترى بيت طفولتها بوضوح. بيت مضاء، حتى إن الأسرار تخشاه.

تفكر أن تحكي ذلك لديمتري عندما تقابله في المرة القادمة، لكن هل سيصغي؟ إنه يتظاهر بالإنصات لها لكن عينيه تخبرانها دائمًا أنه في مكان آخر، مع شخص آخر. فيه شيء أنثوي يشدها إليه. كيف يمكن لها أن تخبره بذلك؟ ثمة امرأة في أعماقه تراها هي، تمامًا كالرجل الذي في أعماقه الذي يراه صديقه الشاعر.. لكنها رغم ذلك تخشى أن تتعرى أمامه. هو يعتبر ذلك تعذيبًا من امرأة محنكة، لا يعرف سبب خشيتها. لو خلعت ملابسها، لو فعل هو أيضًا ذلك، سيبزغ عضوه، دليلاً على خطأ حدسها. لن تفقد كلوديا هذه المرأة المقنعة في ملابس الرجال، الذقن التي لا تنبت، الشعر الذهبي المنسدل على كتفيه، النحافة التي تلائم فتاة على عتبات البلوغ، هذا هو ديمتري الذي تحبه، الصوت الرفيع، النبرة المخنثة لامرأة متخفية. هل من الممكن أن تخبره أشد أحلام يقظته جنونًا بحدس كهذا لامرأة تنام إلى جواره؟

تشعر فجأة بالامتنان - ذلك الشعور البغيض لكل من لم ينضجوا- تجاه قسطنطين، الابن الجالس بجانبها على سرير تحمله خشبة مسرح، ذلك المستمتع بجنونها من دون سبب. إنه يراقبها، لكن مثلما يفعل شخص مع طيفه المفضل، وهمه المتجسد في أشد لحظات العتمة إيهامًا بالإضاءة. يحيا معها باعتبارها صورة يتأكد

لدى ملامستها، مرة بعد أخرى، أنها غير موجودة، ولا يفقد الأمل. هل لذلك يتعالى ببساطة عن المشاعر المتقدة؟ تفكر فجأة أنه شخص لا يتألم.

يعلو صوت، أيامنا القادمة تقف أمامنا مثل صف من الشموع.

ويفكر ديمتري، ما أنسب طريقة لتنفيذ مشهد شموع تندلع، لتحرق نارٌ هائلةٌ كلَّ شيء؟

عبد الفتاح

يعود ليجده جثة مستسلمة على الأرض، مجردًا من كل شيء، ملابسه، ساعة يده، حتى نظارته سرقها المراهق. يغلي الدم في عروق توتو.

كان يحدس أن شيئًا من هذا القبيل سيحدث، وحذره، لكن قسطنطين أصر.

عندما فتح الباب، وقاد ضيفه للدخول، لم يكن قسطنطين جاء بعد. سيحضر بعد قليل ليجد المكان معدًا.

اليوم يكمل اليوناني التاسعة والعشرين بجسد شديد النحافة ظل توتو يستغربه، وقد قال له دون حياء، "إن كنت تريد أن تجلب لي هدية في عيد ميلادي فليكن هذا".. وأشار للمصري الخشن في ركن المقهى.

لم يكن من الصعب أن يقتنصه له توتو.. فأغلب من يأتون للمقهى من المراهقين المصريين حرفيون، يمكن مفاتحتهم بالتحدث

عن المال، ثم يكون الرفض أو القبول.. لكن المساومة لا تكون إلا من خلاله.

بقميصه المفتوح وأكمامه القصيرة بدا جسد المراهق أشد قوة بكثير منه وهو يرتدي الجلباب في المقهى الرخيص. رغم ذلك اكتشف قسطنطين مبكرًا كل ما يختبئ تحت جلبابه حين رآه.. يلعب الورق، يتشاجر، يصفع رفاقه، ويفرق النكات البذيئة.

وكعادته كلما دخل شقته الصغيرة، ظل توتو لدقائق مستغربًا المكان الذي أعاد قسطنطين تأثيثه.

جلب اليوناني سريرًا جديدًا، ومقاعد، ومكتبًا صغيرًا لم يفهم توتو سر إصراره على وجوده. عندما يبيت كان يجلس إليه ويكتب، لكنه لم يحتفظ أبدًا بأية قصاصة في أدراجه، كذلك جلب سجادًا للبلاط الذي كان مغطى من قبل بحصير مهترئ وناشف.

بدأ الشاب يتململ، وسأل بسوقية: أين الخواجة؟

شمر توتو جلبابه، بحيث برز الجرح الغائر على ساعده الأسمر، كأنه يُطلع الضيف على اسمه، ثم قال بخشونة: سيأتي بعد قليل. عندما تنتهي من استحمامك ستجده موجودًا.

"ها ها ها ها.. أستحم لكي لا تتأفف مؤخرته من رائحتي؟؟"

جلس إلى المكتب بأريحية، وبدأ يقلب في صفوف الكتب المرتجلة، لكن توتو نزع الكتاب من يديه بقسوة.

يجلس عبد الفتاح مطرقًا، بينما يغلق الفتى باب الحمام. من جديد لا يصدق ما صار يفعله، فلم يعد فقط يضاجع قسطنطين، بل صار وسيطًا بينه وبين الرجال الذين يعجبونه. وفي بيته، يتم كل شيء. هو فقط متضرر من فكرة أنه صار بشكل ما قوادًا، لكن قسطنطين لا يسمح له بأن يسترسل في هذه الأفكار. يقول له، "نحن أصدقاء"، يقول له، "دعك من هذه الأفكار التي يتشدق بها أولاد البلد دون أن يكون لها معنى". يحصل توتو منه على راتب، في ظاهره مساعدات عشوائية، عفوية ومتفرقة، لكنه راتب جيد في النهاية، ووجد في بيع هذه الصحف التي لا ينتظر منها ربحًا، غطاءً لتبطله، وراحةً من العمل الشاق.. لم تعد طليقته تطالبه بنقود بينما تتعقبه في كل مكان حاملةً طفلة على كتفها وممسكة بيد الأخرى.. ولم يعد مضطرًا لتعييرها بالرجال الذين تعرفهم، وهو يُدين نفسه بالذات.. كذلك كف إخوتها الرجال عن قطع طريقه بين الحين والآخر بالأسلحة المشهرة ليحصلوا على حق أختهم، الذي يبقى في جيوبهم. فوق كل ذلك، هو الآن مع هذا السمسار الثري الخواجة.

خرج الفتى من الحمام عاريًا تمامًا، فأشاح توتو بوجهه، لكنه أطلق ضحكة عالية واقترب منه.

طرق قسطنطين، دقائق قليلة ثم غادر توتو.. لكنه كان متأكدًا أنه عندما يعود، لن يجده جالسًا على المكتب في كامل عريه، يقلب في

كتاب أو يخط بضع كلمات على أوراقه، مثلما تَعوَّد أن يفعل بعد مضاجعاته في هذه الشقة.

في المساء، عندما دفع الباب ليجده مهشمًا على الأرض، بجسد متورم، شعر براحة غريبة رغم كل ضيقه.

كيف سيعود الخواجة إلى البيت؟ لن تنام خاريكليا إلا بعد أن تراه يدخل، وستصر أن يتناول شيئًا من كعكة عيد الميلاد التي أحضرتها من أجله.

بهذه المهانة لن يتمكن أبدًا من إزاحة الباب لينخرط في زهو أمه.

يفكر المصري في ما يمكن أن يفعله بذلك الشحوب المهان، ولا يجد لإفراغ حقده إلا ترك جسده يسقط فوقه.

خاريكليا

تفتح النافذة الصباحية، فترى المقابر.

جنونها الذي لا يعرفه أحد، يتكرر هنا، كأن المقابر توجد فقط حيث توجد عيناها.

لندن - 30 إبريل 1872.

للصباح برودة مزرقة، تواجهها الكنائس البروتستانتية بواجهاتها الحادة وقرميدها البني والأصفر. الشارع الضيق مختبئ خلف الشبورة الصباحية الكثيفة، بخار يبتلع كل شيء كأن المشهد كله يتأرجح في نقطة بعيدة عن الأرض. ترى أشباح سيارات وأشخاص غائمين متدثرين، كأنهم داخل صناديق ملابسهم. في كل هذا التشوش والبرد تبدو المقابر ناصعة وواضحة، بساحاتها المعشوشبة الندية، رغم أنها بعيدة، يصعب أن يراها شخص من شرفة كهذه.

لقد رأيت جميع مقابر هذه المدينة. لن يصدقني أحد. مثلما لم يصدقني بيترجون في الإسكندرية. ولم يستسلم لإلحاحي وبكائي

بينما أطلب. متوسلة كما لم أتعوَّد. أن نترك بيت شارع شريف الموحش لبيت آخر.

قال لي ساخرًا: يبدو أنكِ صرتِ مثل المصريين.. تتفاءلين وتتشاءمين من البيوت وتظنين أن فيها أرواحًا شريرة.

"لقد طرد المربية. لأنه اقتنع أنها من دست في رأسي هذه الأفكار".

كيف ستحتفل بعيد ميلاد قسطنطين الصغير هذه المرة وهو يكمل التاسعة في هذه البلاد الثلجية؟

يجب عليها أن تنزل، تقطع حفنة شوارع موحشة قبل أن تصل لأقرب مكان يمكن أن تشتري منه كعكة وبعض الحلوى. عامها الأول في لندن لا يحتمل اختبارًا كهذا، وفي هذا الشهر الذي لا يحبه الإنجليز. تحصي ما معها من نقود. هل ستكفي؟ لا تعرف أسعار الأشياء هنا.

بدا متوترًا وهو يرى استعدادها للمناسبة، وقال لها بضجر، لا داعي لكل هذا البذخ فقد صرنا مفلسين.

الطفل يتحدث عن أوضاعهم المالية، إنها المرة الأولى التي تعرف فيها أنه يدرك ما يدور حوله. هل يتنصت على أحاديثها المتأخرة مع جون وبيتر وأريستيدس؟ كل شيء يؤكد أن الحياة

ستتداعى عما قريب. بيتر جون فقط كان بإمكانه أن ينقذ المال. هل يفكر قسطنطين في أبيه؟ إن اسمه حاضر في كل عبارة تدار خلف غرف البيت المغلقة.

وفرتُ له كعكة صغيرة. من محل صغير لكن أنيق. صاحبته امرأة خمسينية. بادرتني: "لقد استأجرتُ هذا المحل عندما فقدت طفلي". أرعبتني وفكرت أن أجري مبتعدة لكنني خجلت. ثم منحتني الكعكة مبتسمة. عدت بغُصة. وسيطر عليَّ وسواس بأن قسطنطين لو أكل من هذه الكعكة سيموت. هل تَحَوَّل الهاجس إلى حقيقة. أم أنها كانت. ببساطة. فاسدة لسبب ما؟ ظللنا جميعًا نتقيأ طيلة الليل. ونجا الطفل من الموت بأعجوبة.

12

كتب: كأن كل مقطع شمعة، تنطفئ لتوقد الأخرى في اللحظة نفسها، يَخمد فتيل فُتنة ليُشعل فتيل كلوديا، ثم تنطفئ كلوديا لتُشعل لهب توتو.. ومع السطر الأخير، تكون الشموع كلها قد أُطفئت بزفرة نهائية. كل منهم يسلم للآخر، نار تسري من شخص لشخص، (لتحرقهم جميعًا؟ لتطفئهم؟). الفصل يبدأ بي وينتهي بأمي، شمعتان تصطف بينهما بقية الشموع، الشمعة الأولى، الحياة، الشمعة الثانية، الموت.

في المحصلة، لم يستطع إخفاء إعجاب ممتزج بالحنق. "جيد، جيد، لا بأس".

فكر: هل قصد ألكسندر هذه البنية؟ ثم تساءل: لكن، ماذا يفعل ألكسندر في هذه الأيام؟

في البداية كان الشاعر يتفهم أنه يقضي اليوم في الكتابة. قَدَّر، وهو يتطلع لتل الأوراق الذي أخرجه من الحقيبة بصعوبة كأنه ينتزع من الكائن الجلدي أحشاءه، ما قام به ألكسندر من جهد، ورغم التعديلات العديدة على الهوامش والخارجة من فراغات السطور عبر متاهة من الأسهم، لم يكن صعبًا على كفافيس أن يقرأ كأنه يرتق عينيه، لكن الشاب الآن، وقد بدا أنه فارغ تمامًا، يبدو شديد الغموض.

حدس كفافيس أنه قد يكون عثر على صديق. لا أحد يكتب دون كاتم لأسراره.

(تخمين كفافيس كان صحيحًا، رغم أنه لن يعرف أبدًا بتفاصيل العلاقة ولا باسم الصديق).

عاد يفكر، وقد استحوذ عليه الحضور الشبحي لجثمان هيليني، أخته التي لم يرها. لا يملك حتى صورةً لها، لكن أمه أخبرته كثيرًا أن وجهها كان نسخة طبق الأصل من وجهه. يتذكر فجأة تقلُص وجه خاريكليا كلما حضر اسمها، والدموع التي كانت تجففها بسرعة. كانت الطفلة بالفعل شبحًا في شقة الأسرة الواسعة، وظلت خاريكليا تستيقظ فزعة في ليالٍ كثيرة بعد موتها، محدسةً أنها سمعت صوتها. عندما كبر قليلاً، كره تلكَ الفتاة، وأرَّقه أنه إنما جاء إلى الدنيا ليحل محلها، بينما لم يكن أبدًا بالشخص الذي يمكن أن يؤدي دورًا كهذا، لأسباب كثيرة أقلها أنه وُلِد بعضو ذكري. استعان ألكسندر بحلم حقيقي، جعله يتحقق، أرقه بعض الشيء ذلك الإعلان عن أحلامه، والتي كان يخجل من سردها لأسباب

لم يستطع أبدًا التعبير عنها، فقط تجرأ وسرد لألكسندر بعضها، وكان يُتبِعها بضحكات طويلة مستخفة كي لا يلمح رفيقه توتره (هل سيفضح ألكسندر المزيد من أحلامه في الصفحات القادمة؟).

13

شعر فجأة أن هواء غرفة النوم على وشك النفاد.

بمجرد أن غادر ألكسندر، في الصباح المبكر، أغلق على نفسه الباب، وبدأ في القراءة، حبيسًا، خشية أن يضبطه صاحب الرواية في أي وقت وهو يتلصص عليه. (لو فاجأني، سأموت في مكاني، لن أكمل الرواية).

قرر كفافيس أن يفتح النافذة الكبيرة ويخرج إلى الشرفة. تسلل إليه الهواء الملحي، القادم من الزرقة البعيدة غير المرئية، واكتشف، مندهشًا دون أن يعرف لماذا، أن الكنيسة الصغيرة المقبضة لا تزال في مكانها، وشعر فجأة أنه لم يعد في بيته الذي يعرفه. تذكّر نافذة كبيرة، في غرفته بمستشفى الصليب الأحمر الأثيني، تطل على صفوف متلاصقة من الكنائس، تفصل بينها أحزمة من الخضرة، حتى إنه كان من الصعب رؤية الطريق الإسفلتي البعيد إلا كشريط نحيل داكن، وهو ما أشعره أنه مفقود

في العاصمة التي أتى إليها مريضًا، أما البحر، فلم يوجد طيلة إقامته في أثينا، كأن أحدهما كان يجب أن يحضر ليختفي الآخر.

في لحظة، تقرع أجراس الكنائس، كأن الأبنية القوطية الكئيبة تستيقظ من سباتها مصدرةً كل هذه التثاؤبات المفزعة، على التوالي، بوجدان القطيع، يكفي أن يقرع جرس لتصرخ بقية الأفواه المعدنية بجوع مقلدة صيحة القائد، تتداخل وتشتجر، فيحس بنفسه في عالم آخر.

ظل الأيام الأولى منقبضًا بسبب ذلك المشهد القاتم للأبدية وليس بسبب مرضه أو روائح التعقيم والمطهرات التي تغمر الهواء أو الأطباء المقتضبين الذين لم يستطع أن يمنع نفسه من تخيلهم مرضى مُقنَّعين. بدأت تزوره شابة يونانية، في العشرينيات، شاعرة وصحفية، مندفعة، وتطرح طوال الوقت أسئلة ساذجة بحيوية. قالت له، كأنها توبخه: "كان يجب أن تجرب ديموطيقيتك في كتابة ملحمة شعبية موازية للأوديسة"، كانت تكتب بالفصحى، ولها رأي جازم بأن الديموطيقية ليس لها مكان في الشعر.. وفي تلك الأيام، كانت هناك صرعة جامحة في أثينا المؤرقة على الدوام، للعودة للفصحى في أشد أشكالها غلوًا، في الكتابة الأدبية، فشعر فجأة أن كل ما كتبه لم يعد صالحًا ليقرأه الجيل الجديد في اليونان، ورغم أنه لم يسع بإخلاص لنشر شعره، ولم يهتم يومًا بفكرة القراء، فإن زائرته العدوانية ضاعفت من شعوره بأنه مفقود. كانت اليونان على الدوام دولة تتعامل مع نفسها كأُمَّة، ولم تكن تملك سوى لعبة واحدة هي اللغة، إليها تُنسب جميع أسباب الاضمحلال أو الرقي، وكان ذلك يضايقه، ويجعله يشعر، رغم كل شيء، بامتنان ما للمدينة المجهولة في الجنوب، التي لم

تكن معنية بعزلته التي بقي فيها بعيدًا عن كل صراعات عاصمته الأم، والتي كان الشعراء فيها يذوبون في معارك يعتقد فيها كل منهم أنه يدافع عن وطنه بالقصائد.

سأل، باهتمام، بيركليس أناستاسياديس – الصديق القديم وصاحب الفضل في اعتماده شعريًا باليونان، والرجل الذي منحه قبل واحد وثلاثين عامًا مائة جنيه ليقوم بأول رحلة إلى وطنه، حيث عرض قصائده على محرري المجلات بأثينا – فقال له مقللاً من شأن السؤال: "إنه الشباب يا عزيزي.. يبدأ رافضًا لكل شيء لكنه ينتهي في النهاية عند نقطة أقل طموحًا بكثير مما تمرد أجدادنا عليه. كلنا فعلنا الشيء نفسه و لم نجد في نهاية عمرنا ما نفعله سوى إعادة قراءة الأوديسة".

أصابه كلام أناستاسياديس بغم أكبر، وشعر فيه بإهانة شخصية، وللحظات فكر أن الشابة المندفعة كانت أكثر رحمة به.

ضيقُه من أناستاسياديس جعله يتذكر حماسه القديم لقصائده، فهو الذي عرَّفه بفورستر، ليقدم الأخير شعره بالتالي لـ تي إس إليوت ودي إتش لورنس وأرنولد توينبي وآخرين، ولتبدأ قصائده في الانتشار في أوروبا، دون رغبة مخلصة منه. أيضًا، يحتفظ أناستاسياديس إلى الآن بنسخ من قصائده المبكرة وملحوظاته الفنية وتعليقاته النقدية التي كان يرسلها له. ضاعف ذلك من غربته، في الوقت الذي كان فيه ألكسندر شخصًا غائبًا تمامًا، حتى إن كفافيس الغائب في ضلالات المرض تشكك أكثر من مرة في حقيقة وجوده.

لكنه، وفي واحدة من صباحاته اليائسة، تجرأ وحدَّث الفتاة المندفعة

عن المشهد الكئيب الذي تُسلله النافذة لغرفته، لكي يتفادى أي حديث جديد عن الفن، فأجابت بعفوية: "ربما كان ذلك أفضل، ربما كان النور رعبًا جديدًا، من يدري ما الذي سيكشف عنه".. احتاج لحظات لكي يتأكد أن هذه الفتاة بالذات نطقت بشيء من شعره، وابتهج كطفل، رغم أنه عندما نظر لجانب وجهها لم ير أي شعور بالتأثر.

قرر مبتهجًا في تلك اللحظة أن يعيد كتابة القصيدة التي استعيدت في ذاك الصباح المقبض كنافذة أمل، تكريمًا لمفاجأة هذه الفتاة الغلامية رثة الملابس. خمسة وثلاثون عامًا كاملة مرت على كتابة "النوافذ". عندما كتبها، كان لا يزال يقيم في بيت العائلة في شارع شريف، ولم تكن أمه ماتت. كان في الرابعة والثلاثين، يحمل بطاقة صحفية لجريدة التليجراف ويعمل سمسارًا في البورصة، ويحافظ على المهنتين بتوازن عجيب لا يفهمه الآن. استلهمها من نوافذ البيت العائلي في الشارع الأنيق والموحش، الذي كان متأكدًا في وقتها أنه يستحيل أن يتغير ولو بعد مائة سنة، وكان في هذه الفترة لا يزال يملك الأمل، الذي تملكه هذه الفتاة الآن، في أن يفتح نافذة فيرى ما يريد.

داعبه الهواء البارد لنوفمبر، وعندما شعر بالتطاير الرهيف لخصلات شعره أحس بسكينة، بالتنميلة الخفيفة التي تُفقد جسدًا شائخًا تيبسه، لكنه، وقد سرى الخدر في جسده، تخلى عن الحذر، لم يفطن ليده التي ما زالت تحمل الأوراق، والتي انفرجت فجأة، كأنها تفرغ تجاعيدها، ليفاجأ، بكل رعب الدنيا، بأوراق ألكسندر سينجوبوليس وهي تسيل باتجاه الشارع.

14

مصعوقًا، راح يلم الأوراق التي افترشت الشارع، يجبر الهلع جسده الهزيل المنهك على تقافزات سريعة، ليلتقط ما تقع عليه يداه، موقنًا أنه لن يعود أبدًا بالأوراق كلها.

انفك الخيط الواهي الذي كان يشد الأوراق إلى بعضها، تبخر في الهواء قبل أن تصطدم بالأرض، مبعثرةً ومُهانة.

من المحتمل، ببساطة، أن تكون بعض الأوراق اختفت في المسافة بين رؤيته لسباحتها المرعبة في الهواء وركضه الفزع، قاطعًا الصالة، ثم قافزًا درجات السلم، وحتى صار في الشارع، (طفل انحنى والتقط ورقة، أو ربما انتزعها وهي لا تزال تسبح في الهواء ككائن غامض، متطفل قرر أن يسلي مشيه الملول بمطالعة هدية مفاجئة قادرة على قتل حفنة دقائق).

لكن الإنقاذ جاءه قبل أن يموت حسرةً وخوفًا وتعبًا، فقد انشقت الأرض عن امرأة، نصف عارية، بثديين كبيرين يتقافزان بفزع، انحشرت الملاءة البيتية الخفيفة بين إليتيها و لم تعبأ، متى أصدرت أمرًا فانشقت الأرض عن أخريات، نسخ شابة منها؟ لا يعرف، سرب عاريات، بالأثداء الفزعة نفسها، بالأجساد التي لم تعد تخشى الفضيحة، لا يؤرق نور النهار عريها، لا تأمل في الغفران. لقد انتهى كل شيء، قبل سنوات طويلة من خروجهن المفاجئ من الشقة السرية، قبل عبورهن عتبة الباب، واجتماعهن المرح لينقذن رواية لن يعرفن شيئًا عن أمرها. انهمكن على الفور في التقاط الوريقات، متفرقات على أنحاء الشارع، وقبل أن يفكر فيما حدث، قبل أن يسعفه الوقت حتى ليتأمل المشهد الجنائزي، في انهماكه وإخلاصه المرِح، بالصيحات الشابة والضحكات المتقطعة، تقدمت نحوه المرأة ومدت يديها بتل أوراقه.

حاول أن يشكرها، بعد أن يئس من الاستفسار منها عما فعلته، لكنه اكتشف من جديد أنه لا يملك صوتًا، فحياها بحياء، هي ومساعداتها، بإيماءات متتالية من رأسه، كأنما يُعوِّض عجز لسانه. بادلنه جميعًا الابتسام بإيماءات مغوية، وعندما مد يده في جيب الروب باحثًا عن أي ورقة نقدية، سبقته يد المرأة التي فهمت ما يرمي إليه، وأحكمت من إطباقها على يده الحائرة، "نحن جيرانك.. الأرض التي تمشي عليها هي السقف الذي نعيش تحته..".

شاعرة شائخة، الحياة كتابها الوحيد، مصرية، قوادة حقيقية، بإنجليزية الاتفاق على الصفقات السريعة، التي لا يُشترط فيها أن تكون أي كلمة

سليمة تمامًا.. من يريدها، سيفهم كل شيء، الكلام جسرٌ عابر.

لم يستطع أن يرفض دعوتها للدخول إلى شقتها، مبغاها الغامض ومملكة عريها المحررة التي طالما ألهمته دون أن تدري، لكنه كان محرجًا من غياب صوته. بمجرد أن دخل إلى الشقة المعتمة، اضطر لالتقاط ورقة شاردة على طاولة، وطلب بالإشارة قلمًا، وكتب، بالإنجليزية، "اعذريني سيدتي، لكني أعاني بعض المشاكل المؤقتة في أحبالي الصوتية". لم يكن واثقًا من قدرة المرأة المصرية على فهم ما كتب، ربما لا تجيد القراءة، لكنها ابتسمت موافقة، وعادت تقول بطريقة المصريين في نطق الإنجليزية: أعرف.. لا بأس.. افتقدناك خلال الشهور الماضية مستر كفافيس!

تتحدث بأريحية وكأنهما جاران حميمان، "تعرف! كيف تعرف؟ من أخبرها؟"، ولاحظ كفافيس أن الفتيات تفرقن على الغرف بالسرعة نفسها التي التقطن بها الأوراق. دخل رجلان خلال النصف ساعة التي اضطر فيها للجلوس قبالة عينيها المكحولتين، تركته في المرتين وانتحت بهما، تتحدث بصوت خفيض لكن ينبئ بما يخفيه من مساومة، ثم يختفي الزائر في عمق الشقة. هنا بيت للجميع.

عندما نهض مستأذنًا، رأى في عيني المرأة نظرة ثابتة، تحدق في ملامحه. صحبته إلى الباب، وفي اللحظة التي كانت فيها تغلق فردوسها من خلفه، فحّت بعبارة مُشبَّعة بالتواطؤ، "إذا احتجت أي مساعدة.. لا تتردد في طرق بابي.. هذا بيتك".

15

الأوراق ملوثة. تراب، لا يكفي نفضه لكي يزول، آثار أقدام لم تعبأ بتفاديها، مجعدة، بفعل الإمساك القاسي بها بأيدي الفتيات العابثة. لا يزال مرتبكا، قلبه ينبض بخوف، وبالتأكيد سيعرف ألكسندر دون بذل جهد أن يدًا عبثت بروايته.

لكي يزيح عن نفسه قدرًا من الكدر الذي سيميته، استدعى مشهد نساء بيت البغاء وهن يلتقطن أوراقه بأثدائهن المتقافزة من أردية النوم الشفافة، منحنيات ومقرفصات ومقعيات على تراب الشارع كأنهن يتهيأن لمضاجعة جماعية فريدة من نوعها في الهواء الطلق. السيدة الكبيرة، بالكحل الثقيل، وطبقة المساحيق اللزجة، بالثديين الكبيرين المتدليين المترهلين، تبدو حكيمة أثينية. تستحق قصيدة. عندما يقترب الشاعر من

موته، عندما يدرك أن يده ترتعش، أن قصائد قليلة جدًا يجب أن يكتبها، يعرف أن كل شيء في العالم قابلٌ لأن يكون قصيدة. يفكر كفافيس، ويفكر أيضًا في كأس براندي تضرب روحه كالسوط، ويفكر أنه يجب أن يواجه رعب الصفحات المفقودة. أي امتنان يستحقه ألكسندر، الذي رقَّم الصفحات، "فعل ذلك من أجلي، لينقذني اليوم".

الأوراق ليست مرتبة بالطبع، لأبدأ، (معه قلم مشحوذ، ليسجل أرقام الأوراق التي لن يعثر عليها)، ما النهاية الأسوأ لكل ذلك؟ سيكتشف ألكسندر ما أفعل؟ كنتُ ضجرًا، ملولاً، بحثت عن سيجارة، في حقيبتك خمنت أنني سأعثر على واحدة، واحدة على الأقل تقتل شغفي وضيقي، أزحت الأوراق، التي تخفي الفراغات السرية المهيأة لابتلاع مثل هذه الأشياء الصغيرة، أخرجتها ووضعتها بجانبي، ولم أعثر على سيجارة، لكني وجدت أشياء مبهجة، شموع، جيد أنك تحتفظ بشموع لتمد يدك لي بها إذا ذابت الشموع وأنا غارق في يأسي. قرط، يبدو ذهبيًا لكنه قد لا يكون كذلك. فراشة صغيرة من مادة تشبه البلاستيك الرخيص، لونها وردي، لكنها ميتة، اختنقت في الحقيبة، وجدتُ حفنات من ملح البحر، كأنك كنت تمد يدك في الماء كل مرة، وتترك مقدار قبضة يد منه في الحقيبة، لكن البحر المتوسط، بحر أثينا ونابولي ومرسيليا والإسكندرية ليس ماء كما نظن، لا يحتفظ إلا بملحه. مدن تطل على الملح، ولعلك تسأل: من أين يأتي الماء؟ غير أني سألت السؤال نفسه قبلك، آسف، لا أقصد تسجيل سبق، لكن هذا ما حدث، لأنه يجب أن يحدث في مرحلة ما من العقد الثالث، الذي تحياه أنت الآن، والذي كنت أحياه ذات يوم، واكتشفتُ

في حينه ما اكتشفته أنت الآن. وجدتُ في الحقيبة أيضًا بقايا تبغ، حفنات رمل شاطئي، ليست بالقليلة، لكن من المستحيل تحويلها إلى سيجارة. لا يساوي الشيء ما يتكون منه للأسف، ونحن أيضًا. في النهاية، وبينما أحمل الأوراق من جديد بحرص، لأعيدها إلى مكانها بالطبع ولا ينبغي أن تفكر في أي احتمال آخر، فأي فضول يمكن لشخص في مثل سني أن يستجيب له إلا فضول التفتيش عن سيجارة؟ أقول، في هذه اللحظة، سقطت ورقة، وانحنيت لالتقاطها، لكن ركن عيني، دون أن يقصد أن يرى، أن يتطفل، أن يختلس نظرة، أن يسرق كلمة، وقع على اسم مألوف، توقيع العزيز فورستر، بطريقته المميزة في خط الحروف والتي لا تحتاج أكثر من ضرير ليتعرف عليها، فاندهشت، في الحقيقة قتلني الفضول، لا أناقض نفسي، قتلني الفضول الذي يقتلني للتفتيش عن سيجارة، ووجدت خطابًا موجهًا لشخصي يرقد بين أوراق يفترض أنها لك. لا أقول ذلك لكي أعاتبك، ولا أكذب. صدقني، من بين كل هذه الأوراق انسلت ورقة تخصني، واحدة من تلك المصادفات القدرية غير القابلة للتصديق لكنها، ولذلك السبب نفسه، تحدث دائمًا وأكثر مما يقع أي شيء آخر، بما في ذلك مولدي ومولدك، قرأتها لأنها تخصني، لم أطلع على أسرارك، فقط قرأت خطاب العزيز فورستر من جديد، مغمورًا بالحنين، كنت، حرفيًا، مأخوذًا بالاكتشاف الذي بدا بارقة فلسفية صغيرة، أقرأ خطه، فكرت فجأة أن الكلمات تفقد معناها إذا تغير الخط الذي كُتبت به. جعلني ذلك ممتنًا من جديد لأنني لم أعتن كثيرًا بطباعة قصائدي، مثلما أنا ممتن لك مجددًا، في هذه اللحظة من العمر التي لا أشعر فيها بامتنان لأحد. أنت لا تعرف،

واقبلها هذه المرة من رجل يكبرك ولا يدَّعي أنه يعرف أفضل منك، لكنك لا تعرف، أكررها، واسمح لي، ماذا يعني أن تكون مقبرتك على بعد خطوة. ليس الموت أن نموت، ومتى كان كذلك؟ لكن أن يصبح الفناء كالمستقبل، بارقة أمل. ما حدث بعد ذلك، أنني هممت بأن أقرأ، قررت أن أقرأ بعد تردد وهممت بالقراءة بعد تردد أكبر، حتى إنني أعددت قهوة في ذلك الوقت من اليوم الذي لا يمكن فيه أن أحتسي هذه المرارة المنبهة، وحتى إنني فكرت في البحث عن سيجارة. آآه. ليس ذلك تناقضًا في أقوالي. أنا بحثت عن السيجارة قبل أن أعرف بوجود الرواية، ذلك صحيح، لكنني بعد أن عرفت بوجودها، شعرت أكثر بضرورة الحصول على سيجارة، ففتشت ثانية، لن أكذب، بالبراءة الأولى نفسها، ووجدت هذه المرة أشياء جديدة لم تكن موجودة. صندوق باندورا. هذا ما فكرت فيه. وفكرت أن أكتب قصيدة فيها هذا المعنى، وليكن مطلعها "أخذ يفتش بحثًا عن سيجارة، ذكرى نحيفة مدخنة، في حقيبة حبيبه. وكلما أنهكه التعب، وتأكد أنه رأى كل شيء، ظهرت له معجزة جديدة". تذكرت سيزيف، وأحببت أن يكون له مكان في هذه القصيدة، سيزيف الذي كلما أعاد الأوراق لحقيبة ألكسندر، خرجت من جديد وتسللت من النافذة لتتفرق على إسفلت الشارع، ليركض سيزيف ويجمعها من جديد ليعيدها إلى حقيبة ألكسندر. أعود للموضوع، فأنا أشد الناس علمًا بنفاذ صبرك. كنت أفكر: هل أبحث في بقية الأوراق عن أشياء تخصني، أم أعيدها لمكانها؟ وهل أصمت بعد ذلك، أم أصارحك بما رأيت؟ لكني فكرت، هل أجرؤ على مصارحتك بأنك لص؟ أنت أيها الحبيب، هل يطاوعني

قلبي أن أتهمك بالسطو على أوراقي؟.. لكنني وجدت أوراقًا أخرى، كثيرة، تخصني، وبخط يدي، أليس هذا خط يدي؟ إنه ساحر عندما أعثر عليه دون أن أتوقعه. خرجت إلى الشرفة، غير مصدق، خرجت شاعرًا أن الأوراق هي التي تقبض على يدي، وعندما غادَرَتها فجأة لترفرف فوق سماء شارع ليبسوس الضيقة، شعرت من جديد أن يدي هي التي سقطت.

أشكرك يا ألكسندر سينجوبوليس، ثمة قصيدة ستكتب الآن.

أيها الجسد تذكر

(الفصل الثالث)

.. ليس فقط كم كنت محبوبًا
أو الأسرَّة التي نمت عليها
لكن أيضًا الرغبة الصارخة
التي كانت تشع في تلك العيون، من أجلك
وترتعش في تلك الأصوات
أحيانًا بلا جدوى...



*تشرف كريستينا بنفسها على جسد الشاعر المريض. إنها فرصة أخيرة لتتأمل لحمه وعظامه عن قرب.

تنظفه وتحممه، ثم تدهن جسده بمسحوق له رائحة أزهار طبيعية كان يتسلل إلى أنفي كالموت.

سواء كان نائمًا أو مستيقظًا، تزيح عنه أرديته، متقبلةً جنونه في كل مرة. ينام أحيانًا في فساتين نزهات أمه، في الملابسِ البيتية الواسعة لأمه، أحيانًا في واحدة من بذلاته الإنجليزية الصارمة، محتفظا بنظارته فوق عينيه. في جميع الأحوال، تختلي به كريستينا، لتنظف جسده، لقد صار طفلها.

ترقبه وهو يحلم، جثة بين يديها، دمية رجل طاعن.. بينما تغسل له جسده وتعطره. لو كان مفتوح العينين، يظل ينظر إليها، ربما بامتنان، أو بعدم تصديق، مندهشًا من دورة الأيام التي جعلته ابنًا للمرأة الشابة.

تمرر إصبعها تحت أنفه لتلامس أنفاسه، غبار احتضاره.

تنزع عنه الملابس كأنها تقشره، ليصير لحمه الأبيض ثمرة عارية، مجعدة. لو أرادت، في استسلاماته الأخيرة لشغفها، لالتهمته، قبل أن تفتح الباب وتخبر الأطباء بهدوء أنه اختفى.

يفتح النافذة بيد مرتعشة، ويطل خارجها، غير مصدق أنه خرج حيًا من جدران منامه المصمتة، أن العالم لا يزال يحوي هذه الشوارع، والصخب، وأن الحوائط ليست كل شيء.

يحدق حوله، ويتجول للحظات في جدران غرفته. يسأل نفسه،

كيف هي خاوية لهذه الدرجة من أي أثر ليد إنسانية؟.. إنها نظيفة من وجهة نظرهم. نظيفة.. تلائم أشخاصًا حضروا إلى هنا كي يموتوا.

يتذكر المستشفى الأثيني، حيث فقد صوته.

"كانت حوائطه ترجع الصدى.. هل تذكر؟"

هناك لم يحلم أبدًا، إلا في اليوم الذي فقد فيه صوته. كان زواره نقادًا ومترجمين وشعراء يحملون على الدوام وردًا، باقات وداع يطلب التخلص منها فور خروجهم وهو على وشك الاختناق من عبيرها، رغم أنني فشلت في العثور على روائح تفوح منها. بعد الاطمئنانات المتفق عليها على وضعه الصحي، ينخرطون في مناقشة قضايا أدبية مجهدة، وكأنهم أمام أثر أو شخص قادم للتو من مقبرة. كانوا في النهاية أشخاصًا عمليين، ولأن أغلبهم خمن أنه جاء ليموت، فقد كان كل زائر يجهد ليقتنص تذكارًا أخيرًا منه. في لحظة تحوَّل إلى رجل تذكارات، يمنحها كالنذور، ولا يزال يعتقد إلى الآن أن صوته نفد بفضل هذه المناقشات. كنوع من المجاملة (التي لم يكن يرغب فيها)، تولاه بعض القائمين على الصفحات الأدبية في صحف أثينا برعاية قاتلة، عبر محررين صغار كانوا يأتون يوميًا محاولين الحصول على خبر جديد حتى لو كان موته. الخبر الوحيد الذي لم يصدقه أحد، وكان الجميع يستقبلونه كنوع من المبالغة الشعرية، كان وحده الصحيح ربما في كل ما صرح به من وعود بقصائد جديدة وديوان جديد مطبوع. كان يكفي أن يقول إنه لم ينم لشهرين كي يبتسم الجالس أمامه بلباقة، وفي أفضل الأحوال كان البعض

يستأذنون في الانصراف معتقدين أن المقصود من العبارة تركه لينام.

تنتهي كريستينا من تنظيفه، أراها تزيح الباب وتشير لي بيدها، فأدخل. يبدو نظيفًا، لوحة لرجل. يدخل الطبيب الشاب، الطبيب الوسيم الذي كان قسطنطين يمد يده له كلما دخل.. فيحتضنها، بحنان ابن. لا يدرك أي إثم تفكر فيه تلك اليد.. أية دماء حارة يبحث عنها ذلك الجسد.

كنا ظنناه نام، لكنه فتح عينيه فجأة، وتطلع حوله بتوسل.

إنه يفكر مجددًا في جسده.. لأنه نطق بالاسم المرعب الذي ظل كثيرًا يدخره، هامسًا، وبشكل متقطع: ث.. ثا.. ثيو.. فيليس...

ثيوفيليس

(هذا هو العام الأخير
وهو آخر الأباطرة اليونانيين.
وا أسفاه، بأي حزن يتحدثون
حين يكونون إلى جواره؟
في يأسه، في ألمه
يقول العاهل ثيوفيليس بالايوجوس
كم أُفضّل الموت على الحياة..).

ثيوفيليس..

كيف يمكنني أن أكتب هذا الشخص، أو أن أختصره؟ إنه "آخر الفلاسفة السكندريين" كما كان قسطنطين يؤكد.. لكنه أيضًا الشخص المتورط في جرائم لا تصدق، قتل، سرقة، إخفاء أطفال ذكور، اغتصاب رجال دين، مثلما يعرف كل شخص في الإسكندرية. لقد اختفى منذ سنوات عديدة، عندما طُرِد من البطريركية الأرثوذكسية.

عندما أحاول أن أكتبه؛ فإنني أملك، لحسن الحظ، مشهدا واحدًا، متأخرًا، جمعني به، قبل نحو سنة. إنني أرتجف وأنا أكتب الآن عندما أستدعيه، وأشعر أنه يراني، يطل عليَّ من خلف ظهري، ويضحك من أعماقه، وقد يقرر، دون أن يتخلى عن مرحه، معاقبتي بسخاء.

أي شخص يمكن أن يكونه؟.. أستطيع أن أتخيله في قبوه الخالي من النوافذ، إنه محبسه الذي اختاره لنفسه في مكان ما من الإسكندرية. يتحرك جيئة وذهابًا، بين الحوائط التي رسم بامتدادها أعضاء ذكرية ومؤخرات رجال مُشعرة وأجسادًا ناقصة، وكتب عبارات متداخلة من وصاياه. واحدة من تلك الوصايا كانت "أن يجاهد الشخص لتحويل سرير مرضه إلى سرير لذة"، ربما فكر فجأة أن هذا الطفل الشائخ ينام في سريرٍ مجافٍ.

أستدعيه وهو يطرق الباب بعصاه في تلك الظهيرة الصيفية. لم يكن قسطنطين موجودًا، استغربتُ صوت الطرقات. بمجرد أن فتحت الباب أشحت بوجهي على الفور وقد ارتعدت جميع خلاياي، لكنه دخل متقافزًا على الفور، بساقه الواحدة، بينما يده على عصاه الأبنوسية الغليظة التي بدت كأنها ساقه الأخرى. كان يضحك بصوت عال، وكأنه أدرك الرعب الذي دب في قلبي من شكله المرعب.

عندما أمكن لي أن أتأمله، أو عندما أجبرني حضوره على التطلع في حطامه، اكتشفتُ أنه يملك من كل زوجين شيئًا واحدًا، له عين واحدة في زرقة البحر، وتبدو أكبر من عين طبيعية.. بينما الثانية مفقوءة، تركها على شكلها المرعب، كتلة مغمضة مصفاة ينحدر منها على الدوام خيط دم كان يمسحه بهدوء بمنديل ضخم ملئ بالبقع الحمراء، وكانت ذراعه اليُمنى التي يقبض بها على عصاه هي أيضًا ذراعه الوحيدة.. بينما يسيل كُم بذلته الأيسر خاويًا.. حتى أذنيه، كان يستعمل واحدة فقط منهما، ويميل بها تجاه فم الشخص الذي يتحدث.. أما الثانية، فدس فيها قطنة يزيحها كل لحظات، فيسقط سيل داكن بني من الشمع يمسحه بنفس المنديل.. والذي كان أيضًا يتمخط فيه.

لقد كان بقايا إنسان، ويصعب تحديد عمره، غير أن الشيء الوحيد الذي رأيته مؤكدًا أنه أقدم شخص حي يمكن أن أراه.

عندما تحدث، تضاعف رعبي، فقد كان صوته رفيعًا ومعدنيًا، له إيقاع رتيب منتظم كأنه صادر عن آلة.

"هل خرج سيدك؟".

استفزتني صيغة سؤاله المتعالية، بينما كشف انفراج شفتيه عن أطلال أسنانه المتهدمة. رغم ذلك أجبتِ باقتضاب من لا يريد تمديد الحديث.

"قال إنه سيعود في الثالثة".

ضحك فجأة، وسعل بشدة حتى أحسست أن مكوناته تزمجر وأنه سيتقيأ أمعاءه. وهُيئ لي أنه لو فعل فسأرى آلاف التروس المعدنية التي تدير جسده في أحجام مختلفة، منثورة على السجاد.

"ها ها ها ها ها ها.. إنه يبحث عن رجل إذن.. اسمع يا بني.. سواء كنت خادمًا أو عشيقًا أو فنانًا.. عليك أن تعرف أن كلمة السر في جسد ابننا قسطنطين هي: "سأعود عند الساعة الـ...". عندما يخرج ويخبرك بموعد عودته.. فاعرف أنه يدحرج مؤخرته أمامه.. وأنها تأكله أكلاً.. ها ها ها ها ها.. واعرف أنه بالتأكيد سيتأخر.. أنا عجوز مخرف ولا أطيق الاحتفاظ بسر.. لذلك.. أسهل شيء أن تحصل مني على معلومات.. هاه.. قل لي إذن.. أخبر أباك حبيبك.. أنت خادم أم عشيق أم فنان؟؟".

أشحت بوجهي وقد ضاعف كلامه من ضيقي، فنظر إلي بعينه الواحدة الكبيرة التي شعرت أنها تمددت بداخلي. لاحت على وجهه

جدية غريبة لثوان، رفع بعدها مؤخرته قليلاً وأصدر صوتًا غليظًا متقطعًا، ثم انفجر في الضحك.

"أرجو ألا تغضب مني أو تعتبرني غير مهذب.. فهذه الأصوات التي تخرج من مؤخرتي لا تخصني.. إنها أصوات من ضاجعوني لذا فهي متنوعة تمامًا.. وأنا أسمح لها أن تشق طريقها عندما تطلب ذلك من إستي.. سواء أكنتَ خادمًا أو عشيقًا أو فنانًا.. فأنت هنا لتضاجعه أيها الخبيث.. إن له مؤخرة حساسة وشهوانية في الوقت نفسه، وهما صفتان يصعب أن تجتمعا في مؤخرة واحدة.. ها ها ها ها.. إنه يضرط بكثرة أثناء المضاجعة ويخونه بوله في كثير من الأحيان، ولكن لديه قدرة عصبية كبيرة تجعله يبدو على الدوام ضيّقا وبإست منكمش وهو ما يبعث الرضا عند أصدقائه ويمنح شعورًا لمُضاجِعِه بأنه يفعلها لأول مرة.. لقد تعلّم ذلك مني أنا.. إنه ابن بار لتعاليمي، لذا ستظل مؤخرته محتفظة ببريقها حتى تذهب إلى القبر.

مَن ذلك الفيلسوف الفج الذي يجلس أمامي، برائحة نفاذة؟

سيخبرني قسطنطين بعد ذلك أنه ليس آدميًا عاديًا، وسأعرف أنه الشخص الذي كان في يوم ما "القس ثيوفيليس" قس الكنيسة الأرثوذكسية.. والذي أتى إليه الرب في حلم وأمره أن يترك مكانه، بعد أن ظل منيه يغرقه كل ليلة في أحلام متوترة بمضاجعة الرهبان.. فخرج من باب الكنيسة مقتنعا بأن الرب هو داعمه في مثليته.

"إنه الشخص الأكثر صرامة والتزامًا فيما يخص انحرافات الجسد.. لذا فإنني أراه متدينًا.. متدينًا فوق العادة بل وغير متسامح أحيانًا..".

هكذا سيتحدث عنه قسطنطين بتوقير، بينما ستؤكد كلوديا بعد ذلك، عندما يرد ذكره في إحدى لقاءاتنا، أنها رأته أكثر من مرة في الاحتفالات العامة التي تحرص على حضورها ولم تره قبيحًا أو مخيفًا كما رأيت:

"أشعر أنك بحاجة لإعادة النظر في تعريفك للجمال.. فعلى العكس مما ترى.. هو ملاك شاحب.. مطرود، يحول آلامه إلى ضحكات متواصلة وأصوات.. وهو لا يحب المال ولا يحتفظ به.. ولا يطلبه أحد منه.. ثيوفيليس هذا شخص يستحق الاحترام وليس حتى العطف.. فجسده المحطم ليس إلا مظهرًا خادعًا لتماسك داخلي يصعب أن يحظى به واحد منا..".

طلب كأس نبيذ وثلاث زيتونات.. تجرع الكأس على ثلاث دفعات، ومع كل رشفة كان يبتلع زيتونة دون أن يزفر نواتها.. وعندما بدأ الدفء يسري في جسده خلع قلنسوته السوداء الطويلة والمعطف الأسود الفضفاض الذي كان يسدر على جثمانه مغطيًا ساقيه، أو ساقه بمعنى أصح، وارتعبت وأنا أحدس أنه سينزع عينه الجاحظة البللورية في أي لحظة ليتأملها وينظفها ثم يعيدها إلى مكانها.

"أنت فتى يوناني صغير وأنا أراك لأول مرة.. ورغم هدوئك إلا أنك تبدو شرسًا في أعماقك وخائنًا لسبب ما في تكوينك.. وبالتأكيد يعلم قسطنطين ذلك.. فهو أذكى مما تتخيل..".

ثم سرح فجأة.. وصاح مأخوذًا كالغائب في رؤيا:

"هاه.. إنني أراه... صديقك الآن يرتج ويهتز جسده كله.. في غرفة فقيرة بأحد بيوت "المكس".. فقيرة وقذرة وضيقة ورطبة.. وعضو أسود ضخم يفتقه.. يشق جسده حتى إنه يشعر أنه سيقسمه إلى نصفين.. ويصرخ.. بينما الجسد الأسود المفتول، الأبنوسي.. يرجه.. لِمَ صار عريه نحيلاً هكذا؟ هل نحل ابننا قسطنطين لهذه الدرجة؟؟

"إنه قواد متبجح.. وهو ينظر لما يفعل ويستشهد بعدة كتب أنجزها وبالطبع لم يتمكن من نشرها.. فساعده قسطنطين على طبعها بشكل بدائي في ملفات كما يفعل في قصائده.. وتوزيعها على "القادرين على قراءتها".. إنه يتخيل أنه ند حقيقي لله وأنه يبحث عنه ولكنه يختبئ منه على الدوام.. الله يختبئ منه!!.. هل تعلم أنه يحضر جميع الصلوات ويذهب ليعترف؟!.. ثم ماذا؟ يلتقط ضحاياه من الكنائس بالذات.. بنظرة سريعة يستطيع اختيار الأشخاص ويخرج بهم ليضاعف من عدد "اليونانيين الأنقياء" كما يطلق عليهم.. وقد تنذر مرة بانه لن يموت قبل أن يجعل من كل يوناني الإسكندرية مثليين..".

هكذا ستتحدث كريستينا عنه، محولةً الخرافاتِ الصغيرة التي تصلها عنه من ثرثرات "إيليت" إلى حقائق لا تحتمل اللبس.

"لماذا تركته يرتدي القميص السماوي عند مغادرته؟ ألا تعرف أن هذا اللون يجلب له الفأل السيئ؟".

لم أصـــدق.. كيف عرف أنه نـــزل مرتديًا هـــذا القميص؟؟.. ارتعدت.. وعندما وجدت الطفلة تخرج من غرفتها أدركت أي نهار أســـود طلع علي. اقتربَت ببطء وهي تفــرك عينيها الغارقتين من النوم. كنت أعد نفســـي لحفل عبثي عندما أنزلت كفيها الصغيرتين ورأتـــه.. ولأول مرة أرى هيليني المرعبـــة ترتعد مطلقةً صرخة هائجة كأنها رأت وجه المـــوت مجددًا.. رَكَضت إلى أقرب غرفة وأغلقت الباب خلفها بعنف.. وكان بإمكاني أن أسمع الوجيب العالي المضطرب لدقات قلبها اللاهثة الخائفة يصلني عبر بابها المغلق.

كان قد بســـط ذراعه الوحيدة وكأنه يرحب بها.. ولم أصدق أنه يراها. عندما اختفت تمامًا من المشـــهد قال بحســـرة، لماذا تخاف مني الطفلة إلى هذه الدرجة؟.. أم أنها تكرهني بالفطرة مقلدةً بنات جنسها الكريهات؟

صار الهواء كله رائحة زفيره التي يصعب تحديد كنهها، مزيج من كحول وعطر نفاذ وسمك نيّئ، أتنفسه وكأني أجلس داخل فمه.

كنت على وشك الاختناق، لا أعرف ماذا في وسعي أن أفعل، عندما انفتح الباب، ولمحت قسطنطين يدلف، مشعث الشعر ومطرق في ذلٍ وتبدو وجنتاه محمرتين كأن شخصًا ظل يصفعه لوقت طويل. لكنه ما أن لمح ثيوفيليس، حتى بدا وكأنه استعاد كبرياءه وتماسكه في لحظة. هرول نحوه سعيدًا وانحني ملتقطًا ذراعه ليُقبّل يده المرصعة بالخواتم، والتي لاحظتُ لأول مرة أظافرها الطويلة المدببة والمطلية بأحمرٍ قانٍ.

بعد قبلة اليد، (التي رأيتها غير مقبولة)، قرَّب قسطنطين فمه منه واستغرقتهما قبلة بطيئة طويلة تبادلتها شفاههما.

بعطف أبوي خبط ثيوفيليس بعصاه على مؤخرته، "لم تعد تسأل علي أيها النذل!.. وأنا الذي أعتبرك أفضل تلاميذي!.. سأشكوك لبابازيس.. فهو الوحيد القادر على معاقبتك!".

كان يشير فيما يبدو لقسطنطين بابازيس، ناظر مدرسة "أرميس" التجارية اليونانية، والذي كان قسطنطين يذكره دائمًا بتبجيل يليق باله. لقد أرسلته أمه إلى هناك بعد تردد، حسبما أخبرني، ليلتحق لأول مرة في حياته بمدرسة نظامية، في السادسة عشرة من عمره.

"كنت قد أتقنت الإنجليزية والفرنسية في البيت.. ولم أكن أعرف ماذا علي أن أفعل بعد ذلك.. عندما قابلت ذلك اليوناني الصارم والذي أخبرني أن هناك أشياء أخرى في هذا العالم يجب أن يتعلمها المرء.. لا سيما لو كان يونانيًا".

عثر بابازيس في ما يبدو على الشخص الذي كان ينتظره عندما تعرف إلى الفتى النحيف الشاحب والصموت، والذي قدم له حفنة أوراق مرتجلة قال إنها "قاموس تاريخي" يطمح في استكماله.. وقد توقف فيه عند دخول الإسكندر المقدوني للإسكندرية، وبنظرته الثاقبة، قرر أن هذا الفتى ليس في عقله مكان للمواد التجارية الجافة وحسابات المال العقيمة، والتي كان بابازيس نفسه أكثر شخص يضجر منها ويراها لائقةً بالأغبياء أو محدودي الموهبة. بدأ بابازيس يجلب معه الكتب الضخمة التي كان يعتبرها ثروته الوحيدة في هذا العالم، ويمنحها عن طيب خاطر للمراهق المتوحد الذي تسبح في وجهه بثور حمراء صغيرة قد تشوهه ذات يوم.. وكان هذا علاجًا يجربه بابازيس لأول مرة في تاريخه، لوسواس قهري ظل يلازمه، يجعله يرفض أن يلمس أي شخص كتبه أو تلوث أصابع صفحاته التي كانت ملكيته غير القابلة لأدنى قدر من شراكة. كان يتحسس الكتب، ويفتحها ليتشممها باستغراق كأنه نوع غامض من إدمان رائحة الورق، ولو لمست يد غريبة كتابًا يخصه، عفوًا حتى، كان يتركه لصاحبها رافضًا بإصرار أن ترد الهدية التي قدمها مغتصبًا، ليشتري نسخة أخرى، والوضع نفسه كان مع صحفه التي يرفض أن يطلع عليها أحد.

كل ذلك ذاب أمام قسطنطين، حتى إن الرجل ذا الملامح الصخرية المتجهمة والتعبير المحايد الذي لا يفارق وجهه، قدم له

أهم كتبه عن طيب خاطر. وخلال أيام كان قسطنطين قد بدأ يغرق في الكلاسيكيات وكتب الحضارة اليونانية القديمة.

ما علاقة ثيوفيليس الغامض هذا بأستاذ التاريخ المبجل؟ وهل لا يزال حيًا؟

قال قسطنطين كأنما تذكر فجأة جانبًا مفقودًا في سفينة حياته الغارقة، "آآه.. الأستاذ المبجل قسطنطين بابازيس.. لقد كان يقدرك كثيرًا.. وقد قال لي: "لن تستطيع أن تنجز كتابًا عن التاريخ اليوناني لا يكون فيه ثيوفيليس..".

"نعم.. ولكنك هربت مني أيها الخبيث ولم أرك إلا عندما عدتَ من الآستانة.. وكنت قد جربت مؤخرتك بالفعل مع الأغراب فلم أحظ بشرف اكتشافك!".

نهض قسطنطين وصب كأسين. شعرت أنه متوتر بعض الشيء لوجودي أثناء ذلك الحوار.. وربما كان قلقًا من جلستي مع ثيوفيليس التي سبقت حضوره، لذلك سيتجرأ بعد مغادرته ليسألني عما قاله لي أثناء غيابه.

بعد أن ابتلع ثيوفيليس الرشفة الحارة الأولى من كأسه بدا كأن جوفه احتبس فجأة، فجحظت عينه الكبيرة ورأيتها تخرج لسنتيمترات عن حدقته التي تجاهد كي تبقيها في محيطها. بدا أنه سيموت في هذه اللحظة، قبل أن تنطلق منه بصقة خضراء ممتزجة

بالدم استقرت على جبهة قسطنطين. أخرج قسطنطين منديله بهدوء، ولم يبد عليه أنه قرف مما حدث. ولكن يد ثيوفيليس قفزت بسرعة بمنديله الملون، ومدته له.

"التقطها بهذا المنديل.. إنه شرك مثالي لكائنات جسدي الخبيثة!".

نزع قسطنطين البصقة برفق كأنه يخشى أن يصيبها بأذى، ثم قدم المنديل مرة أخرى للرجل.

تململ ثيوفيليس، وقال ضاحكًا: "حان وقت نزع الملابس.. لقد احتملتها لأطول فترة في حياتي.. كي لا ينزعج ضيفنا فقط!".

تقززت من وصفه لي بالضيف، وشعرت باحتقان شديد تجاه قسطنطين الذي تلقى إهانته، كالعادة، بتسليم باسم. بسرعة نهض الشاعر، وبدأ يساعده في خلع بذلته السوداء ثم قميصه الأسود وبنطاله الأسود. ولأنني كنت أتخيل ارتداءه لملابس داخلية، لم أتصور أن أفاجأ بعريه مبكرًا هكذا.. ولأكتشف، في ذعر جديد، أن ثيوفيليس هو شخص بلا جسد تقريبًا.

كان هيكلاً عظميًا حائلاً، دون لحم أو جلد.. رقبته ورأسه فقط يوحيان بهيئة شبه إنسانية ينطوي عليها ذلك الكائن الفقاري.. ولم يكن في حوضه ما يدل على أن عضوًا ذكريًا نبت ذات يوم في جسده.

بمجرد أن تخفف عاد ليضحك، بشدة وابتهاج.. ضحكة زلزالية هُيّئ لي معها أن عظامه ستتطاير في هواء البيت.

...

(في هذه اللحظة، يفكر ثيوفيليس في طريقة يصل بها إلى سرير الرجل المريض، يخمن أن جسد قسطنطين الشاحب بحاجة إليه، وأنه لو كانت ثمة هدية يقدمها له في احتضاره، فإنها رجل).

*يبدو الطبيب الشاب منقبضًا بعض الشيء. يقترب مني، ويهمس في أذني بصوت مرتعد:

هناك شخص يريد أن يراه.. يقول إنه القس الذي سيعطيه المناولة ويحصل على اعترافه الأخير..

ألحظ لأول مرة أن جسد الشاب يرتعش. لا أعرف السبب الحقيقي لارتجافه، هل من فكرة أن المريض الاستثنائي سيموت وقرر أن يعترف، أم لشيء آخر؟

انكمش قسطنطين في ركن سريره، كأنه يتقي سهامًا سيقتله حديثُنا بها.

شخصت كريستينا بركن عينها للباب، حيث أطل الشبح القاتم من بين أسماله، ومسح الغرفة بعينه الكبيرة، وهُيّئ إلي أنني لمحت ارتعاد ملابسها بينما يزرق وجهها.

دخل ثيوفيليس، في ملابس قس، ومن خلفه تقدم غلام مرتبك، في ملابس كنسية أيضًا، بدا صورة طفلية منه.

بوقار لم أتعوده منه رسم علامة الصليب بمجرد أن جلس على الكرسي المواجه لسرير المريض، وطلب منا أن نغادر الغرفة.. ليحصل من المريض على اعترافه الأخير ويعطيه المناولة.

*تقاسمتُ وكريستينا أريكة خشبية في الممر، وكان التوتر يقتلها.

"ثيوفيليس.. هذا الشيطان.. ماذا يريد منه؟.. إنه حتى يرفض أن يدعه يصل إلى الآخرة مطمئنًا".

لم أرد. كانت كريستينا ترتجف.

عندما تُوَّجه لي كريستينا أي عبارة أشعر أنها أدخلتني في متاهة. لا نتبادل الحديث إلا عند الضرورة القصوى، وقد تعودتُ هذا الحاجز النفسي الذي يفصلها عني، والذي عَبَّر عنه قسطنطين ببساطة قبل ذلك بقوله إن كريستينا تتقيأ عشاقه.

"سأنزل إلى الحديقة..".

لم أعرف إن كانت بهذه العبارة تدعوني لمصاحبتها، أم تخبرني فقط بما ستفعل.. لكنها بعد أن ابتعدت خطوات التفتت ونظرت إلي متسائلة، فتبعتها.

واجهتنا الحديقة بلسعة برودة صباحية، بينما نوغل في العشب المبتل بالندى.

يبدو الهواء هنا مضاعفًا، أشعر بينما أنهبه أنني لا أقوى على التنفس. هواء أزيد مما يلزم، مُكرسٌ ليدخره المرء.. هبات متلاحقة تخترق الأنف لتغمر الرئتين بلا استئذان، كأنها معدة للمرضى الذين أدار لهم الهواء وجهه في أماكن أخرى.

أشخاص قليلون، يتحركون مع ذويهم، وبعضهم يجلسون على الأرائك المتناثرة. الجميع شاردون، لهم الشحوب نفسه، حتى إن التفريق بين المرضى والزائرين أو المرافقين يبدو مستحيلاً. كنت فكرت أن ثمة أماكن تجبر المتواجدين فيها على أن يصبحوا متشابهين، وصدقتُ دائمًا أن كل من يعبر بوابة مستشفى، يتحول تلقائيًا إلى مريض.

من الخارج، يبدو المستشفى اليوناني أكثر رهبة، ورغم أننا (قسطنطين وأنا) لم نقطع سوى بضع خطوات لنصل إليه من البيت، إلا أنها بدت دهرًا، مثلما بدا البناء الشاحب كأنما يغرق في عالم آخر أبعد ما يكون عن هواء شارع ليبسوس.

بمجرد أن عبرنا بوابته الحديدية الضخمة، المشغولة بإتقان، وبدأت أقدامنا تدهس الساحة المعشوشبة التي تبدو واسعة، أدركت أن ما كان يتبدى لى من الخارج حديقة حقيقية كان أقل من ذلك بكثير، فالأشجار الضخمة تقلصت إلى شجيرات منثورة عشوائيًا، نحيفة ومتصلبة كأنها مريضة ومتأهبة لقدر غامض.

الآن نتحرك أنا وكريستينا صامتين. تبدو مغمضة، وهي تستنشق عبير الزهور الجاثمة على الشجيرات.

أخيرًا تنطق. تتحرر من الظل الثقيل للقس المزيف الذي يعبث بمريضها خلف باب مغلق.

"الزهور هنا لا تلائم المرضى.. إنها نفاذة.. تحتاج أنوفًا قوية.. وفي حالة شخص مثل قسطنطين فإنها علامة على اقتراب الموت".

كانت كريستينا، كما عرفت من قسطنطين، شغوفة بالزهور.. ولها فلسفة بسيطة مفادها أن الزهور هي الشيء الوحيد الذي يُذكر بالحياة قدر ما يُذكر بالموت.. وقد كانت ترتبك كلما تشممت زهرة، كأنها تواجه مشاعر متناقضة بين البهجة والحسرة، عليها أن تحسمها مضطرة.

الحسم! إنه مفتاح كريستينا الغائم الذي طالما حدثني عنه.

"تريد أن تربح المال لكنها تكره المال.. نزقة ومتدينة.. تحب شعري غير أنها تحتقر حياتي الجسدية.. كريستينا نفسها زهرة حسب تصورها عن الزهور!".

بالقرب من البوابة، تصطف الندابات المصريات، أعينهن تغور في عمق المستشفى، ينتظرن خروج جثة ليتعاقدن على البكاء ولطم الوجنات والتمرغ في الأرض. كان قسطنطين يتوقف في مرات كثيرة ليتفرج على قطيعهن المتسربل بالسواد في شهقة الصباحات الساكنة، يبدون له تكوينًا شعريًا.

"غريب أمر هؤلاء المصريين.. قادرون على تحويل كل سلوك إلى مهنة.. حتى توديع الميت!".

كنت أنقبض، وأحاول أن أشده بسرعة لأنني أعرف أن استغراقه في مثل هذه التفاصيل قد يطول.. وكانت تخيفني وجوههن الحجرية التي ينبت فيها الشعر وتنتشر بامتدادها البثور الداكنة ذات الرؤوس الدقيقة المصفرة، وأكفهن المخشوشنة غليظة الأصابع.. خاصة مع وجود طفلات يرتدين الملابس نفسها ويتهيأن لإكمال المسيرة بشيخوخة مكتملة.

"إن شارع ليبسوس هذا يلخص الإسكندرية بشكل نموذجي.. فيه مستشفى لآلام الجسد.. وماخور للذاته.. وحانة للنسيان.. لم أقصد عندما اخترت هذا البيت أن أتورط في المدينة لهذا الحد.. لكن ذلك حدث.. ويبدو أن المدينة هي التي فعلت ذلك بقدرتها على صنع القدر.. وقدري بالذات".

تتوقف كريستينا فجأة، يعلو صدرها ويهبط بينما يوشك صوت تنفسها أن يكون مسموعًا. تنظر إلي كعادتها، متسائلة، من دون أن تنطق، وكأني مطالب بالإجابة عن أسئلتها المضمرة. الغريب أنني تعودت الانخراط بالفعل في البحث عن إجابات محتملة، أنطق بها، فتعود لإحباطها.

*خرج ثيوفيليس مطرق الرأس في جدية مضاعفة، وبصحبته المراهق الذي بدا وجهه مضرجًا بالدماء.

بمجرد أن لمحته كريستينا أشاحت بوجهها بسرعة.

وقف مع الطبيب للحظات، ثم ناداني.

"لقد فعلناها.. ها ها ها ها ها.. وعليك أن تتولاه.. إنه الآن مهيأ للمضاجعة تمامًا..".

عندما دخلنا غرفته، رأيناه مبتهجًا كما لم أره أبدًا منذ جئنا إلى هنا. تورَّد وجهه، وبدا كما لو أن كريستينا تتحاشى النظر في وجهه هو الآخر.

ستتجرأ في المساء لتقول لي ، بينما تتهيأ لتغادر:

"كأنهما تبادلا وجهيهما.. كان هذا الدميم يغادرنا وفوق رقبته يستقر وجه قسطنطين.. بينما كان قسطنطين يبتسم -ولاحظ أنه لم يبتسم منذ وضعوا جسده على سريره- بملامح ساخرة مليئة بالتهكم.. بقناع ذلك القس المزيف الذي ألصقه بوجهه ثم مضى.. إنني أرتعد كلما نظرت في وجه قسطنطين.. أبحث فيه عن أثر الشخص الذي أعرفه.. أعتقد أنك ستضطر لاحتمال ليلة صعبة.

نبوءة كريستينا تحققت، فقد امتدت يده في المساء، لأول مرة منذ جئنا، وتحسست عضوي الساكن.

قسطنطين

يُخرج قطعة الطباشير من جيبه، ويكتب، فوق جدار متسخ، "لن تأتي إلى هنا مرة أخرى. لن تفعل ذلك مرة أخرى".

لا يطوّح قطعة الطباشير، بل يعيدها إلى جيبه، لأنه يعرف أنه سيعود، وسيكتب ذلك مجددًا.

على قصاصة مُهمَلة، يتحرك سن قلم غاضب، "أقسم ألا أفعل ذلك مجددًا". القلم أيضًا سيظل على مكتبه، ليكرر العبارة مرات ومرات.

لكنه يستيقظ في الليل، ليتجه إلى الشوارع المخفية، متشحًا بالملابس التي تخفي ملامحه، ملابس امرأة مصرية، حيث ينتقم مجددًا من جسده، يهينه ويمثل به ويتخلى عنه.

في بعض الأيام يقسم أن يبدأ حياة أفضل

ولكن عندما يأتي الليل بأفكاره

ومصالحاته ووعوده

عندما يتسلل الليل بقواه الفريدة

برغبات الجسد وشهواته

يعود خاسرًا إلى الملذات المهلكة ذاتها..

يعود خاسرًا إلى هنا. يكتب قصائده القديمة من جديد، ثم يطفئ الشموع ويغيب في الظلمة المحببة لحواسه.

هل كتب شيئًا خلال الشهور الفائتة؟

قصيدة واحدة في عام كامل. أي أرض مجدبة تحولت إليها أصابعي؟

لقد ظل يرددها، ويكتب سطورًا منها على أوراق متفرقة حتى إنني لم آلفها وحسب، بل صارت بالنسبة لي جزءًا من كلامه اليومي، واحدة من قصصه المكرورة التي يرددها كثيرًا، كأنه يحكيها لأول مرة، ناسيًا أنه سردها من قبل.

أي عشيق ألح عليه حتى إنه أبى إلا أن يكتبه منفردًا، في عام كامل؟

إنه يفكر فيه كثيرًا. (أعرفه حين يفكر في رجل، حين يتذكر ذكرًا).

يبدأ بالرسم، كما يفعل الآن بالضبط. يحاول، مرة بعد أخرى، أن يصل لصورة تطابق ذلك الذي يشتهيه أو غادره منذ سنوات دون عودة. يكون منفعلاً، ومغمض العينين طوال الوقت كأنما يستحضر روحًا ستتجسد بمجرد أن يفتح عينيه.



أفكر في رجل عرفته قديمًا. أفعل ذلك بينما أرسم وجه رجل آخر. لا بد من تضليل أي متطفل. إن ذلك الوجه يلح علي حتى إنني أعتقد أنه القصيدة الوحيدة التي يمكن أن أنجزها منذ ذلك العام البعيد. كان ذلك هو العام الذي بقى فيه حبيبي دون عمل. يلعب النرد والورق. ويستدين ليعيش. كان في الخامسة والعشرين

من عمره. وعلى قدر من التعليم لا بأس به. لا يكاد يكسب في اليوم شلنين أو ثلاثة شلنات. من لعب النرد والورق. وماذا يمكن أن يكسب أكثر من ذلك صبي مثله. في المقاهي الرخيصة التي يرتادها من هم على شاكلته؟ رغم أنه يلعب بمهارة. وينتقي لاعبين بليدي الفهم؟ أما عن الاستدانة. فلم يكن فيها موفقًا. نادرًا ما كان يجد من يرضى أن يقرضه ريالاً. كان يتقلص في الغالب إلى النصف ريال. وفي بعض الأحيان كان يقنع بشلن. وعندما كان ينجو بجلده في بعض الأحيان أسبوعًا أو أكثر في الغالب من مجالس السهر المرهقة. كان يلطف حرارة جسمه بالنزول إلى البحر. للسباحة في الصباح والاستجمام. كانت ملابسه في حالة من السوء بالغة. يرتدي على الدوام سترة واحدة. سترة متهرئة. حائلة اللون مثل القرفة..

ينزل من بيت مرتجل، كأنما أعد على عجل. يهبط سلمًا معتمًا متكسر الدرجات، ويتعثر أكثر من مرة.. رغم أنه لم يتعثر وهو يصعد. تفزعه قطة غائبة في لفافات قمامة عند باب البناية.

عندما ينظر لأعلى؛ يرى نافذة تنفتح وستائر تنزاح وضوءًا يشتعل، لكنه يجد أيضًا بيتًا فقيرًا وقذرًا يتهاوى، حتى إنه يندهش، كيف لم يسقط هذا البيت بينما هو يساوم الشاب الفَتِي برصانة على ساعته وأمواله التي استبقاها رغمًا عنه. ليس في جيبه قطعة عملة، ولم يعد قادرًا على تحديد الوقت، وعليه أن يعود إلى بيته مشيًا،

مراقبًا عتمة الموج والنجمات الشاحبة في السماء الربيعية.

لقد صار يفقد في كل مغامرة ليلية تذكارًا، يتجرد منه عنوة كأي عاهرة، وليس من عزاء سوى قَسَم كاذب بألا يفقد المزيد.. لكنه لا يلبث أن يحنث بوعوده. يصل إلى بيته بتماسك مزيف، يراقب على الحوائط ظلاً يتجسد ويسأل متى سيموت ذلك الخيال الذي يستمد حيواته من صور ماضيه.

من له الآن؟.. ثمة شخص رغم ذلك يمكنه أن يستقبله بكل ما ينوء به من خسارة.

يحيد عن طريقه، ليعبر شوارع متعرجة مبلطة وأزقة.

يهبط درجات أخرى متكسرة، ويسير في ممر رذائل مفتونًا ومفتتًا بعذابات أجساد حية، (حيث تعلو أصوات صرخات تزحف من غرف مغلقة على الجانبين، متع عنيفة هنا، اقتتال أجساد، طالما خشيه، منتصرون وضحايا)، وعندما يدلف أخيرًا، مبهورًا، إلى المربع الدخاني الذي يخفي ضبابه الكثيف الوجوه، يسمع صيحة ترحيب عالية. يسير باتجاهها متتبعًا الصوت فقط وقد أغلق عينيه، مجبرًا كالمنوم، إلى أن يجد نفسه قبالة ثيوفيليس، الذي يجلس وبجانبه غلام نحيل، يشبهه تمامًا.

(يعرف ثيوفيليس جميع الأماكن المعتمة في المدينة.. الحانات الرخيصة، الأقبية المخبأة، الشوارع البعيدة عن العمران، وبيوت

المتعة الكثيرة التي كانت تدار عبرها مدينة أخرى تمامًا غير تلك التي ترقد في النور. يعيش القس المطرود في مدينة مظلمة تحيا على الهامش، مدينة تقع بأكملها تحت الطبقة الهشة للشوارع المرئية، مثل مقبرة شاسعة تضج بالحركة وتتململ محاولة إزاحة العالم الثقيل الذي يرزح فوق جثمانها، مدينة يتشمم فيها الروائح الأليفة لأنفه المعقوف الحاد: روائح الأجنة الملقاة في القمامة، والأجساد المغدورة غير المكتملة. ربما لقب بـ"الذي يتطاير في الشوارع" لأنه كان يتجول خفيفًا رغم عجزه.. يتقافز بساقه الواحدة كأنه يرفرف، وعصاه منتصبة أمامه كأنما تقوده. هذه الحانة الرخيصة في المنشية، مملكة ذباب، واحة ضائعين خلف الواجهات النظيفة لمدينة تتجرد من ملابسها فقط في البيوت الرخيصة، وحيث يمكن لأي عابر أن يلعق كبرياءها، جدرانها من الخشب، ويجد المرء نفسه مجبرًا بمجرد عبور الباب على نزول درجات حجرية كثيرة متعرجة، وحيث يشح الهواء حد الاختناق، يمشي بعدها في دهليز شبه معتم على جانبيه العديد من الغرف المغلقة، تتسرب من خلف أبوابها أصوات صرخات وتأوهات كلها لرجال.. قبل أن تلوح غرفة واحدة بابها مفتوح، تفوح منها روائح الكحول النفاذة وصخب شباب وعجائز. إنها الحانة التي يفضل إله المصائر المنبوذ الجلوس فيها ليلعب الورق ويتحدث بلا انقطاع تقريبًا عن أفكاره المخيفة، مع أصدقائه، الذين كانوا هم أنفسهم ضحاياه، وقتلته المبيتين، بينما

يربت على الشعر الذهبي للغلام الذي لم يعد يفارقه.

الكثيرون يتندرون بهذا الابن الذي رزق به ثيوفيليس بالذات، ثمرة - ناضجة رغم كل شيء - لعلاقة مع امرأة أخطأت طريقها إليه وأخطأ طريقه لفرجها. يقول إنه فعل ذلك مرة واحدة، بدافع الفضول فقط، مع عاهرة مصرية وجدها ذات ليلة بين أحضانه، لكن المرة الوحيدة تلك أثمرت طفلاً، جاءت به المرأة إليه بعد تسعة أشهر: **ها هو ابنك.. وأعتقد أنك لن تشك في ذلك.** لم يشك ثيوفيليس، لأن الطفل كان صورة متقنة منه..).

يظنه الرجال الجالسون امرأة مصرية، بالملاءة السوداء الملفوفة، بالعينين المتحجرتين خلف "اليشمك"، يندهشون، ما الذي يأتي بامرأة مصرية إلى ثيوفيليس؟.. لكن العجوز يدرك، دون حتى أن يتطلع للعينين، أي زائر يتخفى خلف حجب الملابس.. فينهض، ويمسك بيده.

يخرج به ثيوفيليس من الحانة، تاركًا عيون الثملين لفضولها. لقد اقترب الفجر وبات عليه أن يتحرك متخفيًا بالليل قبل أن يكشفه النور، ثمة أناس آخرين في انتظاره، في غرفة سرية، مخزن أحد تجار القطن.

ينحنيان ليلجا القبو. (له رائحة غامضة، رائحة بعيدة من طفولته، والجدران مغطاة بالكتب). يجد نفسه في مكعب من دخان، اصطف أشخاص يجلسون القرفصاء كأسرى، ملتصقين، ذاهلين، شاحبين،

مرضى، بأرواح لم تعد مفتولة، بامتداد الحوائط. كلهم يدخنون، بشغف وعصبية. هُيئ إليه أنه يرى وجوهًا يعرفها لكنه غير قادر على تحديد أسمائها.. أحس بامتنان غامض لأنه عاد يرتدي ملابس ملائمة بعد أن ظن أنه سيموت في تنكره. في الطريق أخرج له ثيوفيليس ملابس ملائمة من جواله الضخم.. ساحر هذا الشخص.. لا يمكن أن يكون سوى ساحر.. ثم توارى به في خلاء معتم، كأنه خلقه، ليبدل ملابسه. كما يحب أن يفعل، اتخذ ثيوفيليس مكانه على الأرض، أصبح مركزًا للدائرة.

"الإحساس في نظر الأبيقورية ليس صياغة ذاتية ونسبية كما تعتقد الأفلاطونية، وإنما هو صورة مطابقة للواقع تنشأ من اتصال بين جسمين: الأول خارجي حسي، والآخر ذاتي متعلق بالعضو الحاس.. ولأن الإحساس خامة تبدأ معارفنا بها، لذا لا يمكن تسويغ صحته بالعقل الذي لا يكون عليه الإتيان بتفاصيل الإحساس وانتقاده، بل العكس هو الصحيح؛ أي أن الإحساس يفرض نفسه من دون حاجة إلى أي تسويغ، لأن مجاله، برأي أبيقور، متقدّم على مجال العقل. وبذا خالفت الأبيقورية المذاهب العقلية التي اعتقدت أن الإحساس ليس نقطة انطلاق المعرفة الصحيحة، كما خالفت المذاهب الريبية التي أكَدت استحالة المعرفة. فالإحساس، في نظر الأبيقورية، يمكّن الإنسان من العيش في توافق مع الطبيعة ومع المجتمع، وفي سلام داخلي.. وهو الأساس في الأحلام، لأن الظلال

الناجمة عن الموضوعات الغائبة هي التي تنتجها عندما تتلاقى الحواس، وهكذا أبعد أبيقور السمة الإلهية عن الحلم، ليجعل من الإنسان سيد نفسه ومصيره..".

يتوقف ثيوفيليس ليلتقط أنفاسه، مغمورًا بالعرق. لا يزال هو مطرقًا، وامرأة، كنمرة مبللة، تتأمله من ركنها، (عيناها قادمتان من أشرس نقطة يمكن أن ترقد في وجدان الأنثى، هذه امرأة قادمة من حفل وثني في إنطاكية). تلتقي عيناهما، مثلما تتقابل مرآتان غاب عنهما الكائن، ويغيب في العينين الأشد زرقة، ظهيرتين تلتهمانه. متى رآها قبل ذلك؟ ربما مع ديمتري، أحد أعضاء جماعة الحياة الجديدة؟

(سيخبره ثيوفيليس في ما بعد أنها تحفظ أشعاره، وأنها تملك حسًا عميقًا بالحياة).

"اسمها كلوديا.. هذا على الأقل الاسم الذي تقدم نفسها به. لها صوت جميل.. تستخدمه لتعيش.. لكنها تعرف أكثر من أي أحد أن لا شيء حقيقي أكثر من أن تظل بلا موهبة.. لا أعرف كيف توصلت لهذا الجانب العميق في التفكير السليم.. لقد اكتسبت موهبة جديدة دون أن تعرف.. وكان يجب ألا تعرف هذه المرة.. لكي لا تدخل في الدائرة المفرغة لوجودها.. تقول: أن ترى جسدك في عيون الآخرين.. أفكارك.. كأنك موجود فقط لتغذي فكر شخص آخر.. إنه نوع من إنكار الذات.. سمِّه تضحية حتى لو أردت.. لكنه

يجعلك دائمًا بمعزل عن وضع ذاتك أمام أقصر الطرق لموتها..".

ينهض الجميع، وتصافحه أخيرًا وهي تنظر في نقطة عمياء، بين أنفه وشفتيه، عم تبحث هنا؟

تمد له يدها بنسخة من ديوانه الوحيد، وتشهر قلمًا أمام عينيه، دون أن تنطق بكلمة. أي تعالٍ تطلب به تذكارًا من يده؟ يخط إهداءً مرتجفًا، لا يعرف ماذا كتب. يشعر أنه تعرى. كان يتمنى لو لم يعرفه أحد هنا. بحركة فطرية يُقلِّب الكتاب من جديد بين يديه قبل أن يعيده لها، لكنه يفاجأ بالكلمات المشطوبة، وبدغل الكلمات الذي لم يترك نسمة هواء تستنشقها كلماته. تمتد اليد بسرعة وتلتقط ما ائتمنته عليه، قبل أن يكشف سرها.

يظل متوترًا بعد مغادرتها، لكن ثيوفيليس يطمئنه.

"لا تريد شيئًا منك. لا تريد شيئًا من أحد. لكنها ستقتل شخصًا ذات يوم، أو سيقتلها شخص. لا يمكن لامرأة حرة أن تموت في سريرها".

يغادرون، ويبقى هو. يبدأ في الحكي، في البكاء. بعد بضع همهمات لا يبدو أن ثيوفيليس عاد ينصت. ذهنه في مكان آخر، كأنه يصغي لصوت أعماقه، لكن صوتًا آخر يطرق الباب، يفتح، ملهوفًا، وتقذف يد من خارج الباب بطفل مصري. يقوده ثيوفيليس بهدوء، قبل أن يفلت يده. يتكوم الطفل في ركن، ويبدأ في النظر

حوله بعيني قط منكسر. يغيب ثيوفيليس ثم يعود إليه بطبق تفوح منه رائحة حساء. ينكب الطفل بكل وجهه فيه، ويخرجه غارقًا.

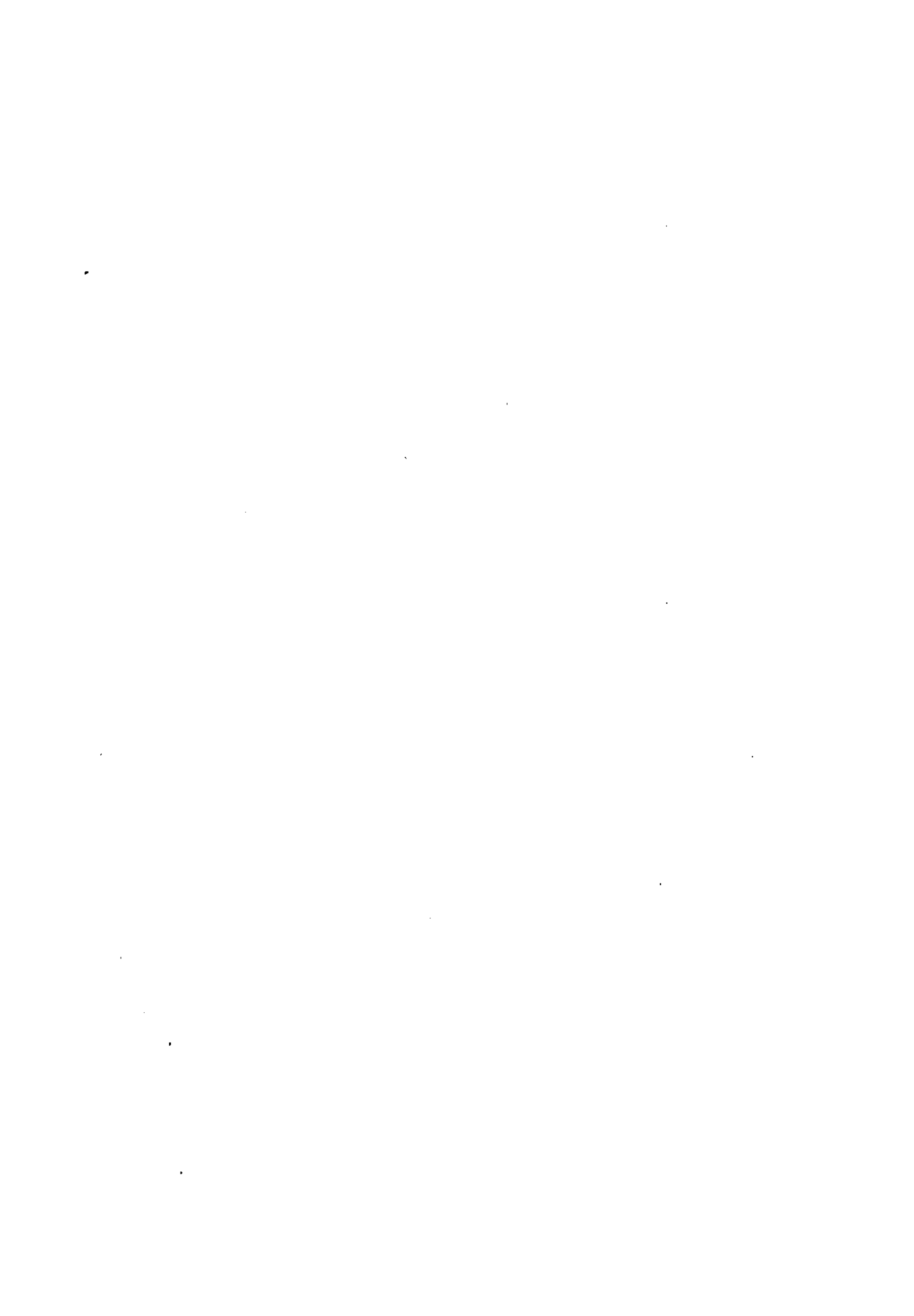
ينظر إلى ثيوفيليس ولا يجرؤ أن يسأله من هذا، هل حقًا يتاجر بالأطفال كما يشيع الكثيرون؟ اعتبرها دائمًا تهمة مبتذلة، تلائم الخيال السوقي الذي يطوق شخصًا اختار أن يكون منبوذًا خارج فردوس الاتفاق. يرمي ثيوفيليس للطفل بسيجارة، بالطريقة التي يقذف بها شخص ببقايا طعام لحيوان عابر ومستيقظ، يدخنها الغلام بنهم، قابضًا عليها بكلتا يديه، وهو يدير فيهما عينيه المحدقتين المتحجرتين.

"اعتبر ما رأيته سرًا".

يقولها ثيوفيليس وكأنه يؤكد اتهامًا لنفسه.

يفتح الباب ليخرج، يقول له، لتبِت ليلتك هنا، ستجد عزاء، أفرغ كل إهاناتك قدر ما تستطيع.

ما إن يغلق الباب خلفه، حتى يقترب قسطنطين من الطفل، يتشمم الحيوان الصغير المشحم، ودون أن ينطق، يشده، أخيرًا عثر على جسد مصري أكثر ضعفًا منه، وأخيرًا، ربما لأول مرة في سنواته الثلاث والأربعين، يترك يده لصفعة على الصدغ المتأهب، شعر بها على جسده، قبل أن تمتد يده الأخرى للسوط المتكوم على نفسه، على مبعدة خطوات.



ديمتري

(أمجد أيامي هي تلك،
عندما أتخلى عن ملاحقة الجمال الجسدي،
عندما أهجر التقليد الهيلليني الجميل، القاسي،
مع استغراقه المهيمن
في الأعضاء المكتملة، البيضاء، الفانية،
وأُصبح الرجل الذي أريد أن يبقى إلى الأبد:
ابن اليهود، اليهود المقدسين
.. لكنه لم يصبح أي شيء من هذا القبيل
أبقت عليه الإسكندرية، بمذهبها في المتعة والفن
ابنًا منذورًا لها).

تتوسل كلوديا لديمتري، "حدثني عن أفضل مرةَ ضاجعته فيها، هل تضربه؟ ألم يترك في لحمِك كدمةً لا تُنسى؟".

تبدو دائمًا شغوفةً بجسد العشيق الغامض، وتتهمه بفقر الخيال. كلما تحدث - بالإسهاب الذي تحبه - تشتعل لبرهة، تختفي عيناها تحت ستارين سميكين ملونين لأجفان موصدة، ثم تعود محبطة بمجرد أن ينتهي. تحاول أن تدربه على قتل خجل ضروري، مبرِّرة ذلك بأن قتل ما يسمى الخصوصية هو العلاج الوحيد لمن يثقل عليهم الشعور بالإثم.

تقول، "إن ما يجمعنا هو التعاسة.. والتعاسة هي الوجه العميق للحب".

العرض غدًا، في السرير أدياه من جديد، بروفة أخيرة في أشد أماكنهما جديًا. ألقيا القصائد التي ستتخلل حوارهما، (غدًا سيلقيها رجل وامرأة لن يراهما الحضور)، وتعرقا.

منذ متى تناديه بقسطنطين، كأنه اسمه، ويناديها بأمي؟ (كان ذلك اقتراحه، لكي لا نخطئ ليلة العرض وتفلت أسماءنا الحقيقية من بين شفاهنا).

متى رآها ديمترى لأول مرة؟ (تقرأ ديوان الشاعر على طاولة منزوية في مكابي، ووجهها ملتصق بالزجاج؟ أم تغني في كازينو

سان ستيفانو؟ أيًا كانت المرة التي سبقت الأخرى، فإنهما، معًا، أكدا له أن خاريكليا عثرت على وجهها)، ثم.. متى عرض عليها فكرة مسرحيته؟ لقد كانت المفاجأة التي لم تتوقعها أبدًا، مطربة (رخيصة، ملكة بلا أمل)، ستكون بطلة في عرض، على شرف شاعر غامض تحبه.

...

تشرد كلوديا، وهي تستدعي المشهد الطويل لاقتحامه.. أكتفي بالنظر في ما تتذكره.

"كان يفكر في طريقة مبتكرة للموت، مختنقًا بالمدينة، عندما نهض فجأة من طاولته ليجلس أمامي".

(هناك أشخاص تقذف بهم المدينة، تضعهم في طريقك، ومثل المدينة لا يحتاجون مناسبة خاصة كي يفعلوا ما يحلو لهم، وديمتري كان دائمًا أحد هؤلاء الأشخاص، إنه، كما سأعرف، الابن المنذور للمدينة، شخصية أبعد ما تكون عن العلل والأسباب).

"عندما تعرف إليّ، أو اخترقني بمعنى أصح، كنت أجلس وحدي، بين يدي كتاب مفتوح، كتاب كفافيس المفتوح دائمًا بين يدي، كأنني جئت إلى الحياة فقط لأطالعه. في الحقيقة كنت أتظاهر أنني أقرأ، شاردة، على هذه الطاولة التي أجلس إليها معك، وعلى ذلك المقعد، وكان هو يجلس مكانك، وكان عشيقًا له مثلك، في

عمرك نفسه، ومحطم الملامح مثلما تبدو ملامحك الآن. شاردةً كنتُ حتى إنني لم أدر الصفحة لأكثر من نصف ساعة. لو تصادف وجود شخص يرقبني، (كان موجودًا، وكان قد بدأ يراقبني قبلها بفترة) فسيكتشف على الفور أنني لا أنتظر أحدًا، فلم أكن أستدير برأسي لأنظر عند مدخل الباب.. لم أكن أنفث بنفاد صبر أو أنظر في ساعتي بين لحظة وأخرى أو أراقب حركة الداخلين. كنت مستكينة، مستمتعةً بالضجر والشرود، أفكر في ترك بيت أسرتي بعد أن صارت خلافاتنا في هذا الخريف لا تطاق.

هو أيضًا كان يجلس وحده، لكنني لم ألحظ وجوده.

عندما اقترب مني، وواجه عيني بعينيه الجاحظتين المحمرتين، لم أتخيل أنه سيسحب كرسيًا ويجلس ببساطة، محدقًا فيَّ وفي الكتاب الذي بين يدي. لقد ظننته مجنونًا، وهو ما تأكدت منه بعد ذلك، وكانت نحافته الشديدة وملامح وجهه الحادة بأنفه المقوس وشفتيه الرقيقتين قد جعلتني أشعر أنني أمام شخصٍ قاسٍ غريب الأطوار. "هل أنتِ شاعرة؟"، أجبته باقتضاب، كاذبة، "نعم"، وعدت أحدق في الكتاب بسرعة كأنني أطرد شبحًا. رغم ذلك لم يتوقف، وفاجأني بالسؤال الذي لم أتخيله:

وما فائدة الشعر؟ إنني أكتب الشعر وأعرف ذلك الشاعر الذي تقرئين ديوانه ورغم ذلك سأموت اليوم.

رفعت عيني عن الكتاب وعدت أتأمله. لم أكن بحاجة لارتباك جديد في تلك الأيام التي كنت أشعر فيها أنني فقدت كل شيء، وفضلاً عن ذلك لم أكن بحاجة إلى أن أضيف لجبل هلعي خوفًا آخر.

لقد هربت من البيت وجسدي كله ينتفض.. دون أن أدري أين سأبيت ليلتي. كان آخر شيء يمكن أن أفكر فيه العودة لبيتي، حيث لن يرحب بي في ظل وجود زوج أمي الشاب.. ولا أعرف كيف انتهت الجلسة باتفاق أن أذهب معه إلى البيت ليريني لوحاته وقصائده التي سيحرقها عند المساء مثلما أكد.

كنا في الطريق إلى شقته، (وهي شقة صغيرة استأجرها في شارع فؤاد الأول كما أخبرني بحماس مفاجئ حط عليه، ووجدته غير مبرر).. عندما توقف فجأة كانما حطت عليه صاعقة. رجاني، كما لو كان يتوسل إلي، أن نشتري بعض الأشياء.. وافقته غير عابئة. بدا مبتهجًا جدًا لموافقتي.. وسبقني بخطوات وأنا ألاحقه، دون أن يخبرني إلى أين سنذهب. قطعنا بضعة شوارع جانبية حتى صرنا أخيرًا على حافة "حارة اليهود".. بروائح السمك النفاذة التي تفوح منها ونسيم الليمون القوي. مررنا بمدرسة "البارون دي منشيه"، لأفاجأ به يتوقف من جديد، ويبتسم، قال لي: "هذه مدرستي".. ثم تحرك من جديد ببطء أكبر، وراح يمسح دموعًا تسللت من عينيه فجأة.. "سامحيني.. إنها فرصة لأودع جميع الأشياء التي لن أراها بعد اليوم".

قدم لي عددًا من القصائد الحسية، والتي وجدتها مباشرة وتفتقد لألم الجسد العاري الحقيقي.. بعدها سيصير مولعًا بالسينما، ويبدو أنني من زرعت فيه هذا الولع، وعندما بدأ عمله بالبنك بدأ تمزقه.. قبل أن يتحول فجأة إلى يهودي مؤمن، وهو ما جعلني أتفاداه. لن تصدق أن كل ذلك حدث في أقل من سنة، إلى أن فاجأني ذات ظهيرة بفكرة العرض التي استحوذت عليه فجأة، وحدست أنه عاد لينتقم بطريقته المعهودة.

كان يجيد التمثيل بنفسه مرة بعد أخرى. يهجر الشعر فيحرق قصائده كلها، في الشارع، أمام الجميع ممن لا يعرفون شيئًا عنه ولا يريدون.. يتطهر.. ثم يتجول بين السينمات، يقضي أيامه فيها، يشاهد الأفلام المكرورة نفسها كل يوم.. كأنما يفعل ذلك فقط كي ينتقم من الضوء في الخارج، من المشاهد الحقيقية والناس الملونين على عجل ودون دقة كافية من الإله.. ينتقم من الزمن الحقيقي البطيء والمليء بالترهلات والوقت الضائع، عبر الحيوات الكاملة التي تنطلق من الميلاد وحتى الموت على شاشة في أقل من ساعتين. ثم ينتقم من نفسه مجددًا.. فينهمك في الإيقاع المكرور، والخيالات التي تفتقر للتنوع، والرائحة الوحيدة والحاسمة للورقات المالية الكبيرة.. الرائحة التي لا يمحيها أبدًا الماء ولا يحد منها أي اغتسال.. وفي الوقت نفس يتذكر أنه لا بد أن يعبر عن الشخص المؤمن الذي بداخله، والذي نسيه كثيرًا.. فيصير يوم السبت طقسًا

للبكاء والتطهر فقط. يلج معبد النبي الياهو بوجل، يعبر الرواق الكبير المرصوف بالبلاط الرخامي والذي يقود إلى الأبواب الخشبية للمعبد.. يتلمس أعمدة الرخام الضخمة.. يمسح يديه الملوثتين بعبق العملات فيها.. يزيح قصيدة حسية تأتي بها وساوسه فجأة، بينما يستشعر ثقل ثريات الأسقف الضخمة.. يتأمل الضوء القادم من نوافذ الزجاج الملون.. يتخلص مرة بعد أخرى من لوحة لامرأة جاثمة على أربع ككلبة شهوانية بمؤخرة ضخمة وشحوم تخفي روعة الجسد، صانعة روعة موازية من القبح.. ومجددًا، يستيقظ من النوم ذات صباح، ليطيح بذلك كله، كأنه كان مجرد حلم عابر.. ليقول، ولا يزال مقرفصًا في سريره، كأنما حط عليه وحي: أنا ملحد.. لا وجود لإله. يبحث عن قصائده القديمة، عن لوحاته، عن يومياته، عن المشاهد المتحركة المؤلفة من لونين في ذاكرته.. فلا يجد لها أثرًا.. ويندهش.. كأنه نسي أنه أحرق كل ذلك، أمام الجميع.. وعلى مرأى من العالم...".

...

يومها خاض بها عتمة أزقة، ليقرأ لها ما كتب، في شقة جديدة استأجرها، ولن يلبث أن يغيرها عندما يقرر أن يراقب الشاعر من شرفة قريبة. كان يفكر في الانتحار من جديد، (كعشيق مهزوم هذه المرة؟) لكن ذلك سيمدد عمره أيامًا أخرى. سرية غير مبررة، "لا يجب أن يتلصص أحد على ما كتبت". نصف مجنون، ويهودي

متطير، حتى إنها تصدق أنه يبحث عن ميتة لائقة. (هل إلى هذه الدرجة كان اليوناني قادرًا على تدميره؟ ماذا فعل به؟ لم يجبها أبدًا).

كيف يجيبها وهو لا يزال يتساءل؟ يستدعيه، كأقصى أمل ممكن، مثل انطباع مشوش، شخصًا مؤلفًا من تفاصيل متناهية الصغر، يرقبه ديمتري وهو مغرم بتفتيت أي مسألة، بحيث يجردها من تماسكها، (معناها نفسه كما أصبح ديمتري يحدس)، ويبدو قسطنطين مغرمًا، لحظة بعد الأخرى، بإفقاد أي موضوع مطروح للنقاش جوهره، ليجد نفسه في النهاية، (ومعه ضحيته)، أمام عنصر آخر، أرض مجهولة لم تعد تمت بصلة للجثة التي أجهز على روحها، ليواجه متاهة جديدة، لا يلبث أن يبادر بتفتيتها من جديد.. وهكذا، إلى ما لا نهاية، بدت له حياة الشاعر حبات رمال هشة تسيل من بين يديه، وقد نجح، بهذه الطريقة بالذات، (التي يبدو أنها كانت خيارًا وحيدًا أمامه رغم ادعائه غير ذلك)، في تحويل حياته إلى شيء محتمل، بتقويضها نهائيًا..

لا يجرؤ ديمتري أن يخبرها أنه تعرف إليه في مرحلة حيرة قاتلة وتشوش لا قبل لآدمي به، يسم عالمه، ولا تكشفه القصائد بالضرورة. في مطلع الأربعينيات كان الشاعر يرتد فجأة إلى مراهقته التي لا يمكن الحكم عليها إلا مقترنة بالسذاجة وسوء التصرف، وتحت مجهر دقيق من تماسك القلب، رغم أن ديمتري طالما رآه رجلاً ناضجًا، وهو ما لم يدم طويلاً، قبل أن يستبدل

الجدية بنوع من النزق العدمي. كانت صورة قسطنطين كفافيس في عينيه، (صورته دائمًا إذا اكتشف بعد قليل أنه لم يكن يملك شيئًا سواها)، شخصًا يتراجع للوراء بقدر ما يشحب ويتناقص وزنه بانتظام، كأنه نقيض جميع البشر الذين يسيرون للأمام، كحتمية لا دخل لهم فيها حتى لو لم يقبلوها، (وحيث لا شيء آخر يمكن أن يكونه خارج أقنعته المتلاحقة، التي عندما ينتزعها، ينتزع في كل مرة قطعة من لحمه وملامح وجهه، بينما يؤكد، مرة بعد أخرى: إنك لا تعرف أي سعادة يمكن أن تنتاب المرء عندما يستطيع إقناع شخص بأنه في حقيقة الأمر شخص آخر).

مثل شخص يتحرك ضد الزمن، وعكس عقارب الساعة، كان قسطنطين يفقد عامًا من عمره كلما أضيف عام لحيوات الآخرين، عائدًا في النهاية لطفولته.. وقد احتفظ من حطام حياته التي تحولت لذرات تراب ناعمة لا ملمح لواحدة منها، بوجه شغوف بمراقبة نفسه في تشوهات النوافذ.

في الوقت الذي عرفه فيه، كان مفتتًا بسؤال عن صمت الموجودات، مشوشًا تمامًا، يهلوس بعبارات عن الوعي الذي يتوهم وجود العالم، ليجعل كل ذلك الركام الأخرس يبدو حيًا، ويسأل: أليس كذلك؟.. هل من وجود يعيش بمعزل عن ذواتنا؟.. ثم يجيب: نحن لا نملك سوى المعاني التي نضفيها على العالم.

تنزلق كلوديا أكثر تحت الملاءات. هل سيحدث شيء هذه

المرة؟ من يصدق أن شابة، شهوانية، ومنفلتة من سجن الأخلاق، بصحبة رجل - هو ببساطة ديمتري - يلتقيان في مكان ضيق، ولا يكادان يتلامسان؟ في السرير، عندما تنكمش بجانبه، يكون العذاب أعظم، رجل وامرأة في سرير يتحدثان فقط. (أم وابن أيضًا؟ هل جعل الشاعر لقاء جسديهما مستحيلاً؟)، أُم سحاقية بصحبة عشيق شاعرها المفضل؟ يخوضان أشد الحروب جفاء وكأن لا وجود لجسدين متعرقين تحت ملاءة واحدة، يتناقشان في أمورهما الجنسية، يتفلسفان ويتشاجر ذهناهما. يغيب كل منهما في تخيل الآخر، في استكناه الشبح البعيد الذي يدير رفيقه. رغم ذلك تملك كلوديا تفسيرًا - وهل تعدم تقديم إجابات لأشد الأسئلة إرباكًا؟ - يبدو مقنعًا، أو فنيًا على وجه الدقة.

"لقاءاتنا تمنحني رجلاً، وتمنحك امرأة".

يجمعه بكلوديا تواطؤ خفي، عقد غير مكتوب، بموجبه لا يستطيع أي منهما أن يشعل بناره الموقدة الآخر. الغيرة، الشك، الحقد والكراهية الدفينة والعبودية غير المبررة، التعقيد الذي يليق بالغراميات الحقيقية، المريضة بالضرورة، وكانا يعرفان أن اتفاقهما مرهون بعجزين، عليهما ألا يتذكراهما طوال الوقت، على كل منهما أن يكون في خفاء من العالم المضيء لشريكه، العالم المرئي للآخرين والذي يحاول كل منهما أن يؤدي دوره فيه بشكل نموذجي. كذلك لم يخن أحدهما الآخر، أو، على وجه أشد دقة، وقع تعارفهما في اللحظة

التي كان فيها كل منهما منخرطًا بالفعل في خيانة ذاته نفسها.

لتخفيف وطأة أي شعور غير مطلوب بالغيرة أو عدم الرضا عن النفس، اتفقا على حل سحري، وهو الحل الذي منحهما، ليس فقط نوعًا من العزاء، لكن حلولاً مبتكرة في حياة اللذة، بتحويل حيوات أجسادهما إلى أسرار صغيرة يجري سفكها.

"كان الشاعر يقول: الأخلاق تكتسب شرعيتها من الاحتفاظ بالسر.. وهنا بالذات تكمن هشاشتها.. تناقضها الفادح.. لو أن جميع الأسرار كُشِفت!".

يُخرج ديمتري سيجارة من علبتها ويبدأ في نفث دخانها، حيلته المكشوفة كلما ضاعَفَت من ارتباكه. يطلب كأسًا (إذ لا مانع من هدنة صغيرة قبل أن يستكمل الحرب الذهنية) فتنهض في ضيق، وتنحني. يتعرف من جديد على جسدها، وهي تترك مؤخرتها في عينيه. لكنه، في العتمة، في الظل الدخاني، يستطيع أن يتطلع لحياته على سطح المرآة المعتم.

ثمة رجل يرتدي السواد على الدوام. سيعرف عندما يكبر قليلاً أن ذلك جزء من عقيدته. أمه تتخلص من شعرها بالموسى. تفعل ذلك ببساطة. عملية تعذيب أسبوعية تمارسها المرأة بدقة وسرعة وهي جالسة أمام المرآة. تضع رغوة صابون فوق جمجمتها ثم تزيح الشعرات النابتة. قبل أن تثبت الباروكة. وحين تخرج. تضع فوق الشعر المستعار قبعة كحلية اللون. هذا هو الجزء المكمل للعقيدة.

شقيقه. ذلك الصغير المحمر الأوداج. كان شعره أيضًا يُزال بالموسى. بينما تُترك خصلات طويلة متدلية على جوانب رأسه. سيكبر قليلاً. ويصير بمقدوره أن يعرف أن أمه لا تتعرى أبدًا. عندما تصعد إلى السرير ليلجها الرجل تظل محتفظة بثوب من الحرير أو الصوف. لا يكاد جسدها يلامس جسده إلا بالقدر الذي يسمح بالجماع.. لا تعرف جسده ولا يعرف جسدها.. ولا يمكن أن يتم الجماع إلا بعد أن يتأكدا أن الغرفة خالية من جميع الأرواح.. لا يمكن أن توجد حتى ذبابة أو بعوضة شاردة. فهذا حرام.. هل يمكن لها أن تصير ذات يوم ذلك الشبح لامرأة مستعارة؟ أمه لا تتطلع لجسدها. حتى وهي تستحم. ثمة شر عليها أن تتجنبه في ذلك الإثم الذي ينمو بمعزل عنها.. حتى الطعام. تعرف قائمة المطاعم التي تقدم "الكوشير" الحلال وليس من الممكن أن تحيد عنها. كي لا يعيش الشيطان في أمعائها.. عندما يقرر أن يدرس الفن. سيرى يد أبيه وهي تسقط على وجهه.. مجددًا.. مثلما كانت تسقط كلما رأى معه ديوان شعر أو رواية.. وفي لحظة. سيقرر أن يعيش خارج البيت.

سالونيك. لم يرها.. وإن ظل أبوه يتغنى بها.. في مقابل "أثينا المسيحية" المقبضة تمامًا. (بالمقابل سيحتقر الشاعر ذلك فيه. أنتم حفنة قرويين مرفوعي الأنف بلا مبرر).. سالونيك.. حيث يهود ثلاثة قرون. أكبر وجود في الدنيا. أغلبهم من السفارديم. مثله. مثل أبيه وأمه. نشب حريق سالونيك الكبير فهاجروا..

ذات يوم. سترفرف المرأة ذات الباروكة من شرفة الطابق الرابع. لتسقط على الإسفلت غارقة في دمها. عارية تمامًا. بجسد جميل حقًا. لا يعكس سنوات عمرها الثلاث والخمسين.. على رأسها الباروكة والقبعة. سينفصلان عن الجسد لدى السقوط. ليكتمل عريها.. ولتمنح جمجمتها العارية ميتتها ذلك الفزع النهائي.

لكنه سيعزي نفسه بكلمات الشاعر بالذات. وسيظل يردد لنفسه. "أنا ابن اليهود. اليهود المقدسين. من لم يصبح أي شيء من هذا القبيل. أبقت عليه الإسكندرية. بمذهبها في المتعة والفن ابنًا منذورًا لها".

توقظه كلوديا، بقسوة سؤال لم يجرؤ على التفكير فيه (أحيانًا نيابة عنه وكأنها مسئولة عن شريكه)، في جسد الشاعر الغائب، بكل ما تملك من خيال، ولا تعبأ بارتباكه الحقيقي. "أيكما عرض نفسه على الآخر؟".

يريد أن يقول "كان قاسيًا مع ضحاياه". ضحاياه! نعم، تمنى أن يقولها، وتمنى أن تُصدِّق. يفكر ديمتري أنه كان واحدًا ممن قدموا أنفسهم له طواعية ليتلذذوا بسياطه، محض قرابين له لا بد من وجودها لكي يعيش. ربما كمِن جزء من انجذابه الدائم نحوه في تأكيده الذكي على فشله وإخفاقه. أجاد أسره، بجعله في حاجة دائمة لاعتراف، منه هو تحديدًا، حتى لو أصدره العالم دونه، لم يكن ليساوي شيئًا. ويبدو قسطنطين وكأنه يعي ذلك تمامًا، (بموهبة

فطرية صقلها طول ما تعرض له جسده من إهانات حولته بعد فترة لما يشبه صخرة قاسية ووعرة)، ذلك أنه لم يمنحه الفرصة أبدًا للحصول على ذلك الاعتراف، الذي يعني أن يهجره للأبد. يفعل ذلك مع الجميع، وكأنه يتلاعب بعجزهم الذي يعرف أنه لن يُشفى سوى بصكوك منه. وقد قال له ذات مرة، يتذكرها الآن بنصوع، في واحدة من لحظات تصالحه النادرة مع نفسه، والتي تعقب مباشرة إهانته لشخص ما، بعد أن طرد شاعرة مصرية من بيته: "إذا تعاملت مع أي شخص كفريسة.. فإنه سيصبح فريسة.. لأنك سترى بنصوع نقطة ضعفه، مكمن مقتله أمامك مضخمًا كصدى صوت في بئر.. وستجده يدعوك لإيذائه دون أن يعي.. وحينها ستكتشف أن لا أحد قوي طالما أنت قررت ذلك وصدقته..".

تسلُل جديد ستبدؤه كلوديا من باب خلفي، وهي تحدق في عينيه كأنما تختبر قدرته على النظر إليها وجهًا لوجه.

"أنت لا تعرف المرأة يا سيد ديمتري.. تبدأ الأنثى ميلها لمضاجعة أنثى مثلها عندما تنفرها شفتا الرجل الخشنتين.. لكن الرجل عملي أكثر.. إنها مسألة تخص استعداد كل منهما للحب.. هل قَبَّلت هذا الشاعر؟ ألا تتقزز قليلاً؟ ألا تشعر أنها مجرد مقدمة ضرورية كي تنتصب؟".

كان يقول، "الخصوصية كلمة منفرة، لكننا جميعًا نبحث عنها،

فنتأكد أنها شيء غير موجود. لقد ألهمتني بتعذيبك المتكرر لذاتك، ورأيت ذلك نوعًا من الفلسفة وليس مجرد رغبة تافهة في الموت. ربما لأنني أعتقد أن من يريد أن يموت حقًا يمكنه أن يقرر ذلك بإخلاص وينام في سريره دون ألم ثم لا يستيقظ، غير أنني رأيتك متمسكًا بالحياة لأقصى حد.

أنا مثلاً لا أعتقد في كلمة خيانة. ليس لهذه الكلمة مكان في قاموسي الخاص. يصعب أن يلتقي الجسد والأخلاق، أنا لك في اللحظة التي فيها أنا معك، ولا أفهم، ربما لن أفهم أبدا، كيف أكون لشخص أيضًا في اللحظة التي لست فيها معه. الجسد دائمًا الآن، هو الحاضر، لذا لا يمكن اختباره إلا في لحظة حضوره. لست فيلسوفًا، ولا أحب هذا النمط من التفلسف، لكنني فعلا لا أفهم كيف - أو لماذا أيضًا - تريدني أن أكون معك بينما أنا لست معك. هل هذا هو الحب الذي تتحدث عنه؟ لو أن الحب هو هذا النمط من الغياب، من الحياة الرمزية للموت، فإنني لا أعترف به.

ديمتري العزيز.. أنت تكره اللعب في الوقت الذي تمارسه فيه، تطبقه على حياتك نفسها. تكره ما أفعله عندما أحول حياتي الصغيرة لتمثيلية.. وتعتبر هذا كذبًا. لا أفهم مجددًا معنى كلمة كذب. ليس لهذه الكلمة وجود إلا لو وجدت كلمة "صدق" وقد اتفقنا مرارًا فيما أعتقد أنها كلمة غير موجودة على الإطلاق.

سأكرر..

دعنا لا ندين اللعب باعتباره كذبًا، وأعتقد أيضًا أننا اتفقنا على شيء مثل ذلك قبل فترة، رغم أنك قد لا تحب أن تسمع عبارة كهذه، وربما تدهشك.. لكنها من جديد إحدى مزايا الجسد".

مونولوج طويل يمكن الاستعانة به في عرض لشخص واحد. لو كان قسطنطين وحده من سيقف على المسرح، لأعاده له.

يرى في لحظة ديوان الشاعر الوحيد، ينفتح بين جسديهما، ليطالعاه بالعدل. من أين التقطته يداها، وكيف قررت أن تغلق الحوار بهذه الإرادة المتوحدة؟ تطفئ الأنوار، وفي العتمة الكاملة، تصل للصفحة التي تريد، وتبدأ في القراءة بصوت مرتفع..

لم أتردد.

ومضيت إلى داخل الليلة الحافلة بالأضواء.

لكي أشبع وأرتوي..

مرة في الحقيقة ومرة في الخيال.

فورستر

بينما يخطو لأول مرة في شارع ليبسوس يرتعد، يشعر أن الأرض تميد به، مضطربةً تحت قدميه، كأن هناك من يحركها.

في العتمة، يتعثر فورستر، محطمًا، جائعًا، قتيلاً.

يستسلم لأقرب مقعد، ينهار جسده كأنه تمثال من الرمل، وينحني عليه قسطنطين، حائرًا، كأن عليه أن يختار، أن ينفض بقاياه عن المقعد أو يلمها في راحتي يديه.

يبكي فورستر، ينشج، "صرتُ محاصرًا بالموت في هذه المدينة.. لم أعد أعرف، أي حياة يمكنني أن أنتظرها إذا انقشع هذا الكابوس الذي تدعونه الإسكندرية..".

ينهض قسطنطين، يحضر له خبزًا وجبنًا.. وكأس براندي.

"إنني أقدر ذلك تمامًا.. أقدرك.. ولو كانت لي ملاحظة وحيدة.. فهي أن الموت جعلك تجيد كتابة الرسائل..".

يضحكان، وينتشي فورستر فجأة..

"إن لدي شعورًا، أقرب للغريزة، بعدم الانتماء لهؤلاء المصريين.. ولكي أقرب لك وجهة نظري.. أقول إنه يطابق تمامًا شعوري الغريزي بالانتماء تجاه الهنود مثلاً.. لا أعرف.. إنه ليس احتقارًا أو تعاليًا بهذا المنطق البسيط والعفوي.. بل شيء أبعد من ذلك.. أعمق.. ثمة شيء قاسٍ، سادي، في هؤلاء.. وهش رغم ذلك.. وهذا بالمناسبة أخطر ما فيه.. لكنه مقموع ومخبأ.. وقد جرى تهذيبه بحيث يصير في النهاية نوعًا من الخنوع المستأنس، ليس حتى خنوعًا بريًا، فقد قُلمت أظافره، أصابه مظهرٌ هشٌ وشكلي من الحضارة.. غلفه قدرٌ من التمدن وعمَّق التاريخ السحيق لهذه البلاد تعقيده وقدرته على الخداع، لذلك أعرف تمامًا أي خطورة ينطوون عليها.. وأعتقد أنه لو أمكن لهؤلاء أن يحكموا أنفسهم؛ فإنهم سيمثِّلون بالآخرين.. بكل من ليس سواهم..".

"لا أستطيع أن أمنحك ردًا شافيًا.. فأنا في النهاية لا أعيش معهم.. فقط أعبرهم في المشاهد الضرورية التي يوجدون فيها.. ربما نختلف في رؤيتنا قليلاً.. هناك فارق بين أن تكون ابنًا لمدينة أو ابنًا لساكنيها.. وبالنسبة لك، أنت لست ابنًا لهذه أو هؤلاء.. أنا ابن لهذه المدينة.. وربما أكون ابنًا لمدينة أخرى سالفة غير أنها كامنة هنا.. المكان الذي يندثر هو تحديدًا ما يشد المرء كي لا يغادره.. إنه عذاب شخصي.. لن أستطيع أن أترك هذه المدينة.. لأن ما اندثر هنا سيكون مندثرًا أينما حللت..".

على مكتبه قصاصة، خطَّ عليها عبارة وحيدة بحروف كبيرة.

(لن يصبح الإنسان فنانًا إذا لم يدمر نفسه قبل ذلك. إن تدمير الذات، وبالملذات خصوصًا، هو الطريق الأكيد الذي يقود إلى الفن. 1884).

ما الذي جعله يضعها على مكتبه بعد كل هذه السنوات، وكأنه كتبها قبل دقائق؟

يقرؤها فورستر بصوت عالٍ، ويشعر قسطنطين بحرج، بضيق، بشعور عدواني مكبوت يستيقظ فيه، لو كان في وضعية أخرى لنهره على هذا الاقتحام العفوي، غير المتحضر، لخصوصياته. لكنه يقرر هذه المرة أن يتعالى على خصمه المفاجئ بتسامح غير مبرر.

"لقد كتبتها يا عزيزي قبل سنوات طويلة.. ولكنني استعدتها اليوم لا أعرف لماذا.. استيقظت وأنا أنطق بها.. ووجدتني كلما أمسكت بورقة أكتبها.. أتذكر أنني يوم كتبتها كنت في الآستانة.. ولم أكن كتبت الشعر بعد.. وأحيانًا.. عندما أفكر بعمق.. أتأكد أن هذه العبارة هي ما أحاول ترجمته مرة بعد أخرى في القصائد.. ودائمًا أشعر أنني لم أكتبها بعد كما أريد.. لم أحوِّل جوهرها إلى شيء شعري يستحق، رغم جميع المحاولات اليائسة..".

يصمت، ثم يكمل، كأنه وجد بابًا جديدًا للحوار:

"الجميع الآن يهمهمون من خلف ظهري عن شيخوختي،

باعتبارها سلمًا تقود الدرجة الأخيرة فيه للموت.. أعتقد أن الشيخوخة صفة لا بد وأن تلتصق بالشاعر. هل ثمة شاعر شاب في هذا العالم؟ إنها مزحة، لست مسؤولا عمن أطلقها أو عمن بوسعهم أن يصدقوها.. يولد الشاعر بتجاعيده، هذه هي الحقيقة التي أعرفها، والتي رأيتها في صور جميع الشعراء، أقصد صور طفولتهم بالذات".

يحدق فيه الإنجليزي ولا يعلق، يبدو كأنه يريد أن يقول شيئًا غير أنه لا يفعل.. لن يخبره قسطنطين بإجابة السؤال الذي يقتله ويخشى أن يُلقي به.

"خلف هذه القصاصة ذكرى رجل".

سؤال محجوب وإجابة مخفية. يعرف كل منهما طبيعة هذا التواطؤ، ويملكان من اللباقة ما يجعلهما يتفاديان منزلقاته الخطرة.

يريد قسطنطين أن يخبره أنه استيقظ في الصباح بعد حلم مشوش.

يبحث عن سر يفشيه أمام صديقه (كنوع من كرم الضيافة، من العزاء، كوسيلة للإلهاء).. ولا يعرف إن كان هذا السر يليق بهذه الاحتفالية الكئيبة أم لا.

حسين. الشاب التركي القوي. الذي فشلتُ مرارًا في نطق اسمه على نحو صحيح.

يلحظ فورستر شروده، فيتجه إلى الشرفة.. غير أن قسطنطين يقتلع نفسه بسرعة من تداعيات يقظته ويلحق به، لا يعرف أن فورستر وجد في ذلك فرصة مثالية لشرود شبيه.

محمد العدل. صوت الترام الذي يفتح مسامه. النزهات الغريبة في شوارع المصريين الضيقة والقذرة. بين البيوت الواطئة زاهية الألوان دون تناسق. الشوارع المسدودة. أصوات القرآن والأغاني التي تتسرب منفلتة من خلف الأبواب والشبابيك الملونة حاملةً عناقًا حزينًا بين الموت والحياة. لم يصدق في البداية أن يمشي في شارع ثم يفاجأ أنه ينتهي بحائط. لكن محمد كان يبتسم لفزعه ويستدير به. بجلباب نظيف في المساء، وبعطر رخيص نفاذ على لحمه. يبدو على النقيض من رجل النهارات الملول في الترام، بالسترة الحائلة الممزقة عند الإبطين والذقن النابتة الوعرة كغشاء قنفذ. وفي المساء هناك النرجيلة التي كان يوقظ صخبها المائي بصوت مزعج كنقيق ضفدع. في المقاهي الضيقة ذات الكراسي الخشبية المؤلمة للمؤخرات وشبه المهشمة والطاولات التي التصق بها الذباب والهواء الشحيح لنفثات صدور معبأة بالغبار. ثم الأسِرَّة التي لا تتوقف عن إصدار أصوات شرهة، كأنها حيوانات مريضة. ذلك الجانب المنسي من البحر، حيث الماء هادئ جرى استئناسه. قانعًا بنصيبه في تلك البقاع البعيدة عن كبرياء المدينة وأنفتها المعلنة. يبدو ماء نهر. ساكن. بني. وله رائحة حقل.

يجده قسطنطين غارقًا في الدموع، فيطوق جسده بذراعيه ويعود به للداخل.

يقسم سيجارة إلى قطعتين متساويتين، يشعلهما ويمنح صديقه واحدة.

كان محمد يأخذ السيجارة من فمك. في لحظات صفائه. ويكملها. بزفير صمته. دون أن يبدو عليه التأثر. كأنما بهذه الطريقة فقط يتمكن من تذوقك على مهل.

يشعل شمعة جديدة، لكنها تنطفئ بغتة. يوقدها من جديد، مرة ثانية وثالثة وعاشرة، وفي كل مرة تتكفل أنفاس مجهولة بإخمادها. يرتعد فورستر فجأة، يستشعر أنفاسًا غامضة، مجهولة، مخبأة، تنفخ في اللهب، كأنه عبث طفولي يمارس لهوه على مقربة منهما.

أخيرًا يبتسم قسطنطين بارتياح، لكن بعد أن يفتح النافذة الكبيرة في صدر الحائط المواجه لهما، ورغم أن ريحًا شديدة تهجم في لحظة محركة الأوراق المتناثرة، فإن الشموع أخيرًا توقد، تظل ذؤابات اللهب منتصبة دون أن تهتز، فيطمئن فورستر قليلاً رغم استغرابه. في الضوء الجديد يهيأ إليه أنه يلمح ثلاثة ظلال على الحائط الذي على يساره، ظل رجل ثالث، أو لعله ظل امرأة، فبعد لحظات يتطاير الطيف الأكيد لشعر طويل منفلت، ويبرز ثدي، تكور نابت من الصدر لا يمكن أن تخطئه عين.

يلمح التوتر الذي عاود صديقه، يريد أن يؤكد له أن هذا ليس بيت أشباح، لكنه لا يعرف كيف، ويمنحه الزائر عبارة عزاء لكي ينتصر على خوفه.

"جميلة هذه الشقة.. ويبدو أنك لا تفكر في مغادرتها".

"لن تصدق أن هذا هو عامي الثامن هنا.. لقد استأجرت هذه الشقة منذ سنوات ولم أكن أنوي الإقامة بها طويلاً، وظلت لدي نية مغادرتها لشعوري المخيف بأنها أكبر من حاجتي.. ومضت السنوات دون أن أتخذ قرارًا حاسمًا: هل أغادرها، أم أستبقيها وأدخل إليها الكهرباء؟ إلى أن فاجأني بلوغي الخمسين هنا.. يومها عرفت بحدس غامض أنني سأظل فيها حتى موتي.. عندما يصل الإنسان لهذه السن، يكتشف أنه لم يعد مستعدًا لتغيير أي شيء.. حتى لو كان مكانًا يمكنه في لحظة أن يتركه.. لعلك لا تعرف أن هذه الشقة ظلت شاغرة لسنوات قبل أن أقطنها، بعد أن تعاقب السكان على استئجارها وهَجْرها ولم يصمد أحد لعام كامل.. الجميع أكدوا أنها شقة أشباح.. ومن أرادوا التعالي على خوفهم أبدوا تأففهم من الشقة السرية التي تديرها تلك المصرية.. عندما عرفت بكل ذلك، زاد إصراري على العيش فيها.. أي أشباح يمكن أن تخيف شاعر إلا لو كان بلا أشباح خاصة، قادرة على طرد الأغراب؟.. (يضحك)، وفوق كل ذلك، وأرجو أن تسامح صلفي.. فقد أسهمت طبيعتها المقبضة، كما يراها أغلب الزوار حتى لو لم يصرحوا بذلك أمامي

خجلاً، أسهمت في طرد من لا يتشبثون حقيقة برؤيتي والاطمئنان علي.. وجعلت غرابة أطواري محتملة، عندما أطفئ الشموع تمامًا لأتخلص من زائر ثقيل، أو أتحدث مع نفسي في وجود شخص قررت ألا أنصت إليه.. ومع وجود هذه النوافذ التي تجعل الريح تصفر في الليالي الغاضبة، فإنني في الحقيقة أعيش في المكان الذي طالما تمنيت أن أدفن فيه!

يشحب فورستر، ويطول تحديقه حتى إن قسطنطين يفكر في لحظة أن يغمض عينيه لأنه قد يكون مات في مكانه.. لكنه ينهض، ويبدأ بعفوية التجول وهو ينظر للسقف، ثم تدير يده مقبض الغرفة المغلقة، ويمتقع قسطنطين، إنها غرفة نومه التي لم يطلع عليها سوى عشاقه.. يفتح الباب ويدخل، يلحق به بسرعة، يراه وهو يحدق في سريره، كأنه يحاول تخيل الأجساد التي مرت على هذا الفراش الصغير.

يبدو أن فورستر قرر أن يقطع خطوات خارج الإطار المنمق للقاءاتهما. ظل واقفًا بجواره، لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل، بينما الإنجليزي الذي لفحه الكحول والعالم المضبب للشقة المسكونة يتأمل كل شيء، كأنه ساكن جديد للمكان.

"كل هذه الكتب على الفراش؟؟".

شعر بسؤال آخر يتوارى خلف سؤال صديقه، لكنه قرر أن يرد بإجابة ساذجة.

"أنا مصاب بأرق رهيب منذ فترة.. بإمكانك أن تعتبر كل هذه الكتب أدوية تساعدني على النوم!".

لكنه ما لبث أن اكتشف أنه نصب لنفسه فخًا دون أن يدري، فقد مدّ فورستر يده والتقط نسخة من كتاب مهمل على فراشه، "عندما تخاف الملائكة أن تطأ الأرض".. روايته بالذات. نظر إليه، هل هي نظرة عتاب؟ في ذروة إحباطه عاد يفكر في أنه لم يقابل كل حفاوة فورستر بشعره بحفاوة مماثلة، لم يتحدث معه مرة حتى عن رواياته.

على طرف السرير، جلس فورستر، محبطًا أو تائهًا أو مقتلعًا من الدنيا، وعرف قسطنطين أن الفخ الذي حاكه الإنجليزي بهدوء ينبغي ألا يجذبه أكثر من ذلك. حوَّطه بذراعيه، وترك الجسد المهزوم يستسلم لأحضانه.



فُتنة

عندما تسقط أمام عجلات الترام لن يمكن التعرف عليها.

ترتدي واحدًا من فساتين أمه، امرأة سواها ستموت بعد قليل.

تَنكُّر محكم. لن تفقد فُتنة سوى جسدها (روحها لو أمكن التعامل مع هذه الكلمة كشيء موجود) لكن كل ما عدا ذلك، سيخص موت امرأة أخرى، قرينة ملتصقة بلحمها، وبدأت تجوس تحت جلدها كذلك.

الموت انتصار نهائي. ليس من الممكن أن يُهزَم شخص في مقبرته.

يدوي في أذنيها سؤال مفاجئ: أين سأدفن؟

وأدهشها حرصها على معرفة مصير جسدها بعد الموت، رغم أنها لم تكن معنية بمصيره في الحياة.

كانت تتوقع أن جسدها لن يبقى قطعة واحدة بعد سقوطه تحت عجلات الترام. سيلمون أشلاءها.

هل سيلصقونها قبل الدفن؟

كم الساعة الآن؟ الواحدة؟ الثالثة؟ أم لعلها الخامسة؟.. في الشتاء تفقد المدينة زمنها.. تمارس تيهها الخاص، تغيب في نزقها.

تفكر أنها رأته بالأمس. ظنتها آخر مرة لأنها تأكدت أنه سيموت. هي الآن تعرف أنها آخر مرة، لسبب آخر. هل يمكن أن يخمن هو أنها من سيموت اليوم؟ هل سيتأثر؟ هو فقط سيفتقد كل تلك التمثيليات الهزلية.. سيتحول جزء من قسوته إلى تراب ناعم، بين عظامها.

تعبر شارع الرمل، يمر ترام محطة المياه، ذو النجمة البيضاء، عن يمينها.

تعبر مسرح الهمبرا.. تنعطف مع حركة الترام، يسارًا، لتصير داخل شارع السلطان حسين.. هاهي مدارس مبناس اليهودية، حديقة كرومر الصغيرة المسورة، والدافئة.. حيث لا وجود للرجال. فقط سيدات وأطفال يحتمين بالوحدة والجلبة المحببة.. بقعة حياة تخبرها فجأة أنها يمكن أن تتخلى عن الذكور، لكنها تشيح بوجهها بسرعة. لن تنجح خدعة صباحية كهذه في مواراة الموت.

تصطف الندابات على الجانبين من العامود الذي يتوسط ميدان سعيد. تبتهج فجأة، يُعدنها لما انتوته، لحتفها المُرجأ. ندابات محترفات ينتظرن مهمة جديدة للموت، يترقبن خروج الجنازات

من المستشفى الحكومي المصري الذي يعطين ظهورهن له.

تودِّع الميدان، وتنحرف يسارًا إلى ميدان المزاريطة على خط الترام.

تتساءل من جديد، (ورغم ذلك يدهشها السؤال، هل يجعل اقتراب الموت من جميع الأسئلة استفهامات مفاجئة؟): كيف رأيت جسده؟ أي شيء جذبني لجسده؟.. أربعيني، هش كورقة، لا وجود لعضلة نافرة في عظامه، أي شيء غامض انطوت عليه تلك البنية خارج ما تُعلن عنه من ذبول؟.. إنه حتى ليس جميلاً، لكنه (كأن فُتنة عثرت فجأةً على ضالتها) يملك عينين، قليل جدًا من الرجال يمكن لامرأة أن تتطلع في وجوههم لتعثر على عينين.

تواجهها الخضرة مرة أخرى، حدائق البلدية، بتصميمها الغريب، تندهها. يحدق فيها تمثال نوبار باشا من داخل الحديقة، تشيح بوجهها عن وجهه المحدق، لتتأمل يده، التي تبدو منهمكة في الكتابة، على اللوح الذي حُفِرت فيه بالفرنسية عبارة "العدل أساس الملك". كانت تضحك كلما نظرت إليه، يهيأ لها أن الطربوش فوق رأسه أكبر بكثير من جمجمته التي تبدو صغيرة جدًا. لا تضحك هذه المرة، ولا تبتسم حتى، تراه طبيعيًا. قال لها قسطنطين إن شعاره الأثير كان: "كن حذرًا عند الانفعال".. تتردد العبارة في رأسها، بصوته الجاف. تراها من جديد حيلة غير مقبولة من الحياة التي تشدها إلى عذابها.

سألته عن جنسية نوبار هذا؛ قال "أرمني"، فكتمت ضحكة عاهرة كادت أن تقفز منها. لقد صنفت الجنسيات في هذه المدينة حسب خبراتها معها في السرير، وكانت قد توصلت لقناعة أن الأرمن ليسوا جيدين في الجنس. ينداح قسطنطين، المتحمس للرجل الذي يرقد جسده خارج الكنيسة الأرمنية.. وزير الخديوي إسماعيل (كان أبوه يحبه، هذا كل ما في الأمر).

تفكر فجأة أن التماثيل هنا كثيرة. في لحظة قد تتململ، مُغادرةً قواعدها، تتحرك بأبنيتها الصلبة، بصخب وعشوائية، تتداخل الأزمنة واللغات في انتفاضاتها، وتدهس الأقدام الحجرية الأجساد الهشة، تُفني المدينة الضعيفة. هل يرغب في التحول لتمثال ذات يوم؟ هل يعتقد أنه خالد؟ أم يريد أن يصبح جزءًا أصيلاً من المدينة، قطعة من حجرها، من معادنها، من جماداتها التي تحركه؟

قالت له مرة، في واحدة من احتفاءاتها الساذجة، "أنت تستحق تمثالاً!"، فضحك، ضحكة طويلة، وقال، "أوافق في حالة واحدة، لو صبوا البرونز فوق جسدي".

يعبر ترام آخر. الفرص السانحة للموت وفيرة.

ستتمزق خاريكليا أخرى تحت عجلات الترام، وسيأتي قسطنطين مصعوقًا. لأول مرة سيأتي هو إليها، وسيبحث عن ساقيها المنفصلتين عن الجسد ليجثو تحتهما، وستنتهي حياته في هذه اللحظة، بينما تتدحرج مزقها.

هيليني

بمجرد أن أكملت هيليني عامها الأول، صارت تعيش حياة كاملة في اليوم الواحد.

تستيقظ ببكاء الرضيعة الملتاع، طالبةً ثديًا غير موجود.. وتظل تتقدم في العمر مع كل دقيقة، حتى تشيخ مع حلول منتصف الليل، بوجه متغضن تحتله التجاعيد وجسد مقوس بحدبة بارزة.

عاش قسطنطين أيامًا أولى من الرعب، كان يرى خلالها حلقات مبتورة من حيواتها، يعود إلى البيت مرة قبل حلول المساء فيجدها في مراهقتها، يستيقظ متأخرًا بعد الظهر في مرة أخرى ليراها صبية في نحو العاشرة.

ذات يوم، مشغولاً بحلم طارئ بها، قرر أن يراقبها، دون نوم، منذ لحظة استيقاظها قبل الفجر بقليل وحتى منتصف الليل، حيث أمكن له أن يراها تتجول في حيواتها من دون توقف.

المنام بدا له مؤرقًا، ورأى فيه ما يمكن أن يفسر له رحلات تنكرها الطويلة والمجهدة كل يوم.

يرى نفسه رضيعة تستيقظ فجأة في مقبرتها، يعرف أنه ميت ولكنه لا يفهم لماذا هو أنثى ولماذا في هذه السن. تخرج من مقبرتها، مع أول خيوط الفجر. تجد نفسها دون بذل جهد، تحبو للخارج، وينفتح لها الباب دون أن تدفعه.. تستنشق هواء الدنيا بأنف مشوش.. وبغريزة الجنين العمياء تتبع أثر الرائحة الحليبية لأمها، والتي لم يكن لها وجود سوى في مكان بعيد أمكن لها أن تقتفي روائحه وهي تقترب مع كل خطوة منه ببوصلة غريزتها.

"في تلك اللحظات.. كانت المدينة تولد".

يابسة خاوية، مشبعة بالماء بعد أن انحسر عنها البحر مانحًا إياها فرصة كي تطل عليه. اليابسة تتنفس بصعوبة، ذلك الهواء الذي كان يساوي اختناقها منذ قليل، عندما كانت محض كائن في الماء، يتنفس الزرقة.

تبدو لها المدينة، التي لم تمُنح الفرصة وهي حية كي تراها، مثل مهد ضخم أزرق.. الجميع نائمون فيه، وآلاف الأيادي تهدهدهم كي توقف بكاءهم. تجتذبها مشاهد تلو أخرى، غير أنها مصرة ألا تحيد عن الخارطة التي يتتبعها أنفها كي لا تتيه.

"أي أزمنة عبرتها غير مستوعبة بالضبط لما ترى؟".

تزحف على يديها وقدميها الطريتين ملتصقة بيابسة المدينة، تسمع أصواتًا منبعثة من تحت الأرض، تؤكد لها أنها تحبو فوق مدينة أخرى لا تزال حية، مدينة عجائز مطمورة أسفل الشوارع

التي صارت أسقف للجيران المحبوسين تحت الأرض.

الشواطئ صحراوات ملساء من الحجر الجيري.. فقط كان لسان غير عادي يبرز، عرضه لا يتجاوز الميل.. غير أنه يمتد متطاولاً لأميال بعيدة.

"الإسكندرية لم توجد بعد إذن، فبعد سنوات طويلة، ستُشيَّد المدينة أسفل ذلك اللسان، في المسافة الخاوية بينه وبين الأرض.. ليصير طرفها رأس "أبو قير" بينما المياه المالحة تسبح على جانبيها".

ترى طميًا قادمًا من الجنوب، وحشًا لزجًا داكنًا له رائحة يصعب حتى استعادتها، يترسب عند اصطدامه باللسان.. ويواصل الغرين ارتفاعه مستندًا عليه.

ثم ظهرت الأرض الطينية، وتكونت بحيرة مريوط الضحلة.. رأت الرضيعة كل ذلك وهو يتشكل، كأن لحظاتها القصيرة كانت دهورًا في الحقيقة.

شمال اللسان، بموازاته تقريبًا، ينتصب كائن صخري آخر من الحجر الجيري.. يلوح تحت سطح البحر في صورة حواجز حجرية.. ولم يكن للمدينة أن توجد بدونه.. لأنه يكسر قوة الأمواج، مثل عامود فقري يمسك بالمدينة، المنطرحة أمامها كجسد شاسع له رأس وأطراف.. راحت تعبث معها.. كأنها طفلة كبيرة بدينة.

ترى الحاجز الصخري يمسك بجسد المدينة، ابتداء من بقعة

بعيدة رأتها بعينها المجردة، (ستصير العجمي)، يتمدد كسلسلة من الصخور ثم يعاود الظهور ليكُوِّن نتوءًا كرأس المطرقة (سيسمى رأس التين).. يختفي الحاجز من جديد عبر سلسلة من الصخور ليظهر أخيرًا في نتوء السلسلة حيث يعاود بعدها الاتصال باللسان الكبير.

تحبو المدينة أيضًا، كنوع من الزواحف انشقت عنه الأرض، ولم يحصل بعد على لونه ولا على سُمِّه ولا على مظهره المخيف، ولو كان لها أن تشبهها في هذه الرحلة الأولى، لقالت إنها حرباء، بالأجفان الكبيرة المجعدة والعينين على جانبي الوجه، اللتين لا تريان أبدًا المشهد نفسه.

سمعت شابًا، يصيح: لتكن المدينة هنا. إنه جميل كالشيطان، وكانت تعرف شكل الشيطان، رأته في مقبرتها، تسلل إليها لكي يحولها إلى امرأة وبالتالي يكون قادرًا على بث بعض الذنوب. يغضب الشيطان عندما يموت طفل، لأنه يعرف أنه سينتقل مباشرة إلى الفردوس. هذا الشاب جميل كذلك الشيطان، متحمس، وله لون بشرتها كما ينطق بلغة تشبه تلك التي كان الكبار يتحدثون بها في البيت، تبلغ آذانها دون أن تكون قادرةً على محاكاتها.

ثم رأت في لمحة جثمانه، متى ولد ومتى مات؟ يحمله الرجال إلى الكاهن، لكنه يصرخ، "لا تجعلوه يستقر هنا، فجسده ما إن يحل

بمدينة حتى تضطرب، وتضطرم فيها الحروب والمعارك".

رأته ملفوفًا بالذهب، في تابوت من زجاج، ورأتهم وهم يدفنون جثمانه، استطاعت تحديد النقطة بدقة، بغريزة الرضيعة العمياء نفسها، دون أن تعرف أن أحدًا سواها لن يتبقى ليكشف اللغز. ستظل المدينة بأكملها، بل الدنيا قاطبة تبحث عن مقبرته دون جدوى، لكن الرضيعة فقط تعرف.

ثم رأت قصورًا تغطي بروز السلسلة، رأت الجامعة، ومعبد سيرابيس، المقابر الملكية، المسرح ومضمار السباق.. لا تزال في المائة عام الأولى من عمر الإسكندرية، كأنها تحبو داخل أحشاء أمٍ تحبو.

ثم رأت البحر الهادئ يكتسي بأسطول ضخم، ولم تكن تعرف أن البحر يمكن أن يحتوي مثل هذه الأشياء. تجولت عيناها بين السفن الثلاثمائة التي سدت المشهد الأزرق في جزيرة مريوط. ظل الرجال ينزلون من السفن طوال الليل، وفوق الجميع، كان القائد ذو اللكنة الغريبة (سيميز قسطنطين بعد أن يستيقظ أنها الفرنسية)، يتنفس الهواء بعمق، وأحست أنه صورة أخرى من الشاب الذي رأته منذ دقائق يأمر بتخطيط المدينة وتأسيسها. شاهدت الحواجز الصخرية التي تعترض مدخل الميناء وهي تتعملق، غادرت البارجات، التي خافت على نفسها من الصخور، لكنها بهذه الطريقة بالذات منحت الفرصة للأعداء كي يدمروها عن آخرها.

"كانت المدينة مستطيلة، وتحتل الشريط ما بين البحيرة والبحر، في خطوط مستقيمة".

تمر ببحيرة متصلة بالبحر، لذلك فهي معبأة بالمياه المالحة. تتوقف الرضيعة كل حين وتشرب منها، تزعجها الملوحة، لكنها ترتوي. وكانت هناك بحيرة أخرى جافة سطحها أغلبه مزروع، مياهها عذبة لكن ضحلة، سقطت فيها الرضيعة وخرجت بمعجزة.

تظل تزحف، ملتصقة باليابسة الطرية، حتى تلج الشارع الضيق، تتضخم الرائحة التي بدأت الرحلة من أجلها، وتعرف أخيرًا أنها أصبحت على بعد خطوات من المكان الذي تريده. تتحرك بين أقدام المارة المستغربين، ثم تزيح باب بناية، تصعد درج، وتدفع باب شقة؛ لتدخل فردوسها، مشوشةً بجميع المشاهد المتنافرة التي تجولت فيها، وبمجرد أن تصبح في قلب البيت، تكتشف أنها أصبحت رجلاً، عجوزًا وواهنًا، أنها كبرت في الرحلة بما يكفي لتصبح ذلك الشخص الذي هو أنا..".

يستغرب عدم اندهاشي من الحلم، أو من تحولاتها اليومية، كأن وجودها صحب حياتي منذ بدايتها. بعد قليل سيتهمني بالجنون، سيلح علي في التوجه إلى طبيب، سيقول لي أنت توهمت شبحًا وأقنعتني بوجوده، أنت مريض، لا وجود لأحد، لم يكن في البداية أكثر من حلم، أنت قتلتني به. لكنه سيتماسك، رغم كل شيء سيتماسك، وسيستطيع، بذاكرة شخص آخر، أن يبدأ، في تفريق رعبه على

قصائد مهداة لطفلة، ستصبح بعد ذلك "قصائد إلى جسد هيليني"، الديوان الذي أفرغ فيه كل جنونه، ورفض للأبد أن يُطلع عليه أحدًا.

هل تسببَت، دون أن تدري، في ولعه الطارئ، بزيارة مقابر الأسرة مرة كل أسبوع؟ يرتدي بذلة قديمة، (دائمًا واحدة من بذلاته القديمة البالية تقريبًا)، ويخبئ في جيوبه وريقات صغيرة بيضاء.

أرى الطفلة ملتصقة به، تغادر البيت معه، كأنهما اتفقا أخيرًا على نزهة مقبضة تقربهما.

يغوص بها بين الشواهد، يراها في الظهيرة، خارج الضوء الاصطناعي لهواء البيت، هشةً ومطفأة، يصعب تمييز ملامحها وهي تبدو أقرب لظل قاتم، تلهو، تخطف بصرها بالونات بعيدة في سماء الأرواح، أثداء لدنة مصبوغة، تستفز شوقها المقموع. يهيأ له أنها تفغر فمها بمجرد أن تراها، يرى لثتها الزرقاء الخالية من الأسنان، ولعابًا رماديًا يسيل من شدقيها.

يحملها ويريحها فوق مقبرتها.

تستكين فجأة، كأنها استعادت حياتها المفقودة، تظل تكبر في مكانها، وهو يكتب.

هنا هواءُ قصائد.

تشيخ، كأن العمر ينقضي وهو يكتبها، يذوب اليوم في أقنعتها، ويوقظه آخرُ المساء عندما يرى أخيرًا، وقد رفع وجهه عن أوراقه،

جسدَها المتكوم على نفسه، لا ينتظر سوى الدفن.

يعيد القصاصات المزدحمة بمخيلته إلى جيوبه، محبطًا، كأن زمنه كله قد مر في تعاقب نهار وليل، كأنه من يولد ويموت في الرحلة العابرة لشمس.

يحملها، يعبر الدروب القمرية، مطعونًا بالشواهد، يقطع الشوارع بجثمانها الغارق في عجزه، مستشعرًا خفة عظامها بين يديه، كأنه يحمل رفاتها.. وفــــي البيت، بينما يخلع بـــذلات الوداعات، يريح عظامها في ســـريره، وينخرط في ســـكب قصاصاته على أوراق أكبر، مندهشًا، بينما يعيد نسخ ما كتب، إنه ليس بحاجةٍ ليعدل شيئًا، مســتغربًا، أن تلك القصائد الشبحية تنتمي ليده، متألمًا، لأن ملهمته غير المتوقعة ليست أكثر من سراب يسيل عبر فتوق أزمنته.

فقط عند الصباح، مع أول شروق للشمس، تولد من جديد، دافئةً في مهدها، باكيةً بلا ذاكرة تتعكز عليها لتعرف سببًا للبكاء، وعندما يتأكد أنها استعارت حياةً جديدة، أخيرًا، يترك جسده لنوم عميق، تقتله الأحلام.

خاريكليا

الآن صار له جسد. تستطيع أن تميز مني احتلامه في ألبسته. بأي فتيات يحلم في نومه؟ أم أنه مجرد إفراز ضروري يمليه جسده الجديد على مناماته؟

صار إنجليزيًا. أتقن اللهجة أكثر منهم جميعًا، وبدأ يرتدي البذلات الصارمة، وله شارب خفيف نما فوق شفته العليا، كأنه بزغ على غفلة منها. شاب صغير نحيف وشارد على الدوام، وستصبح له امرأة عما قريب، صديقة شاحبة لها أصابع ثلجية وقوام متخشب كفتيات هذه المدينة الكبيرة المضببة. أغلب الظن أنه لن يعود إلى الإسكندرية، رغم أنهم آخذون في خسران كل شيء هنا.

سبع سنوات في لندن، يعيشون كأنهم يقاومون القدر.. ولا يبدو أن قسطنطين يعرف شيئًا عما يدور من حوله، أو لعله يعرف ويدير ظهره ببساطة لكل شيء. طالما هناك وجبة وكتاب يقرؤه فالعالم محتمل.

أخيرًا، ذات ليلة، يدخل جون مطرقًا، تتشمم في خجل الابن

الأكبر رائحة داعرات وأوراق لعب وأموال يدفعها بقدميه لتتناثر في الريح الثلجية.

"أخبرني جون ببرود أننا خسرنا كل شيء. إنه يتعامل معي كرجل وليس كابن. أنا بالنسبة له مجرد امرأة. تحتاج إليه. ولا تملك إلا أن تستمع إليه وتطرق. لقد تعود على الطريقة التي يتعامل بها مع العاهرات. أشعر كثيرًا أنه يتعامل مع المرأة كشخص ينبغي أن يكون مهانًا. بالتأكيد لا أخشاه. لكني أتفادى بقدر الإمكان النظر في وجهه. لأنني أرى فيه شيئًا عميقًا لا أحبه ينتمي لي".

تغيرت يا قسطنطين!.. صار مزاجه عكرًا، بات متحفظًا كالإنجليز الباردين.. يقرأ الصحف بنهم، ويرسل تعليقات مستفيضة تتم الإشارة لها أحيانًا باقتضاب ويجري تجاهلها في الكثير من المرات.

"في هذه البلاد لا يكاد المرء يتعرف على جسده. هناك دائمًا طبقات متراكمة من الملابس تقتل الجسد. لم أعد أشعر باهتياج كما كان الأمر في الإسكندرية الحارة التي تغري بالتعري".

هو أيضا مختبئ في الملابس، جسده بعيد حتى إنه لدى الاستحمام يكاد يستغرب عريه. من ملمس الماء بالذات يستدعي الإسكندرية.

أكاد الليلة أن أجن. له صديقة. بالتأكيد له صديقة. وستقنعه أن يعيش هنا ما تبقى من عمره.. لا يتصالح الرجل مع مدينة لم يولد فيها إلا بسبب امرأة.

16

فاجأه ظهور ثيوفيليس، (لم ينس ألكسندر لعبتي الشريرة).

ثيوفيليس! كيف بإمكانه أن يصف وجوده، القس الذي عرف ألكسندر باسمه منه، وجذبه فخ كتابه المتبخر (ثم عثر على قصيدة ملائمة يقدمه من خلالها). لم يكن كفافيس، عندما قذف بالاسم في وجه صديقه، يفكر في الاسم نفسه الذي شيَّد عليه حياة خاطفة في قصيدة، لكن ألكسندر أثبت له من جديد أنه قادر على مفاجأته، أن للأوهام، في النهاية، الأسماء نفسها.

ها هو يتجسد، ليس فقط كشخص، بل كإله شخصي لجسده، وقد ضاقت المسافة أخيرًا بين بطل قصيدته البعيدة وبطل لعبته التي أشرك رفيقه فيها في واحدة من نوبات شره.

فكر أيضًا في ديمتري، عشيق جديد، ويهودي هذه المرة. (لم يستطع أن ينكر بينه وبين نفسه قدرًا من النفور الغريزي من اليهود، اعتبره دائمًا المرض الرئيسي الذي رسبته فيه أرثوذكسيته).

حدَّس، بعد الفصلين الأولين، أن ديمتري المحترق سيظل شبحًا بعيدًا قادمًا من أعماق كلوديا المتذكرة، لكنه تجسد أيضًا، حصل على اسم أخيرًا، وعلى قصيدة تقدمه (ربما رغم إرادة ألكسندر نفسه)، لكن ديمتري، المنتمي لجماعة "الحياة الجديدة" ظهر ليذكره بشيء آخر تمامًا، لم يخطر بالتأكيد ببال ألكسندر: خيبته وإخفاقه وحرجه.

تذكر يوم دُعي ليلقي محاضرة لدى جماعة "الحياة الجديدة"، بمناسبة بلوغه الخمسين. كان يحب أولئك الشباب المتحمسين الذين بدوا له عند بزوغهم المفاجئ مفاجأة لم يتوقعها في أشد أحلامه تفاؤلاً، حفنة دماء جديدة تُضَخ في الشعر اليوناني، مع إصرارهم على البقاء في الإسكندرية. كانوا يتبنون الديموطيقية اليونانية، وأولوه تقديرًا لم يتوقعه، لكنه كان أكبر سنًا من أن ينضم إليهم. رغم ذلك واظب على حضور اجتماعاتهم بانتظام، وتلقف معهم النسخ الأولى من مجلتهم الواعدة التي أصبح واحدًا من أبرز المساهمين فيها، (ولأكثر من عشر سنوات، بين عامي 1908 و1918 ظل كفافيس ينشر قصائده في المجلة بانتظام كان يدهشه هو شخصيًا). كانوا معجبين، بالأساس، بلغته الديموطيقية التي تبناها في شعره، في مزج مرهف بالفصحى، مديرًا ظهره لقطيع جيله في أثينا الذي ظل متشدقًا بالفصحى التقليدية وحدها كلغة للشعر. ورغم أنهم كانوا أشد تطرفًا في استخدام اللغة الشفاهية في صورتها الأكثر تداولية وسوقية، إلا أن صفو

الاحترام المتبادل لم يعكره إلا محاولتاه اليائستان للإيقاع باثنين من شباب الجماعة، ووجهتا برفض مهذب لكن حاسم، مما جعله يبتعد فجأة، محرجًا ومهزومًا، لذلك؛ فعندما تلقى الدعوة الكريمة المفاجئة لإلقاء خطبة بمناسبة عيد ميلاده، قرر لها أن تكون صريحة ونهائية، لأنه كان يظن أنه لن يعيش طويلاً بعد ذلك.

"ليس التكريس للذة بالشيء الذي أبحث عنه، أو أعمل من أجله، كما أنه من الساذج تمامًا محاولة ربط ما تفعل بما تكتب، كأنك تعيش فقط لتكتب بعد ذلك، أما العكس، فلست بحاجة لأقول كم هو كارثي.

لكن إقامة نوع مثلي من العلاقات، يجعلك في الحقيقة قادرًا على الإصغاء لنفسك. مع امرأة، أنت تبحث دائمًا عن التشابه، لإدراكك العميق أنكما مختلفان من البداية، مع الرجل، فقط، يمكنك أن تعثر على اختلافك، وبالتالي على تلك المنطقة المجهولة من الفردية التي نظن العثور عليها سهلاً، وذلك لأنك تدرك، أيضًا، منذ اللحظة الأولى، كم أنتما متشابهان. من السهل بالتأكيد اتهامي بالتعميم، وكأن الرجال رجل واحد، والنساء امرأة واحدة، آدم وحواء يبعثان مع مطلع القرن العشرين، لكن، دعوني أقلها بصراحة، الجنس هو الشيء الوحيد الذي يجعل الرجال رجلاً واحدًا والنساء امرأة واحدة.. وحدها الشرارة التي تنبعث، بمعجزة، من قطبين متشابهين، هي ما لا يمكن أن يتكرر.. هذه الشرارة هي نفسها الشعر، لست روائيًا كي أجهد نفسي في تزويج المتناقضات، أنا شاعر، صوت، الشاعر، أيها الأصدقاء، هو بالضرورة ذلك المثلي".

يطالع قصاصته الخاصة، كأنها عزاء في مواجهة قصاصات رفيقه. في اللحظة الأخيرة، وهو جالس على المنصة الصغيرة في الغرفة الضيقة لجماعة الحياة الجديدة، قرر ألا يُخرج الورقة التي سهر ليلتين على تدبيجها. أصابه تردد مميت، فكذب قائلاً: "حاولت أن أدبج كلمة، لكني شعرت أن ذلك سيكون خيانة لجماعتكم بالذات، فالتكلف، فيما اعتقدتُ دائمًا وسأظل، ليس بالسلوك المثالي هنا".

ضحك وضحكوا، ثم تحدث بوقار عن "حسية التاريخ" في قصائده. دافع عن احترامه للفصحى "التي لا تعجبكم أيها المغامرون"، وأكد في الوقت نفسه على انحيازه للديموطيقية "لغة لساننا التي لا يمكن ليوناني أن ينكرها إلا لو أنكر الدم الذي يجري في عروقه". صفقوا باحترام، بينما كان يشعر هو بالخجل من عباراته التصالحية التي تلائم أفاقًا. كان الشابان، اللذان تحرش بهما كلاً على حدة، يجلسان متجاورين، متلاصقين، ويصوبان نظراتهما لعينيه، كأن رفضهما له كان كفيلاً بخلق آصرة غامضة بينهما.

أحدهما كان "ديمتري مونتزيني"، الديموطيقي المتطرف، والذي رفض دعوته بالسوقية الأشد، فعمق بغضه لليهود. لا يعرف عنه شيئًا أبعد من ذلك، لا يعرف حتى أين هو الآن وماذا يفعل، لقد أُفلت الجماعة بالتدريج وظلت تتقلص حتى صارت جزءًا من الماضي، والأشخاص الذين ظلت تربطه بهم علاقات مودة حتى وقت متأخر، اختفوا بدورهم، واحدًا وراء الآخر. هل تحرَّى ألكسندر عن علاقته بالجماعة؟ هل قابل ديمتري الحقيقي ثم قرر أن يعيد، على الورق، العلاقة التي لم تتحقق في الواقع؟ وكيف

عرف أنه يحتقر السالونيكيين؟ (حقيقة أخرى دفينة كرستها هذه المرة ذاكرة الطفولة وليس رواسب الدين الثقيلة، فقد كانت خاريكليا تتفنن في الحكايات التي يكون فيها الشرير دائمًا سالونيكي، كان هناك دائمًا القاتل السالونيكي، والشبح السالونيكي، والمرأة السالونيكية التي تمسخ الأطفال، لقد خرَّبت خاريكليا مدينةً كاملة في وجدانه و لم يعرف أبدًا هل ورثت ببساطة هذه الحكايات عن أمها غريبة الأطوار، أم اخترعتها انتقامًا من ذكرى سيئة؟).

يعود ليفكر في شخصية "هيليني".

تعيش هيليني الحياة كلها، من بدايتها لنهايتها في اليوم الواحد (الذاكرة من تفعل ذلك، هل بهذه الطريقة أراد ألكسندر أن يجسد ذاكرتي؟)، ومن جديد ضبط نفسه يستكثر على المؤلف الشاب هذا النمط من الأفكار.. خاصةً وهو يصل لتأويل مفاده أن رحلة جسده من الولادة للشيخوخة تتحقق عبر الأعوام الطويلة بالتوازي مع الرحلة اليومية لتحولات جسد الطفلة، كأنها صورة كثيفةً ومضغوطة لزمنه.

لكن كفافيس، على مستوى أشمل، وجد نفسه يزيح مجبرًا تأملات قد تطول في شخصيات ألكسندر، ليفكر في الطريقة التي توزع بها جسده على شخوص سينجوبوليس، (إنه، من جديد، يسلم جسده من شخص لآخر، ما إن يفرغ منه شخص حتى يجد آخر في انتظاره، تمامًا كما حدث مع الشموع).. لكن الزمن، (فكر كفافيس وبدأ يحول ما فكر فيه إلى مقطوعة تأملية تبدو منفصلة)، يختلف عن الجسد: "الجسد مكان، لا يتحرك بالضبط، حتى وإن كان جسدًا إنسانيًا يختلف عن الغرفة

والمقهى والمدينة، لكن الزمن يعبره.. ربما لذلك لا نستطيع أن نشيخ خارج أجسادنا، ولذلك أيضًا، من الصعب أن نصدق الآن، وقد تجاوزنا العقد الثالث من القرن العشرين، في وجود شخص يحمل مكانه ويتحرك به، لاجتلاب متعة، إن الأدق، يمكن التعبير عنه بشيء مثل صور كثيرة ثابتة ومتجاورة – ليست بالمتعاقبة، حيث إن المحصلة النهائية لمرور الزمن عليها جعلها منجزة في اللحظة ذاتها على تباعد وقوعها – تعبرها العين بسرعة فائقة فيهيأ لها أنها تتحرك، لكن ما يتحرك في الحقيقة هو زمن أصبح استعارة إذ لم يعد له من وجود".

يبدأ (وقد شعر مطمئنًا بقرب توصله لأطروحة تبرئ جسده من تصور ألكسندر) بتأمل قصاصات أربع، منفصلة، ومن الواضح أنها كتبت في أوقات متباعدة، لكنها مدسوسة كلها بين طيات مقاطع ذلك الفصل، لذا فربما تكون على علاقة به. احتار كفافيس قبل قليل عندما اصطدم بأولاها: "هل أقرؤها في موضعها، أم أدخرها لقراءة متأملة عقب الانتهاء من الفصل؟"، مع توالي القصاصات الأخرى، حسم أمره بأن يقرأها مرةً واحدة، ليختبر، كما أكد لنفسه، قدرة صديقه على التأمل خارج سيل إلهام المخيلة.

17

*(كيف يستيقظ الجسد؟.. وأي غوايات شاذة، وأصيلة في واقع الأمر، تدفعه نحو جسد آخر؟.. إنك قد تحب امرأة بسبب سن منحرفة في صف أسنانها العلوي.. سن غير منتظمة حادت عن الصف لتزاحم جارتها، تقفز فوقها وتبدو كما لو كانت تزحزحها.. كما لو أن صراعًا غير مرني يدور خلف شفتيها.. ويكفي في هذه الحالة أن تبتسم، لتدمر حياتك. (كانت هناك امرأة على هذا النحو ذات يوم، إنني أتذكر!)

يصير غرامك هو هذا الانحراف الطارئ المغوي الذي ينوب عن الجسد كله، بل عن الكائن برمته.. مرآة صافية تراه فيها كما لا يمكن أن تراه في أي وضعية أخرى.. حتى إنك تفكر أنه لو لم يكن، أو لو أمكن تعديله، فسيعود إليك صوابك.. وستعود هي، امرأة.

إن الإنسان، بقدر من التعميم -أعترف- لا يذهب أولاً لما يسمونه الروح - تلك الكلمة الغامضة المضببة التي لا أفهمها - ولا حتى للجسد الشهي، بل لانحرافة بسيطة في حقيقة الأمر، لتشوه، حتى لو كان حرقًا ملتفًا حول نفسه كطبقات الشمع الداكنة في بياض شاهق لذراع أو ساق أو صدر..)

ينهي القصاصة الأولى، متلمسًا البتر الذي طالها. ربما وقع شيء منع ألكسندر من مواصلة الكتابة، حتى لو كان حادثًا صغيرًا، كإعداد القهوة.

أخرج كفافيس دفتره الصغير، وكتب ملاحظة قصيرة، كطبيب يشخص مرضًا في عبارة. "لا يكتمل الجمال إلا بقدر من التشوه، إن ألكسندر يصل للمعاني الجاهزة عبر أشد الطرق وعورة وافتقارًا للتكثيف".

*(لا يملك من مؤخرته سوى زائدة جلدية تنبعث من شرجه، وتتدلى مستسلمة كحشرة دقيقة.. ويبدو لمن يتهيأ ليلجه أن مؤخرته بلا ثقب، ولا يستطيع مقاومة تلك الزائدة، التي بمجرد ملامستها كانت تتمدد، وتبدو كأنما قادرة على الامتداد لما لا نهاية كذَنَب، ذيل، كحبل جلدي ناعم، أو كثعبان لائذ بموته..

كنت أشعر في لحظات حبنا أنني أضاجع عظامه. إنني أريد أن أكتب شيئًا يبرز ذلك المعنى، يجلو تلك الصورة، إذ يبدو وهو ينحني

كأنه يخوض حربًا ضد كبريائه، يريد جسده فيها أن يخرج منتصرًا بأن يمعن في المهانة. إن الفيلسوف الذي بداخله، والذي يستبعده من قصائده، (يخصيه مستمتعًا بفيض شعور يدير ظهره للتأمل)، كان يتمدد في جسده، يتأمل أعمق نقطة في الوجود بتوسيع إسته، كأنه يرى عبره جوهرًا مخفيًا..

هناك نمش كثيف على إليتيه. نقاط بنية مخيفة تبدو جيوشَ نملٍ تزحف على مؤخرته، وتجعلها أشبه بوجه مفزوع. عندما ينحني لتصير مؤخرته كتابًا مفتوحًا في وجه قارئه، أشعر أن هذه القطعان البنية الهائلة، المتفرقة، ومتناهية الصغر، ستتآمر عليَّ في لحظة، ستتجمع فجأة لتلتصق بقضيبي وتبدأ في نهشه.

إنها مؤخرة مخيفة إذا أصر الشخص أن يُبقي عينيه مفتوحتين.

أستطيع أن أصف نفسي بالعشيق مغمض العينين.

إنها فكرة أخرى. يجب أن تُكتب. سأحاول...).

ها هي القصاصة الثانية تعوض بتر الأولى. قفز كفافيس فوق وصف مؤخرته، وأقنع نفسه أن العبارة الأخيرة هي ما لفت انتباهه.

"سيحاول، ليس الآن، لكن ما يعجز عنه الآن سيتحقق في كتابة ثانية، ثالثة، رابعة، خامسة، ألف.. هل سأتمكن من ملاحقته مرة بعد الأخرى في هذا الدغل المتشابك من الصفحات؟ هل سأعيش لأفعل؟". مجرد أسئلة حارقة لا يملك حيالها سوى الاستسلام.

كتب، بالاقتضاب نفسه: "ما كتبه ألكسندر يشي باحتقار شديد لجسده"، قبل أن ينتقل لقصاصة جديدة، أكثر طولاً.

*(يبدو، عندما يفكر في جسده، كأنما يخوض رحلة منهكة في أجساد أخرى، تركت أثرها فيه، يَودّ أن تكون له. يودّع بعضها إلى التراب غير مصدق أنه لا يزال حيًا، إذ كيف؟ يستدعي جسده باعتباره جماع آخرين، وبهذا المنطق فإنه كان يصل مرة بعد أخرى لقناعة أنه لا يملك جسدًا، وكان عليه أن ينميه ويرعاه إلى أن يوصله للنهاية، كنوع من الأمانة العاطفية.

هناك أولاً أب وأم، يتقاسمان حيزه، بمناطق القوة والوهن فيه.كأنهما اتفقا على قسمة عادلة، بادئين بالوجه، الذي لا يجب أن تميل كفته باتجاه أحدهما بسفور، وبحيث يبدو في كل مرحلة منحازًا لأحدهما.. فيصير الطفل الشبيه بأمه ثم الصبي الأقرب لأبيه ويعود وجه المراهق لأمه وهكذا، لعبة تباديل غير منتهية. وصدّق أن وجهه في هذه الأيام الأخيرة عاد للحظة البداية.. مموهًا بهما دون أن ينحاز لأي من وجهيهما.. لقد صار أخيرًا وجهه.

أول جدين انسكبا في جسده، ولم يكن مدينا لهما بذلك، بقدر ماكان يتأمله وكأنه رأي تلك المضاجعة البعيدة وراقب تقلباتها التي ستسفر عن حاضره. ثم.. هناك بعد ذلك كل من اختارهم ليصيروا شركاء في صياغة جسده مرة بعد أخرى. شيء مثل اجتماع الطبيعة والثقافة في الكائن البشري.. اتحادهما وخصامهما في الوقت ذاته.. تلك

المعضلة التي نهبت منه وقتًا ليس بالهين، كاد يفضي به في بعض الأوقات إلى الجنون، وقد صَدَّق قبل فترة أن ملامح وجهه كانت تتغير مثلما تتغير أبعاد جسده نفسها كلما أضيف عنصر جديد ودخل في تكوينه.

بهذه الطريقة، كان في حالة ولادة دائمة، ولم يكن أبدًا الشخص نفسه.. وربما بسبب ذلك كان يرى نفسه خارج منطق الثواب والعقاب، ويخمن أنه عندما يُبعث، فسيحتار الرب: أي شخص من كل هؤلاء ينبغي أن يحاسبه؟

هل أنت أرثوذكسي حقا؟

يجيب دائمًا، ببساطة تلائم السوقيين:

أجل.. بالطبع.. وكيف يمكن أن أكون غير ذلك؟؟

ثم لا يزيد حرفًا.

أعتقد أنه سيكون شيئًا جيدًا لو استطعتُ إلقاء نظرة شاملة ومدققة على صوره الفوتوغرافية.

كنت أتمنى أن أحوِّل القصاصة لمشهد في الرواية، لكن ها هي تتحول إلى قصاصة أخرى.

لا بأس...)

ترك القلم، بعد أن هم بكتابة ملحوظة جديدة. لم يصدق كل هذا الثقل لجسده، الرازح على ذهن ألكسندر، وعندما اكتشف أن هناك قصاصة واحدة متبقية، قرر أن يقرأها بسرعة، كأنه بصدد تجرع رشفة أخيرة قصيرة من دواء لا يريده.

*(كيف يتسنى للشخص أن يصل إلى معرفة دون ألم؟

حسنًا، نتألم كي نعرف. لكن لماذا نعرف؟ لماذا يجب أن نعرف؟

بالأمس قال لي: ليس بالضرورة أن يتحول الشعور إلى منطق يعيد به ذهنك التعرف على العالم، ولماذا يجب أن يكون كذلك؟ سألني فجأة: هل تلعب الورق؟ أجبت باقتضاب: نعم، دون أن أفهم. بدا مبتهجًا على غير العادة، وأتى بكنزه من بقعة مجهولة، لم أره يومًا يلعب الورق أو يأتي على ذكره. بدأنا نلعب، واكتشفت بعد دقائق أنه يخدعني، بسذاجة، لكنه كان سعيدًا لظنه أني لم أكتشف خداعه. بالتأكيد خدعه شخص ما، في مقهى، وأهانه.. لكنه الآن يسترد جزءًا من كبريائه. ربما يتدرب، كي يستطيع أن ينتصر في الحروب الحقيقية التي سيخوضها جسده).

أخيرًا سمح لنفسه أن يأخذ نفسًا عميقًا ويعيده. انتهى كدر القصاصات، كأنه كان يتوقع أسوأ مما قرأ، لكن الصفحات القادمة قد تحوي قصاصات جديدة. "لأرجئ الرعب الجديد لموعده".

18

ما مستقبل هذه القصاصات؟

شعر كفافيس أن رفيقه يلقي به في هوة سحيقة، كأنه يغلق، مرة بعد أخرى، أي باب محتمل لخروجه حيًا من متاهة الوهم، ليعاقبه على جحوده.

تمنى أن يُذيب ألكسندر قصاصاته بسرعة، في كتابة جديدة للرواية، لأنه رأى بقاءها على هذا النحو المجرد والاعترافي، نوعًا من التوثيق قد يُقرأ باعتباره الشهادة الأكثر دقة عنه. فور موته، كان كفافيس يعرف، سيبحث العديدون عن أي كلمة مثيرة مكتوبة عنه، ورغم أنه لم يكن معنيًا أبدًا بما قد يحدث بعد موته، بما في ذلك مستقبل قصائده نفسها، وهو إرث كان يعرف كم هو ثقيل ومتشعب، إلا أنه شعر باستفزاز من طريقة

ألكسندر المتعالية واليقينية كأنه يملك مفتاح حقيقته، وشعر بمسئوليته عن عقاب ألكسندر بالذات على مسلكه قبل أن يموت.

رغم ذلك فكر فجأة، مزيحًا لدقائق نقمته المباشرة على رفيقه، في عدد الأشخاص الذين كان بمقدورهم أن يتفهموا طريقته في التمثيل بجسده، وتمنى أن يُجلس ألكسندر تحت قدميه، ويسرد له تفاصيل قد تنفعه، إن كان حقًا يرغب في طرح أسئلة تؤرقه، وليس محض بالونات براقة يطيرها كطفل نزق في سماء حياته الآفلة.

أخرج دفترًا، ممتلئًا تقريبًا عن آخره بتأملات متباعدة، بدأ الاهتمام بتدوينها عام 1902، وسمَّاها "ملاحظات عن الشعرية والأخلاق". تذكر، بتأنيب ضمير مفاجئ، أنه كف عن تزويد دفتره بالملحوظات منذ سنوات، وتقريبًا لم يعد إليه. لكنه الآن يقرر - بعد تردد - أن يتركه متاحًا لألكسندر (لم يكن يعرف أن رفيقه اطلع عليه بالفعل من خلف ظهره، وأعاد نسخه كاملاً على مهل).

في واحدة من ملحوظاته، المؤرخة بأكتوبر 1905، كتب كفافيس:

"ما يجعل الأدب الإنجليزي يبدو لي قديمًا، إلى جانب بعض نقائص اللغة الإنجليزية، هو - كيف يمكن صياغة ذلك؟- نزعة المحافظة، صعوبة، أو انعدام إرادة ترك ما هو قائم، والخوف من مواجهة الأخلاق، الأخلاق الزائفة، فذلك ما ينبغي أن نطلقه على أية أخلاق تمتهن الجهل.

وفي السنوات العشر الماضية، كم من كتب فرنسية كثيرة -جيدة ورديئة- كُتِبَت، تبحث وتضع في اعتبارها، بشجاعة، البُعد الجديد

للحب.. الذي تم تجاهله لقرون، بدعوى أنه جنون (يقول العلم إنه ليس كذلك) أو جريمة (والمنطق يقول إنه ليس كذلك). وما من كتاب إنجليزي أعرف به. لماذا؟ لأنهم خائفون من مواجهة الأحكام المسبقة. ومع ذلك؛ فإن هذا النمط من الحب موجود وسط الإنجليز أيضًا، مثلما هو موجود –وكان موجودًا – لدى جميع الأمم، بالنسبة لقليل من الأشخاص بالطبع".

لقد قرأ ذلك المقطع لفورستر ذات يوم، وفوجئ بأن الإنجليزي انبرى للدفاع عن ثقافته القومية، ما دعا كفافيس يومها للقول: "أنا أكثر منك إنجليزية". كان يظن أن صديقه، المثلي في النهاية، سيستطيع فهم شيء عميق يفسر اغترابه عن أدب لغته، بل إنه ظن ذلك شيئًا قادرًا على منحه قدرًا من العزاء. الآن، ربما كان ألكسندر بحاجة إلى قراءة حقيقية فيما يراه، خارج المنطقتين الرئيسيتين اللتين يمكنه تعريفه في ظلالهما: حياته كما تراءت له، وشعره كما وقع عليه. كانت تلك الكتابات المجردة (كما توهم كفافيس) منطقة عمياء في علاقة الشاب به، خاصة وقد حوله أخيرًا لعمل فني. ورغم أنه لم يجد في ألكسندر شخصًا يضع الأخلاق في حسبانه لدى التطرق للجسد، (وهو ما أبهجه رغم كل شيء)، فإنه وجده يوقظ فيه سؤالاً جوهريًا، حول الطريقة الأمثل لتحويل الحقيقة إلى وهم، ولمنح الوهم مذاق الحقيقة. من جديد يقرأ كفافيس، ملاحظةً كتبها في 18 أغسطس 1908، غذاها بجَلد قاسٍ للذات.

"كتبتُ قصيدةً أمتدح فيها الريفَ، أُعلن فيها أن أبياتي هي تقدير لهذا الريف، والقصيدة بلا أهمية، فهي حقًا من أكثر ما كتبت زيفًا، مغالطة

حقيقية. لكن، يخطر ببالي، أهي زيف حقيقي؟ ألا يكذب الفن دائمًا؟ أو بالأحرى، أليس الفن حين يكذب لأقصى حد، فإنه آنئذٍ يبدع لأقصى حد؟ وحين كتبتُ تلك الأبيات، ألم تكن منجزًا فنيًا؟ (وواقع أن الأبيات كانت غير جيدة قد لا يرجع إلى افتقار الصدق، ذلك أن المرء كثيرًا ما يفشل، حتى لو كان مسلحًا بأصدق الانطباعات). وحين كتبتُ تلك الأبيات، ألم أكن ممتلكًا للصدق الفني؟ ألم أتخيل – على نحو ما – أنني عشت حقًا في ذلك الريف؟".

يتأمل من جديد الخطبة التي بقيت يوم احتفال جماعة "الحياة الجديدة" به حبيسة جيب بذلته لأكثر من ساعتين، ظل خلالهما يتحسسها خشية أن تقفز من جيبه فجأة وينكشف كذبه وخوفه، ثم ظلت بعد ذلك حبيسة صندوقه، (علبة المجوهرات الصدفية التي أتى بها من الأستانة، وخصصها لكنوزه المنسية).

يقرر أن يتركها على طاولة، ممتنًا أخيرًا لها، ومصدقًا أن لاشيء يُكتب ويختفي إلى الأبد. ربما يقرأها ألكسندر، ربما تجبره على تعديل قدرٍ من أفكاره في كتابة قادمة للرواية، أصبح كفافيس متأكدًا من أن الوقت لن يسعفه ليقرأها.

في انتظار البرابرة
(الفصل الرابع)

لماذا لبسوا أساور مرصعة بالجواهر،
وخواتم من الزمرد البراق؟
ولماذا يُمسكون فرحين
بالعصي المشغولة بالفضة والذهب؟
لأن البرابرة يصلون اليوم..



*يوقظني سؤال كريستينا.

ماذا عن القصائد غير المكتملة؟

بدأت تتساءل عن مستقبل قصائده. هل حان وقت التفكير في إرثه؟

طلبت مني أن تَطَّلع معي على قصائده، وكانت تنظر لي بتشكك، بعينيها المسدلتين، كأنني أنوي أن أعرضه للإيذاء. دعوتها أن تأتي معي إلى البيت، لأطلعها على الملفات التي أعددتها، والتي تحوي جميع قصائده.

ظلت متوجسة بعد أن صرنا وحدنا في الشقة، وكانت كلما شعرت أنها اقتربت مني خطوة، تبتعد بسرعة، كأنها تتفادى خطرًا محدقًا. من جانبي، تظاهرت أنني لا أعبأ بها، بينما أعرض الملفات الكبيرة. الأول "القصائد المنشورة"، يضم 154 قصيدة.. الثاني، "القصائد غير المنشورة"، ويحوي 66 قصيدة مكتملة غير أن قسطنطين شاء ألا ينشرها.. الملف الثالث اسميته "القصائد الأولى" ويحوي 33 قصيدة تنتمي لبداياته ـدأب على تلاوتها في الأيام الأخيرة التي سبقت ذهابه إلى المستشفى اليوناني ـ وقد استبعدها تمامًا..

ـ لقد أوصى بالتخلص منها كي يضمن ألا تنشر أبدًا..

ـ إياك أن تفعل..

قالتها بحدة، ثم قالت بتشكك:

- هل أوصى بذلك كتابةً؟

- بل أخبرني به.. ولو أردتُ تنفيذ الوصية ما كانت هذه القصائد موجودة إلى الآن في هذا المغلف الذي لا يعرف عنه شيئًا..

شعرت كريستينا بقدر من الإحراج، لكن يبدو أن نوعًا من التكبر باغتها في اللحظة نفسها، فلم تعتذر لي عن سوء ظنها.. وبدلاً من ذلك، أشارت للمغلف الرابع والأخير متسائلة.

- إنها 34 قصيدة غير مكتملة..

- هل يمكن أن نحملها له في المستشفي؟

- ليكملها؟!

لم أقصد أن يخرج سؤالي ساخرًا على هذا النحو، لكن رغبة كريستينا بدت لي عبثية.. أردت أن أخبرها ببديهية أنه لو أراد ذلك لطلبه.. لكني احترمت حرجها..

- 287 قصيدة إذن هي كل ما يملك قسطنطين.. على الأقل هنا.. ربما تكون هناك قصائد في أماكن أخرى غير أني لا أعلم عنها شيئًا..

- وماذا تنوي أن تفعل بها؟

من جديد بدا سؤالها لي عدوانيًا ومتشككًا.. لكن ما أرقني أنه أكد على موته الوشيك، من الإنسانة الوحيدة التي يُفترض أن تصدق أنه سيحيا..

صمتُ للحظات وأنا أحدق في عينيها الكسولتين، وفكرت أن هاتين العينين لا تعكسان أبدًا المشاعر المحدقة المفتوحة على اتساعها التي

تكمن خلفهما.. لكني كنت أفكر، ماذا يفعل هو الآن، وحيدًا في غرفته؟

عندما نعود، سنجده يتعثر، ناشبًا أظافره في وجهه النائم المغمض، كأنه يتخلص في المنام من قناعه.

سيستيقظ بعد محاولات يائسة لتخليصه من نفسه، لكنه سيظل بولع غريب يتحسس وجهه، يشد تجاعيده كأنه يجرب انتزاعه، لقد عاوده الحلم.. يحلم بأنه بائع وجوه.

*يدخل الإسكندرية بلا وجه. يبدأ من حيث هو لا أحد، لكنه يُفاجأ بأن الجميع في انتظاره.

شخص يوناني بلا وجه، ليس بالضبط، لكن وجهه مثل ورقة مستوية وخالية، من اللحم القاني، حيث لا ملامح، لا عينين ولا أنف ولا فم ولا أذنين. لا يعرف متى فقد ملامح وجهه ولا كيف. لا يعرف أنه في حلم، لكنه يعرف أنه قادم من حرب. كشط الأعداء ملامحه وتركوا وجهه قطعة من العجين تنتظر من يعيد تشكيلها. ربما ذلك ما حدث، بينما تؤكد له أمه خاريكليا، في ملابس امرأة اسبرطية، أن ذلك لم يحدث، أنه وُلد هكذا، برأس خالٍ هو كرة من اللحم الأخرس لأن وجهه الممحو لا يحمل أي آثار تعذيب. لم يعد ذلك يفرق كثيرًا، فقد بدأ، من أي نقطة في الدائرة، وهم ينتظرونه، ينتظرونه في الميدان، لأنه يصل اليوم، توقف الشيوخ في مجلسهم عن سن القوانين، لأنه يأتي اليوم، فهو من سيضع القوانين، استيقظ الامبراطور مبكرًا اليوم، وجلس عند البوابة الرئيسية للمدينة، ناقلاً عرشه، لأنه سيصل اليوم،القناصل والقضاة أيضًا خرجوا لاستقباله، بأساور مرصعة بالجواهر، وخواتم من الزمرد البراق، مُتكئين على عصي مشغولة بالفضة والذهب، كي يجذبوا انتباهه، اختفى الخطباء المفوَّهون بخطبهم الثقيلة، لأنه يأتي اليوم، وهم يعرفون -رغم أنه لا يعرف- أنه يمل الخطب وتُضجره البلاغة.

تهبط قدماه المدينةَ المحتشدة من أجله، بينما طرقاتها حفل تنكري صاخب، رأى جميع أنواع السَّحرة.. وهو، ربما، ما جعل الاستغراب من شكله المرعب أقل حدة، ثمة امرأة زاحفة لها جـد ثعبان، وأطفال مجنحون، بينهم هيليني الميتة، هناك الرجل المقسوم إلى نصفين يمشيان متجاورين، يشبه بيتر جون، أيكون هو؟ والفتاة التي تعيش في صندوق ماء زجاجي يحمله أبوها المعمّر، كريستينا التائهة دائمًا في هذه المدينة. أي مجد لرجل بلا وجه بين كل هؤلاء، وأي خطر؟ عندما التف الجميع حوله، عندما سمع الهمهمات المتكررة "ها قد جاء حلّ من الحلول"، أعلن عن قفصه المغطى بالخيش، قفص الوجوه الحية. الوجوه التي تنبض بالأنفاس الساخنة، مزدحمة كأرغفة خبز، تتحدث فيما بينها بأصوات عالية. وصلت للجميع ضحكاتها وصرخاتها وبكاؤها، للعبيد قبل السادة، شاهدوه وهو يطعمها بنفسه.. يدهن وجوه الإناث منها بالمساحيق، ويهذب لحى وشوارب وجوه الذكور بالموسي. هرب الأطفال وتقدم الرجال والنساء. الوجوه تتحرك داخل القفص الضخم صانعة جلبة فظيعة كأنها طيور ضخمة.. ولم يكن هو يفتح باب القفص سوى بحرص شديد، كأنه يخاف أن ترفرف وجوهه مبتعدة إذا غادرت سجنها. أمر الامبراطور بإحضار طاولةٍ ضخمة، من الأبنوس الموشى بالعاج، ليعرض كل وجه على حدة أمام الجماهير الغفيرة.

"لقد جئت لأمنح الوجوه لمن يريدون تغيير وجوههم". ارتجف الجميع حين سمعوا عبارته الغريبة، وتحسسوا ملامحهم في رعب، غير مصدقين ما سمعوا! كان صوته يأتي من مكان مجهول في جسده،

بصدى مخيف وحاسم، وأكمل الصوت: "المقابل الوحيد الذي سأحصل عليه من أي شخص يريد تغيير وجهه والحصول على وجه من عندي.. هو الحصول على وجهه الأصلي، سأنزعه برقة دون أي ألم، سأكشطه بنعومة دونِ نقطة دماء واحدة.. وأمنحه بدلاً منه الوجه الذي يختاره بنفسه.. سأثبّته مكان ملامحه القديمة ليصير وجهه الجديد الذي اختاره.. منذ هذه اللحظة لن يكون أحد منكم أيها السكندريون مجبرًا على الحياة بوجهٍ ورثه عن آبائه دون أن يختاره".

تردد الناس، وفي الحقيقة لم يكن أحد منهم يملك شجاعة البدء.. لكن الامبراطور أمر بأن يبدأ العبيد، ومع أول شخص تجرأ واستبدل وجهه القديم، وكان فقيرًا له وجه مشوه بفعل الاحتراق وليس لديه ما يخسره، تجرأ الباقون وبدؤوا يستبدلون وجوههم. كان من بدؤوا، وفضلاً عن كونهم عبيدًا، من أصحاب الوجوه الدميمة والمشوهة والشائخة، رجال عجائز، مصابون في حرائق، مشوهون بفعل الحروب أو العيوب الخِلقية.. وأرامل وعانسات قبيحات. يختار الشخص الوجه الذي يروق له، فقط يشير له، ويستسلم له، ينزع الوجه الأصلي ويضعه في القفص، ليمنح صاحبه واحدًا آخر.

تجرأ الامبراطور، وسأله من أين يأتي بهذه الوجوه الحية فرفض الإجابة، سأله أعضاء مجلس الشيوخ لماذا لا يضع وجهًا مكان ملامحه الخالية المُرعبة رغم أنه يمنح الوجوه للناس، فقال إنه يبحث عن وجهه القديم الذي فقده ذات يوم، ولا يريد سواه.. تساءل القناصل

متخابثين، لكن دون أن يتجاوزوا توقيرهم له ورهبتهم منه: وماذا تفعل بالوجوه البالية عديمة النفع؟ قال أمنحها لمن يملكون وجوهًا أشد قبحًا، وعندما استفسر الخطباء المفوهون عن الطريقة التي فقد بها وجهه، قال: تركني حين لم أعد أراه".

أخيرًا تجرأ الامبراطور، وقد راح شعبه يهتف باسمه، وتقدم رجال البلاط، ورجال مجلس الشيوخ، والخطباء، والقناصل والحكام، وتركوا لهم وجوههم صاغرين.

استعد للرحيل، بعد أن تأكد أن الإسكندرية بكاملها فقدت ملامحها القديمة وصار قفصه الضخم مكتظًا بوجوه سكانها الأصلية، وفور أن غادر البوابات، حيث وقف في وداعه الامبراطور متبوعًا بقطيع رعيته، بدأت الملامح تذوب على وجوه أصحابها.. لتتساقط تحت أرجلهم، تاركةً حواسهم للظلمة.

قسطنطين

الأمطار تغرق البيت، فيما يستنشق هو رائحة بارود.

لو كان بوسعه أن يفعل الآن، لسأل: أي حرب تدور في الخارج؟

إنه يسمع أيضا أصوات دوي، المدينة تتجرد من بيت هنا، بيت هناك، كفم يفقد مرة بعد أخرى واحدة من أسنانه وهو نائم.

يطل عبر النافذة، ويسألني، هل ترى سفنًا؟

لا أعرف بم علي أن أجيبه، لأنني لم أستطع أن أحدد على وجه الدقة هل طرح السؤال كحالم أم كمحموم فقد عقله؟

"دائمًا هناك سفن".

"لأن هناك دائمًا بحرًا؟".

أعرف أنه فخ جديد يدبره لي في أزمنة أفوله. ستكون عورة جديدة لو أجبته بالإيجاب كطفل أبله. لكنه يجيب على سؤاله عوضًا عني.

"لأن هذه المدينة خُلقت، فقط، كي يغادرها الناس وكي يعودوا إليها".

كيف يشبه الماء النار؟ كيف لصوت السيول أن يوقظ فيه أزيز الطائرات والضوضاء المدوية للبوارج وأعيرة الطلقات النارية؟

هُيّئ لي أن البيت يرتج. واستيقظتُ على الاصطفاق المجنون للنوافذ بينما تكاد الريح العاتية تهشم زجاجها. تُحوِّل الأنواء هذه الشقة لسفينة تغرق، وكثيرًا ما استيقظنا لنجد الجدران تهتز بينما تكون الأمطار الحادة قد هشمت زجاج النوافذ وصنعت بحيرات في الداخل.

استيقظ مع أول خيوط المساء فزعًا، مبللاً، بينما يحاول في هلع تجفيف كل ذرة في جسده، يفرغ أحشاءه من كل ما يسيل.. هل هو الحلم نفسه؟ لقد ظننته لن يعود.

جسده كله يرتجف من الحمى، بينما يركض ليتأكد أن جميع الصنابير مغلقة، ويضع يديه فوق عينيه كلما رأى قطرة ماء كأنما يتقي شمسًا.

بسرعة التقطت زجاجات المياه وأخفيتها.

إنه، مجددًا، غرقه الخاص، يباغته في اللحظة الخطأ.

يبقيه هذا الحلم مرتعبًا لأيام، إنه الشيء الوحيد الذي أثق أنه يهدد حياته. يظل لعدة أيام لا يقرب الماء، لا يشرب، لا يستحم، ولو

أمطرت، فإنه يُقتَل رعبًا ويظل يدور حول نفسه صارخًا.

اقترب منه عصفور، فارتعدت، غير أنه، كالعادة، أفسد جميع توقعاتي. تركه يعبر إلى داخل الغرفة بهدوء، بابتسامة مرحبة.

"لقد عاد..".

ثم أكمل:

"إنه هو.. هو نفسه.. لقد عاد إذن.. هل تذكر؟".

يُذكِّرني بظهيرة عودتنا من أثينا، يوم عدنا إلى البيت شبه غريقين.

يومها راح يتحسس جميع الأشياء، يتلمسها ويتشممها، كأنه في مكان آخر لم يره من قبل. متاهة من الأحمر والأخضر. فتح جميع النوافذ وأغلقها بسرعة، كأنه يتقي عدوًا ما في هواء المدينة، وظل اليوم كله يتحرك في البيت، ذاهلاً، كمن يتجول في مقبرته.

رغم ذلك، بدا كأن المدينة تأبى إلا أن تضاعف من متاهته، فقد تسلل عصفور صغير بخفة لص من إحدى النوافذ، ورغم أنه أغلقها بسرعة، إلا أن الكائن الدقيق كان قد بدأ نزقه الخاص داخل الشقة، فجن جنون قسطنطين. راح يلهث خلفه.. يتقافز كأنما يريد أن يلاحقه في الهواء المعتم المكتوم.. وشعرت أن الصياح الحاد الرفيع المتقطع للطائر الصغير يستفز شيئًا مبهمًا وقديمًا فيه.. وبدا لي الصياح المبتهج للكائن الدقيق في هذه اللحظة كما لو كان يعمق

فيه اختفاء صوته، مما ضاعف من جنونه. أخذ يلاحقه بيأس، مهشمًا كل ما يعترض طريقه. ورغم أنني حاولت أن أقنعه في هياجه أن نفتح النوافذ كوسيلة وحيدة لخروجه، إلا أنه صرخ ملتاثًا من أعماق صمته: لو فتحناها سيدخل الباقون.. سيحتلون المكان.

ظل يتعقبه في كل الغرف، يمحو مع كل خطوة واحدًا من تذكارات ماضيه، وهو عاجز حتى عن أن يُحوِّل غضب قلبه إلى صراخ. لم يكن من الممكن في هذا الهياج أن أقنعه أنه يطارد كائنًا يحلق، بقدمين عاجزتين.

انتهت المعركة بفقدانه لوعيه. جررت جسده الهش من فوق بلاط الصالة ووضعته في سريره، ثم بذلت جهدًا ضخمًا لكي أرد إليه وعيه. وعندما بدأ يفتح عينيه بالكاد نظر بسرعة، مذعورًا إلى السقف، قبل أن أخبره: لقد غادر.

تركته ينام، ثم فتحت نافذة الصالة الكبيرة، حيث اقترب العصفور مني بهدوء، وتوقف فوق كتفي للحظات، قبل أن يغادر. تركتها مفتوحة ليدخل الهواء، وآلمني الضوء فجأة، كأنني، وهو معي، قادمان من مكان لا تعبر نوافذه سوى العتمة.

رغم كل شيء رحت أفكر في بحر يمكن رؤيته عبر هذه النوافذ، حتى لو كان في مدينة أخرى.

إنه ابن بار للخيال والوهم، وكان يرحب بنوبات الحمى التي

تنفجر معها هلوساته ولا تكف خلالها يده عن الكتابة. عندما يشفى، كان يعيد قراءة ما كتب، ويبدو متحيرًا، ويقول:

"لا يمكنني تقييم ما كتبته وأنا نائم بوجدان شخص مستيقظ".

يرجئُ قصائد جنونه، بمنطق لا يصدق، إلى أن تهاجمه حمى جديدة.. يراجع خلالها نتاج هلوساته السابقة بالذائقة الصارمة لشبح نائم، ويكتب غيرها، يستبقيها للحمى القادمة.

يصر أن يخرج بجسده المشتعل المعروق، وقد غادره رعب الحلم، ليقف في النافذة التي تستقبل هواء ثلجيًا.. حيث يعود لذاكرته توهجها.

فكرت كثيرًا أنه كان محنكًا في تذكر ما لم يعشه، وأن تاريخه الوحيد في الحقيقة هو كل ما لم يحدث قط.

"المحزن، المحزن للغاية.. حين تأتي سفن كبيرة ذات زينة من مرجان وصوارٍ من أبنوس.. محملة بالكنوز.. فلا تدخل الميناء، سواء لأن كل ما في حمولتها ممنوع، أو لأن الميناء ليس متسعًا بما يسمح باستقبالها..".

يطرق محبطًا.

"وهكذا تمضي.. تنتفخ أشرعتها الحريرية بالريح غير المواتية.. والشمس تصقل مجد مقدماتها الذهبية، وتبحر بعيدًا في هدوء وجلال، بعيدًا عنا وعن مينائنا الضيق، إلى الأبد..".

هل انتهت الحرب؟

شهر أسود. كانت الإسكندرية صاخبة. بريطانيا تقذف لها بالقنابل كأنه عرس دموي. يتألم للهدوء الذي خُدِش.

خاريكليا تردد سؤالاً واحدًا. يبدو له بلا معنى. أو ربما متخم بالمعاني حتى إنه يشبه خواء مكتملاً: ألن ينتهي ذلك؟

الطفل الكبير خارج البيت. خارج مرايا الأم. يرى المدينة لأول مرة حطامًا متألقًا.

"لقد احترق كل شيء فيما عدا تمثال محمد على وكنيسة القديس مرقص".

أي ولعٍ كان يدفعه لمراقبة السفن؟

"لقد رأيت جميع مدن الدنيا في ذلك اليوم.. وظللت رغم ذلك ملتصقًا بنافذة.. أشب كي أرى بالكاد الحرب.. فتخطف سفن بعيدة عينيّ"..

كم من الحروب والطواعين شهدها ومرت على وجه هذه المدينة تاركة في كل مرة ندبة جديدة وجرحًا غائرًا؟

"كانت المدينة طُرقات للأشباح.. الأشخاص يموتون في الشوارع.. بعد الظهيرة يملأ البحارة طرقات الميناء. يبدون واثقين مبتسمين.. وسواء كانت الحرب أو أية كارثة أخرى من تلك التي تسقط من السماء أو تتسلل عبر البحر. فإنهم كانوا يتحركون بهدأة متأبطين

نساء لا ينتمين بكل تأكيد إلى هذا الجزء الحار من العالم.. فبشراتهن بيضاء مشبعة بحمرة. عيونهن بلون البحر وشعورهن المنسدلة على أكتافهن ذهبية. يحتل النمش وجوهن وأذرعهن العارية. طويلات جدًا وأميل إلى النحافة.. لسن مثل نساء هذه المدينة السمراوات البدينات. وليس على وجوههن ذلك الحزن الذي يجعل جميع الوجوه متشابهة مهما اختلفت ملامحها".

بدأ البحارة يتوجهون إلى الحانات. يتبعهم، غير أن الرجال الأشداء يطردونه قبل أن يعبر الأبواب. يتذكر رائحة قديمة مثل هذه في البيت. تتسلل أحيانًا من فم أبيه، من فم أمه، من أفواه الخدم. يختفي البحارة، ينغلق أمام عينيه العالم السحري الذي سيكتمل الآن. كانت عملتهم هي الذهب: هذه هي العملة الوحيدة التي لا تتغير بتغير المرافئ. عرقهم له رائحة السمك الطازج. عيونهم تلمع غير أنها متعبة.. لا يستطيع أحد تحديد إلى أي البلاد ينتمون ولا في أي مناخ أطلقوا صرخة ميلادهم. لهم جميعًا لون الجلد الحنطي نفسه، وجوههم تنتشر فيها البثور العميقة. يرهطون بلغات متداخلة تبدو - لكثرة ما تحدثوا بهذه الطريقة - لغة بدائية تخصهم وحدهم، وحتى في هذا لم يكن أحد يجد صعوبة في فهمهم. كان الذهب يتكفل بكل شيء، كأنه كان يقيهم خطر الأوبئة والحرب، ففي كل صباح كانت المدينة تستقبل جيلاً جديدًا من الجثث لم يكن بينها أبدًا واحد منهم.. حتى أماكن الغجر طرقوها بهدوء وعادوا منها أكثر شبابًا، وصار

حديث النساء الفزعات في جميع بيوت المدينة، التي لم يَخلُ أحدها من جثة أو أكثر، هو هؤلاء الأشباح النحاف الذين يمضون بوجوه مرفوعة لأعلى كأن أجسادهم تقع خارج جميع اللحظات الخطرة.

أعادوه إلى البيت. هل حقًا أعادوه؟ أم قادته خطاه؟ يعود إلى الثريات والنوافذ، الجدران والغرف. يعود لهواء البيت وللضوء، ويجد البيت وقد انسكب في حفنة من الحقائب.

تهرول خاريكليا في الشقة، لا تفعل شيئًا.. فقط تجري هلعة.. تحكم إغلاق جميع الشبابيك، لكنها لا تلبث أن تفتحها لتُطل.

النار تشتعل في جميع أرجاء المدينة، تبدو ضوءًا خرافيًا مبهرًا عندما يحل المساء.. ورائحة الدخان تملأ البيت.. تنبعث من مصادر مجهولة.. من أسفل المقاعد والأرائك.. من ثريات الأسقف وأواني الطهي.

دُمِّر شارعا توفيق باشا وشريف باشا عن آخرهما، صار من المستحيل عبور أي من شوارع الحي الأوروبي، انهارت المنازل وتساقطت جدرانها، صارت علب المجوهرات الفارغة والساعات المحطمة تملأ الشوارع، وجرى نهب كل الحوانيت.

تشاجر شخصان، فاشتعلت الإسكندرية (كيف له أن يصدق تلك الحكاية الآن؟.. إن الشيء الوحيد الصادق كان وجه المرأة، التي ظلت تتقيأ كأن الحرب تدور في أمعائها).

وقع شغب رهيب. مع انسحاب عرابي اندلعت عمليات سلب ونهب بامتداد المدينة. أبواب الإسكندرية تُفتح دون استئذان. كأنها صحراء ساحلية لقطاع طرق. الواجهات الزجاجية تتهشم..

ليس في البيت سوى صوت أمه الآمر: "سنغادر هذه المدينة.. سنذهب إلى الأستانة".

تنتزع يده ورقة، تلتقطها من نقطة في الهواء، لا أعرف كيف فعلَت، ثم يبرز قلم بين إصبعين في يده اليمنى، تبدو كف هيكل عظمي، خالية من الجلد. يكتب.

"لحسن الحظ، فمثل هذه السفن نادرة للغاية، فطوال حياتنا، قد لا نرى إلا اثنتين أو ثلاثًا منها، وسرعان ما ننساها. وكلما كانت رؤيتنا لها أروع، كان النسيان أسرع. وبعد مرور بضع سنوات، وإذا ما كان لبعض الأبيات المُلهمة أن تعود بالصدفة ذات يوم إلى سمع عقلنا - فيما نجلس ساكنين، نرقب الضوء أو نصغي إلى الصمت - فإننا لا نتعرف عليها للوهلة الأولى، ونجهد ذهننا في محاولة تذكر أين سمعناها في الماضي.. وبعد عناء كبير، تستيقظ الذكرى القديمة، ونتذكر أن هذه الأبيات محض أغنية غناها البحارة، الفاتنون كأبطال الإلياذة، حين كانت السفن العظيمة، المهيبة، تمر بنا وتمضي في رحلتها.. من يدري إلى أين..".

تختفي الورقة، تعود لنقطة مخبأة في الهواء، تكتسي الكف

العظمية بالجلد، تعود إليها عروق الحياة باهتة الزرقة ومسحة الدم الخفيضة، ويتحول القلم إلى عدم.

خرج العصفور، وظل يراقبه إلى أن غاب في الأفق البعيد، ثم رفع كفًا كمن يُلوِّح بيد غائمة لذكراه.

"لقد غادر لأنه لم يجد من يطارده.. إننا نوجد، فقط، حين نعثر على من يقاوم وجودنا.. على أية حال.. هناك سفن.. سفن كبيرة تراها عيناي من هنا.. أنت لن تراها لأنك لا تقف في مكاني.. وهناك حرب أيضًا".

(قصاصة)

قال أحد ضباط سيمور: لقد ظلت الإسكندرية جميلة حتى وهي تحترق.

يهتز خياله أمامي من ذؤابات اللهب التي تلتهم مدينة ظل يعتقد أنها غير حقيقية.

(لقد أنهى العزيز فورستر كتابه عن الإسكندرية بواقعة ضربها.. كأنه يرى في ذلك وداعًا مثاليًا لها.. ثم دس قصيدتي "الإله يتخلى عن أنطونيو" بين قسميه، ويبدو أنه وجد في خاتمتها بالذات شيئًا مؤثرًا في هذا السياق.. "وداعًا للإسكندرية التي تضيع منك..".

يشرد، ثم ينظر لي بتركيز، كأنه اكتشف شيئًا..).

- عندما تقع الحرب وأنت مراهق فإنها تكون حكاية.. لكن من يراها وهو شيخ.. لا يمكنه أن يتصورها سوى قصيدة. لقد شعرت بذلك في حينها رغم أنني لم أكن كتبت القصائد بعد.. ثم يضحك فجأة..

- جميع الحروب التي حولتها لقصائد وقعت قبل أن أولد.. ربما لذلك هي حكايات.. إنها قصص ولا أجد حرجًا في أن أعترف لك بذلك..

....



خاريكليا

سيغادرون المدينة.

قربته خاريكليا، ومنحته وسام الخديوي اسماعيل المجيدي، الذي قلده لأبيه بيتر جون، قبل أن يموت بعام واحد. تطوقه به كأنها تقلده إياه في حفل تكريم. اقترب حتى تشمم الأنفاس الخارجة من أنفها.

سيظل يتذكر ذلك اليوم من عام 1882 بهذه الرائحة المنبعثة من فتحات أنفها المستقيم.

كيف يمكن أن أحوّل الرائحة إلى قصيدة؟

لعلها خشيت أن تضعه في حقيبة قد تضيع؟ أم كانت تكرمه؟

الجميع يتقيئون يونيو الحار. البوارج البريطانية قصفت الإسكندرية.

لأول مرة، يشعر أنه ابن لبيتر جون، الآن، وأنت في التاسعة عشرة. تكتشف فجأة أنك ابن لرجل أيضًا. ليس فقط لهذه المرأة التي كدتَ تصدق أن جسدها لفظك من تلقاء نفسه.

يحاول من جديد، وعلى عجل، قبل أن يغادر الإسكندرية للمرة الثانية (ربما للأبد هذه المرة؟)، تجسيد صورة أبيه، بين هذه الجدران التي عاش فيها، والتي ربما لا يعودون إليها. في الثلاثين من عمره حطت قدماه لأول مرة هنا، في أي الفصول جاء؟ ليس بوسع أحد أن يجيبه، هل كانت تمطر، أم كانت شمس حارقة تستقر فوق رأسه كأنما تتآمر عليه؟ هل كان خريفًا دافئًا (وحزينًا) أم ربيعًا متربًا يسد الحلق ويغشى العينين الملونتين؟.. جاء يحمل لافتة (مؤسسة كفافيس وأولاده)، ترك الأستانة وهبط هنا.. أنشأ محالج القطن، واشتغل بتجارة الحبوب والمنسوجات.. صارت له أربعة فروع، ينفق، كما دأبت خاريكليا أن تكرر بفخر، أربعة آلاف جنيه في العام.. مصنعان في "كفر الزيات".. متاجر في "مينا البصل".. مكتب حاصلات زراعية في "زيزينيا" وآخر في "الموسكي" بالقاهرة.. أصبح مساهمًا معتبرًا في شؤون الجالية اليونانية، وشخصية ذات ثقل في حياتها الدينية والتجارية.. أرستقراطية الإسكندرية كلها مسكوبة في البيت.. كل من يملك نفوذًا كان له مقعد هنا..ويبادر الخديوي إسماعيل لتعميق صداقته به، لكنه لا يجاريه في طمعه، لا يلتفت للعيون النهمة في بلاطه.. هذا الوسام، قلده الخديوي لأبيه في افتتاح قناة السويس.. قبله شاكرًا، وبمجرد أن عاد إلى البيت قذف به لزوجته.. ثم منحة قبلة، يستطيع الآن أن يتذكر ذلك، على وجنته، كأنه تذكر فجأة أن له طفلاً في السادسة.. سيموت بعد عام

واحد.. شبح في الخامسة والستين، على وشك الإفلاس، بلا مجد.

(يختفي لدقائق، ثم يعود ممسكًا بالتذكار الغامض. واحدة جديدة من تعاويذ ماضيه تبزغ فجأة.. وأراها للمرة الأولى. يتأملها بتمعن، يقربها من عينيه).

"مضيت يومها مزينًا بهذا الوسام.. لقد جعلني مرهوب الجانب وغامضًا.. وعلى السفينة عاملني الجميع بتوقير حتى إنني شعرت للمرة الأولى والأخيرة أنني رب هذه الأسرة الهشة التي يفر أفرادها كفئران مذعورة. بمجرد أن وصلنا للأستانة الشبحية والشاسعة، نزعته أمي عني وأعادته لصندوقه.. ولقد شعرت يومها أنني جُردت من قوة ما كنت بدأت أتعودها.. عدتُ ضعيفًا ومترددًا، وصرت من جديد الشخص الأكثر هامشية في تلك الأسرة، والتي عادت بدورها قوية واثقة بمجرد أن دخلنا القصر الكبير الذي يحيا فيه تاجر الماس جون فوتياديس.. جدي لأمي".

يعود مجددًا لمشاهدة السفن، لكن ليس وحده هذه المرة، تقوده خاريكليا، وعدد من الإخوة. ثلاثة؟ خمسة؟

ينظر لي ذاهلاً وهو يعد على أصابعه. "ثلاثة أم خمسة؟؟.. ربما أربعة؟؟.. نعم كان هناك جورج، بيتر، ألكسندر، أريستيديس، جون..".

"لقد رأيت في الميناء الإسكندرية كلها.. صدقني.. الجميع

الجميع.. عندما بدأت السفن في التحرك لم يكن هناك شخص واحد في المدينة.. شخص واحد لم يكن موجودًا.. مدينة أُفرِغت من حمولتها، بدقة وعلى عجل.. البعض كانوا يحملون بيوتًا على أكتافهم.. لقد كانت أمي تثرثر مع الجميع، كأنها صارت أخيرًا في بيتها.. أصابتها فجأة حمى الحديث عن أصولها، كأنها تذكرتها فجأة فور خروجها من يابسة المدينة المبتعدة، كأنها تلقننا بالذات درسًا منسيًا يجب أن نتذكره عندما ندخل بيت الجد الكبير.. أسرة عريقة من الفناريين، اليونانيين الأقوياء ذوي السطوة في المناصب تحت الحماية التركية.. علينا ألا ننسى.. وعاد البحارة ثملين، جاءوا جميعًا متأخرين.. يتطوحون.. ويقضمون الذهب بأسنانهم..".

".. وعبرنا البحر من جديد.. في تواطؤ جماعي.. لقد كان الجميع يرحلون حتى هيئ لي أن البحر نفسه ذاهب معنا ولن يعود قبل أن تنتهي الحرب..".

الأستانة.

"هل تعرف الأستانة؟ لا.. أنت لا تعرفها.. لا تستطيع حتى تخيلها، المدينة التي لا تستطيع أن تتخيلها قبل أن تراها لن تعيش فيها أبدًا ولن تزورها. لا تمنحك مدينة نفسها في الواقع قبل أن تتجول فيها في الخيال".

".. إذا كان عليَّ أن أختصر كل مدينة في شخص.. لو طُلِب مني ذلك وأنا أكتب وصيتي.. فستكون الأستانة هي مدينة تاجر الماس.. الرجل الذي يلمع جسده من طول احتكاكه بالحجر الكريم.. جون فويتاديس.. الذي يهاب لمس أي شيء قليل القيمة.. لا يلامس المعادن ولا الأخشاب".

*يصمت، ثم يستدير بوجهه نحوي فجأة.

ـ هل قلت لك إنني حلمت به مجددًا بالأمس؟

لم يقل لي شيئًا، وكنت أود لو أقبّل قدميه كي لا يفاجئني بواحد من أحلامه السوداء بجده، والتي كانت رغم ذلك تسعده كثيرًا. آخر حلم على ما أتذكر، كان فيه جده يشاركه مائدة الطعام في الأستانة.. وبينما كانا يستعدان ليتناولا الغداء، أخرج الرجل سكينًا ضخمة، وفصل بها رأسه.. ثم وضعه أمامه على المائدة.. وبدأت يده تطعمه في فمه.. بينما يعتذر. ولا يعرف قسطنطين من أين يأتي الصوت ـ بأن أسنانه تؤلمه.. وأنه، بهذه الطريقة فقط، يمكنه أن يتناول طعامه دون ألم.

ـ بالأمس حلمت به يمسك حزمة أوراق بيضاء في يده المرصعة. لقد فقد صوته.. ولكنه ما أن يفتح فمه حتى تتحول الكلمات إلى عبارات على الأوراق.. تُكتَب من تلقائها بخط جميل.. ويستطيع الواقف أمامه أن يقرأها في لحظة نطقها نفسها.. وحينما ينتهي، تنسحب الكلمات من جديد من على الورقة، تتطاير في الهواء عائدة إلى فمه.

يصمت.. ثم يتنهد:

ـ إنها الأستانة.. مدينة القصيدة الأولى..

يشخص من جديد للبحر الذي يراه وحده، للسفن التي لا تزال تقله.

تاجر الماس

يعبر، بوجل، البوابة الكبيرة. لا، يتسمر قليلاً، يغيب في النقوش الكثيفة، يمرر يديه في أحشائها المشغولة، وإذا ما أضيف لذلك لون المعدن الأخضر، فإنه في غابة حقيقية.

لأول مرة يميز العلاقة بين الرحابة والعتمة، بينما يخطو نحو فردوس الجد، متلمسًا الجدران كأي ضرير، وسيحتاج وقتًا كي يعثر على الأنفاس في البيت، غير متيقن من الوقت الذي قطعه في هذه المتاهة التي يقطنها بائع الماس العجوز.

"لم أكن أكتب الشعر.. كنت أتمنى أن أصبح مؤرخًا.. ولم أكن فعلتها مع رجل بعد.. لكن كل شيء حدث هناك..عدت بعدها لأبحث عن القصائد والرجال..".

يبتسم، ويرتجف. ينتفض جسده كله، وأرى عينيه الزائغتين تشحبان، تشيخان في مكانهما.. ويهيأ إلي أنهما امتلأتا بالتجاعيد.

هو أيضًا، ظل في عينيَّ رجلاً يتحلل في مكانه، حتى إن تجاعيده

نفسها بدأت تشيخ. وعلى العكس من جميع البشر، كان يتقدم في العمر كلما أمعن في التذكر.

(يعيد صياغة ذاكرته. بالطريقة التي أرادها دائمًا. بيد الشاعر المرتجفة الواجفة. التي تُغفر جميع خطاياها. ويبدو وهمُها الحقيقةَ الوحيدة القابلة للتصديق.. وليس بيد المؤرخ الذي طمح يومًا أن يكونه. في نهارات بيت الطفولة الأبدية حيث لاذ مرارًا بالصحراء الشاسعة لماضيه دون أن يتوه مرة.. وفي شيخوخة شرفاته الشبحية. التي يتطلع عبرها إلى شوارع ذاته.. إلى البيوت التي لا وجود لها سوى في أحشائه والأنفاس التي يُصغي إليها بأذني شخص لم يعد موجودًا. صار يريد ماضيه مستويًا وخاويًا مثل ورقة بيضاء. صالحة لكتابة القصائد وليس أي شيء آخر. وقد بدا. في أيامه الأخيرة تلك. والتي كان غارقًا بالكامل في قدرتها الاستثنائية على المحو. لدرجة محوه شخصيًا. كأنما يدير ماضيه بعين شخص آخر. لم يعشه قدر ما تخيله.

الأوراق البيضاء. تلك التي طالما ألهبته وأججت أشواقه. لم تعد عزاء لعجزه.. وكأنه كان يسكب صوته بالذات ليملأ خواءها. وليُحوِّل ثرثرته المكبوتة إلى كاتدرائيات تنفتح أبوابها. فقط. في العتمة).

من بين جميع إخوته، أشارت له يد جده ليقترب، ربت على شعره، ونظر طويلاً في عينيه، حتى إنه أشاح بوجهه، كأنما حدق في شمس. خلع تاجر الماس سلسلة غليظة عن عنقه، معلقًا فيها حجر أزرق، ووضعها حول رقبته، بقدر من قسوة. نظر في يديه، ثم مر بكفيه الكبيرين على الأنامل الرخامية النحيلة والطويلة، تلمَّس البشرة الناعمة للكفين السابحين في عروق زرقاء باهتة، الكفين اللذين لا يفعلان شيئًا، ثم وجَّه نظرة قاسية لابنته، "يداه ناعمتان يا خاريكليا، ماذا فعلتِ به؟" لم يقلها، لكن قسطنطين يستطيع الآن أن يخمنها، وقد استدار عنق المرأة، لتتقي قسوة العينين المجعدتين، سأله ماذا تعمل؟ "إنني أقرأ"، وأضافت أمه: "ويكتب، يعد كتابًا تاريخيًا"، لكن الرجل لم يلتفت لإجابتها، قال له عبارته الغامضة، التي لم يفسرها أبدًا، وهو يشد على يديه، كأنه يرغب في تحطيمهما، "افعل ما تحب.. لكن كن رجلاً".

*- وزوجة تاجر الماس.. إنها قصة أخرى.. إنها امرأة نهاية العام...

أحاول أن أجذبه للداخل، غير أنه يرفض بحسم، يتشبث بمكانه كطفل حرون.

ينظر في خياله إلى غرفتها الموصدة، يقتله الشغف، لكن الغرفة لا تُفتح. السجينة التي بالداخل لا يراها الأحفاد. خاريكليا فقط يمكن أن تتسلل إليها، غالبًا في الأوقات التي لا يتواجدون فيها، تجلس معها قليلاً، ثم تخرج.

غامضة، تتواتر الشذرات من الخدم عن جنونها، (غرابة أطوارها)، كما يُقال تأدبًا.

يريد أن يراها، لسبب لا يخطر علي بال.. يريد أن يعرف أي وجه لأمه يتمدد في ملامحها؟ ظل مرتبكًا، عندما اكتشف عن قرب، أن أمه لم تحصل على شيء من ملامح تاجر الماس. كيف لم يتسرب شيء من وجه ذلك الإله القوي إلى وجه خاريكليا؟.. صار متأكدًا من أن المرأة المعتمة تحمل وجهًا لا بد وأن يراه.

- لم أكن، في هذه الأيام، عرفت أن خاريكليا ورثت عنها ما هو أبعد من الوجه: جنون المرايا.

زوجة تاجر الماس

لم تكن تظهر. تلوذ بغرفتها، امرأة سرية، لا ينام الجد في غرفتها. لكنها تخرج إلى المدينة، عشية عيد الميلاد، رغم الحراسة الصارمة تتسلل، تختفي كأنها ساحرة، لتلامس الشوارع بقدميها، حيث تمارس جنونها الذي يخشاه الجميع، والذي كان يجعل الليلة مسرحًا لرعب لا يُحتمل.

"جنونها الغامض كان يقتلها برغبة في الشحاذة.. لم تكن تراها كذلك بوجدانها المشوش".

تتحرك بين طرقات وشوارع المدينة بخفة، حافية، بقدميها المتشققتين، حتى يصير التراب أخًا لها. تفتح عينيها على السماء، يسقط فيهما المطر كأنهما بئران غائرتان لا ترتويان، وهكذا كانت تستطيع الرؤية بشكلٍ أفضل.

في العام التالي، وبعد أن عرف ما تفعل، قرر أن يتبعها.

"أخبرني أخي جون، محتبِس الأنفاس، برحلتها الغريبة، وحذرني من إفشاء السر".

"تسللتُ خلفها من الباب الضيق المخصص للخدم، رأيتها ـ في رحلتها الغريبة تلك ـ تلم جميع الذكريات التي استقبلها تراب الشوارع في عامٍ مضى لتضعها في جوالها الضخم: تلم أحذية تالفة، بقايا ملابس ممزقة، قصاصات ورق، عملات معدنية وورقية سقطت سهوًا من أصحابها، أجنَّة في أكياس بلاستيكية لن ترى الحياة أبدًا بعد لحظات متعة محرمة. كانت الجدة تجمع أيضًا أوراق الشجر المتساقطة وكسرات الخبز المتروكة بجانب الجدران وقطعًا من الحصى وحفنات من التراب الذي داس عليه الناس طيلة عامٍ كامل.

ينظر أهالي المدينة إليها كمجذوبة، بينما تخلص شوارعهم من بقايا العام، (هكذا سأظل أرى فعلتها)، كان ينبغي أن يشكروها لأن المدينة الكئيبة كانت بحلول أول ضوء في العام تتخلص تمامًا من جميع ذكرياتها الثقيلة، لتصير مهيأة لاستقبال عام جديد كورقة بيضاء لم تلوثها نقطة حبر.

رغم أنها تعيش معهم منذ سنين طويلة جدًا، فإن أحدًا لم يكن يعرف شيئًا تقريبًا عنها. تلك المرأة الغريبة التي تسكن قصرًا في أطراف المدينة ولا تغادره أبدًا إلا عشية أول أيام ديسمبر، ثم تعود إليه بجوالها الثقيل المتخم بالذكريات مع أول خيط في فجر العام الجديد. وجهها أزرق، وجسدها ضئيل ونحيل.. ويخمن الجميع أنها شبح شتوي يرتوي بالمطر ويتغذى على أوراق الشجر الذابلة.

مع استقبال أول أيام العام الجديد تسمع الأستانة كلها بوضوح ضحكة مرعبة، قادمةً من بيت تاجر الماس.. ضحكة قاسية، يتردد صداها لأيام طويلة، وحادة حتى إنها قادرة على إصابة آذان كثيرة بالصمم. بعدها تتوارى المرأة تمامًا، وتغيب أخبارها.. وينسى الناس أمرها لعام كامل.. وربما لهذا السبب نفسه تعود للظهور بعد ذلك.. فقد كانت وحدها تعرف أن الناس لو تذكروها ستموت".

يبتسم فجأة..

"لأنها كانت تدرك أن من يملك القدرة على التذكر هو فقط من يستطيع الانتصار على ألم الذكرى".

لم ترعبه الحكاية الغامضة، بل ألهمته.

.. رأيت جدي وهو يخلص الجوال من يديها عندما عاد بها. يصرخ: "كُفي عن الجنون.. أيتها الشحاذة..".

لا بد أن يتسلل إلى غرفة الجدة. ماذا سيحدث؟ إنه في التاسعة عشرة، في السن التي لا يفكر أصحابها في الموت.. يعرفون أن جميع المخاطرات آمنة في النهاية.

"سألت أخي بيتر في النهاية، والذي بدأ يتحدث بعد تردد.. يبدو أنه خشي علي بعدما لمح إصراري على أن أقتحم خلوتها..".

"إنها تقتل الرجال..".



قسطنطين

ينفتح الباب، ويبرق رجل في العتمة المضاءة بذؤابات شموع.

يرتعب قسطنطين وتحتل جسده رعشة كأنه رأى شبحًا.

يفتح عليه تاجر الماس الباب، في أية لحظة وبدون استئذان. يلمع الرجل المتبرج وتنعكس الأشياء على جسده كأنه حفنات صغيرة من مرايا، فقد كان الماس يحتل كافة خرائطه.. في أذنيه، حول رقبته، في أصابع كفيه الغليظة. (يؤكد قسطنطين أنه كان يرتدي خواتم من الحجر الكريم في أصابع قدميه تحت الحذاء).

يحيا بين مدينة من الكتب، يقرأ بنهم، لا يعرف متى سيعود إلى الإسكندرية.. لا يعرف بالأساس هل سيعود أم لا، مثلما لا يدرك أي مدينة يتجول في جدرانها الآن..

يقرأ دانتي بالإيطالية، يغوص في "الجحيم"، وتستوقفه عبارة: "عند منتصف طريق حياتنا".. يتأكد مرة بعد أخرى أن هذه العبارة جعلته شاعرا، ألهمته وألهبته.

ربما كان تاجر الماس أول صورة شعرية؟ أول حلم استفزه كي يكتبه غير أنه لم يفعل. في هذه الأيام كان لا يزال قارئًا، بكل تواضع الذهن والجسد. لم يكن أيضًا يعرف ماذا عليه أن يفعل بجسده، ذلك الإرث الغامض الذي وجده فجأة بين يديه وظل حائرًا كيف عليه أن ينفقه.

يوقن أنه لا يقل جنونًا عن المرأة المسجونة في غرفة تتلاطم فيها أمواج مرايا مشروخة. هو أيضا رجل مرايا مغدور.

اقترب منه الجد، وتفحص الكتب المفتوحة بلا اهتمام. في سنوات عمره الأخيرة تلك لم يعد العجوز المزجج يعبأ بشيء.

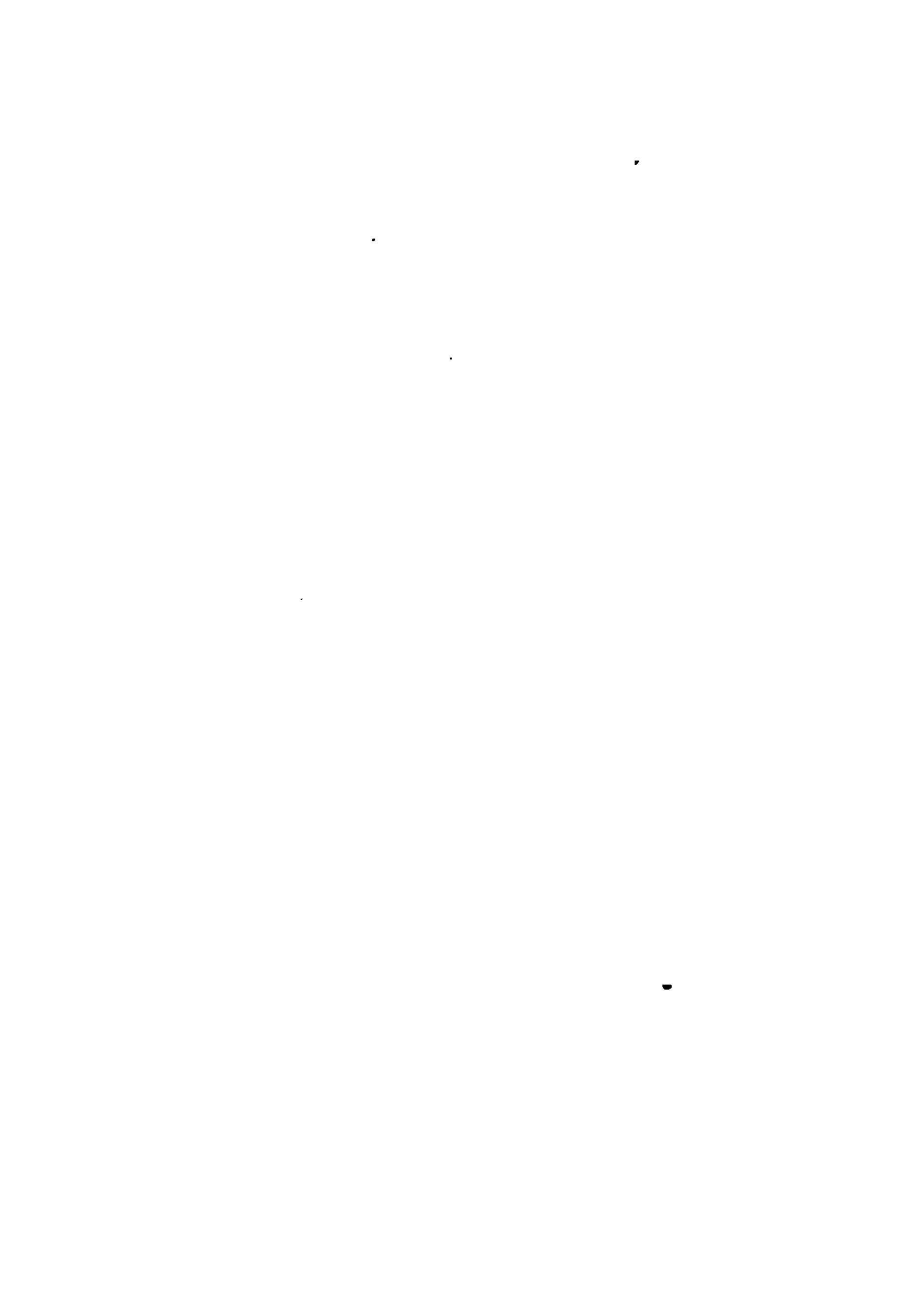
"ستصبح شاعرًا. أمك أخبرتني بتفوقك. تقول إنك ستصبح مؤرخًا، لكنني أقول إنك شاعر. أنت شخص ذاهل، حزين وضعيف، تعشق العتمة، يثير فضولك كل ما هو شاذ غريب وتنصرف عن العادة. أمك لا تفهم شيئًا. ولو قدر لأحد أفراد هذه الأسرة أن يموت في تلك الإسكندرية الفقيرة الشاحبة، ذلك المسخ الأوروبي الغائب في الابتذال.. فسيكون هذا الشخص هو أنت".

أصغى قسطنطين كالمنوم. هذا الرجل المتلألئ الساطع، هذه الثريا المتحركة، والقادرة على أن تضيء أشد المتاهات عتمة، كان قادرًا أيضًا على صعق داخله المظلم ببرق غير متوقع.

غادر الرجل الغرفة، وظل ضوؤه يتجول لدقائق صانعًا ظلاً يشبه قامته.

وأمسك قسطنطين بورقة، مرتجفًا مرعوبًا، بدأ يكتب، سطورًا قليلة عن تاجر الماس اليوناني الذي يحيا في معسكر الأعداء، كأنه واحد منهم، يقايضهم على أعينهم بالماسات، ثم يقتلعها ويثبت ماساته بدلا منها.. ويعود إلى معسكر جيش وطنه بجوال مكتظ بالأعين الحية التي لا تزال ترى ما حولها.

إنها قصيدته الأولى.



حسين

كيف يحيا حسين وحده في بذخ كل هذا الخواء؟

إنه قصر شرقي، يشبه تلك التي طالما طاف فيها في كتب التاريخ.

عبر قسطنطين طرقًا طويلة حتى وصل إليه، منفذًا وصيته بأن يأتي إليه مشيًا، كي يتعرف على المدينة.

مرصع باللآلئ والذهب وكأنه غير حقيقي. رجل يلمع فقط. يأتي على فترات متباعدة ليتحدث إلى جده. تاجر الماس. لحيته الخفيفة وشاربه الرقيق لم يتعودهما قسطنطين في الرجال. يورد للرجل الكبير أفضل القطع. يحب التعاون معه. وتقريبًا. يسدي إليه النصائح فيما يخص المرأة المجذوبة المسجونة في غرفتها. ينتظر "حسين" في الصالة. بينما قسطنطين يقرأ. اعتبر انجذابه له في البداية احتياجًا بديهيا لصديق. لكن التعارف ينفجر بكلمات قليلة. يتحدث حسين ورأسه مطرق في الأرض. إنها عادة المسلمين عندما يدخلون بيوتًا غريبة. يتأمل قسطنطين صندوق الجوهرات

المسكوب على جسده المفتول. سلسلة ذهبية غليظة تؤطر عنقه كنير يأسره. وأقراط وخواتم في أصابعه الغليظة.

سأل عنه جده. "إنه الشخص الوحيد الذي أثق به في هذه المدينة.. فهي مدينة لصوص وكارهين.. ورغم أنه سيئ السمعة.. مخنث كما يحب الجميع أن يطلقوا عليه.. ويرفض الزواج.. ويمشي مختالاً بالجواهر وهو ما لا يلائم عادات الناس هنا.. فإنه الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أصدقه"..

وجد نفسه تائهًا من جديد في المدينة الشاسعة، وكان يسأل مع كل خطوة: كيف اجتمعت لها كل هذه العظمة والتعالي مع كل ذلك الابتذال؟.. شوارع شديدة الضيق يتراص الذباب على واجهاتها، وتفوح من جنباتها روائح مياه متعفنة تنفتح فجأة على ساحات أوروبية كرنفالية بامتزاج مدوخ لعطور ثقيلة مبهجة للنفس، ومحرضة على الغثيان في الوقت ذاته. فقراء وملوك يسيرون طوال الوقت جنبًا إلى جنب، لقد هيئ إليه أنه يرى رجالاً يعتمرون التيجان وتتدلى سيوف لازوردية المقابض من ملابسهم المطرزة بالفضة والذهب والياقوت، يتجولون محمولين على عروشهم، كما رأى شحاذين في مزق خيش يمشون حفاة ويدندنون بأغنيات عثمانية. كل في عالمه، لا يستطيع أن يحيد عنه وكأن أسيجة وهمية تُسوِّر دائرة كل شخص. آيات قرآنية تبدو كأنها صارت جزءًا من الهواء، حتى إنه يسمعها دون أن يحدد مصدرها، وأحيانًا دون أن

توجد فعليًا.. لا تلبث أن تصطدم بعاهرات يرشقن مؤخراتهن في عهر علني بمقدمات الرجال. أغلب الرجال هنا ملتحون، لا يعرف لماذا. مدينة شاسعة وضيقة. هذا ما استشعره في تقدمه، عاصمة مشيدة بأضواء الظهيرة وقطعة من ريف خاصمها العمران.. أما عن رائحة البصل التي تمتزج بجميع الروائح، وتخترق بأريجها الحاد أعتى العطور نفاذًا، فقد اعتبرها في ذلك اليوم اسمًا آخر لهذه المدينة مثلما ظلت سؤالا مرجأ لم يعثر له على إجابة.

ابتسم حسين وهو يسرد له انطباعاته فور وصوله.

"لقد كنت تتجول إذن في واحدة من مدن خيالك.. لكن المدهش أنك في النهاية وصلتِ إلى هنا!".

بدا كأن حسين كان يعد له اختبارًا أوليًا، كي يبدأ التعرف عليه بشكل حقيقي. هل كان هذا التاجر المنتشي بذاته دون سبب واضح يملك هذا الوعي؟

أحضرت له خادمة مشروبًا طيفي الألوان، له مذاق لاذع، ثم اقترب حسين، وتحسس شعره برفق.. واقترب من فمه، بدأ يلعقه بلسان مرن.

(عندما التقت عينانا في بيت الجد. عرفنا أي شيء ينبغي أن يقع).

خاريكليا

ماذا أصاب قسطنطين؟

لقد قتلته مدينة أجداده. ألهذه الدرجة صار سكندريًا؟.. ألم يكن دائمًا شغوفًا بالسؤال عن الأستانة؟.. ألم يحلم بمشاهدتها والتجول فيها كي يسجلها في كتاب التاريخ الذي يسطره؟.. لم يعد يشغله سوى مشاهدة المرأة التي ترقد في غرفتها، مريضة بعظامها الضامرة التي جعلتها تلزم الفراش لا تغادره. لقد فقدت ذاكرتها، وكان على خاريكليا أن تذكرها بنفسها كلما رأتها.. كذلك كان من الصعب أن يدخل إليها الأبناء، لأنها كانت تتحدث بلا كابح عن مشاهد متداخلة.. يمتزج فيها الواقع بالوهم، وهي أقسى وشاية يمكن أن تتحقق، لأن المرضى دائمًا يبدون صادقين.

يأكل قليلاً جدًا، ويقرأ طوال الوقت.. وبدأ نظره يتدهور، لأنه يصر على القراءة في العتمة، مكتفيًا على الدوام بضوء واهن يأتي من شموع صغيرة. وعندما ينظر من الشرفة، منصاعًا لرغبتها

الأشبه بالتوسل، فإنه يفتش في كل ما يراه عن الإسكندرية. أي لعنة بدأت تصيبه بين هذه الجدران؟

لقد أصاب عطب ما روحه.. وربما جسده.

تردد، بينها وبين نفسها، العبارة التي تخشاها، وهي تستشعر أنوثة جديدة تدب في الجسد الذي رعته، ليست أنوثة الملابس القديمة ولا الانطواء الذي عهدته، لكن أنوثة الشهوة التي صارت تتشممها في لحمه.

"بسببه فقط. سأعود إلى الإسكندرية. لكن ذلك لن يحل شيئًا. اليوم أخبرني أبي وهو مطرق الرأس أن قسطنطين يعشق الرجال".

19

يفكر، أنه كلما عاد إلى الإسكندرية، يكون فقد شيئًا للأبد، وكذلك هي.

يتذكر ظهيرة عودته من الأستانة، من لندن، من أثينا. يحط في المدينة وهو حطام، مستغربًا القَدَر الذي يعيده في كل مرة، وكل مرة، يرى بيوت الميناء القريبة وقد فقدت واحدًا أو أكثر، الشوارع تقلصت أو تمددت دون مبرر، وما أن يوغل، حتى يكتشف أن جسده المريض لا يفعل شيئًا إلا التسكع في جسد مدينة أشد مرضًا.

كيف لم يفكر في ذلك سوى الآن؟

"لم يلتفت ألكسندر لسنواتي السبع في لندن بالقدر الذي تستحقه". لماذا؟ بالطبع لن يسأله، ولن يعرف.

لندن! لقد جعلت منه أكثر من إنجليزي. حتى يونانيته ظلت ملتبسة بلكنتها، أفقدته نقاء لكنته للأبد، وثراءه الذي ظنه لن يزول، سبع سنوات في العاصمة الشاسعة الباردة، يقرأ، ويراقب مجد العائلة وهو يتحول إلى سراب. أصبح جورج، شقيقه الأكبر، مديرًا للمؤسسة العائلية في لندن، بينما تولى بيتر، الثاني في الترتيب، فرع ليفربول. تبارى الاثنان في تدمير ما تبقى من مال، واحد بطيشه والثاني بأفكاره الحمقاء غير العملية. لكنه، وهو يتأمل إفلاسه، وأمه التي تشحب لائذة أبعد فأبعد بمملكة مراياها التي أخذت تتمدد على جدران البيت، ترك نفسه لمملكة أخرى من تلك الكتب التي لا تنفع في شيء.

قرأ الأدب الإنجليزي، غاص في شيكسبير وبراوننج وأوسكار وايلد، متعزيًا بشيء واحد، أنه صار إنجليزيًا.. لكن خاريكليا، وقد تأكدت أن كل شيء قد تهاوى، قررت أخيرًا العودة بهم إلى الإسكندرية، ممارسةً، لآخر مرة كما يذكر، دورها كأم لحفنة من الرجال.

لم يصدق في البداية أنه سيعود، وقد كاد أن ينسى المدينة التي غادرها في طفولته وعليه أن يعود إليها في مراهقته، بشارب خفيف، بقامة أخرى، بوجدان رجل أوروبي قادم من الشمال، بعيدًا عن البحر المتوسط برمته.

ما الذي تبقى من ضباب السنوات السبع؟ لا يكاد يتذكر سوى الندبة التي استقرت في لسانه، والتي فقدها بدورها، أخيرًا، عندما توقف عن الكلام. وفكر: "على ألكسندر أن يحاول، ليخترع تلك السنوات البعيدة الحبيبة، عليه ألا يكون قاسيًا بالقفز فوقها على ذلك النحو".

عاد من لندن لينهمك لأول مرة، في دراسة نظامية. مدرسة أرميس،

أستاذه الموقر بابازيس، الذي زج به ألكسندر في المشهد العبثي لثيوفيليس، ورغم ذلك، التقط – يا للدهشة – خيط علاقة المدرس بالتلميذ في شكل أقرب ما يكون لما حدث في الواقع، الواقع الذي تعرفه ذاكرتي، (هل يظل واقعًا)؟

لكن الأستانة، حلم من مرايا، حكاية خرافية مظللة بالمآذن. ثلاث سنوات، درس التاريخ البيزنطي والاغريقي، أوقعته الديموطيقية في أحبالها عندما قرأ قصيدة "إيروتوكريتوس" لفينشينزو كورناروس، الطويلة كيوم لا يريد أن ينتهي، التصق بالأغاني الشعبية اليونانية، كما قرأ الشعر اليونانيّ الحديث، بالفصحى والديموطيقية، وتوقف بالذات عند ديونيسيوس سولوموس، الرجل الشجاع كما تصوره دائمًا، لأنه تحول من الفصحى إلى الديموطيقية، والذي سيصبح فيما بعد شاعر اليونان القومي. الأستانة، خيط المتاهة التي ستمتد فيما بعد ليحاكيها في أشعاره، وهو فاغر الفم أمام كُتَّاب الإبيجرامات البيزنطيين والسكندريين القدامى، سيمونيديس، كاليماخوس، ميلياجر، لوسيان.

عندما عاد إلى الإسكندرية تلك المرة، وجد اضطرابات مؤلمة، تأكد أن القصف البريطاني لم يكن سوى بدايتها، دُمِّرت الحياة التجارية للجالية اليونانية، ووجد نفسه يكتب قصائد سوداء، أخفاها فيما بعد عن نفسه ولم يُطلع عليها أحدًا.

أما عودته النهائية من أثينا، فلم يعد بوسعه بعدها أن يرى إلا ما آلت إليه حياته، مكتشفًا، كأنما لم يكن يعرف، أن لا وجود للعالم، أن لا شيء يصاب ويعطب ويفنى إلا المرء.

20

تلمست يداه البطاقة الحائلة. نفض عنها التراب برفق، وبدأ، وهو لا يزال جاثيًا على قدميه، يتأمل صورته الشبحية التي صارت جزءًا من نسيجها، وبياناته المكتوبة بخط متأنق. "صحيفة تليجراف". لا يعرف لماذا انخرط في رحلة تفتيش مجهدة بين أوراقه عن تلك البطاقة المغبرة فور أن أنهى قراءة الفصل الرابع، ربما أراد أن يستعيد ملمحًا من السنوات التي أعقبت عودته من الأستانة. أسعده استعانة ألكسندر بالشذرات التي تركها له عن العالم الغريب لجده وجدته المجذوبة، لكنه شعر أن ذلك الفصل اقتلعه من النهر المتهادي للرواية، واختفت (مؤقتًا بالتأكيد) الشخصيات المعذبة به.

"لا يعرف ألكسندر سينجوبوليس شيئًا عن القناع، لو كان يعرف،

لفكر، للحظة، في قسطنطين كفافيس الصحفي والسمسار والشاعر، عندما كان الثلاثة ذات يوم شخصًا واحدًا". وأسعده التفكير على هذا النحو لبعض الوقت. قرر أن يؤنب ألكسندر غير الموجود.. لكنه، وهو يتأمل بطاقة المراسل الصحفي، تذكر نوافذ الجريدة المقبضة والمتربة، (لم يكن عرف قبل ذلك أن النوافذ يمكن أن تكون حائلاً أمام الرؤية)، عبرها، كان يهيأ له أن المدينة تحولت لحفنة مكاتب متراصة، كالنعوش.

دخلها لأول مرة ممسكا بيد أخيه جون، الذي صار في تلك الأيام من عام 1885 شخصًا عمليًا تمامًا، أضفت عليه نحافته وانتصاب قامته مهابة. استقبله جون بحزم بمجرد عودته إلى الإسكندرية من الأستانة، (وكان قد عاد قبل الأسرة ليحاول يائسًا بعث أي شيء من رماد سمعة الأب في عالم المال)، وطلب منه، لكن في صيغة آمرة، أن يعثر على عمل على أسرع وجه. كان جون أكبر إخوته، والأشد اعتراضًا على أمه، حتى هيئ لكفافيس كثيرا أنه كان يجافيه باعتباره خطأها الأشد فداحة .

في هذه الأيام، يتذكر، كان الأخ الأكبر يتحدث عن المستقبل، ويكرر كلمة "الخوف". يبدو في عينيه شخصًا متناقضًا، ويفكر الشاب الذي كانه أن هذه القشرة الصلبة، الصَدَفة الجاحدة التي يختبئ تحتها، ليست سوى وهم.

" أنت لم تدخل مدرسة.. و لم تعرف امرأة في حدود معلوماتي.. لكن من الصعب أن تمر حياتك قبل أن تعثر على عمل.. إنك ميت".

قالها جون بينما يربت بكف عظمية على كتفه، ونظر الأخ الأصغر

في وجهه فلم يجد سوى صورة شاحبة، (تقليد غير متقن)، لوجه أبيه. وأزعجه أن خاريكليا لم تترك في هذا القناع الجاحد شيئًا من ملامحها، مثلما عجزت عن أن تسرب لقلبه الصامت شيئًا من تطيرها وخيلائها ونزقها المدمر.

"لا أمانع أبدًا في العمل.. لكني لا أعرف ما الذي يمكنني فعله في هذه المدينة".

ورغم أن جون حذر أمه من التدخل في الحوار، بل وطلب منها ألا تدخل غرفة الصالون، فإنها ظلت ملتصقة بالباب.

"لقد ذهبتَ إلى الأستانة وأنت مؤرخ.. وعدتَ منها شاعرًا.. وصرت في الثانية والعشرين من عمرك بينما لا تزال تتمسح بفساتين أمك وهي تتجول في البيت كجرو وليد..".

وجدت خاريكليا في هذه العبارة فرصة مثالية لتدخلها، وقد جاء ذكر اسمها في حوار ابنها الأكبر كتكئة لتفتح الباب وتنقض عليه.

"لو كان أبوك حيًا، ما قبل أن تكلم أخاك بهذه الطريقة الموجعة..".

وجاء رد جون مثل صفعة غير متوقعة على وجهيهما..

"أعتقد أن أبي مات وهو لا يعرف أن لديه هذا الابن.. وحتى لو عرف.. فهو لم يره إلا في ملابس فتاة..".

كانت تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها مواجهة كتلك. اهتاجت المرأة مثل حيوان طاعن عادت إليه شراسته القديمة فجأة، ورآها تشهر مخالب أظافرها العشرة، وهُيِّئ له أن أظافرها الطويلة تلك، الحادة المطلية،

تنهش الهواء لتفتقه، حتى حدس أنه رأى دم الهواء، لكن المرأة المحنكة كانت من الذكاء لتعرف أن انتصارها في هذه اللحظة لن يتحقق عبر جسد الابن الذي كان لا يزال محتفظًا برباطة جأشه، بل من خلال جسدها.

اتجهت نحو المرآة الضخمة التي تتوسط الصالون، والمذهبة بإطار فخم وثقيل - يعرف كل من بالبيت أنها كانت دائمًا مرآتها المفضلة، والتي تعودت أن تتحدث وهي واقفة أمامها بالساعات - ونشبت يديها فيها فتحولت إلى حطام، بينما غرقت يداها في الدماء، وفيما تجمد هو في مكانه من الصدمة، ركض جون نحو جسدها الذي سقط على الأرض وحملها بسرعة إلى غرفتها، قبل أن يشرف على تطبيبها بنفسه.

ساد صمت متوتر لبعض الوقت، وواسى جون أمه ببعض كلمات، فقد كان يعرفها خيرًا من أي شخص في هذه الدنيا، وبعقلانية بعيدة عن الرؤى العاطفية المشبوبة لأخيه، والتي تجعل من هذه المراهقة الحقيقية إلهة في عينيه.

بعد ان اطمأن عليها، قال لقسطنطين الجالس على طرف السرير:

"سأنتظرك في الغد في مقر الشركة في العاشرة صباحًا.. ألا تحب الكتابة؟ سأقدمك لجريدة التليجراف وسأضمن لك راتبًا معقولاً..".

وبنبرة شعر بها قسطنطين تحمل نبرة سخرية مبطنة، أكمل:

"ويمكنك أن تنشر قصائدك لو أردت.. القصائد أيضًا يمكنها أن تجلب المال".

يبدو أن هذه الواقعة صارت حدًا فاصلاً، سيظل كفافيس يتذكره فيما بعد كتحول جوهري. ورغم غضب أمه الشديد في ذلك اليوم، إلا أنها رحبت بالفكرة بعد ذلك، كما لو كانت تذكرت فجأة أنها أم لذلك الشاب الهش الذي لم يتذوق جلده الشاهق ملمس العرق.

بعد أيام، فوجئ بعرض آخر من أخيه أريستيديس، العملي بدوره، لكن المتحرر تمامًا من أفكار أخيه الأكبر.

كان أريستيديس شخصًا شديد الفردية، لذا نادرًا ما تدخَّل بإبداء رأيه فيما لا يعنيه، وكان يردد دائمًا بفخر أن حدود العالم بالنسبة إليه هي حدود جسده.. وأن العالم هو ما تراه عيناه فقط.. وهو الشخص الذي تندرت أمه دائمًا برد فعله عندما استيقظ من النوم على خبر موت أبيه، إذ انهمك على الفور في التحضير لمراسم الدفن.

لم تكن خاريكليا تتذكر ذلك بنقمة، بل على العكس، أكدت له دائمًا أن ماحدث من أريستيديس في ذلك اليوم كان العزاء الأكثر قوة وصلابة.

"لقد أخبرني يومها بكلماته المقتضبة العفوية أن الموت ليس أكثر من واقعة يومية..".

حافظ أريستيديس على شعرة واهية كانت تجعل دائمًا من نزقه وصرامته وجهين يصعب أن يلتقيا أو يجور أحدهما على الآخر. كان مدمنًا للقمار، وللشراب، وزير نساء في الخفاء حتى إن مهارته لم تكن في اصطياد النساء، بل في جعل هذا العالم الخطر على الدوام نارًا خامدة يصعب أن توقظها

ريح العلن، بينما يرتدي بذلاته الأنيقة والصارمة، بألوان رمادية وسوداء على الدوام لا يمكن أن تفصح عن العري الصاخب الذي يرقد تحتها.. وكان يجيد إخفاء عينيه المتورمتين من السهر والشراب بنظارة سوداء تمنحه جدية شخص عزاءات. ظل مقامرًا خاسرًا دون أن تتقلص ثروته أو تهتز أعماله، وفي البورصة، بقي أريستيدس الرجل الذي يعكس رهانه على مكسب ما بُعد رؤية.

"ما رأيك في العمل معي بالبورصة؟".

قالها أريستيديس بابتسامة مصطنعة متعجلة، وكان يعرف أنه لو تأخر في الرد لدقائق سيغادره بهدوء، دون ضغينة، بل بالابتسامة المصطنعة ذاتها، شاعرًا براحة الضمير لأنه أدى ما عليه تجاه أخيه. لذلك رد قسطنطين دون أن يفكر، ودون حتى أن يعرف ما العرض الذي تلاه بالضبط:

"موافق!".

صحفي وسمسار!.. لم يصدق أنه سيصير الاثنين.. واحتار في موقع الشاعر بينهما.. ولكنه اعتبره سؤالاً مواتيًا يلائم الارتباك اللازم للشاعر.. لن يلبث أن يتوصل للاكتشاف الذي سيغذي واحدة من أفكاره الجوهرية بعد ذلك.. فبعد أيام قليلة، اكتشف أن ليس ثمة فارق حقيقي بين المتحمسين مجانًا في الجريدة، والصارخين في البورصة، ولم يشعر بأي تشوش كان يَعد نفسه به، بين الصحفي والسمسار والشاعر.

تودعه خاريكليا كل صباح وكأنها لن تراه ثانية، ويعود فيجدها في انتظاره، ساهمةً ويدها مستندة إلى ذقنها.

في الجريدة، اكتشف أن من الصعب تكوين صداقات، و لم يلفت انتباهه رجل جميل يجعله يجازف. في البورصة هناك دائما أريستيديس، موجود في كل مكان حتى لو لم يوجد. في البيت.. هناك القصائد، التي قَدَّر أخيرًا أنها يجب أن تظل عمله السري، ليله البعيد عن النور.. وتأكد أن عليه، بين كل تلك الغرف والنوافذ التي تحول بينه وبين المدينة قدر ما تصله بها، البحث عن عشاقة في الشوارع التي لم يكن، بعد، اكتوى بها.

ما الذي تعرفه يا ألكسندرسينجوبوليس عن كل ذلك؟

21

يفكر في مستقبل قصائده.

لم يتوقع أن يفاجئه هاجس كهذا في الصباح، وهو غارق في أحلام يقظته، فترك المخطوط بجانبه، تركه يسترخي، كأنه كتاب معلن.

فكر، فجأة، أنه يجب أن ينشر جميع قصائده في مجلد واحد، مجلد كبير، بل ضخم.. كتاب نهائي، عورة نهائية. الفكرة المطروحة في الفصل الرابع، بتصنيف أعماله إلى أربعة أقسام كبيرة، فكرة جديرة بالإعجاب (لماذا لم ينفذها ألكسندر في الواقع؟)، ولو كان هذا هو عدد القصائد التي كتبها فعلاً، فهو شيء لا يصدق، ليكن.. سأنتهي من قراءة هذا المخطوط ثم أنخرط في العمل المميت، سأجهز كتابًا ضخمًا، وسأرسل لفورستر

العزيز، ذلك النبي المغدور لحياتي، رسالة بذلك المعنى. سيتطير، ولا أستبعد أن أراه أمامي، واقفًا في الصالة، ليعينني.

في الفترة الأخيرة يلح أصدقاؤه في ذلك، ومترجموه، و"محبو شعره" حسب تعبير فورستر الذي يدهشه ويشعره أحيانًا، بسبب وسواس مريض، بسخرية مبطنة منه. الآن، هناك أكثر من دار نشر مستعدة لذلك، وستدفع.. في أثينا، في لندن، في باريس وروما.

دائمًا هناك فرد مخلص (صديق حقيقي تقتله الشفقة)، يحيا في مدينة كبيرة، ويملك الاستعداد لأن يفعل أي شيء ليزيل التراب عن تمثال قيم. هو يعرف أنه لم يعد يتبق الكثير، وكل هذه القصائد، ستنشر فور وفاته، سواء قَبِل أم لم يقبل.

سيوجد المجلد الكبير الذي لم يرده أبدًا، ومن يدري.. من يدري.. ربما تترجم هذه القصائد ذات يوم إلى العربية أيضًا.. يقرأ المصريون شعري! المصريون! هؤلاء!.. ويستغربون أنني كنت أعيش بينهم..أكتب كل هذا.. أضاجع كل هؤلاء.

يفكر في قصائده؛ وقد تحولت إلى سطور تؤلفها تلك الأحرف الغريبة، تُقرأ من اليمين إلى اليسار.. كيف؟ ما يتعامل معه دائمًا كغلاف خلفي (ليس بالمهم، لا يُقرأ بالضرورة) يصبح واجهة لهؤلاء. يتحركون عكس الحياة، عكس الزمن، عكس قصائده، يعودون للخلف كلما تقدم الزمن للأمام.

قد يكون من الملائم أن يجمع قصائده الآن بنفسه، قبل أن يسطو ألكسندر

على أوراقه بوجدان تاجر خردة.. يبيع ويشتري.. يستبقي البضاعة الجيدة لنفسه ولأصدقائه.. ألكسندر.. بالتأكيد سيغادر إلى أثينا فور موتي.. بهذه الثروة سيعثر دون عناء على فرصة في صحيفة.. في دار نشر.. في مؤسسة ثقافية.. هل يجب أن أتركه؟ القصائد التي لا تعجبني، فلأنشرها، أو لأمزقها.. القصائد غير المكتملة.. (التي لن تكتمل في الحقيقة).. بضع وثلاثون قصيدة ربما.. ومثلها من القصائد الأولى.. وأكثر من ستين قصيدة غير منشورة.. أنا وأنت نعرف.. فلتنشر غير مكتملة، مبتسرة كطفل ولد ناقصًا وسيموت كذلك.. مم تخاف؟.. أن يصفوك بالشاعر السيئ؟ غير المكتمل؟ بينما يغوص جسدك في التراب؟ هل ستكون واعيًا بشيء؟ ولو صدقت الخرافة التي تقول إن الموتى يشعرون بالعالم في بيوت زوالهم، هل ستأبه بالأساس؟ لو كنت تأبه ما صارت حصيلتك النهائية مجموعتين شعريتين في حجم كفين وأنت تستقبل السبعين. من يصدق أنك ناسك مكرس لجسده، وبالتالي فجميع متعه مرجأة؟

قصاصة جديدة. إنها في الحقيقة قصاصة مكتوبة على أنقاض قصاصة أقدم. يتردد، لكنه يقرر أن يقطع حلم يقظته، الذي أصابه بضيق لا يحتمل، وقد اكتشف فجأة أن قسوة رفيقه، تلك القصاصات التي كأعيرة نارية، من ورق، أصبحت مفيدة لضعفه، مثل الصفعة التي توقف البكاء.

*عثرتُ على قصاصة منسية، كتبتها ربما قبل أعوام. إنه انتصار صغير يستحق أن أحتفل به. عندما تعثر على شيء كنت نسيته، يبدو كأنه تحول لعلامة ما، لا ينبغي أن تفرط فيها ثانية.

"قال لي اليوم: إن كل سعادة تباغتني تحمل إلي وجهًا عامرًا بالكوابيس، حتى إنني أنام لساعات طوال، كأنني أتفاداها، أتحاشى ما تنطوي عليه من إشراق لا أتحمله.. وفقط عندما تخمد، عندما يسطع رمادها ليدل على ما اندثر، تبدأ عملاً جديدًا بداخلي، فأتأملها ببهجة فقد، كمن يتذكر انتصارًا في الوقت الذي صار فيه مهزومًا".

متى دونت عنه هذه العبارة؟ ربما في الفترة التي تحمست فيها لكتابة يومياتي، قبل عدة سنوات. لكنني رغم ذلك ضجرت بسرعة، واكتفيت بخط قصاصات بين الحين والآخر، لم أعتن حتى بتسجيل تواريخ كتابتها. لا أعرف. أشعر أن كتابة اليوميات فعل ينطوي على نوع ما من تخوين الذاكرة. هو أيضًا يقول: "أنت تحيا كما تريد.. والذاكرة تفعل ما تريد. إنها تتكفل بمنحك ما يروقها هي وليس ما تريده أنت".

وهل يمكن أن تصير هذه القصاصات جزءًا في هذه الرواية؟ هل كانت بعضًا من إرهاصاتها غير الواعية في ذهني، انطلقت كندف مشتتة طيلة الأعوام الماضية؟ هل تمتُّ هذه القصاصة بصلة رحم له؟ أم أنها كانت مجرد تشخيص أقوم به بنفسي لأمراضي؟

لو افترضت أن تلك القصاصة مدينةٌ له بوجودها، وتفرض علي، من ثم، التزامًا بتأملها، فأي سعادة كان هو مصدرها أولتني جانبها الأسود؟

إن قسطنطين كفافيس لم يكن يومًا بالشخص السعيد، لأنه صدَّق-

ربما منذ لحظة بعيدة في طفولته باغتته دون قصد ومنحته الفلسفة الأولية التي ظلت تقود وجوده ـ ما ينطوي عليه ذلك الشعور من سوقية، قناع يرقد في قاعه شيء غير حقيقي، أو بالأحرى غير أصيل، ذلك أنه ـ وأعتقد أنه قال لي شيئًا من هذا القبيل ذات يوم ـ لا سعادة تكمن خارج الحدود الضيقة للذات، على العكس من سعادات الجسد المُعدية، والتي تنطوي على الخراب والدمار.

"لا سعادة إلا بشقاء شخص آخر.. غير أننا نتعامل مع ذلك ببساطة مثلما نتعامل مع الطعام عندما نلتهم كائنات أخرى كأنما لا تعوزها الرغبة العادلة في التنفس". كنت أجادله بأننا لسنا سوى ذواتنا، وأن العالم نفسه ليس إلا محض تصور. ينظر لي بإحباط يدل على أنني لم أفهم مقصده، ويقول: "إنني أتقمص طوال الوقت ذواتًا أخرى.. داعيًا ذاتي برحابة للتخلي عن نفسها، بخيانة مستمرة.. وأنا بهذه الطريقة لا أنجو من ذاتي.. لكن أختبر مرة بعد أخرى، ودون هوادة، أنسب الطرق لتوجد".

يشعر بإحباط هذه المرة، لكنه إحباط المدرس الذي اجتهد مع تلميذه زمنًا، ثم فوجئ لدى أول اختبار بأنه لم يستوعب شيئًا. كتب، بيد طبيب تعودت العبارات الحادة الموجزة: "الأسئلة تبدو دائمًا أكبر شأنًا لمن لم يقرأ الفلسفة بشكل جيد".

22

لكي يغادر حرب ذاكرته، وضع المخطوط جانبًا، ومد يده إلى الطاولة ليلتقط ما تركه له ألكسندر في المساء، عندما كان نائمًا.

نسختان من العدد الأخير من دورية "الأسبوع المصري"، التقط واحدة وفتش بين صفحاتها، مرة بعد أخرى، حتى عثر على اسمه.

"عزيزي ستافريون

لقد طلبت مني أن أرسل إليك بعض المعلومات عن كفافيس، والذي سيحتل الحديث عنه جزءًا كبيرًا من العدد القادم، ولكي يمكننا التحدث عنه بشكل مفيد يجب أن نتقن اليونانية.. فلم أكن أعرف من أعماله سوى تلك الأشعار التي ترجمها لنا إلى الفرنسية مسيو برنو وتلك الموجودة في ديوان "أخلاقيات - الأنطولوجي" لإيثان جول،

وعلى الرغم من أن تلك الأشعار المترجمة هي الأفضل إلا أنها غير كافية لإعطائنا فكرة كاملة عن فكر وشاعرية كفافيس، أما من ناحيتي، فيمكنني الاستعانة بشكل ما بالأوقات الطويلة التي قضيتها معه، فقد كان لدى كفافيس فكرة لنشر ديوان فرنسي لبعض القصائد التي قَدَّر أنها أفضل قصائده، وذلك بالاشتراك معي، لكن عدم اكتراثه بأي أمر يتعلق بالنشر حال دون تحقيق هذا المشروع".

الرسالة كتبها ساركسيان، صديقه الحميم، كيف تُنشَر على الملأ؟ استاء كفافيس، قرر أن يعاتب ساركسيان في أقرب فرصة، وأن يرسل خطابًا شديد اللهجة للصحيفة التي تنفس رائحة عورته على صفحاتها، كذلك شعر بالنقمة حيال ألكسندر، وأقنع نفسه أنه ترك له الصحيفة كي يثير غيظه، لكنه قرر بعد دقائق، أن ينتظر العدد القادم، ليكون خطابه نابعًا من موقف مكتمل.

دون أن يعرف ساركسيان بما خامر كفافيس، سيرد في الجريدة نفسها اعتبار الشاعر كما لم يفعل أحد، وكما لم يحلم هو نفسه، حتى إنه سيُعنون مقاله، دون مواربة، بـ"درس كفافيس".

"أريد أن نُبقي في أذهاننا ابتعاد الشاعر كفافيس عن الواقع الأدبي، في الفترة التي لم يكن فيها قد درس بشكل كاف، حيث لم يحاول نشر كتاب غير نافع.

وبينما نجد الكثير من المؤلفات والجوائز التي كان من الممكن أن

تحقق مجده، إلا أن كفافيس كان لا يثق كثيرًا إلا بالأوراق المنفصلة للقصائد المتقنة المنبثقة عن أيام الاجتهاد، وليالي الشهوة.

وقد ارتبط كفافيس، علاوة على ذلك، بكثير من السكندريين المتذوقين للجمال، الذين لم يكتبوا المراثي والمذكرات سوى لأنفسهم، والذين كان كفافيس يتناقش معهم في حمامات البخار أو عند الفنار أو حتى في بيوت البغاء. ولقد وصلت أوراق البردي وقطع النحاس المنقوش بالرغم من مرور السنين بفضل علماء المخطوطات والمهتمين بها، في حين نجد الكيلوجرامات من الأوراق المربوطة بالأسلاك لأشعار كفافيس، قد تعفنت ولم تُلمس في المكتبات.. وهذا ما يجعلنا نعشق أعماله دون أن نعرفه مسبقًا ولا تكتمل سعادتُنا إلا برؤيته. وحيث إن الشعر هو الهبة الحقيقية من الله، فإنني أرى أن الطريقة الصائبة لتعظيم كفافيس هي جمع قصائده المبعثرة في الجرائد والمجلات، في كتاب، لتكون إكليلا جميلاً يوضع على قبره."

رغم كل ما يستحق الامتنان في مقاله، كان بديهيًا أن يغضب كفافيس مجددًا، من تلميحاته حول شذوذه، من مبالغته القاسية في وصف المصير البائس لدواوينه اليدوية المرتجلة، لكن كفافيس لم يغضب، وكان ساركسيان يعرف أنه لن يفعل، لأن هذا المقال بالذات، سيُكتب في رثائه.

23

بقي متكدرًا، وقرر أن يطلب من ألكسندر، عندما يعود، ألا ينقل إليه أية أخبار من شأنها أن تعكر ما تبقى من صفوه. التقط النسخة الأخرى من "الأسبوع المصري"، وقذف بالاثنتين من الشرفة، و لم يجد شيئًا يخرجه من كدره سوى مواصلة القراءة، رغم شعوره بألم في عينيه.

بدأ يُقلِّب الفصل الخامس، وكان يتلمس الصفحة الأولى فيه، مستثارًا بيوميات كريستينا التي ستكشف عنها الرواية في مفاجأة غير متوقعة، ومارًا بأصابعه النحيلة على وجهه بينما يقفز على السطور، عندما هيئ له أن هناك من يطرق الباب. لم يسمع هذه الطرقة من قبل، ناعمة وخفيضة، كأن يدًا تداعب الخشب خشية أن تؤلمه.

أصاخ السمع، وعندما تأكد من وجود اليد المنتظرة، أعاد المخطوط،

وفتح، ليرى الكف المشهرة، متأهبة، على وشك طرقة جديدة، بالأساور حول الذراع، بالخواتم المزدحمة في الأصابع، بينما ارتفعت الكف الأخرى، قبل حتى أن يرى ابتسامة الوجه الشائخ المصبوغ، بنسختي الجريدة.

"يبدو أنني سأتفرغ لالتقاط أوراقك!".

واتسعت ابتسامة القوادة، بينما يدعوها، مرتبكًا، محرجًا، ملتقطًا ما قذف به، مرحبًا دون أن يريد، لتدخل شقته.

24

راحت تتأمل المكان، بفضول لم تحاول تهذيبه.

ظل قبالتها، ذائبًا في كرسيه، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، غير مصدق أن هذه المرأة بالفعل أصبحت داخل بيته.

دست يدها بين ثدييها وأخرجت سيجارة، أشعلتها بينما لا تزال تدحرج عينيها في الغرف، فنهض ليعد قهوة.

عاد ليجدها ممددة على الأريكة، انزاح جلبابها عن فخذين ضخمين، وارتاح ثدياها، عاريين تمامًا، خارج فتحة الصدر. اقترب منها، ووضع القهوة على الطاولة، لكنه لم يتخيل أن تشده اليدان المستيقظتان للمرأة الغافية. في لحظة تهاوى على الأريكة، وعدَّلت النمرة الهائجة من وضعها لتقفز فوقه. بدأت تنزع عنه ملابسه بيديها القويتين، ولم يكن بمقدوره

حتى أن يصرخ، بينما كان مذهولاً من القوة الهائلة لبنيتها. دون عناء، جردته من الروب، ثم من ملابسه الداخلية، ثم أزاحت بيد، الجلباب، محكمة بيدها الأخرى من خناقه، لتجثم كتلة اللحم المترهلة الضخمة على عظامه. عندما اكتمل عريهما، استسلم تمامًا، تركها تفعل كل شيء، قبل أن تنفض يديها منه، معروقة ومحبطة، وقد نجح عجزه فيما فشلت فيه إرادته.

نهضتَ، وأدارته بما تبقى لها من قوة، وقبل أن تقطع الخطوات القليلة باتجاه الباب، دست إصبعها في إسته، بينما ظل يراقبها مستغربًا، لأنها غادرت بابه عاريةً تمامًا دون خجل، قابضة على عباءتها بأسنانها.

القسم الثاني



المدينـــة

(الفصل الخامس)

ستسكن في نفس الشوارع
ويشيب شعر رأسك في نفس المنازل..



*ذهبت كريستينا ونسيت دفترًا صغيرًا، إنه كنز، يستحق أن أظل ساهرًا على قراءته طوال الليل. يوميات، بحبر أزرق، تكشف أكثر ما تكشف عن خط دقيق، ربما يحتاج نظرًا حادًا، الكلمات صغيرة متزاحمة، مثل ذبابات وليدة، غير أنها منتظمة، كصفوف أسنان صارمة، ونادرًا ما توجد كلمة مشطوبة. انكفأتُ عليها طيلة الليل، وحدي في الممر، غير مصدق أنني أرى كريستينا على هذا القدر من التعري. كنتُ شبقًا، (هل يمكن أن يذهب الاعتراف بقارئه إلى الشبق؟). لكي أحافظ على نقاء أفكاري، أفرغت انتصابي في حمام على بعد خطوات، مفكرًا في صورة لكريستينا وهي مضطجعة على بطنها، عارية تمامًا، تكتب، تعلو مؤخرتها وتهبط، وتتحرك الأصابع الدقيقة لقدميها، متوترة بعض الشيء، أصابع بيضاء، لكن البرودة جعلتها ضاربة لحمرة خفيفة، منها تتحرك الشهوة.

(من مكاني، خلف الطاولة الصغيرة في عمق "إيليت"، والتي أصبحت أبدية، طالما تخيلتُ نفسي أقود سفينة تغرق.

رغم ذلك، أرى طوال الوقت أشخاصًا يدخلون، ولا أستطيع أن أفكر فيهم إلا كأشخاص يتمنون الغرق. لذلك أرى زبائن هذا المكان أشخاصًا غريبي الأطوار، راغبين في الموت، وأتعامل معهم على هذا الأساس حتى من قبل أن أعرفهم عن قرب. وربما بسبب هذا الهاجس،

شعرت دائمًا أنني مسئولة عمن اختاروا هذه السفينة مكانًا لأسفارهم الذهنية، وأنني مدينة لهم باعتذار مؤجل، عن حيواتهم المفقودة بالذات. لو كنت أملك حلمًا، أملاً في المستقبل، فهو بالتأكيد أن أصبح في يوم ما مالكةَ لهذا المكان، أكاد أملك تصورًا مكتملاً عما سأفعله به، ألوان الحوائط، وطبيعة اللوحات التي ستزينها، واحدة منها على الأقل ستكون لوجه قسطنطين كفافيس. حسمتُ أيضًا أمر المقطوعات الموسيقية الرئيسية التي ستنبعث خافتة، لتمنح المكان طابعه. إيليت، حلمي، إنه مثل بيتي الذي أود لو امتلكته.

أطل، من موقعي الذي لا أغيره، على شارع ضيق، يبدو كشريان نحيف يقذف بالناس من وإلى البحر، شارع رأيته دائمًا يلخص المدينة التي أعرفها أنا.. مدينة مختلطة بالأنفاس.. هواؤها شحيح حتى إن ساكنيها يستنشقون زفير بعضهم بعضًا، فيصبحون، عن دون قصد، إخوة.

لقد أحببتُ هذا المكان شحيح الضوء.. وحقق لي قدرًا من الانخراط الاجتماعي، جعل مني شخصًا يعرفه كل يوناني هنا. فقط حافظتُ على رباط نحيف بالصلاة في الكنائس كي أفلت من عدمية غريبي الأطوار الذين صاروا، بالتأكيد بسبب استعداد أصيل بداخلي، أصدقائي الحقيقيين.

عندما أرى قسطنطين يدخل، بمذاقه الشبحي، ينقبض قلبي. لن يصدق أحد ذلك، غير أنني تعاملت معه دائمًا كشخص مات كثيرًا وفي كل مرة كان يعود إلى الحياة ذاهلاً ومستغربًا، وغير راغب في هذا الاختبار الصعب للأنفاس.

رغم ذلك ينطوي ما أقول على تعميم أظنه غير ملائم، فقد كان هناك في كل مرة قسطنطين جديد، وبعدد المرات التي قابلته فيها، عرفت أشخاصًا لا حصر لهم، تحت نفس الاسم وبالوجه ذاته).

(عندما يغير نظارته، وكان يفعل ذلك كل بضعة أشهر، كان يبدو مبتهجًا، وكأنه غيَّر عينيه.

يدخل في الصباح متأبطًا صحفًا وأوراقًا، وكتابين أو ثلاثة.. يقرأ الصحف بطريقة غريبة، يفردها بالكامل في الهواء كأنه يغوص فيها، وبهذه الطريقة كان يخفي وجهه وجسده بالكامل وكأنه يختبئ خلف ساتر من الكلمات. عندما يزيح الصحف يهيأ لي أنه محبط بعض الشيء، رغم أنه لم يكن يعبأ بما يحدث، فقد كان يرى الحياةَ اليومية دورات متلاحمة من الابتذال.. ثم يهز رأسه عدة مرات كأنه يطرد فكرة طارئة سكنت جمجمته في لحظة سهو منه وكادت أن تتوطن. كان تفسيري الشخصي لذلك أنه يفرغ ما قرأ ليصفو لأوراقه البيضاء. إنه، في تناقض مذهل مع حياته، كان يتعامل مع نفسه كشاعر كلاسيكي، ينتمي لأسلاف عظماء، ويتعالى على الصغائر والصراعات الهامشية.. رغم أنه خاض كل الحروب الصغيرة وتشبع بشتى الابتذالات الممكنة التي أملاها عليه جسده).

(يبدأ الكتابة. إن من يراه يُسوِّد كل هذه الصفحات اليومية

سيندهش من ندرة القصائد التي تخرج للنور.

النور!.. إنه، مع الظلمة، كانا في الحقيقة المفردتين اللتين رأيت قسطنطين يحيا بينهما، ممزقًا. وقد فكرت كثيرًا أنه لو طُلِب مني أن أرسم صورة له، فستكون لشخص بلا ملامح، سأكتفي برسم هيئته الخارجية والتي كانت بالنسبة لي كل شيء، حدود قامته، بخطوط رفيعة، كإطار خافت، لا يحيط بشيء على وجه التقريب.. سأظلل نصفها طوليًا بحبر أسود وأترك الثاني بياضًا.

يخرج عند الظهيرة، ويُلوّح لي بسرعة كأنه يخشاني. إنها خشية محببة، لا يمكن أن تثير أنثى فَطِنة، فهي خشية شخص يخاف التحديق في الشمس. ولأنه لا يُلوّح لي بهذه الطريقة إلا في النهارات، فإنني أفخر بأن تفسيري ذاك غير قابل لتشكيك).

- (اليوم سألني صديقه ألكسندر ـ الذي أخبرني قسطنطين أنه اختاره ليكون المسئول عن جميع أعماله بعد موته، وطلب مني أن أتعاون معه في هذا الشأن فقط ـ إن كنت أقابل قسطنطين بعيدًا عن إيليت، في مكان خاص، وأجبت ضاحكة بالنفي. بالتأكيد لم يكن يُلمّح في كلامه لعلاقة جسدية، لكنه ظل مندهشًا من التفاهم المدروس الذي يجمعنا، مصدقًا أننا صديقان إلى هذه الدرجة التي تحتم قدرًا من السرية على عدد من اللقاءات، حتى لو سلّم بندرتها، بينما لا نجلس إلا في النور في الحقيقة، بين الجميع وعلى مرأى من الجميع. شعرت أن إجابتي بالنفي لم ترق له.

إنه فضولي، وقد لخصه قسطنطين في وصف دال: "رجل التحري الشاب"، غير أن فضوله هذا صار رهيبًا خلال العام الأخير، وتعوَّد أن يلقي بأسئلة شغوفة دقيقة.. جعلتني أعتقد أنه ربما يريد أن يكتب شيئًا عن حياة الشاعر. قال لي قسطنطين إنه كان يكتب قصائد قبل سنوات ولكنه نسي هذا الأمر. ورغم أنه أخبرني أنه ليس بالشاعر الجيد، إلا أنه قال لي عبارة، تحمل نوعًا من التحذير، أعادت ألكسندر إلى مكانه الذي جرده منه كشاعر في عيني. قال لي قسطنطين: إنه يُحوّل كل الوقائع التي يعيشها إلى شيء آخر).

(في مرات كثيرة، يغادر قسطنطين إيليت ليدخل ألكسندر بعده بدقائق، كأنه كان يراقبه وينتظر خروجه ليدخل هو.. وقد كان يجلس إلى نفس الطاولة، ويقرأ الصحف نفسها.. ويكتب على أوراق من النوع نفسه، فيبدو لي وكأنه، بشكل غامض، استعار وجوده.

هذا اليوناني الغامض كان الشخص الوحيد الذي استبقاه قسطنطين كل هذه السنوات. لم يضجر منه رغم شكواه من أنه كان يعامله كأنهما في زواج كاثوليكي، ويغار من صداقاته الأخرى حد إيذاء زوار البيت بالكلام الجارح).

(قسطنطين المساءات كان شخصًا آخر، ورغم أنني ما زلت مصرة على أنه كان دائمًا شخصًا آخر في كل مرة، إلا أنني أقصد الخيط

المشترك في هيناته الليلية، والتي كان يبدو فيها متخلصًا من ترفعه واعتداده بذاته. تفصيلة صغيرة كانت بالنسبة لي كل شيء.. إذ يبدو دائمًا في الليل محنيًا، بظهر مقوس.. عكس الشخص مستقيم الظهر حتى يبدو أنه يتألم من ثقل كبريائه عليه عندما يجلس في الصباحات، كأنه يولد مع بزوغ الشمس ويشيخ عندما تهرب من سماء الإسكندرية الرمادية.

لم أره أبدًا وحيدًا في الليل. إنه على الدوام مختبئ في أجساد أخرى. غير أنني كنت أصدق الحقيقة المرة المتمثلة في فقدانه لصوته فقط عندما يصغي لهم. إن الشخص الذي يصغي للآخرين وهو قادر على أن يتكلم في أي لحظة، يختلف تمامًا عن نفس الشخص العاجز عن النطق. ذلك التأهب، تلك الثقة، افتقدهما قسطنطين.. حتى صار يبدو لي وكأنه فقد السمع عندما فقد القدرة على الكلام).

*طيلة اليوم التالي، ظلت كريستينا تنقل نظرها بتشكك، بين دفترها وبيني. كان ردي الوحيد استعارة عيني شخص أعمى. لكنها، ربما، حدست أني عبثت بأوراقها. ظلت طيلة اليوم ترمقني بتحفز، وباستعداد دفاعي، كأنها عرفت ما فعلته بشبحها.

الأشخاص الذين لا يمتهنون الكتابة، أو نوعًا بعينه من الفن، يكونون أكثر حرصًا على أسرارهم.. وكريستينا كانت (من خلال انطباعاتي السريعة عنها والأشبه بضربات فرشاة مرتجلة) شخصًا يكافح كي يتشبث بذاكرته، كشيء نقي أخير، أو كتعبير وحيد عن الفردية في صورتها الأشد حدة. هناك أشخاص تشعر أنهم يدخرون حياتهم، فقط كي يتذكروها فيما بعد، ويغدو كل تسجيل لبعض تفاصيل هذه الحياة، سندًا عند استرجاعها، يدل على أن ما يتذكرونه قد حدث.

الصورة التي قدمتني عليها كريستينا في دفترها، لم تزعجني، بقدر ما أطلعتني على حقيقة ظللتُ أختبرها طويلاً، أننا لا نعرف أبدًا عن أنفسنا إلا الصورة التي نحب أن نعرفها. أي وجه كانت تتطلع إليه كريستينا وهي تتأمل وجهي؟.. لكن العزاء الوحيد، أننا نمارس جميعًا اللعبة نفسها، وبحيث تصبح المحصلة في النهاية (محصلة الوجود في أشد أفكاري سوداوية) أن الإنسان كائن بلا وجه على الإطلاق.

بشكل ما، دفعتني القراءة اللاهثة لما كتبته كريستينا، وانتقاء بعض المقاطع التي قد تخدم الرواية، للتفكير في أنانية الكاتب، وحيث العالم مكرس لما يريد، وليس لما هو عليه.

عندما أتت كريستينا، وتجولت بعينيها بحثًا عن دفترها الصغير، بدت متأكدة، بحدس ذنبة، أن شخصًا قد اطلع عليه. وفقط، عندما وجدت دفترها في مكانه، بالضبط، وبنفس زاوية انحرافه عند ركن الأريكة، أيقنت أن ذلك قد حدث. ورغم خجلي منها، إلا أنه كان خجلاً بعيدًا عن الأخلاق. كان في الحقيقة نوعًا من التشفي في العالم الوحيد الذي تملكه وحدها، والذي تحوَّل في لحظة إلى مزق، بعد أن ظل طويلاً مثل جسدها، رغم أنه لا ينوب عنه، وكان المصدر الوحيد لخجلي هو يقيني أن ذلك كان سيحدث لا محالة.. لأعرف أن كل ما يمكن أن تدونه عن حياتها، هو بالكاد تأمل شخص اسمه قسطنطين كفافيس.

*لا تزال كريستينا صامتة. إنها تودعه في كل لحظة، تشهق وتترك دموعًا ملحية تعبر وجنتيها قبل أن يستيقظ. ربما سئمَت هذه اللعبة. فكرتُ أن أقول لها إن جلال الموت في وقوعه مرة واحدة، ولكنني تراجعت.

تبدو لي دائمًا وكأنما تدخر كلماتها. كأنها تملك رصيدًا محدودًا من المفردات تقتصد في إنفاقه كي لا ينفد سريعًا، قبل أن تموت.

- ماذا حدث في اليوم الأخير.. يوم جاء إلى هنا؟

تسأل كريستينا بحياد طبيبة، تداري ارتباكها وهي تخفي دفترها في حقيبة يدها.

- استيقظ دائخًا.. ولكنني لم أشعر في البداية بشيء غير عادي.. فكما تعرفين هو على هذه الحال منذ عاد من أثينا.. ثم....

- لا أقصد هذه التفاصيل التي يمكنك أن تقوليها للأطباء.. أقصد ماذا فعل؟ ما الشيء غير العادي الذي أتى به قبل أن يسقط؟

من جديد تربكني كريستينا.. فمنذ زمن بعيد اختفت عندي الفواصل بين ما هو عادي وما لا يُصدَّق في حياته.. ولم أكن أعرف بم أجيب..

- أخرج المسودة الأولى من قصيدة المدينة.. بعنوانها الأول..

- "في المدينة ذاتها من جديد"!.. لقد قرأ لي ذات يوم المسودة الأولى لهذ القصيدة..

- نعم.. وقد قال بندم، "لقد غيرت اسمها لمبرر نسيته الآن..

وأيًا كان المبرر فهو واه.."، وقد قرأ لي السطور التي حذفها.. ورغم أني أعتقد أن حذفها أفضل.. إلا أنه خالفني الرأي بعصبية شديدة.. هناك مثلاً سطر: تقزز بصري.. تقزز سمعي.. وقد استبدله بـ "كل محاولاتي محكومة بالفشل".. وسطر آخر.. أعتقد أنني نسيته..

- "أكره الناس هنا.. وهم أيضًا يكرهونني.."

- نعم.. نعم.. هو هذا..

قالت بحماس لم ألمحه في عينيها منذ جئنا:

- هل تعلم أنه تشاجر معي كثيرًا في أوقات سابقة بسبب هذه السطور؟ لقد كانت وجهة نظري أنها تلخص جروحه الحية.. وهو ما اعتبره مباشرةً ممجوجة وابتعادًا عن الفنية.. وشعرتُ دائمًا أنه خصى مناطقها النابضة لصالح بنيتها المتأنقة التي ظهرت عليها بعد ذلك.. إنه يعيد ترتيب أوراقه... يبدو أنه بدأ أخيرًا يصدقني..

- أعتقد أنه فكر أخيرًا أنها ربما كانت أنسب على هذه الصورة.. وقال لي إنه نادم لأنه حذف منها بعض السطور.. ولأنه اعتبرها طوال سنوات أفضل على هذا النحو.

تصمت للحظات..

- هل فعل شيئًا آخر؟

تظاهرت بأنني أتذكر، غير أنني في الحقيقة كنت أفكر في ما يمكن أن أفصح عنه..

- طلب مني أن أحمله إلى المستشفى اليوناني.. واستعرض محتويات الشقة مهمهمًا من خلف صمته: للأسف.. لن أتنفس هواء هذه المقبرة مرة أخرى.

قسطنطين

يقفز إلى مكتبه.. يفتش بين أوراقه، وأخيرًا يعثر على القصاصة التي أيقظته ذكراها.

"في المدينة ذاتها من جديد".

"أريد أن أتخلص من هذه القصيدة.. ولكني لا أجرؤ".

نظرت إليه مستفهمًا. كنت لا أزال مندهشًا من الطريقة التي تطاير بها من سريره ليحط على المكتب.

"إنها المسودة الأولى من **المدينة**.. وهي ساذجة ولا تخلو من مباشرة وفجاجة.. أخشى أن تُنشر بعد موتي لتشوِّه وجه القصيدة التي صارت عليها تلك القصاصة الفجة.. اغفر لي غروري.. كريستينا مثلاً تعشق هذه المسودة الأولى، بطريقتها الساذجة في التعاطف مع الفن المباشر والتي تميز المراهقين.. تعشق نبرة الغضب والعدوانية الملتهبة.. حاولتُ كثيرًا أن أُفهمها أن الشاعر ينبغي ألا يحب أو يكره.. الشاعر ينبغي أن يَفسد.. ولكنها لا تفهم.. وهي معذورة على أية حال".

رفع القصيدة أمام عينيه، في الضوء.

"يمكنك إذن أن تتخلص منها".

وجَّه إليَّ نظرة فشلت في توصيفها، بدت لي مستقلة عن عينيه. لم أعرف إن كانت حدقتاه المظللتان بالنوم تعاتبانني أم ترحبان باقتراحي. فور استيقاظه يظل لدقائق مجردًا من عينيه، عينيه الإنسانيتين، ويشعر من يواجهه أن له بئرا كفيف أسفل جبهته، إلى أن يغسل وجهه، عندها فقط أشعر أنه استعاد النظرات، كأنه كان ينام تاركًا بصره على الحوض.

"إنني أحتفظ بها من أجل وجهها الآخر.. أحتفظ بالورقة في الواقع لا القصيدة".

صمت، ثم لمعت عيناه بالفكرة التي واتته فجأة.

"كم من الأشياء نضطر للإبقاء عليها بسبب التباسها.. هناك دائمًا ما نريد، وما لا نطيق، في الشيء ذاته.. والاختيار دائمًا صعب..غير أن من يقدر على استبعاد الشيئين معًا، ما يحب وما يكره، هو فقط الشخص الشجاع".

يصمت مجددًا.

"لذلك ربما الشجعان دائمًا خاسرون.. لا يدخرون حتى شيئًا من سعاداتهم لإنفاقه في المستقبل..".

في هذه اللحظة، قلب الورقة على وجهها الآخر، فرأيت رسمًا،

وجهًا نحيفًا بالرصاص، مغمض العينين كأنه في إغماءة أو غفوة مستكينة.. بالتأكيد لا يريد أن ينساه، وربما كانت هذه النسخة الأولى جدًا من القصيدة مدينة له بوجودها..

وجه من؟ لجميع العشاق الآن الوجه نفسه.

يعبر دغل بخار كثيف في ذاكرته، كأنه ولج سحابة معبأة، وتشمل السخونة جسده الذي يرتعش، بينما يتشمم مع كل خطوة رائحة الرجال العرايا، رائحة نيئة، لا تخلو من عطن مميز، تتخلل خلاياه عبر أنفه المشحوذ، مثل ذئب يتطلع إلى نفسه في مرآة.

يبحث عن الشاب الذي منحه موعدًا قديمًا يتجدد الآن في فوضى مخيلته. في واحد من تلك الحمامات. البهجة التي كسحابة. يشعر أنه قادر على إعادة ما فعل في العشرين من عمره. لعله. وهو يمضي نحو السبعين. يريد الآن أن يسلمه القصاصة المخزونة التي رسم عليها وجهه. اسمه باسيل أناسوبولوس؟ ربما.

يضحك.

"لقد نجت هذه النسخة كثيرًا.. حتى الطفلة، لفظتها بسرعة بعد أن وضعتها في فمها.. رغم أن أيًا من قصائدي لم تسبب لها هذه المرارة".

يتحول الضحك إلى شرود، صوت ماء.

كل هذا الصخب. المرح. التواطؤ الجماعي لأجساد ذكور في

حمام الرجال. اتفاقات تتحقق بُحرية. بأمل لن يسمح له صاحبه بأن يُطفأ. بريق عيون ذئاب عارية. عيون كالمرايا. أو هي المرايا. بحيث يرى كل واحد صورته في عينين تواجهانه. تهتز صورته في الحدقتين المهتزتين لشخص آخر. بجسده النحيف. المختبئ خلف صدى الماء. يبحث عن مزية يستطيع أن يقدمها. هل لي عينان جميلتان؟ فم مقبول الرائحة حتى لو كانت الشفتان نحيلتين كشفرتي موسى؟ الجميع في المدينة يرتدون ملابسهم. قسرًا. يصغون لذوق المدينة في الملبس. لمزاجها في شكل ساكنيها. لعطاياها ومنحها القليلة التي تعتقد أنها قادرة بها على تعويض المرء. هنا. يمكنك أن ترى بحرًا. اشكر الرب. كثيرون يعيشون في مدن لا يلتصق بها بحر. ويبدون ممتنين أكثر من ساكني هذه المدينة قساة القلوب. الجفاة. الحزانى وكأنهم ولدوا في حداد. لكن هنا. في حمّام الوجوه المشوشة والأجساد نصف المرئية. تجري المساومة الأجمل على العورات. أرني قضيبك؟ استدر لأطالع مؤخرتك. استُعملت كثيرًا. بل يهيأ لك. إنها تدفع ثمن الإخلاص. **ضحك**. والبيت قريب. بيتي أقرب. أحب أن أبدأ. وأنا كذلك. لن نختلف. سنبدأ معًا. **ضحك**. يتعثر واحد على الأرضية الزلقة. يسقط فجأة. كبناية تنهار. ليس ماء هذا. هذا مني. **ضحك**. أنا أريد هذا. لا أنا أريده. لنتفق. لا. إذن لنتشاجر. **ضحك**. في النهاية يخرج الشخص نظيفًا. مكشوطًا. بجلد مضيء كحشرة ليل).

يخرج. أحيانًا بصيده. وأحيانًا متوحدًا مثلما دخل. خاويًا. يتوهم يدًا غير مرئية تجوس في جسده. يفكر في الموت. في مدينة مقابر تحيا بموازاة الأنفاس.

"أعتقد أنني كتبت المسودة الأولى لتلك القصيدة بعد يوم مجهد بين المقابر.. وقد بزغت في وجداني يومها عبارة.. **قلبي ميتٌ ومدفون مثل جثة**..".

الحي اللاتيني. رفات اليهود. بقعة الموت الفسيحة التي طالما عشق التجول في متاهتها. عشرون ألف مقبرة هنا.. أي سحر!.. ويقين لا يقبل التشكيك من كل فرد في الطائفة اليهودية أن مقبرة الإسكندر. المصنوعة من المرمر. تنام أسفل هذه الأرض.

بحر الصباح الهائج. والمدينة شبه الرمادية كأنها مختبئة خلف سحابة. يدفعانه ليتلقى هبات الهواء المثلج الممتزج برائحة مالحة حية. يتأمل المدينة المقوسة والماء يسعى للقفز من فوق حواجزه ليصل إلى واجهاتها. قوس مبيت للغرق أو التحلل في أفضل الأحوال. غائب في سبات ناعم في هذا الوقت من الصباح. السيارات تتحرك غير منضبطة. تتأرجح. كأنها لعب صغيرة تضخمت فجأة. وكذلك أشباح الأشخاص الذين يتمشون على الأرصفة في الجانبين. بقايا الأشخاص الذين لا يزالون يعيشون بقايا المساء الذي مر في بقايا المدينة المهتزة. ليفاجأوا بأن الصباح باغتهم. احتلهم النور دون أن

يستعدوا. أغلبهم خرجوا توًّا من الحانات والمقاهي الليلية، بروائح كحول وأدخنة متداخلة نفاذة عبقت أنفه المشحوذ.

تهيمن أعداد السود في هذا الوقت، ربما يطمئن لذلك، يصير في مستعمرة يسهل فيها تمييزه، بلا أشباه على الإطلاق، يعبرها على استحياء عجائز بيض محنيون، يتكئون على عصي، أو يتحركون خلف حيواناتهم الأليفة (كأنها تقودهم) التي تثير حسد هؤلاء. يخرج زجاجة صغيرة من جيب معطفه ويفرغها في حلقه، يأتي لهب الكحول على أوصاله الباردة ويُغير قليلاً من لون جلده الشاحب ليصير قانيًا مثل قرص شمس غارب.

تبدأ طرقعات الحناطير في غزو الشارع، بصيحاتها الفجائية ووقع حوافر الأحصنة الهزيلة كأنها تمشي فوق لوح من حديد.. ويجعله سقوط السياط على أجسادها اليائسة ترتعد.

يتمنى لو يمسك بسوط الآن لينهال به على ظهور كل هؤلاء الرجال الأقوياء. في ذلك الوقت من الصباح، يستطيع من يستيقظ مبكرًا أن يصير إلهًا.

يرى المدينة الصباحية حفلة دمى، يحركها شخص ما، قوة ما في الأعلى، ويشعر بصدق حدسه عندما يكتشف فجأة، مدققًا وقد جعله الكحول أكثر صفاءً، أن الجميع يتحركون في آلية يصعب التعرف عليها إن لم يكن الناظر دمية.

يصبح الحي اللاتيني في مرمى البصر. في بقعة ما تحت هذه الأفدنة السبعة المنبسطة، يرقد جثمان الإسكندر المقدوني. هل هذا حقيقي أم أنها مجرد شائعة يرددها اليهود الذين يدمنون ترديد الشائعات ثم يصدقونها؟.. يتحدثون عن المقبرة التي من جرانيت المرمر، والتي تشع روحًا غريبة في المكان. بعضهم ينتفض بمجرد ذكر المعلومة، خوفًا من انتشارها، لأن ذلك قد يعني في لحظة ما إزالة كل الرفات للبحث عن الرجل الذي يستحق البحث عن جثمانه التائه التضحية بأي شيء. يخوض الحلم الشبحي تاركًا حياته نفسها خلفه. يشعل سيجارة بصعوبة، ويشعر بالريح تقتلعه من مكانه. يفكر فجأة أنه كان يجب أن يتنكر، كي لا يتعرف الموت على وجهه. يود لو تحول وجهه لشيء آخر غير هذا الذي يراه طوال الوقت، يطالعه حتى في الهواء، الذي يبدو وكأنه مرايا.

من جديد يعذبه واحد من أسئلته البديهية، وها هو يعود ليحتله فجأة في هذا الصباح المُعادي: كيف يمكن أن يخرج من الحدود الضيقة لذاته؟ كيف بوسعه أن يكون أشخاصًا آخرين في الوقت نفسه؟.. الموت يفعل ذلك.

في مقابر كوم الشقافة يشحذ أنفه، لأنه يشم عطورًا غامضة.

بين الحقيقة والوهم، يتأرجح وهو يوغل في المقابر الغريبة.

يجتاز الباب الدوَّار، ويعبر فوق الأرض المسفلتة، قبل أن يلتفت إلى اليسار ليواجه التوابيت الأربعة من الجرانيت القرمزي. ينظر لأعلى، لجانب التل الذي أزيلت أجزاء منه عن طريق اقتلاع الحجارة والتنقيب، للمنحدرات حيث الممرات المغطاة بالملاط. على قمة التل، تتمدد فسيفساء من الحصى الأسود والأبيض. يهبط السلم الذي كان الموتى يُدلّون عبره كالدلاء بالحبال، يصيبه بالدوار وهو يفكر أنه ربما لا يصعده ثانية. يجتاز السلم إلى الردهة حيث الكوتين نصف الدائريتين المحفورتين في الحائط، في كل منهما مقعدان. بالقرب منهما تلوح القاعة المستديرة، تبزغ من منتصفها ثمانية أعمدة تحمل سقفًا مقببًا محاطًا بممر دائري. على اليسار، قاعة الطعام حيث يأكل أصدقاء الميت وأقرباؤه إحياءً لذكراه.. ثلاث أرائك منحوتة من الحجر الجيري .

يهبط سلمًا جديدًا، إلى الطابق الثاني، حيث تظهر المقبرة الرئيسية، عشقه المميت.

"أتذكر.. ذكريات ضبابية لم يبق منها إلا القليل..

أتذكر منذ زمن بعيد.. أيام مراهقتي.

بشرة مثل الياسمين..

وأمسيات شهر أغسطس..

أغسطس!..

أتذكر بالكاد العينين: زرقاوين على ما أظن..

نعم. زرقاوان. في لون الياقوت".

مقابر الأنفوشي. سوق مزخرفة. درج محفور في الحجر الجيري يُفضي إلى قاعة مربعة تُفتح فيها غرف المقبرة.. لوحة لتحميم الموتى.. الإله الذي له رأس صقر يشير لأرض الموت.. أوزوريس يحمل وعاء التطهير ومن خلفه إيزيس.. لوحة أخرى نصف محطمة يجلس فيها أوزوريس على عرشه. ملكًا للموتى. وخلفه الإله الكلب أنوبيس.. وأمامه حورس مقدمًا المتوفى.

يرى ظلاله متكاثرة. هنا بالذات. ويفشل في تخمين السبب.

أرى خرائب محترقة من حياتي هنا..

حيث قضيت زمنًا طويلاً لا أفعل شيئًا..

هذا الدرج القاسي. تذكرة للزائرين. بالمصاعب التي يجب أن يمر بها المتوفى (لماذا. ألا تكفي الحياة؟).

يخرج. شاعرًا أنه ظل. لا يجرؤ حتى أن يقول: أنا. بينما يعبر قصر رأس التين. يغيب للحظات في رواقه ذي الأعمدة. ثم نادي اليخت. المستشفى العسكري. بقعة من الماء تخاتله. ندف من ميناء ما قبل التاريخ ترقد هناك.

ستلاحقك هذه المدينةُ للأبد..

بقايا المقبرة البروتستانتية. ترد له حماسه للموت. في القلب

منها بائع زهور. موسني.. الرجل الذي يبدو ميتًا. يشتري منه زهورًا كلما أتى. كأنه يتقي شره. زائغ العينين. لا يسمح لأحد بانتقاء الزهور. بنظرة واحدة في وجه الواقف يخمن نوع الزهور الملائمة. يفكر كثيرًا أن يسأله. "متى مت؟ أين مقبرتك في هذه الأنحاء؟". جرح غائر في صلعته. هل يمكن أن يُطعن شخص في هذا المكان؟

القبور مختفية بين النباتات والسراخس. مخبأة في اخضرار إعجازي. جميل أن يُدفن المرء هنا. تتطاول الخضرة بينما تهبط القبور لأسفل مرة بعد أخرى. يقرأ. على المقبرة الأشهر. العبارات التي يحفظها: "لقد اكتشفت عبقريته الحاضرة اللغة الهيروغليفية ووضحتها. بالإضافة إلى الآثار في هذا البلد. وقدم أفكارًا حية للعالم عن المشاهد التي أبهجته".

من تلقاء نفسه. يسرد العجوز. "كان السيد هنري سولت إنجليزيًا نشطًا. لكنه كان غامضًا. ربما بسبب مزاجه الفني. جاء إلى الإسكندرية عام 1809. وبعد ستة أعوام أصبح القنصل العام. صحيح أنه وافق على الخطط المالية المجحفة لمحمد علي وأذعن لاحتكاراته غير القانونية. لكنه بالمقابل كان عالم آثار مخلصًا. وحاز امتيازات للتنقيب عن الآثار في صعيد مصر..".

لماذا يبدو بائع الورد متحمسًا لهذه الدرجة إلى هذا الرجل؟ لماذا حدثه عنه بهذه التلقائية فجأة. هو الذي لم يره مرة يتحدث. حتى ظنه أخرس؟

يتنهد فجأة، وكأنه بذل جهدًا لم يتعود عليه.

"يجيء الزبائن.. يشترون الزهور للموتى، لا يبدو على واحد منهم أنه يفكر في موته.. الإنسان، بغريزته، يفكر أن الآخرين فقط يموتون.. إلى أن يموت، وحتى في هذه اللحظة، لا يدرك شيئًا.. هل قابلت ميتًا يعرف أنه ميت؟.. كل من يشتري زهورًا، يختفي بعد فترة.. ويظهر شخص جديد يشتري الزهور نيابة عنه..".

ويصمت البائع الشبحي كما تحدث، هل يمتلك مقبرة في تلك الظلال؟

في المرة القادمة، سيجد الدكان مغلقًا. لن يعود للزهور أبدًا. يصدق أنه لو ابتاعها مرة أخرى فسيموت في مكانه.

أنت لا تملك سفينةً ولا طريقًا..

يضع يديه على أذنيه، يخبئ سمعه، يأمل في صمم يحجب عنه الصوت، القصيدة التي تشبه موته الشخصي، مقبرته التي على مقاسه.

"لقد سمعتُ صوتًا مشؤومًا،

صوت الموت يصعد درجات السلم،

يعدو فوق الدرج قويًا عنيفًا،

فترتعد هذه الآلهة خوفًا،

لأنها تعرف هذا الصوت المشؤوم،

تعرف وقع أقدام آلهة العقاب".

يخرج من شروده، محدقًا في نقطة عمياء. يعود لتأمل الورقة.

"لا يصير الشخص سكندريًا إلا بالموت.."

"صدقني يا ألكس.. هذه المدينة هي مقابرها.. ليست بيوتها إلا مزيجًا محكمًا من الجمال والقبح.. لكن المقابر فقط تبدو أخوات.. لا أقصد المعمار الشكلاني الذي نتشدق به نحن الأوروبيين.. لكن التصالح مع المدينة.. هؤلاء الموتى فقط هم السكندريون.. نعم... صدقني..".

لا أرد، ولا يبدو أنه ينتظر مني تعقيبًا، لأنه يكمل.

"الجنس أيضًا شيء مثل الموت.. لكن المصريين يدركون ذلك بشكل أفضل منا.. ومن دون تفلسف.. تقودهم الغريزة لكل طقوس الحداد الممكنة بعد المتعة.. ليس تكفيرًا عنها.. لكن بنوع من التوديع.. شيء كالقصيدة غير المقصودة".

ينهض، تاركًا أنفه يجوس في الورقة، كأنها ستحمل له رائحة جسد، أو مدينة.

"في النهاية، فإن هذه الورقة لها وجهان. عملية معقدة، رهيفة، بمقدورها إعادتهما لاستقلالهما القديم، فصلهما ليتحرك كل منهما في طريقة. لو أمكن حدوث ذلك وأنا حي، سأحرق **المدينة**.. سأحتفظ فقط بوجه الحبيب".

فورستر

لا تهم الرواية الآن. سأكتب عن الإسكندرية.

يسأل نفسه مرة بعد أخرى، كيف تسلّلت إليه، دون أن يشعر، كالهواء، لتجبره على أن يتنفسها؟.. كيف تحولت لعاصمة فقيرة لروحه، لكن متعالية بمرور الوقت، على تحفظه القادم من كبرياء الجليد وصلف بزته المتكبرة؟ كيف شدته من ياقة قميصه ليتجرد من ملابسه على أشد أسرَّتها وضاعة وفي أكثر غرفها سوقية وأحط شوارعها شأنًا؟.. وكيف خرجت تأوهاته التي قتلت كل كبرياء ممكن بينما يؤلم محصل تذاكر لا يكاد يجد قوت يومه مؤخرته، يولج فيها سوطه الأسود الساخن، ولا يرحم توسلاته بينما يقول، كفى محمد.. كفى لم أعد أطيق؟

أي رواية أكتبها عن الهند بينما أسلي الموت هنا بتدبيج رسائل تصل بعد أن يكون الميت قد بعث؟

يفكر في أشد الأفكار جنونًا وبعدًا عن مزاجه، أن يمسك بالقلم ويبدأ، لتبدأ الإسكندرية الآن حياتها على أوراقه.

هل ستستغني أيضا عن لغتك الأدبية؟ عن لوعتك المعجونة بالشوارع؟ عن جميع خيبتاك ومزحاتك الثقيلة مع رجال يدخلون المستشفى فقط كي يسجل الموت أسماءهم؟.. أي جفاء تركته فيك هذه المدينة الصامتة رغم كل صخبها المفتعل؟

حتى الشخص الذي ظننته مفتاح المدينة الصدئ من أثر اليود الذي أتى على واجهته، قسطنطين كفافيس، اكتشفتَ سريعًا، بعد جلستين وحفنة الخطابات الأولى، أنه مثلك تمامًا.. ترى المدينة مؤخرته العارية في أشد أوضاعها مهانة، وتستطيع، لو أرادت، أن تعيّره بعضوها المدسوس في شرجه.

(من أجله، بشكل ما، سأفعل ذلك).

أدركتُ في لحظة، كيف أن تلك المدينة، التي لا أزال أذكر نظرة الاستعلاء التي ألقيتها عليها عندما غصت في شوارعها لأول مرة، كانت قادرة على تدميري، بيسر، دون استعراض للقوة، دون شفقة، وبتواضع جم، كأنها تمد يدًا لتصافحني.

لقد كسرَت تعاليه، بالطريقة نفسها التي فعلتها معك، عبر جنود صغار، وهذه هي المهزلة.. جيش من الأميين، عاملين في مقاهي، سائقين، محصلي تذاكر الترام.. لا يعرفون أسلحة غير هذه التي تكمن بين أفخاذهم.. جاهزة لدى أدنى إشارة.. فقط عليك أن تُخرج المال وأن تستدير ليطعنك من الخلف في مكمن شهوتك. أين آلهة

المدينة إذن، وأي أعضاء ذكورية خرافية يحملونها بين جنباتهم؟

لا تهم الرواية الآن. سأكتب عن الإسكندرية. لأستعيد ماضيها وأتمدد بين خرائطها المليئة بالأخطاء، والتي لو وضعتها بجانب بعضها، سأرى مدنًا بعددها. لا تشبه واحدة منها الأخرى. لا تحتفظ إحداها بحدود الثانية.. لكن، أليست تلك هي الحقيقة السكندرية ذاتها؟.. إنها ترتدي الأقنعة واحدًا تلو الآخر، كأنما حُكم تنكرها في حفل عليها ألا تفصح فيه عن جوهرها.. وبشكل غامض، يشبه عري تلك المدينة أرديتها. يكاد يكون مثل امرأة تخلع كل ملابسها فجأة فتكتشف أنها ترتدي جلدها.

يبدأ في كتابة خطاب لقسطنطين، يريده شاعريًا، حميمًا وشخصيًا.

عزيزي كفافيس

أعتقد أنني سأترك الرواية جانبًا لبعض الوقت، مضطرًا كأنما بفعل وسواس قهري، فأنا أبحث عن عزاء، ولم يعد في هذه المدينة من هو قادر على أن يسدي لي جميلاً.

يبدو أن المؤرخ القديم فيك الذي حدثتني عنه قد سيطر علي، بل تلبسني بثوب فضفاض تخيلته دومًا يسدر على أناس ليسوا من هذا العالم، وقد قدَّرت الآن فقط لماذا نويت ذات يوم بعيد أن تكون

مؤرخًا.. وأندهش الآن كيف انتهت بك الحال شاعرًا في هذه المدينة.. غير أنني أتفهم أيضًا لماذا بزغت بذرة شعرك في مدينة أخرى.. إنها أفكار متداخلة تصب كلها فيك.. وأعتقد أنني صرت قادرًا على تفسير جانب من المدينة من خلالك.. مثلما أفسر جوانب منك من خلال المدينة.. لذلك فهذا الكتاب الذي سأترك كل شيء - حتى لغتي كفنان - من أجل إنجازه هو مهدى لك بشكل ما.. وأعتقد أنني سأرى، عندما يكتمل وجه المدينة أمامي في ذلك الدليل.. وجهك بالذات.

المخلص

فورستر

يقرأ قسطنطين الرسالة، ويتردد للحظات في الطريقة الأمثل للرد.

تشغله، كما يحدث في كل مرة يتلقى فيها رسالة من الإنجليزي، فكرة الرسائل، شاعرًا بذنب تجاه فورستر لأنه يرد عليه على الدوام بجفاف واقتضاب. تستغرقه الفكرة حتى إنه ينسى فحوى الرسالة، ما تنطوي عليه من ألم أودعته تلك المدينة في جسد وروح شخص قادم من خلف الضباب.

إنه يتحول إلى ساعي بريد بين الموتى والأحياء، وفكَّر قسطنطين أن ذلك مضر بلغته الشعرية، وأنه لو انساق لمنح تلك الخطابات ردودًا يبذل فيها الجهد، فسيستغني بعد فترة عن كتابة القصائد.

عزيزي فورستر.

يهيأ لي أن المدينة، على مستوى أعمق، تجردك من لغتك، ليس من إنجليزيتك بالطبع، لكن من أدبيتك. هذا أخطر ما بدأت الإسكندرية تخلصك منه، وهذا في ظني ما تقدر الإسكندرية على فعله مع أشباهنا، على مهل، وبصبر حائكة ثياب عجوز. أجمل ما في الخطابات هو المعنى السهل، والمتلقي المضمون، والرد الذي لا بد أن يأتي.. وهو ما يناقض الفن بشكل سافر. أعتقد أن روايتك "الطريق إلى الهند" التي قرأت عددًا من فصولها، مشروع بديع، لا أعلم لماذا ينبغي أن يتوقف.

بالمقابل، يبدو لي مشروعك في تدبيج كتاب دليل عن الإسكندرية مشروعًا غامضًا فيه قدر كبير من المراهقة الغاضبة، أو الغضب المراهق. إذا كنت تريد نصيحتي كواحد من أبناء هذا الشريط الساحلي، سأقول لك، عليك أن تقاوم هذه المدينة لا أن تنصاع لها أو تهرب منها، لأنك في الحالتين خاسر. أنا أكتب على الدوام قصائد بلغة أخرى، ليس من المهم هل أنشرها أم لا، ولماذا، وهي أسئلة تشغلك كثيرًا، ولا أود بردي هذا أن أوقظها من جديد بداخلك.. لكن المهم أن هذا يحدث طوال الوقت، وليتبق منه في النهاية ما يتبقى. عندما أكتب يكون سؤال الفن آخر ما أفكر فيه. أكتب لأحيا، أو لأظل حيًا إذا توخيت الدقة، وبعد ذلك، عندما يأتي الدور على سؤال الفن، يكون هناك تدبير آخر، أعتقد أن زمنه الحقيقي هو الموت.. وهنا أستطيع التقاط خيط استفسارك عن الشاعر والمؤرخ.

دائمًا، كان لدي استعداد فطري لشيئين: أن أصير شاعرًا أو مؤرخًا. صحيح أني لم أضع كتابًا في التاريخ، والآن صار الوقت متأخرًا جدًا لإنجاز ذلك، لكني، إذا سألتني بطريقتك المهذبة في التشكك: ومن أدراك أنك قادر على أن تكون مؤرخًا؟.. سأجيبك ببساطة: أشعر بذلك.. ثم سأسأل أنا نفسي، بطريقتي الذاتية العنيفة في التوبيخ: قسطنطين.. أقادر أنت على كتابة رواية؟ ستجيب عليّ عشرة أصوات: لا.. حينئذ سأسأل: قسطنطين.. هل تستطيع وضع كتاب في التاريخ؟.. هنا سيصرخ فيَّ مائة صوت: بالطبع أنت قادر على ذلك.

اسمح لي أن أعود لفكرة الرسائل، وهي بالمناسبة غواية أصيلة بداخلك حتى لو كذبتَ متعللاً بجميع الحجج التي يمكن لها أن تقنع الجميع، إلا قسطنطين كفافيس. على العكس منك، أرى الرسالة شكلا فقط، ليس بالضرورة أن يحتوي على الكلمات التي أريدها أن تصل. وددتُ كثيرًا أن أخبرك بذلك، لكني فشلت دائمًا في صياغته بالشكل المهذب الذي يلائم حساسيتك المفرطة، وقدرتك المدهشة على تأنيب ذاتك.

ربما كانت هذه أطول رسالة أكتبها لك، وربما كانت، لذلك أو على الرغم من ذلك، أشد رسائلي قسوة.. فاغفر لي لكنك في النهاية أحد الأعزاء القريبين دائمًا إلى قلبي.

قسطنطين. ب. كفافيس

يقرأ قسطنطين الرسالة لنفسه. يبدو راضيًا. يبدأ في وضع ملحوظاته. يضيف سطرًا، يحذف آخر، يغذيها بعدة عبارات على الهوامش، ثم ينخرط في تدبيجها بشكل نهائي. يمسك بها أخيرًا. يفردها أمام عينيه. يلتهم سطورها كأنها مرسلة إليه.. وفي قمة الرضا، يبدأ بتمزيقها.

"لقد قلت ما أريد. يمكنني إذن أن أكتب رسالة جديدة. تهدئ فقط من روعه وتدفعه للمضي قدمًا فيما يفعل. ليكتب المزيد من الرسائل. وليقطع شوارع الإسكندرية على قدمي ذهنه. في كتابه. لا أقصد بذلك أن أدمره. لكن فقط لأمنحه المسوغ الذي يريده مني بالذات. ليدمر نفسه".

فُتنة

بينما تسير بمحاذاة شريط الترام، تفكر فجأة أنه يقطع رؤيتها للمدينة.

هو أيضًا ظل يقطع رؤيتي للمدينة. ويقتلني كلما وقفت في طريقه.

تستدعيه وهو يخبرها، "فكرتُ دائمًا في الترام كسكين يشق جسد المدينة إلى نصفين، يطل كل منهما بعجز على الآخر، لا يمكن لأحدهما أن يلتئم بالآخر أو يقترب منه. هذان الشريطان الجاحدان يفصلان قسرًا بين مدينتين، نوعين من البشر".

"أي مدينة منهما أنتمي لها؟".

سألت نفسها فجأة، لماذا كانت تعشق الجلوس عكس اتجاه المدينة، كأنها تعود للخلف؟

تصل إلى نهاية شارع رشيد. الحدائق من جديد، الخضرة المخيفة مرة أخرى، أشد شسوعًا هذه المرة، تمتد حتى محطة السكك الحديدية، عابرةً الأسوار العربية الحائلة.

تفكر فُتنة بواعز كالإلهام، أنها مثل الإسكندرية بالضبط، منحت جسدها لجميع الغرباء. غزوها واستوطنوها وتعايشوا فيها.

إنني مومس.أستطيع أن أعترف الآن (لكن ماذا عن المدينة؟) كل هذا المني الذي سكن جسدي. تمدد في عروقي. عبر كل فتحاتي وثقوبي.. فرجي وإستي وفمي.. جعل مني امرأة بلا جنسية. مني ينطق بكل اللغات. لإنجليز وأرمن. روس وإيطاليين. يونانيين. والكثير من أولاد البلد.

هل يشبه ذلك اليوناني أبي؟ وهل أحب أبي؟ أشتهيه في سري؟ أم أريد فقط أن أنتقم منه؟

"أنا امرأة على الأقل.. لكنك لست رجلاً".

تنطق بها الآن من جديد، العبارة الأليفة، شبه اليومية، التي اعتادت أن تطلقها في وجه أبيها، في المساءات المتأخرة، مساءات فجورها التي كانت تعود فيها ثملة، مهانة بكدمات على وجهها.. بينما ينتظرها الرجل الغاضب.

"يا ابنة الزانية...".

عبارته الأليفة أيضًا لها، وسيلته الوحيدة للانتقام منهما معًا.. هي والمرأة التي تركت البيت ذات يوم لتمارس انحرافاتها على هواها، ولا تعرف شيئًا عنها من يومها، رغم أنها تثق أنهما ستتقابلان ذات يوم على سرير واحد.. يضاجعهما الرجل نفسه. إنها أيضًا

تتكتم سر أصابعه التي كانت تجوس فيها وهي تنام في أحضانه، عندما بدأت استدارات جسدها تتخذ اكتمالها.. تشعر بنار انتصابه على مؤخرتها.. يده التي تبدو عفوية في تقلبات نومه وهي تعتصر ثدييها (الصلبين في ذلك الحين).. إصبعه الخشن الذي يتحسس شفتيها. كلاهما مستيقظ.. كلاهما نائم. يشعر بتأنيب ضمير، لكن فقط للحظات قليلة. هي بالنسبة له ليست ابنته. هي ابنة المرأة التي تتقلب الآن في فراش آخر، من رجل آخر لا يمكن أن يكون هو.

تهز رأسها، كأنها تنفض الذكرى العالقة بشعرها.

المدينة تتحول إلى حفل تنكري.

ترى من حولها كل أشباح يقظتها تتجسد فجأة. يحدث ذلك كلما انحرفت إلى المنشية. لماذا المنشية بالذات؟

مجددًا يصم غناء مجهول أذنيها، لكنه ليس غناء امرأة متوحدة، بل جوقة متخفية. ويخترقها صوت واهن.. صوته الدائخ البعيد يعلق على المشهد.

ودعيها. ودعي الإسكندرية. الإسكندرية التي تضيع منك إلى الأبد.

ترى وجوه أناس مختفية تحت الأصباغ والأقنعة، تمد يديها نحوها، لكن ألف ذراع تنهرها. رأت كل تلك الوجوه من قبل، في بيت الشاعر، وحيث كان بمقدور مدينة كاملة أن تتنكر داخل

الغرف. هي بالداخل، جاءت مبكرًا، ورأته وهو يخون وجهه، تحت القناع المتقن لدماء شخص آخر.

يطرقون على الباب. أشخاص يصعب التعرف على ملامحهم. في الحفل التنكري الذي يقيمه الشاعر على شرفه ليلة رأس السنة. وفي مناسبات أخرى لم أفهمها أبدًا.

يخبرني: "الإنسان يحتاج أوقاتًا يتنكر فيها".

تتذكره وهو يطلب منها، لأول مرة، أن تتنكر. كانت قد زارته في بيته مرتين بالكاد، متمنية فقط، بمحاولات مجهدة، أن تجعله ينظر إليها. لم تصدق. تطيرت من سعادة داكنة. لقد صرتُ واحدة منهم.

"إنه حفل".

لا ترد. لا بأس. تود أن تسأله: بم عليَّ أن أجيب؟

"حفل تنكري. أريد ألا أتعرف عليكِ عندما أفتح الباب. من أتعرف عليهم، من أنطق بأسمائهم بمجرد أن أراهم، يكونون قد أخفقوا.. يستديرون ويعودون من حيث أتوا، دون أن أضطر لإخبارهم بذلك".

يتضرج وجهها. اختبار أول لها. ليس الأول في واقع الأمر لكنه يبدو كذلك. أعد لها قبل ذلك اختبارات بسيطة، غالبًا كخادمة (لم يضايقها ذلك، ربما أسعدها بشكل ما، تعشق هذه المحن التي

تكرس لعبودية محببة وربما مرحب بها عندما يكون السيد رجلاً تريده). أعدت له في المرة الأولى قهوة وارتدت قرطًا منحه لها. ظنته هدية رمزية، ولكنها بعد أن ارتدته راح يتأمل أذنيها، يمر بيدين حانيتين على شحمتيهما الرخوتين، يزيح خصلات شعرها ليراهما بجلاء، عاريتين من أغطيتهما. بعدها مد يديه، دون أي تحرج أو تردد، وطلبهما، فخلعتهما مرتبكة، وبسرعة، حتى إن إحدى أذنيها جُرِحت وسال منها الدم، ولم يعبأ، وهي تضعهما في كفيه المفتوحتين. لم تكن تعرف أنهما يخصان أمه، وأنه كان يجُري لها أول اختبار على الدور الذي اختارها هي تحديدًا لتقمصه.

وكأنها أمام فرصة واحدة لن تتكرر، أخرجت حزمة أوراق من حقيبة يدها الضخمة، وتركتها فوق ركبتيها.

كنت تظنين أن ذلك سيلفت انتباهه. وأنه على الأقل سيسألك بتحضر الحضارة التي أتى منها عن تلك الأسرار التي استراحت على مكتبه. غير أنه لم يفعل. لم يعرك انتباهًا.

ثم بدأت تقلب بين الأوراق، تحاول الاستقرار على أفضل قصيدة لتبدأ بها.

كم كنت ساذجة! لم يكن يساورك شك في أنك ستقرئينها كلها. واحدة وراء أخرى. وأنه سيصغي. أليس شاعرًا؟؟ ألا يبحث عن أشباهه؟

يبدأ طـــرق المتنكرين على الباب. تواجه أشـــباحًا وشـــياطين وملكات.

.. ويبدأ الحفل بالطريقة التي سأحفظها بعد ذلك. يقول وهو يتعثر في فستانه: أعزائي.. بما أننا لا يعرف بعضنا بعضًا في هذه الملابس والأقنعة.. فليتفضل كل منكم بتعريف نفسه من خلال الشخص الذي يتقمصه..

بررت لنفسها لامبالاته بأنه ربما يفتقد للتركيز، ربما يكون مجهدًا، ربما نسي أنها عرَّفته بنفسها مرة بعد أخرى كشاعرة، تنتمي لـ"جماعة الثقافة السكندرية"، وكانت تظن أن مجرد إلقائها للاسم الفخم على مسامعه سيقتنص شغفه.

"هل أستطيع أن أقرأ قصيدة؟".

قصيدة عن الشاعر المتنكر، هذا يلائم تلك الليلة الثملة بالأقنعة. يشيح برأسه، هزة غير متحمسة، ظنتها ترحيبًا.

بعد ثلاثة أسطر، وبينما كانت لا تزال تتأتئ، تستجمع شجاعتها وتحاول السيطرة على رجفة جسدها، أُطفِئت واحدة من الشمعتين المشتعلتين. لم تفهم. أكملت. وفي السطر الخامس وجدت نفسها في العتمة الكاملة. ظنت أن خطأ غير مقصود وقع، وكانت لا تزال تفتش عن الكلمات في العتمة، وتحاول أن تستعيد بقية القصيدة من ذاكرتها، عندما اخترق خيط ضوء خافت، لا ينتمي لطبيعة

الضوء البدائي في الشقة، وجهَهَا، والتفتت، لترى الباب المفتوح، والرجل الواقف عنده، يتطلع نحوها بجمود، بينما الأشباح المتنكرة في الداخل، تهمهم غير عابئة.

الكلمات! إنها سلاحه الوحيد. مدينته المكتملة.

تستطيع الآن أن تتذكر إلهامه، تلك القصاصات التي كان ينهمك في تدبيجها على مكتبه، عندما يتركها جالسةً أمامه ولا يفكر حتى في رفع عينيه لينظر إليها، وعندما ينتهي، يضعها في يديها، كشحاذةٍ وهذه هي نقوده الفائضة عن الحاجة، تحفظ واحدةً، حتى إنها أعادتها أمامه بعد ليلةٍ من الاستظهار المنهك، فسأل: "هل حقًا أنا من كتبت ذلك؟".

"كثيرًا ما لاحظتُ كم هي قليلة تلك الأهمية التي يوليها الناس للكلمات. أعلم أني جبان، ولا يمكنني القيام بفعل، وذلك هو سبب اقتصاري على الكلام. لكني لا أعتقد أن كلماتي بلا ضرورة، فسيتولى شخصٌ آخر الفعل.. لكن كلماتي الكثيرة - كلمات نفسي الجبانة - ستسهل له فعله، إنها تمهد الأرض".

لكن كلماته لا تمهد لها الأرض عندما تهبط الدرجات القليلة، بل تتعثر وتقع، غير مصدقة أنها تغادر وكره مطرودة. حتى بعد أن يفتح الباب ويظل يوجه نحوها نظرة خالية، لا يدور بخلدها أنه يعلن نهاية اللقاء. تنظر إليه، وقد رسمت على وجهها ابتسامة

بلهاء متسائلة أكثر منها مندهشة. عندما يطول تحديقها، التصاقها بالكرسي، يشير بيده للضوء في الخارج.

تقاوم دموعها دون جدوى. لكنها ستعود، مُحكِمةً من تنكرها، وستطرق الباب، تحت المساحيق الثقيلة لوجه آخر.

تستشعر شعيرات تنبت على وجنتيها مع كل خطوة في هبوطها من شقته باتجاه باب البيت، تتحسسها فتطمئن، لقد بدأ وجهها يخونها.

تغادر شارع ليبسيوس، غير مصدقة أنها نجت، أنها بالفعل فوق الأرض.

تكتشف أنها محاطة ببقاع خضرة، كأنها في الفردوس.

تشعر فجأة بالكراهية تصعد في عروقها، ليس لباراسولا بالذات، بل لكل هؤلاء البيض المقيتين. هل تكرههم حقا؟

"إنهم أصحاب المدينة. قناعها المستعار والذي صار وجهها الحقيقي لفرط ما التصق بها. ماذا سيحدث لو انتُزِع هذا الوجه ذات يوم؟ لو استيقظ الناس فجأة ذات صباح ليكتشفوا أن المدينة خلت أخيرًا من هؤلاء الأسياد؟ لكن ذلك بالتأكيد لن يحدث. من يجرؤ على نزع ذلك القناع عن الوجه الذي انطمست ملامحه تحته؟

وأي ملامح؟ هل بالفعل كانت ثمة ملامح خلف كل تلك المساحيق؟ هل تملك الإسكندرية وجهًا آخر؟".

تستعيد ظهيرة مشتعلة، في "اجتماع جماعة الثقافة السكندرية". يحتدم حوار حول "أولئك الأجانب المتعجرفين"، الذين اختصروا المدينة في حفنة غرف فخمة تتوهج فيها الثريات، وتختلط روائح دخان السجائر بعطور غالية وروائح كحول نفاذة، وفي القلب من كل ذلك لغات آتية من وراء المتوسط لتحط رحالها هنا. تجلس، وتظل صامتة، تنصت فقط لإهانة جديدة أضيفت إلى رصيدها في ذلك اليوم، لكنها لا تتذكر الآن ماذا كانت الإهانة بالضبط. وهبط عليها السؤال كالصاعقة ليقمع سكينتها.

"أنت آتية من عنده أليس كذلك؟.. تقرئين له قصائدك فينظر لك باستعلاء ولا يعلق.. وعندما تهمين بالحديث يسخر من إنجليزيتك غير المرُضية.. لماذا تصرين أن تكوني عاهرة حتى وأنت تكتبين الشعر؟".

طلقات متلاحقة ممتزجة بالزبد راحت تغادر فم الشاب الهائج، (تحتفظ بتماسكها لأنها تتأكد في هذه اللحظة أنه أراد دائمًا أن يضاجعها)، لا تشعر تجاهه سوى بالشفقة.. فما إن يغادر هذه القاعة حتى يعود عبدًا من جديد، بلا قيمة على الإطلاق. هو في النهاية شخص يرتدي "الطربوش" وله أب يتحرك في جلباب برأس معممة. أسود، نوبي، لا مكان له هنا إلا تحت الأرض.

هل ستهزم كل هؤلاء البيض بقصائدك وصراخك داخل هذه الغرفة المغلقة المعبأة بالدخان؟.. أنت تشتهيني في سرك. تريدني.

ولك ذكر ضخم تتباهى به في سرك كأي سوقي.. تُقبِّل يد أبيك وأنت محني كي يضع في يدك حفنة قروش حصل عليها بدوره من تقبيل يد واحد أو واحدة من البيض. ثم تجيء هنا لتكتب بعربية غليظة. زاعمًا أن الشعر ابن بار لهذه اللغة. لا يصلح لهؤلاء المتعجرفين ضعاف البنية.

تستطيع فُتنة أن تقذف بكل ذلك في وجهه، دفعة واحدة، غير أنها لا تفعل. تعرف أنها لو أشارت له بإصبعها كي يذهب معها إلى قسطنطين سيهرول، وربما يُقبِّل يده بمجرد أن يراه، سيأكل بنهم وينهب الكأس تلو الأخرى، وبعد ساعات معدودة سيكون معه في سريره، وقد وجد لعضوه الكبير أخيرًا مكانًا داخل أجساد الأجانب.

يحل صمت. ويتدخل رجل كبير بنظارات، له شعر رمادي، يطلب منها أن تقرأ قصيدة.

ترد بتعال مقصود، "لم أعد أكتب بالعربية، قصائدي الأخيرة كلها مكتوبة بالإنجليزية".

يسيطر غيظ مكتوم على الجميع، تبتسم، ثم تنهض لتغادر.

تسأل نفسها الآن، لماذا كان عليها أن تتحمل الواجب المر بقراءة تلك الكتب، لتصير امرأة؟

في المساء، هناك دائمًا البيوت وأجساد الرجال، والمني المتمدد

على بطنها، بين ثدييها، على مؤخرتها.. وحيث تعرف أن المرأة هي شخص يولد مرفوع الساقين مثلما يولد الرجل مرفوع الرأس.. أما هؤلاء الفتيات اللاتي ارتدت بعضهن مبكرًا نظارات وتبرز شعرات آباطهن وذقونهن، وبالتأكيد لهن فروج مثل اللحى.. فلسن سوى كاذبات.

"هل حقًا أكره الخواجات؟ أم أكره هؤلاء السمر الذين كتب عليَّ أن أكون منهم؟.. أنا أكره الجميع.. أكره هذه المدينة المهجنة والتي تخفي خلف رقتها الظاهرية دماء مكتومة تبحث عن فتق كي تنفجر عبره لتصبغ جميع الشوارع وواجهات البيوت بحنائها".

تواجهها جارته الأشد حضورًا، القوادة الجالسة على أريكة بأريحية وقد انفرط ثدياها (بالكامل تقريبا) خارجين من فتحة الفستان الواسعة. لا بد أن تكون قوادة، أليس هذا مبغى كما عرفت قبل مجيئها؟ تنظران لبعضهما، نظرة كاشفة ذات مغزى. تشعر فُتنة في لحظة أن المرأة تُقيِّمها كجسدٍ عارٍ على فراش، وتؤكد دموعها شيئًا ما لدى تلك الشائخة التي أتت المتعة عليها. تكفي نظرة واحدة لتتعرف امرأتا أَسِرَّة على بعضهما. هُيِّئ لها أن المرأة نظرت لأعلى لدى مرورها، خمنت أي بيت تغادره الآن، وتعجبت، عندما حدست أنها قادمة من شقة الرجل الشاذ، حتى إنها تمتمت بكلمات مبهمة.

هل تعرف هذه المرأة أمها؟ هل تكون صديقة غير متوقعة في مساء شائخ كهذا؟ هل تكون أمها بالداخل، تحت رجل؟ وماذا لو خرجت الآن، في هذه اللحظة، وتطلعت إليها؟

تخرج بسرعة، تترك الهواء البارد والريح الثلجية العاصفة تتلاعب بها، وبخطوات واسعة تقطع شارع ليبسوس الذي تخشاه. تعتقد، كجميع المصريين، أن ذلك الشارع مبني فوق عالم سفلي يتململ فيه الجن، وأن تلك الكائنات السفلية تعمل بدأب منذ سنين على تقويض السقف المسجونة تحته.. إنها تصنع ثقوبًا بين الحين والآخر تقفز عبرها لتمشي في الشارع، تقطعه جيئة وذهابًا، تنتقي ضحايا مثاليين، ترسلهم إلى الأسفل مع الباقين.. وهكذا، فإن هناك الكثيرين ضاعوا في هذا الشارع دون سبب. يختفون في أماكنهم، في قلب الظهيرة.. ولا يعودون للظهور.

هل تكون أمها سقطت هنا؟ ابتلعتها فوهة لدى توجهها إلى المبغى أو خروجها منه، وصارت الآن واحدة من آلاف المأسورين تحت قدميها؟

تشعر بالأرض تتململ، ستختفي الآن، ستسقط في الهوة المخيفة المعتمة للبئر السحيقة لتبدأ نضالاً جديدًا، ضد شبح شخص واحد لا يزال يخطو فوق الأرض.. لكن حتى لو حدث ذلك، لن يعبأ، لن يسأل أبدًا عنها أو يتذكرها.. ولن تستطيع أن تسقطه.

كلوديا

يبدأ العرض.

30 أبريل 1908.

يجلس الشاعر في الصف الأول، أمام عينيها. بجانبه فتاة (تبدو مصرية)، تقريبًا على الهيئة نفسها التي صارت عليها كلوديا، (هل تتقمص دور أمه في عرض آخر؟ المصرية أيضًا ترتدي فستانًا حقيقيًا لخاريكليا رأته في الصور، بتصفيفة شعرها في الصور، بقرطين رأتهما في الصور).. لكن الجالسة بجوار الشاعر (الملتصقة به) خاريكليا صغيرة، أم أصغر بكثير من ابنها، أكثر شبابًا وبمسام جسد مفتوح، تلتصق بابن يكبرها، يصلح أبًا لها، مرت الحياة على عينيه قبل أن تولد.

تفكر كيف أشرف ديمتري بنفسه على تجاعيدها، "أنت امرأة أخرى، في زمن آخر.. ميتة الآن"، وطلب منها أن تتحرك محنية، "على صوتك أيضًا أن يرتعش، لستِ هذه المرة بحاجة لقوة أحبالك الصوتية"، ديمتري هو الأكثر شبابًا من الشاعر، في نحو نصف

عمره. شعرت فجأة، مرتعبة، بلعبة غامضة تُحاك بالتبادل، ستكون هي ورفيقها في الحقيقة من يطالعان عرض الشاعر وأمه في الصف الأول.

مسرح صغير، علبة ضيقة، يونانيون من النخبة، أعضاء جماعة "الحياة الجديدة"، بعض أفراد الجالية اليونانية، ووجوه متطلعة من المقاعد الخلفية ليس بمقدورها تحديد كنهها. هذه الخشبة نفسها ستتحول بعد ساعة إلى منصة، كلمات حماسية، بعض الأشعار، إظهار نسخ العدد الجديد من المجلة. ستون دقيقة، ستهبط بعدها لتجلس وديمتري على هذه المقاعد، هل سيكون الشاعر راضيًا، أم غاضبًا عند إسدال الستار؟ (تحرق النيران كل شيء وهو يعانق أمه، العناق الذي يسبق المضاجعة).

تصعد أولاً على المسرح. تصفيق قليل، تصفيق نخبة لا تستجيب بسهولة لتلك الأعراف المبتذلة بالتصفيق لشخص لم يعرفوا بعد ما الذي يستحقه منهم. إنها مَيِّتة منذ اللحظة الأولى. شاحبة، تتقدم ببطء حتى تصبح على حافة الخشبة، رافعةً قطعة زجاج أمام عينيها، مرآة صغيرة وعرة الحواف، وتنطق زائغة.

"في اليوم الذي مت فيه، حلمت بقسطنطين، غير أنه لم يكن لدي متسع من الوقت لأسرد له تفاصيل ذلك الحلم الأخير.

رأيته يضاجعني، ولو قُدِّر لي أن أعيش يومًا آخر، لحوَّلت هذا الحلم إلى واقع. لقد قاومتُ جسده بما يكفي، كي أبقى أمًا له..

غير أن هذا الحلم الأخير بدا لي إشارة من الله بأن لحظة الإثم تلك ستكون لحظة تكفير.. فقد فكرتُ في ذلك إلى الدرجة التي صار معها وقوعه حدًا لأفكاري التي كانت تبلل، بسيولتها ولزوجتها، ما بين فخذي.

في الحلم أطلب منه أن يلتقط لي صورة. يمتثل، لكنه عندما يخفي وجهه خلف العدسة، ينتزعه بسرعة، كأنه رأى وجهًا آخر غير وجهي، أنهره، فيعود ليختبئ، ثم يمد لي يده المرتجفة بصورة، أراها صورةً لفرجي، أصفعه، وأطلب منه صورة جديدة، يقدم لي صورة لمؤخرتي العارية، أطلب منه أن نتبادل الأدوار، بمجرد أن أنظر في العدسة، أرى قضيبه منتصبًا في عيني..".

يتململ الشاعر، لقد هزمته بحلمها الأول الصادم، (أم فاجأته بموتها؟).

أكد عليها ديمتري أنها لا بد وأن تنجح في ذلك الدخول الموحش لصوتها، لحلمها الكابي، لقامتها المنبعثة من مقبرة.

"لكي تأمني شره، انظري مباشرةً في عينيه، تحدثي إليه، وصوبي مرآتك نحوه ليرى فيها بقايا وجهه، بعيدةً مشوشة، لأنك لو تحاشيت ذلك، لو شعرتِ بالحرج من وجوده، لو احتسبتِ لغضبه أو ضيقه، ستسقط الكلمات من فمك بصحبة أسنانك، مهشّمةً وغارقةً في الدماء".

تتجه نحو السرير في أقصى يسار الغرفة، تاركةً مرآتها تسقط،

تتهشم، (لقد تحطم وجهه)، تتمدد، مغمضة العينين، كأنها ماتت مجددًا، ليدخل هو. فور اقتحامه الخشبة، متجهًا لأقصى اليمين، ستُفتح جميع النوافذ.

"في اليوم الذي مت فيه، حلمت بخاريكليا، غير أنه لم يكن لدي متسع من الوقت لأسرد لها تفاصيل ذلك الحلم الأخير..".

يسرد الحلم نفسه، (يفاجأ قسطنطين بنفسه ميتًا، ويفاجأ بحلمه السافر بأمه)، ثم يتجه نحو الفراش ويرقد بجانبها.

يد قسطنطين (ديمتري) تتحرك في شعرها، كأنها تبحث فيه عن عملة مختبئة. تحت الملاءة، ولأول مرة، تغوص يده في فرجها، أي جنون ينتويه هنا؟ أي تعبير يريده أن يرتسم على وجهها مفاجئًا جسدها بغدر غير متوقع؟ تريد أن تقول له "لم نتفق على ذلك، ولم أكن لأمانع لكننا لم نتفق، أي صرخةٍ تريدها أن تهز أعماقه؟".. تتأوه ويتقلص وجه الشاعر، والقصائد تُقذف من النوافذ الثلاث الموزعة على المسرح، كأن يد الريح من تُلقي بها، هكذا كان يريد، وها هو ما يريد يتحقق، (في تطوحها، ابتعدت بعض القصائد، استقرت تحت قدميه، ورأت وجه ابنها المصعوق، إنها قصائد حقيقية، بخط يده، انحنى والتقطها، بدافع الفضول فقط في البداية، لكنه امتقع وهو يرى خط يده). الكورال ملتزم بتوقيت الإلقاء بالقصائد، (قصائده الجديدة، غير المكتملة، التي لم يُطلع عليها

أحدًا، وقصائده الأولى، خجله المدمر).. الشموع تلتهم القصائد، تل نار يتراقص أمام عينيه. كيف لا يزال ملتصقًا بمقعده وهو يرى عريه وخسارته؟

تدخل راقصة شرقية، (تلهيها للحظات عن تتبعه وقد تجمد في مكانه)، تحمل شمعدانًا مضاء على رأسها، وتهتز، تدوس على الأوراق بقدميها الحافيتين، كأن النار المشتعلة في رأسها ليست خطرًا، لا يمكن أن تندلع في حواسها. (فاصل أصر ديمتري على وجوده، إيقاع وحشي، مربك عن عمد، يغزو توحدهما، تدخل من أقصى اليمين وتخرج من اليسار، ثم تعود بعد دقائق من اليسار لليمين..) شبه عارية، وثمة جرح في ذراعها الأيسر، أثر احتراق. موسيقى عثمانية تجبر على التلوى، على التمرغ في الأرض. موسيقى تلائم جارية تتفنن في إهانة نفسها. ينظر لها الشاعر الوهمي بشغف. نظرة رجل شاركها الفراش مرة على الأقل، مثلما ستشاركها هي الفراش. (قررت كلوديا في لحظة، وستنفذ قرارها). سترقص لها هذه المرأة وحدها، تشتعل أمامها هي فقط. دمية معدة للحياة، ثمة يد غير مرئية تحركها.

تتذكر كلوديا حلمًا، في المسرح نفسه، لو حكته لديمتري لابتهج، كيف نسيت أن تسرد منامًا أثناء ليلة كاملة في سرير؟ دمية لها وجه تعرفه، بتجاعيد كثيرة وعروق نافرة. يمسك ديمتري بخيوطها، دمية شاعر، ضئيلة وهشة، لكنها كتجسيد حي. كل بضع لحظات

يدس نصلاً رفيعًا في جسد الدمية، فتتفجر دماء منها.

يد قسطنطين تتشممها من جديد، تتحرك بطيئًا تحت ملابسها، ربما يريد أن يشبع فيها دفئًا، لكنها تبترد.

تنتهي الراقصة، ويحل صمت، (ليس صمتًا، بل أصداء الموسيقى العثمانية الصاخبة، مزيج من حزن وفرح). يعودان للجلد المتبادل، ويوشك اشتعال صفوف الشموع اللامنتهية أن يكتمل.

تبقت شمعة، سيشعلها ثم يضع نفسه، لمرة نهائية، تحت الغطاء، يجثو فوقها، يخفيها في عناقه، ويعيد فمه إلى أعماقها.. مع انهمار سطور أخيرة..

لأنك حين ضيَّعت حياتك في ذلك الركن المنزوي

ضيَّعتها في كل مكان فوق الأرض..

لكن الشمعة النهائية، أضخم الشمعات، باللهب المبيَّت المستعر، توقظها اليد وتقبض عليها، ترفعها بدلاً من أن تتركها في مكانها، وتُدوِّم بنارها الهواء، ثم تترك شعلتها تتمدد في الملابس، وترى كلوديا، في فراشها، ديمتري، وقد تحول إلى كرة لهب هائلة تعدو باتجاه المقاعد.

عبد الفتاح

يهزه عبد الفتاح، فيفيق من حلم.

ألا تزال المدينة موجودة؟

أصبح ينام على مكتبه، دافنًا رأسه في ذراعيه، يدخل توتو، حاملاً الجرائد، يعبر صفوف المكاتب الكئيبة، والعيون المستغربة، ليوقظ اليوناني الذي يعمل هنا، كما يقول، "كاتبًا مؤقتًا في مصلحة الري". لا يفهم توتو معنى ذلك، ولا يستوعب أن ينزل اليوناني في الصباح المبكر إلى ذلك المكان المقبض ويغادره بعد الظهر، هو يفهم فقط أنه أصبح أكثر احتياجًا للمال، رغم أنه يعمل في البورصة.

لم يجده مرة مفتوح العينين في ذلك المكان، ويلحظ أنه يتعامل مع بقية الموظفين بجفاف. يصعد بالجرائد، لكن الكلمات التي يتبادلها معه همسًا، وتمتد لدقائق، ما لبثت أن جعلت شائعات صغيرة تتناثر، عن علاقة تربط الموظف اليوناني الشاب بالمصري قوي البنية. سبعة جنيهات إسترلينية يحصل عليها قسطنطين، قادرة، مع بعض

المفاجآت السارة في مضاربات البورصة، على جعله يستمر في الحياة، لكنه ليسَ بحاجة ليسرد لتوتو كل هذه التفاصيل. مات بيتر، ثاني أكبر أشقائه، والذي ظل يتكفل تقريبًا بنفقاته الحقيقية طيلة السنوات الفائتة، متحمسًا لاستمراره في الكتابة.

يستيقظ، بعينين دمويتين، يفاجئه الوجه الحنطي بذقنه النابتة الخشنة، ويلتقط الصحف من توتو على عجل. يخبره ألا ينتظره في الشقة اليوم مثلما اتفقا بالأمس، "سأقوم بجولة طويلة في المدينة".

حلم أخيرًا ببيتر، هنا بالذات، في رقدته المؤلمة على مكتبه، وبين الجدران العارية للمكان الذي ظنه مجافيًا للأحلام.. وشعر عندما نهض برغبة لا تقاوم في القيام بنزهة طويلة، كفَّ عنها (منذ دهور).

رأى نفسه جالسًا في شرفة مصلحة الري، على كرسي هزاز، في الليل، لا وجود لشخص غيره، تركوه وذهبوا، وأغلقوا الباب عليه. يحدق أمامه، فيرى الإسكندرية تغرق. الشوارع تذوب ملامحها ويسيل إسفلتها كالشمع متجهًا إلى البحر في تيار داكن جارف. تسبح الأسماك وكافة المخلوقات البحرية في طرقات المدينة التي صار إسفلتها مجرد قاع للبحر الجديد.. وتتمشى الهياكل العظمية للقراصنة والغرقى القدامى بقاماتها الأطول من أعمدة الإنارة.. بينما الأمواج العنيفة تصطدم بالعتبات وواجهات البيوت في هدير مرعب، تاركةً الزبد الأبيض يتسلق الشرفات لينام داخل البيوت.

يرى سكان الأدوار العليا يخرجون إلى شرفاتهم ليقفزوا، تفاديًا للغرق في البيوت، فيكتشفون أن البحر قد انتقل بأكمله للشوارع.. ولم تعد هناك فرصة واحدة للنجاة. وعندما يجازف البعض ـ ممن يجيدون السباحة ـ بالقفز، طمعًا في النجاة، باتجاه البحر الذي جف الآن وصار اليابسة الوحيدة المتاحة.. تلتهمهم الهياكل العظمية سريعًا. السفن الضخمة التي غرقت ذات يوم تجثم فوق الماء بأعدادٍ لا نهائية، وعلى مرمى البصر، يلوح قاع البحر الذى خلا تمامًا وقد تحول إلى صحراءٍ شاسعة من تراب ناعم داكن الخضرة، راحت الشمس تجففه من بقايا الماء العالق به.. ويبدو مشهد الكلاب والقطط التي طفت فوق الماء هو الطقس الأغرب في كل ما حدث، فلم يتوقف النباح ولا المواء رغم تحلل أجساد الحيوانات النافقة.. بل تصير أصواتها أكثر حدة ويملأ صداها الجنبات ليضاعف من الرعب.

المكان الوحيد الذي لا يهاجمه الماء، هو ساحة المقابر اليونانية بالشاطبي، رغم أنها تظهر في الحلم خالية تمامًا، خلاء تصفر فيه الريح. يراها من مقعده قريبة ويرتعب فجأة لمقابر الأسرة التي اختفت، لكن أخاه بيتر يظهر فجأة، هيكل عظمي غير أن وجهه كما هو، يعاتبه، "لقد أسرعتم بدفني قبل أن تتحققوا من موتي". يهم باحتضانه لكنه يمنعه ويخبره أن السلطات الإنجليزية نقلت مقابرهم من مكانها إلى حي بعيد عن البحر، لتضع مكانها عددًا من

بوارجها، وبعثت ببرقياتٍ إلى أفراد الجالية اليونانية تخطرهم فيها بالذهاب لتسلُّم رفات ذويهم. يقول له لم أتلق شيئًا، فيصفعه بيتر بقوة، لأول مرة يصفعه، ويقول له بل فعلوا بينما كنت أنت مع توتو لا تفكر إلا في مؤخرتك.

يقول له بيتر، هيا نطمئن على رفاتنا في مكانها الجديد، يخبره أن الباب مغلق والشوارع غارقة، فيمسك به بقسوة ويقفزان من الشرفة. يفتح مقبرة أمه أولاً، ويفاجأ بأن جسدها كما هو، لم يتحلل.. قامتها فقط طالت في كل سنين الموت حد أنها التفت حول نفسها مرات، وصارت كالأنشوطة. يبدأ في محاولة تخليصها من نفسها غير أن ذلك يبدو مستحيلاً، يفشل في حل أي عقدة من خيوط قامتها الغليظة، فيفعل الشيء الوحيد الممكن: يجردها من ملابسها. يفاجأ، مرة بعد أخرى، أنه كلما نزع عنها فستانًا وجد آخر تحته.. يظل ينزع عنها أقمشتها ولا يصل أبدًا إلى عريها.. وفي لحظة تأخذ المرأة في العدو، زاحفة على بطنها.

عند مقبرة أبيه، يجد رجالاً كثيرين، ورغم أن ملامحهم مختلفة، إلا أنه يفشل في معرفة أي هؤلاء الرجال المتكدسين هو صانع وجوده؟.. كأنه يطالعه بعيني طفولته، في أنحاء البيت، وهو يتعقب الوجوه، يتفرس في الملامح، ليعرف أي وجه، أي قناع من بين كل هؤلاء، يملك العينين اللتين تخصانه. يعثر على أوراق مالية كثيرة، وكبيرة.. كتُبَت عليها جميعها قصائده.. لكن بيتر جون أخيرًا

ينهض، ويصفعه هو الآخر، "كيف تترك أمك تهرب؟"، قبل أن يترك قدميه خلفها.

على البعد يرى جسد أمه الملفوف على نفسه يزحف كثعبان شديد الطول، يتبعه الهيكل العظمي لبيتر جون، الممسك بجسد هيليني الصغيرة الذي لم يتحلل. يهم بأن يتبعهم، لكن بيتر يمسك به ويقول "هل ستتركني وحدي؟"، وبقوة يهبط به إلى المقبرة المفتوحة ويلصق نفسه به.

لن يحكي لتوتو الحلم، بل إن ملامحة ستتقلص عندما يفتح عينيه على وجهه الغائم. بمجرد أن يرى عينيه سيتذكر عتاب أخيه له في المنام، وسيظل لدقائق منقبضًا من المِصري الذي ألهاه عن إنقاذ تراب ذكراه. رغم ذلك، يتذكر بامتنان اقتراحه العفوي المتكرر كلما سرد له حلمًا بالموت.. "لتقم بنزهة في الأماكن التي تحبها".

لأتشبث بالمدينة الحقيقية كي أطرد الوهم.

يقذف بنفسه في مدينة الظهيرة، المجففة بحيث لا يمكنه استعادتها إلا تحت الشمس، للِّيل ذنوبه، ومدينته.

فقط. في النهارات. يمكن أن أبتعد عن المدينة. بالإمعان في ذكراها.

مقابر الجالية اليونانية. (في طفولته كانت رحلة أقرب لنزهة، متشبثًا بيدٍ صارمة لخاريكليا لا تلبث أن تنفرج عندما تغزو الرفات

وجدانها وتذرف الدمع الذي لا تحبه). لا تزال الشواهد في أماكنها. جميع الرفات في أمان. شعر بارتياح، كأنه اكتشف أنهم لم يموتوا.. لكن شعورًا بالندم سيطر عليه وهو يواجه مقبرة بيتر. لم يزره منذ دُفن، كان يستحق صفعة المنام التي لا تزال تؤلم صدغه. همهم بكلمات اعتذار ولم يجد ما يفعله غير ذلك. كان حلم الظهيرة لا يزال جاثمًا على صدره، وحقد من جديد على توتو الذي يلتهم ماله، ويجد دائمًا مبررات صامتة ليحصل على مقابل لكل الخدمات التي يؤديها، سواء شاركه الفراش، أو التقط له شخصًا، أو قام بتنظيف البيت. أحس فجأة أنه أصبح مكرسًا للوفاء بنفقات توتو، وأن أخاه ظل يهدر ماله على ذلك المصري.

غادر الهواء الشاحب مختنقًا، وقرر أن يخفف عن نفسه بنزهته القديمة التي كف عنها.. هل يتوجه للمتحف اليوناني الروماني، ضياعه الشخصي؟ اعتبره دائمًا رهان مخيلته الأصعب والذي بسببه أصبح يتحاشاه: أن يدخل مرة ليجد كل هذه الأحجار تلهو. يرحب به تمثال ضخم بلا رأس لهرقل، يقوده، كأنه يمسك بيده، إلى لوحات وجوه الإسكندر، عملات بطلمية، التماثيل الهائلة لماركوس أوريليوس، ودقلديانوس، سيرابيس، مومياوات فرعونية. حفظه بغرفه الاثنتين والعشرين، ما زال يندهش من تلك المتاهة التي يحفظها وكأنها بيته.. يشعر أن الأحجار فقط ما ينبض في هذه المدينة دون أن يتوقع منه أذى. لكنه يعدل عن الفكرة، يخاف فجأة،

سيضاعف ذلك المكان بالذات من الوهم، أريد مكانًا مفتوحًا، حتى لو وقعت الكارثة أستطيع أن أنجو.

قلعة قايتباي، يجد نفسه يردد الاسم وقبل أن يفكر يكون قد اخترق هواءها. مقبرة فوق الأرض تلائم الصباحات، تشبه (بصورة غامضة لكن أكيدة) تأرقات النوم المجافي، تسبح في الشبورة التي تجعل منها مكانًا نصف حقيقي، وقد فقدت أنيابها، حصانتها التي كانت، وركعت أليفة، كحيوان حجري جرى ترويضه بمعول الأبدية.

يتجول في طرقاتها المبلطة، وجلاً، أن يُفاجأ من جديد بعبير بارود يتأهب كي يُغرق سترة المدينة الواسعة. شبه جزيرة مهملة ومنسحقة. في بقعة ما، كان ينتصب ذات يوم الفنار، يطل على بحر الليل بمعجزاته السرية. لا تزال ذكراه ماثلة، كأنه كان مكانًا مقدسًا، مرشدًا للروح. يغيب في طوابقه الأربعة، (تمنى أن يقطعها مستسلمًا للسحر).. بدءًا بطابقه السفلي المربع المحتشد بالنوافذ، ونحو ثلاثمائة غرفة، كيف يمكن تخيل ذلك! يردد كثيرون حكاية مرعبة، عن موكب فرسان زار الفنار، وما إن دخلوا متاهة الغرف حتى تاهوا وتفرقوا، ثم بدأوا في السقوط إلى فج عميق مسدود، واحدًا بعد الآخر، ليختفوا بعدها إلى الأبد. يجرب أن يكتب قصيدة، لا تكتمل، قصيدة مفقودة كلما كتبها اختفت.

عبرْ السلم الحلزوني، ذلك الإلهام المستقل، يبزغ الطابق الثاني، ثُماني الأضلاع، يغمره السلم الحلزوني من الداخل بشكل كامل، فوقه، الطابق الثالث الدائري، وفوق ذلك كان الفنار. يتحدث الزائرون عن مرآة غامضة على السطح كانت أروع من المبنى نفسه (حدثته عنها أمه، أي صورة كانت تلهمها؟). الآن يفكر أيضًا، مرآة!. تصفها بعض الروايات بأنها مصنوعة من زجاج مزخرف بأناقة أو من حجر شفاف.. كان ثمة رجل على الدوام يجلس عندها ليستطيع بواسطتها رؤية السفن في البحر والتي كانت غير مرئية للعين المجردة". هل حقًا أصابت تلك المرآة الإمبراطور الروماني بالجنون؟. فشل في الهجوم على مصر بسبب المرآة السحرية، التي اكتشفت سفنه فتم تدميرها. فكر الإمبراطور أنه يجب أن ينتقم من المرآة.. فأرسل ممثلاً له تمكن من كسب ثقة الخليفة.. أقنعه بأن كنوز الإسكندر مدفونة تحت فاروس، فبدأ الخليفة على التو في أعمال الهدم.. وقبل أن ينتبه العقلاء والعلماء من أبناء الإسكندرية للكارثة كان الطابقان العلويان قد سقطا في البحر، فباتت فاروس مبتورة، وبلا مشعل.

يشرد، مجسدًا في خياله صورة التمثال الذي كان ينتصب على هامة الفنار، "بوسيدون" إله البحر، الإغريقي الذي يكتب مصائر الماء، يتوج أربعمائة قدم مرشوقة في الأرض. يستشعر غرقه في البحر، كيف يغرق إله البحر في البحر الذي شقه بأنفاسه وإرادته؟

كيف لم يحمِ الفنار؟ كيف لم يغادر القاع بعد سقطته المدوية؟ يقولون إن إصبعه كان يتتبع مسار تحرك الشمس، يتحرك في معجزة لا يمكن أن يصدقها إلا من رأى سبابته المتحركة.. كان يصدر صيحات شجية ناعمة طيلة النهار، تتحول إلى إنذارات مرعبة مع حلول المساء، ويعرف جميع بحارة تلك الحقب التي كان فيها الفنار موجودًا، تلك الأغنيات المنسالة من حنجرة إله البحر.. مثلما يعرفون الآن، تلك التوسلات النابعة من الأعماق.. من جسده الغريق المسجى الباحث عن منقذ. إله يبحث في نهاية المطاف عن يد ممدودة، يد بشرية، كانت مهمتها الوحيدة أن تتضرع. يهيأ له، وقد غاب في السحر، أنه يسمع أنينه المتحشرج في المكان الذي لم يُودِّع بعد كل أسراره القديمة.

لكن برودة الصباح المبكر لا تلبث أن تنسحب، ينقشع الضباب المخاتل، وتلوح شمس لينة، ترد جميع الأشياء إلى الواقع.

يُفاجَأ بالغروب، دائمًا، كضيف ثقيل على حياته يرفض التوقف عن الزيارة.

يمكن الآن أن تختفي مدينة المرايا.

يودِّع مدينة اليقظة (هل تأكد أن المدينة لم تتبخر؟)، لكن كل الهة النهار لا تلبث أن تذوي، وهو يستقبل ليلاً كالملاءة في شوارع المصريين الفقيرة الضيقة، يعبر أزقة ثعبانية متكسرة. لا وجود

لتوتو في الحانة، ولا المقهى، يقرر أن يصعد للشقة الفقيرة، ربما كان هناك.

يطرق، لكن توتو لا يفتح، ثمة أصوات بالداخل، ليس في حاجة لأن يتأكد، والنور مضاء، يتسلل من تحت الباب تاركًا أثر خيانة بين قدميه. بكل قواه اليائسة يطرق، لتكن الفضيحة، ليكن الجنون القادر على تدمير أي سر في طريقه، وأخيرًا يفتح المصري، مخطوف الوجه، وقد خشي نوبة جنونه. يدخل مباشرة، ويرى شخصًا، يحاول القفز من نافذة، لكنه يهرول نحوه، وقد استعاد رائحة قديمة غامضة لرجل شاركه فراشه ذات يوم.. يلحق به فيرى الوجه الذي لم ينسه يومًا، اليد التي استقرت على جمجمته ذات يوم، في هذه الشقة نفسها، وجردته من كل شيء، يشم رائحة الكحول الرخيص الملتصق بقاع الفم، كأنه ولد بتلك الرائحة.. يتلمس الخريطة القريبة للجسد القوي الجميل الذي غدر به وفر، ويتذكر توتو، المطرق الآن، المرتعش بعينين مخبأتين، وهو يقسم ليلتها أن يبحث عنه لينتقم.

وابتسم قسطنطين، رغم كل شيء ابتسم: لقد عثر عليه المصري إذن، وانتقم.

فورستر

كلما تقدم في كتابة المدينة، يفقد جزءًا منها في الواقع.

عندما ينتهي من كتابة شارع لا يعود للسير فيه، وكلما أحكمت المدينة خرائطها في ذهنه يتوه فيها أكثر، لكنه الآن يكتب عن الحدائق، حدائق الإسكندرية، وهمٌ آخر، متنفسات قاتمة، لها عبير فقدٍ غامض. هل ستختفي بدورها من وجوده عندما يكتبها؟

هذا الكتاب سينتهي بي وقد فقدت الإسكندرية للأبد. كأنني أفرغها من أحشائي.

رأى المساء يتحرك خلف زجاج النافذة، وفي هذه اللحظة فقط أدرك أنه ظل محنيًا منذ الصباح على الأوراق. حاول أن ينهض وشعر بألم شديد في عموده الفقري، واحتاج دقائق قبل أن يعود ظهره لاستقامته.

ماذا بوسعه أن يفعل؟ قبل ذلك كان بإمكانه أن يذهب لمحمد العدل عند ذلك المقهى الغريب الذي يدمنه المصري، الطريقة الوحيدة ليلتقيه طالما لم يتفقا على موعد.

يتذكره الآن، جالسًا عند قدميه في الحدائق، يكاد لا يجرؤ على أن يواجه عينيه، سيد وخادم، إنجليزي مثقف متحضر ومصري بائس أسنانه ملونة ببقايا الشاي الثقيل وأثر سحابات الدخان. كأن بقاء الملابس شرطًا للعبودية، ينقلب عندما يتجردان منها، فيصبح محمد رجله. ليس لمحمد من عالم تقريبًا خارج عربات الترام. وحتى وهو يتخبط بين مقاعدها، فإنه لا يواجه النوافذ. كأنما يتحاشى رؤية الإسكندرية. هل لذلك المصري علاقة بالكتاب الذي يسجن فيه الإسكندرية؟ هل منحته المدينة ذلك الشخص ليحرس وحدته ويضاعفها؟

تأتي العينان. الدمويتان بعد نوم سيئ. في الأيام التي سبقت موته لم يعد المصري ينام.

"لماذا؟".

"إنه حلم سيئ لا يمكن أن يُحكي. نحن المصريون لا نحكي أحلامنا السيئة لأحد لأن كشفها يعني أنها ستتحقق في الواقع".

"دعك من ذلك. أخبرني. أنا لست أحدًا".

ويتيبس المصري. كأنما فهم العبارة حرفيًا.

إنه حلم سافر حتى إن محمد يبدو ميتًا من الخجل وهو يرويه. يرى فورستر يشعل النار في جسديهما بينما يتضاجعان. ويتفحم

جسداهما. ما يخشاه محمد ليس الموت احتراقًا، وإنما الفضيحة.

يرتجف فورستر. يتجرد من ثباته الزائف، ويتمنى لو لم يلح في طلبه. يشعر بألسنة النار التي تلتهمه وقد خرجت من الحلم لتتعلق بملابسه، فينفض جسده بسرعة بينما تعبر رعدةٌ قفاه. بدأ محمد يذبل، كأنه أصيب بمرض غريب، في الروح. صار يذهب كثيرًا إلى المقابر، وينظر في عينيه مباشرة بعد كل مرة كأنه سيُلقي في وجهه بقراره الحاسم، ألا يراه ثانية، لكنه لا يفعل. عندما يقرأ نظرة التوسل في العينين الملونتين، الموت سيفعل دون استئذان.

من أجله فقط، أقدم على التنازل الأكبر في حياته، أن يحكي رواياته بقدر غير هين من التبسيط والمباشرة والحرص على الإمتاع. كان محمد شغوفًا بمعرفة تفاصيل القصص التي يكتبها، يسأله بِبَله عما يكتب، والهدف منه، وإن كان حقيقيًا أم من وحي الخيال، وترجاه كثيرًا، ألا يكتب ما حدث بينهما ذات يوم.

كان يبادله بين الحين والآخر نظرة تواطؤ، أو ربما كراهية مكتومة، لكن الحدائق تنقي المناطق الداكنة في القلب. يحب محمد الحدائق، استغرب ذلك في البداية، مصري فقير يهوى الجلوس على العشب؟ المقهى لليل فقط، ليل الشتاء العاري.

بينما يستدعي الحدائق في كتابه، يتذكر الجلسات البريئة، كصديقين، فقط كصديقين. حدائق النزهة وأنطونياديس، التذاكر

النحيلة. بقروش قليلة. بركة البجع القريبة حيث يكتفي محمد بالتحديق والتمتمة في سره: "لا إله إلا الله". بينما أسمعه هو سطورًا لقسطنطين..

ينادي من جديد.

انظر.

شيء أبيض.

يظهر في الأفق.

يظهر. يظهر.

إنه بجعة.

آه. يا لسوء حظنا. آه. يا لسوء حظنا.

حين يستدير الملك إلى المنادي.

لا يبدو على محمد أنه يفهم ما يقال بتبجيل كأنه كلمات مقدسة. ملك ومنادٍ. فورستر ومحمد.

كيف للمصري أن يستشعر بارقة القدر التي جعلت شعر رأس الإنجليزي يرجّف؟

يفكر أن يرتدي ملابسه ويخرج، لكنه يجد جورج فالسوباولو المفزوع في مواجهته. مفاجأة غير متوقعة، هل أنهى ترجمة القصيدة؟ لكن الضيف لم يمنحه الفرصة ليسأل.

"كيف يتعامل مع نفسه على هذا النحو؟ إنه شخص يتفنن في إهانة ذاته..".

بدا الزائر منفعلاً.

"شعرت بشيء غير مريح عندما عرفتني عليه لأول مرة يوم عيد ميلاده.. لكنك طمأنتني.. وعندما لبيت دعوته لزيارته في بيته فوجئت بسوقيته.. هل تتخيل أن يقترب منك شخص ويضع يده على قضيبك بتلك الطريقة المجانية؟ والأفدح أنني عندما نهرته لم يخجل.. بل احتضنني بسرعة وقبلني.. كأنه مجنون لا يشعر..أي شخص يمكن أن يكونه ذلك اليوناني؟".

يكاد فورستر يموت من الخجل، وفي الوقت نفسه، يندهش من استياء فالسوباولو العنيف، يريد أن ينبهه إلى أنه يتحدث عن شاعر، شخص غريب الأطوار، نصف مجنون.

يضحك فورستر رغم ذلك، كأنما اتخذ قرارًا لحظيًا بتحويل الكارثة إلى مزحة، ليخفف من وقعها على نفسه بالذات. يتأمل وجه فالسوباولو الممتقع، ويعبر جسده النحيف المتخشب بسرعة، بينما يفكر، ما الذي جذب قسطنطين إليه؟ له عينا صقر مذعورتان وأنف معقوف وشفتان دقيقتان. إجمالاً، ليس فالسوباولو بالرجل الجميل أو الذي يسهل اشتهاءه، خاصة مع رقبته البجعية التى تتخللها عروق زرقاء نافرة وغليظة وجسده الهش الذي تَبَّدى دائمًا لفورستر حفنة من العظام تم لصقها. غريب قسطنطين، ويفتقد

للحذر، كما لو كان يعاقب نفسه عن عمد، يفقد هيبته طواعية أمام من يعمد إلى تبجيله. لعل فالسوباولو بالغ في توقيره، فقرر أن يهدم، في لحظة، كل شيء.

"على العكس يا صديقي.. أرى أن ما حدث نقطة إيجابية تمامًا في سياق ترجمتك له إن كنت حقيقة تنوي الاستمرار في مشروع كهذا.. أنت تتشدق كثيرًا بضرورة أن يقترب المترجم من الكاتب الذي يعمل عليه.. ولا يبدو لي أبدًا أن الاقتراب من فنان سيكون نعيمًا على أية حال.. ما الذي تنتظره من شاعر؟؟ ما العلاقة التي كنت تقصدها إذن؟ تعارف مهذب وإطراءات متبادلة؟ لو كان هذا ما تقصده أو ما تريده فلا أنصحك أبدًا بترجمة شاعر.. كما أطمئنك في الوقت نفسه أن هذا لا يعني شيئًا ولا يختلف البتة عن الترجمة لشخص لم تره.. صدقني.. لقد منحك مفتاحًا.. فرصة لا تعوض.. كي تترجم قصائده مثلما كتبها بالضبط.. أعتقد أنه في تلك اللحظة كان يفكر فيك ككفافيس إنجليزي!".

لا تعكس نظرات فالسوباولو سوى عدم تصديق، وربما نوع من التأفف.. ويكاد يقول لفورستر "أنت تدافع عنه لأنه يشبهك".. لكنه يطرق مجددًا.

لا يزال يشعر باليد التي تمتد فجأة من سكون الجسد لتقبض على قضيبه، كأنها تود أن تخطفه. عندما نهض مفزوعًا، ظل قسطنطين

ينظر إليه باندهاش، كأنه لم يتخيل أن يكون هذا رد فعله. تحرك بسرعة، وغاب في عمق الشقة، كأنه يمنحه فرصة للخروج الآمن دون مواجهة محرجة. لكن فالسوباولو لم يغادر. ظل في مكانه، يقلب في ملفات القصائد المعدة بشكل يدوي والمربوطة بخيوط واهية. جاء إلى هنا كي يستمع للقصائد بصوت قسطنطين. هو الذي طلب أن يقابله ليناقش معه القصيدة التي سيترجمها، ووافق محرجًا على لقائه، في ذلك المقهى المثير للريبة بالبداية، والمليء بالذباب والقذارة والأشخاص الغامضين الذين كان قسطنطين يرقبهم طوال الوقت بينما يلعبون الورق ويتبادلون عبارات بذيئة. يبتسم للصياح والمشاجرات، بينما كلاهما غارق في العرق الغزير الذي أثاره ضيق المقهى وافتقاره للتهوية فضلاً عن مراجل النار الموقدة في عدة أركان للنرجيلة.

قال له بمجرد أن جلسا في المقهى على كرسيين خشبيين مؤلمين: "لعله شيء مجاف للياقة أن أدعوك لنلتقي هنا، في ذلك المكان الفقير وغير النظيف.. لكني أحب وأتأثر بجمال العاديين، المهمشين والمنسيين، الشباب الفقير، الخدم، والعمال، وصغار موظفي الحسابات، وخدم المحلات. أشعر أن جمالهم تعويضٌ عن حرمانهم.. فهم غالبًا، بل دائمًا، ممشوقون، ووجوههم، الشاحبة لو كانوا يعملون في أماكن مغلقة، أو التي لوحتها الشمس إن كانت أعمالهم في الشوارع، لها شكلٌ شعري، جذاب.. إنهم يا مستر

جورج نقيض الشباب الثري الذين إما أنهم قذرون فسيولوجيًا وبصورةٍ مريضة، أو متخمون بالدهون والبقع من كثرة الطعام والشراب والأغطية.. وتعتقد أنك تستطيع، من وجوههم المنتفخة أو المجدورة، تمييز قبح لصوصية آبائهم..".

يومئ فالسوباولو وهو يهش ذبابةً كبيرة الحجم التصقت بأنفه، محاولاً أن يبدو باشًا ومرحبًا بالمكان الذي رآه الشاعر ملائمًا للقائهما. لكنه، قبل حتى أن يستجمع كلماتٍ أولى مُجامِلة، ليعلق بها على ما رآه تنظيرًا مزيفًا، فوجئ باندلاع مشاجرة في الطاولة المجاورة. أشهرت كف خشنة سكينًا، فنهض مرتعدًا، لكن رفيقه طمأنه بثبات، "لا تخف.. ذلك يحدث دائمًا.. لقد رأيت أفضل زبائن هذا المقهى وأقدمهم وهم يغادروه غارقين في الدماء ليُقذفوا في المقابر على عجل".. استغرب فالسوباولو ثباته السادي، المتعة السوداء التي رآها تقفز على وجه رفيقه الغارق في السكينة.

"نعم.. سكينة.. لا يمكن أن أدعوها لامبالاة".

استقرت السكين بين عيني شخص ودوَّت صرخة. مع انفجار نافورة الدماء تحلق الأشخاص على الفور حول المتشاجرين.. جاء عامل ومسح طاولتهما من بقايا الدماء التي علقت بها، واعتذر لقسطنطين بإنجليزية ركيكة، فرد عليه بالعربية.. ثم ضحك قسطنطين، "إنهم يقتتلون من أجل "مليم".. تخيل؟؟.. لا أكاد أصدق كيف يتعامل المصريون مع أجسادهم باعتبارها هينة على هذا

النحو!".. .ثم أردف بابتسامة لبقة وهو يشير بيديه حوله، "بالتأكيد يصعب أن أقرأ قصائدي بصوت عالٍ هنا!".

يريد فالسوباولو أن يسأله ببساطة، "ولماذا أتيت بنا هنا؟".. لكنه يخجل، ويقبل طلب الشاعر بالتوجه معه للمنزل.

"كنت أريد أن أترك هذا المقهى القذر بأي طريقة.. وبدت لي دعوته للبيت كرمًا منه.. فقد كنت شغوفًا برؤية المكان الذي يعيش فيه.. وسمعت كثيرًا عن شروطه الصارمة فيمن يحق لهم دخوله.. لذا شعرت عندما فاجأني بالدعوة أنني نجحت في اختبار صعب.. تمثل في صبري على هذا المقهى الجحيمي بالتحديد".

قدم له كأس نبيذ مع بضع كسرات من الخبز والجبن، وأحضر قصيدة "الإله يتخلى عن أنطونيو". بدأ يقرأ بانفعال، وشعر فالسوباولو أنه قادر على ترجمة القصيدة الآن، متتبعًا ألق صوته، والصور التي يسرح فيها الشبح كأنه يراها منعكسة على الحائط العاري (هل تركه خاليًا كي تنعكس عليه شخوص خياله؟).. تجرأ فالسوباولو فطلب منه أن يقرأها مرة ثانية، ثالثة، سابعة وثامنة، وفي كل مرة كان تحديقه في الحائط يتعمق ويرى المشاهد أشد نصوعًا: كائنات تتحرك في اتساع الحائط، شاشة كبيرة مكتظة.

"قال لي: ألهذه الدرجة أعجبتك أيها الحبيب؟.. بينما يقترب بأنفه، بشفتيه، بيده.. وابتعدت أنا، بحذر، خجلت أن أرفضه بوقاحة..

وفهم هو.. لكن ليس بسرعة.. كأنه مدرب على الرفض الذي يعني القبول.. لعله اكتسب ذلك من رجال مصريين..".

لم يتوقع فورستر بعد كل ذلك، أن يخُرج فالسوباولو أوراقاً من حقيبته ويقذف بها أمامه على المكتب..

"هذه على أية حال ترجمة ما فعله الإله بأنطونيو.. لقد أنجزتها في وقت قياسي.. لكني لن أستطيع أن أعمل على شيء يخصه أبعد من ذلك.. اغفر لي".

(ابتسم فورستر. لقد تأكد في هذه اللحظة أن صديقه يكذب).

كريستينا

تقنعه بأن يستقلا زورقًا.

يرتبك أمام اقتراحها البريء، لكنه يوافق.

عيد ميلادها اليوم، وهو يفاجئها بحنان أبوي: "عليك أن تختاري هديتك هذه المرة".

يريد أن يفعل شيئًا لأجلها. لأول مرة يرغب في ذلك حقًا، يرغب في ذلك فقط.

خليج أبي قير، فردوس مفقود، برياح هائلة، تهز تماسك النخيل الضخم. يبدو قسطنطين وجلاً، كأنه يتساءل، هل يوجد شيء مثل ذلك في الإسكندرية؟ لكن فتاة النزهات البريئة تقوده من يديه، حيث ترسو مراكب الصيد، عند ذلك البروز الذي وضع عليه نابليون مدافعه ذات يوم.

يرى الصيادين الصقليين، تلك الجالية المنسية التي يعرف بوجودها لكنه تقريبًا لم يصافح أحد أفرادها من قبل. يتمركزون

في أبي قير، منسيين وخائفين من الجميع. يرى الطمي الذي أخفى بارجة "بروبه" المسماة بالشرق، بكنوزها الأسطورية، والتي فشلت جميع محاولات التنقيب عنها، حتى صارت سرًا جديدًا تحتفظ به المدينة، مقبرة أخرى لإسكندر جديد تحت الماء.

"أنت تعرف أشياء كثيرة عن المدينة من دون أن تراها.. إنها الكتب.. لكن أعتقد أنك تفتقر للفضول!".

تطلق كريستينا ملاحظاتها بعفوية. لا تشعر حتى أنها تحمل في طياتها انتقادًا أو افتقارًا للياقة، أو أنه سيظل يفكر فيها طويلاً بعد ذلك، معترفًا بعجزه، وبصدق حدسها البريء.

يتحرك بهما الزورق في المياه الضحلة، حتى إنه يشك أنهما يسيران في ماء.

"هل تأتين هنا وحدك؟".

تضحك، بفخر المراهقة.

"نعم.. وأؤجر زوارق.. لقد صرت صديقة الصقليين.. رغم خشونتهم وخوفهم من اليونانيين بالذات.. لا أعرف السبب، لكن بالتأكيد كتبك تعرف!".

يصمت، تتطلع إلى شروده بخبث المراهقة، تحدس أنها واجهته بعجزه.

"سأخبركَ بما يتناقلونه.. كل عدة أيام.. تظهر فتاة يونانية..

تأتي لتأجير زورق أو مركب شراعي.. فيقع في غرامها صياد.. يصحبها مرة واثنتين.. ثم تشده إلى الأعماق.. لقد تعبت كثيرًا حتى صدق هؤلاء المرتابون أنني آدمية ولست حورية بحر كبقية اليونانيات!".

تضحك بمرح، لكن ضحكتها، هذه المرة بالذات، ترعبه.

يشعر أنه مقتلع، أن تلك الصغيرة اختطفته ولن تعيده، أنها في لحظة ستضم ساقيها ليكتشف ذيل السمكة الفضي الهائل الممتد لأمتار، قبل أن تحمله بين يديها بقوة خرافية لتصحبه إلى الأعماق، ويصدق، بينما يتأملها، (متمنيًا لو حمل معه قلمًا ليرسم ابتسامة مكان فمه)، أن حكاياتها التي استمع لها باستخفاف بينما يعبران ببطء المياه الضحلة التي بلا موج، لم تكن مجرد أوهام يتبناها وجدانها الغافل.

يخرج من الغرق لحصنها المنسي، بقايا "كانوبس"، حول قلعة التوفيقية، التي تُحِيلُ إلى معبد سيرابيس، طلل لا يلائم تورد وجنتيها، لكنه يذكره بقصيدة.

"أبكي أبي العجوز الطيب. الذي أحبني على الدوام.

أبكي أبي العجوز الطيب. الذي مات قبيل الفجر. أول أمس.

سيدي المسيح.

إني أتبع تعاليم كنيستك المقدسة. في كل ما أفعل.

وفي كل ما أقول.

وفي كل ما أفكر.

هذا مسعاي اليومي. بل وكل من ينكرك أقطع به صلتي توًا.

أما الآن يا سيدي المسيح، فإني أندب أبي.

وأذرف الدمع من أجله، أبي الذي، ويا له من أمر فظيع أقوله، كان كاهنًا في معبد سيرابيس الذي أجحده.

أستغفر ربي".

تشده من يده، أصبحت الفتاة دليله. يتجولان بين الأعمدة، جرانيت وحجر جيري مغطى بالجص.. عامود محزز ضخم من الجرانيت الأحمر، دم من الأسمنت، لو خدشه بإصبعه ستنفجر الدماء الحية من قلب الصخر.

"سأحكي لك أنا حكاية.. لكي تعرف أنني أيضًا أقرأ الكتب!.. أنشأ هذا المعبد بطليموس الثالث وزوجته برنيس.. وبعد ذلك بسنوات قليلة ماتت ابنتهما الوحيدة، (يتذكر هيليني فجأة، يُهيأ إليه أنها ستبزغ من بين الأعمدة، ستشرق من خلف الحوائط)، عَقَد الكهنة اجتماعًا سريًا ليجعلوا منها إلهة..

يعرف أن المرضى كانوا ينامون هنا، بل ومنهم من يجعل أحد أقربائه ينام بدلاً منه، فيستيقظون معافين. أعداء المعبد رأوه معقلاً للسحر والشعوذة والفسق، وأنصاره اعتبروه مركزًا للفلسفة، أما

هو، فيرى بقاياه الآن عظام آدميين لا يمكن أن يتعرف عليها إلا من مات قبل ذلك.

يغوص في التيه، مقتلعًا من كل شيء، وأخيرًا تطلب منه أن يغمض عينيه، لتفاجئه بهدية.

"لست وحدك من يستطيع أن يمنح الهدايا".

يفعل، يصبر على عتمة اللحظات الدهرية التي ضاعفت من تيهه، إلى أن يشعر بملمس الشفتين الناعمتين على شفتيه.

لأول مرة، قبلة أنثى في فمه.

منذ تلك اللحظة، ستصير المدينة ذكرى مختلسة، سيظل يتشكك للأبد أنه عاد منها على قيد الحياة.



خاريكليا

أول شيء حرص عليه بيتر جون عندما قرر أن يعيش في الإسكندرية، أن يكون لاسمه مقابر.

كان لا يزال وحيدًا، لم تلحق به خاريكليا بعد. فكر الرجل أن المرأة الشابة ينبغي أن تجد لجسدها في هذه المدينة الغريبة بيتًا، ومقبرة. لم يكن من الصعب على يوناني ثري مثله أن يعثر على مقبرة تكفي أسرة كبيرة، تحمل اسم العائلة لأول مرة في الإسكندرية.

عندما جاءت خاريكليا الشابة، أطلعها على المقابر (ربما قبل أن ترى الشقة التي ستحيا فيها بشارع شريف باشا). ربما كان يُعِد نفسه ليكون أول جثمان يرقد تحت ترابها، من يمكن أن يموت قبله في عائلته الوليدة؟ نظرت الشابة بابتسامة متحفظة، محاطةً بالشواهد قبل أن ترى البيوت، يصلها عبير الهواء البحري، (سحرتها فكرة المقابر القريبة من البحر، المقابر التي تطل تقريبًا على البحر)، وبالتأكيد لم تكن لتتخيل أن تكون ابنتها الوحيدة هيلِيني، التي

ستستقبل الحياة بعد سنوات من ذلك المشهد، ستكون أول جثمان تنفتح له أبواب المقبرة الخالية من العظام.

بعد ذلك، وعندما صارت مولعة بالمرايا، لم تخبره بالسبب الحقيقي. تعاملت معها كنوافذ، ترى عبرها حياة المدينة التي تتوقف فجأة كلما فتحت نافذة.. فلم تكن ترى عبر النوافذ، جميع النوافذ، إلا المقابر. "هاجس غريب"، لم يكن من الممكن أن يكون أكثر من ذلك لدى رجل المال الشاب والعملي، الذي استقبل انقباض الزوجة الشابة من نوافذ البيت الرحب بمزيج من الاستغراب والاستخفاف. ومنذ اللحظات الأولى، أدرك أن زوجته لن تتصالح مع مدينتها الجديدة بسهولة، كانت تصحبه على مضض في المناسبات العامة التي يجب أن تظهر فيها كزوجة لرجل مجتمع، تظل صامتة في ثرثرات رجال المال وأثرياء المدينة المنطلقين والسعداء دون مبرر كما كانت تكرر، وشعر بيتر جون أن انشغالها بالإنجاب المتكرر كان هروبًا من المدينة، ومنه. راحت تفقد نفسها كامرأة وسط مستعمرة جراء صغيرة، كلها من الذكور، هي التي كانت تحلم بطفلة تصلح ككاتمة أسرار في المستقبل، وفي غمرة انشغاله، أصبح عاجزًا عن التفريق بين أسماء وملامح أطفاله، ولم يقل لها أبدًا إنه كان يفكر في الموت أكثر منها، ويعرف بحدس غامض أن الموت لن ينتظره إلى أن يشيخ.

وبدلاً من أن يخرج بها للمدينة، أتي بالمدينة كلها للبيت، حيث

عاشت خاريكليا، رغم أنفها، أمسيات لا تنتهي بين جدران البيت الواسع المكتظة دائمًا بالأصدقاء والضيوف، أبناء الجالية اليونانية، رجال صناعة ودين وساسة من جميع الجنسيات، وحيث صارت وحدتها حلمًا لن يتحقق إلا بموته، لتكتشف، مستيقظةً من حلم طويل، أن حياة المال كانت مرتبطة بحياته، فلم يترك الثري الشهير سوى ميراث هزيل، ولتجد نفسها، أكثر من أي وقت مضى، وحيدةً في مدينة لا تملك فيها سوى قطيع أبناء.

ذهبت إلى إنجلترا وعادت، أكثر شيخوخة ووهنًا وإفلاسًا، هربت للأستانة من القصف الإنجليزي، ممنيةً نفسها بألا تعود، لكنها أيضًا عادت. لقد صارت المدينة قدرها، وظلت تسأل نفسها، مستدعيةً دون هوادة ذكراها البعيدة، "هل سأدفن تحت هذه الأرض؟"، غير أنها، رغم ذلك، لم تكن تتخيل أن يودَعَ جثمانُها بعيدًا عن الأجساد التي حركت مصيرها: الزوج المغدور بيد مجهولة أتت عليه بسرعة (يد هذه المدينة بالذات، مدينة خوفه رغم كل انخراطه في عبثها وثرثراتها وغرفها المضاءة)، الطفلة التي لم تصدق أبدًا أنها ذهبت للتراب قبل أن تنطق، قبل أن تعرف شيئًا عن الابتسامات التي ظلت تتلقاها بامتنان غير مفهوم من أشباح لم يتجسدوا بعد لتعرف من أي مكان أتوا، وحتى قبل أن تعرف الاسم الذي منحوه لها لتعيش به.

ستدفن هنا، وليس في أي مكان آخر، لذا كانت تعرف أنها لن

تموت رغم جميع حسراتها في لندن أو الأستانة، ستظل حيةً لأن عليها أن تنتهي في الإسكندرية.. وقد قالت لابنها الصغير قسطنطين في وقت مبكر، العبارة التي سيختزنها لتصبح علامةً على علاقته بالمدينة من بعدها: "طالما ضيعت حياتي في هذا الجزء الصغير من العالم.. فستظل ضائعة أينما حللت". كان الوحيد القادر على الإصغاء لها، وعلى تصديق كلِ أوهامها، وعلى تبادل النظرات معها، كأنه يرى عينيه في حدقتيها، بينما ظل الباقون أبناءً لبيتر جون.. بيتر جون فقط، وكأنه بموته لم تعد لهم أم.

حتى جنونها بطفلتها المفقودة، أورثته له، في حكايات طويلة كانت تدين بها نفسها، مصدقةً أن الله أراد أن يعاقبها، بألا يمنحها فتاةً ظلتِ تترجاها.

"يحكى أنه كانت هناك امرأة يونانية جميلة.. جميلة جدًا.. جاءت من الأستانة إلى الإسكندرية لتعيش في بيت واسع مع زوجها الثري.. كانت تحلم بأن ترزق بفتاة.. وكلما انتفخت بطنها الجميلة كانت تسلي شهور حملها الصعبة بتطريز الفساتين.. ولكنها ظلت تلد الذكور فقط.. ومع كل مولود تقذف بالفساتين المبهجة التي صنعتها من شرفة البيت فتظل ترفرف إلى أن تصل للمقابر.. حتى بلغ عدد أبنائها ثمانية.. عندما انتفخت بطنها للمرة التاسعة.. كانت قد تأكدت أنها لن تنجب بناتًا أبدًا.. فلم تهتم هذه المرة بحياكة الفساتين.. بل على العكس.. بدأت، لأول مرة في حياتها، تصنع

ملابس للذكر الجديد القادم.. ولأنها أغضبت الرب الذي أراد أن يصالحها.. فقد أنجبت فتاة هذه المرة.. ولكنها لم تهنأ بها.. فقد ماتت الطفلة سريعًا.. جن جنون المرأة الجميلة.. وسالت منها دموع لم تذرفها في حياتها كلها.. وعندما رأتها تدخل المقبرة ملفوفةً في كفنها الصغير، شاهدت جميع الفساتين التي صنعتها من أجلها مصفوفة على جدران المقبرة.. لترتديها في العالم الآخر.. ومن جديد، حملت فورًا كي تعوض الفتاة.. ومن جديد راحت تعد الفساتين.. ولكن الرب كان قد غضب وانتهى الأمر.. فأنجبت ذكرًا جديدًا.. وقال لها زوجها، هذا ابننا الأخير، لن تنجبي بعد ذلك. قررت هذه المرة، وقد جن جنونها، أن تتحدى الرب.. فألبست ابنها الأخير ملابس الفتاة وصارت تناديه باسم الفتاة وتمنت له في سرها ألا يمنح جسده عندما يكبر إلا لرجل..".

يتطلع لها الطفل بعينين محدقتين ثم يختبئ فيها، هل حدس في تلك السن المبكرة أنها تحكي حكايتها وحكايته؟ غير أنها لم تتوقف، ظلت تحيك حكايةً تلو أخرى، بينما يتمدد جسده في سجنها. هي بدورها قررت أن تأتي له بالمدينة حتى بيته، لأن من يخرج إلى المدينة حتمًا يموت.

عندما يكبر قليلاً، لن يكون بحاجةٍ لتاريخ البيت، أو العائلة، أو حتى المدينة.. ليس عليه إلا أن يتذكر الحكايات الغامضة ويضيف الأسماء للشخصيات المُجهَّلة ليصير في مدينةٍ أخرى، سيعرف

فيما بعد، عندما يكبر أكثر، أنها المدينة الوحيدة التي عاشت فيها أمه وأورثتها له.. حتى إن مدينته الحقيقية، التي سيخرج إليها في نهاية المطاف، (مجبرًا على خيانة وصاياها، ومصدقًا أن المدينة لا تذهب لشخص في بيته إلا كي تعاقبه على جحوده وتجرده من أنفاسه)، ستبقى صورةً باهتة ترقد على مسافة كافية من الحضور المتوهج واليائس لمدينةٍ صنعها وهم امرأة لم يغادرها.

25

خمسة فصول في ثلاثة أيام، فكر، حصيلة جيدة. فقط تمنى ألا يزعجه أحد من أصدقائه بالطرق على بابه.

الهدوء الذي غمره منذ عاد إلى الشقة، كان أسوأ ما فيه انهمار الخطابات الأدبية. في السنوات الأخيرة زاد الاهتمام بشعره. ترجمت قصائده لأكثر من لغة، وكان يتلقى أشعاره، بالكلمات الغريبة لرطانات أخرى، غير مصدق. عندما توقف أمام عتبة الشقة، متعكزًا على ألكسندر، وقبل أن يفتحا الباب، كان تل رسائل ينتظر معهما الدخول. قرأ بعضًا منها، بعد التحيات المقتضبة والمجاملات المتفق عليها، أسئلة أسئلة أسئلة ولا شيء غير ذلك.. يسميها المترجمون، تقديرًا لأنفسهم ليس إلا، استيضاحات، ثم ينهمرون بلا رحمة في سيل استفهامات كانت تجعله يتساءل، مع

بعض منهم، إن كانوا يعلمون حقًا شيئًا عن الشعر. بعد أربعة أو خمسة خطابات، أصابه الضجر وترك بقية التركة الصعبة.

عندما سمع الطرق المهذب على الباب، تأرق وقد شعر أن أمنيته تبخرت.. وخاف أن يطالعه مجددًا وجه القوادة التي غادرت البيت تاركة سروالها، واضطر لإخفائه بين ملابس أمه.. لكنه بعد طرقتين تعرف على يد ساعي البريد المتقع وطويل القامة بلا مبرر، فكر ألا يفتح، لكنه مع إلحاح الطرقات استجاب أخيرًا، وزال إحباطه عندما اكتشف أنه أتى برسالة واحدة، ومن فورستر بالذات. دبت فيه الحياة قبل حتى أن يفتح المظروف، لأنه استشعر ثقله الذي يوحي بخطاب دسم وربما أكثر. أية تخمة ستصيبني الليلة!

بين الحين والآخر، يرسل الإنجليزي خطابًا شخصيًا ويرفقه بنص، وتعوَّد كفافيس أن يفكر كلما فض مظروفًا قادمًا من لندن: "لو ادخر فورستر جهده، لسوَّد بدلاً من كل هذه الرسائل كتبًا". كان يرى في كثرة الرسائل ابتذالاً للكاتب، تهديدًا لذاته التي لا يجب أن تفصح عن نفسها على هذا النحو، وهو ما ناقشه مع فورستر هنا، على هذا المقعد القريب، ذات يوم.

على الفور بدأ بالتهام الخطاب الأول، مفتشًا بين السطور عن شيء بعينه.

"خذ حذرك من ذلك الخادم، إن الخطر الوحيد الذي يمكن أن يخشاه من هم على شاكلتنا، أولئك القريبون جدًا منا حد أنهم قادرون على دس

أنوفهم في مؤخراتنا، رغم أننا أبعد ما نكون عن عالمهم. لقد قابلتُ دائمًا أشخاصًا على هذه الشاكلة، كأنهم كانوا قدري، ودائمًا كانت هناك الرغبة عند غريبي الأطوار هؤلاء في أن يجردوك من اسمك".

هذا ما انتظر أن يطالعه، لكنه لم يجد غير عبارات اطمئنان تقليدية أثارت حنقه، قبل أن يتذكر أن الخطاب الأخير الذى أرسله لفورستر كان في الواقع قبل ساعات.. وعندما كان ذلك الخطاب قد غادر يد فورستر فعلاً.

الخطاب الثاني، مسودة مقدمة لطبعة ثانية من كتاب "الإسكندرية تاريخ ودليل"، يأمل فورستر في طرحها قريبًا. لقد حطمته الإسكندرية، فبينما يحتفل كطفل بخروج الطبعة الأولى من كتابه للنور، كعزاء أخير عن جميع خيباته في المدينة التي لم ترحمه يومًا، احترقت عن آخرها تقريبًا.

ظهرت للوجود طبعة أولى من هذا الكتاب، وهذه هي الطبعة الثانية. وهنا أنتهز الفرصة لأسرد حكاية صغيرة ولكنها معقدة.

لقد وصلتُ إلى الإسكندرية في خريف 1915، في مزاج بطولي إلى حد ما، وكان يتهددنا الغزو التركي، وعلى الرغم من كوني شخصًا مدنيًا إلا أنني وجدت نفسي في خط المواجهة، وبانتهاء التهديد تغير مزاجي، وما كان في البداية مركزًا للمواجهة الأمامية، تحول بشكل مريب إلى شيء يشبه المخبأ! وهنا التصقت بها لأكثر من ثلاث سنوات، زائرًا للمستشفيات، وجامعًا للمعلومات، وكاتبًا للتقارير.

"يا لك من مثابر عجيب!" هذا ما قاله لي بجفاء ذلك الكولونيل المقيت الذي يعمل في الصليب الأحمر، ولقد كنت ذلك المثابر فعلاً، ولكنني لم أجرؤ على الرد السريع الحاسم عليه لأن ما قاله لي يحتمل معنى المتسلق الذي يسعى إلى تحقيق رغباته.

لقد كنت أنا نفسي أرتدي زي ضابط أيضًا، ولكنهم سمحوا لي بأن أخلع هذا الزي بين الحين والآخر، ولذا استطعت أن أدرك سحر هذه المدينة وعراقتها وتعقيدها، فقررت الكتابة عنها وخطرت على ذهني فكرة الدليل، لأني كنت دائمًا أقدّر كتب الدليل وخاصةً الكتب القديمة منها مثل بيدكيرز وموريس، ثم حاولت كتابة بعضًا من التاريخ طبقا للأسلوب الموضح فيما بعد. ولقد شجعني أصدقائي، وكان منهم الإنجليزي واليوناني والأمريكي والفرنسي والإيطالي والنرويجي والسوري والمصري، وانهمكتُ في الحياة الشرقية، وعلى خاطري كان يرد كل ما رأيته من مناظر أثناء تجوالي بالترام أو أثناء سيري على الأقدام، أو المشي على شاطئ البحر البهيج. على سبيل المثال، كنت أضاعف ارتفاع قلعة قايتباي أربع مرات، متخيلاً "فاروس" التي كانت تقف هناك في ذات الموقع، وعند تقاطع الشارعين الرئيسيين، كنت أتخيل صورة مقبرة الإسكندر وأتتبعه في خيالي حتى سيوه، واحة كبير الآلهة آمون، حيث تم تكريسه كابن للإله، كما كنت أتتبع الرهبان أيضًا إلى وادي النطرون الموحش، حيث ثاروا وقتلوا هيباتيا.

هذا كله حسن، ولكن كيف يمكن طباعته؟ ها هو شيء من حسن الحظ المدهش يطالعني. كان هناك محل متواضع يبيع الأدوات

المكتبية في شارع شريف باشا ـ هذا إذا كان الشارع يحمل نفس الاسم اليوم ـ ولكنه في الواقع كان هو الفرع السكندري لإحدى دور النشر اللندنية، تسمى "مسز كريتهيد موريس أوف تاور هيل"، ولقد سمع مستر مان، المدير المحلي لهذا الفرع عن مشروعي، واهتم به على الرغم من كونه يقع خارج نطاق عمله المعتاد.

كان هناك الكثير من التأجيلات وبعض الاختلافات في وجهات النظر، ولكن الكتاب تم طبعه بالفعل بعد الحرب، وبعد عودتي إلى انجلترا. وبعد الطبع مباشرة وقعت كارثة، فقد احترقت الطبعة عن آخرها تقريبًا نتيجة للحريق الذي نشب في المخازن، وهذا هو السبب في ندرة نسخ هذه الطبعة. لقد كانت حقًا نكسة محزنة، وبعد سنوات قليلة، وبينما كنت مارًا بالإسكندرية في طريق عودتي من جنوب إفريقيا، ضللت طريقي بالفعل بمجرد خروجي من محطة القطار الجديدة، وكم كانت تجربة مخزية لكاتب الدليل! إنني حتى لم أتمكن من معرفة طريقي في مدينتي!.. وبدا الأمر لي كما لو أن طبعة جديدة تناديني، بالرغم من أنه لم يكن هناك أي نداء مسموع، وبالرغم من أنني لم أستطع عمل المراجعة، لكن الإسكندرية لم يتغير فيها أي شيء. لقد كانت وما زالت مدينة الأصدقاء الذين يودون في إيثار أن يُنحوا أعمالهم جانبًا كي يساعدوا الآخرين، فاستطاعوا أن يقوموا بتحديث القسم الخاص بالدليل من الكتاب وذلك بزيارة كل المواقع والأماكن التي تم ذكرها، وصححوا الأخطاء التي وردت في القسم الخاص بالتاريخ، وأشاروا عليّ ببعض التعديلات، حتى لا يثير الكتاب بعض

الحساسيات القومية لدى المصريين، ولقد كنت واثقًا أنه سوف يثير هذه الحساسيات، فنادرًا ما تكون هناك حساسيات قومية غير مؤذية، ولكن الإسكندرية هي المكان الوحيد الذي لن يتأذى من هذا الكتاب لأنها على امتداد ألفي عام من عمرها لم تأخذ أي حساسيات قومية بجدية تامة.. وهذا ما يعيدني إلى كفافيس، هذا الشاعر اليوناني العظيم الذي عبَّر بشاعرية ضارة عن مدينته المختارة، والذي كانت صداقته لي إحدى مباهج تلك السنين.

لم يكن كفافيس معروفًا على نطاق واسع، وكانت ترجمة صديقنا جورج فالسوباولو لقصيدة "الإله يتخلى عن أنطونيو" هي بداية التعرف عليه باللغة الإنجليزية، وإذا كنت أهديت الطبعة الأولى إلى "ج. اتش. لودولف" وهو واحد من الكثيرين الذين ساعدوني؛ فإنني أهدي هذه الطبعة الثانية لقسطنطين كفافيس.

وختامًا؛ فإن هذا الكتاب ليس تحية الإجلال الوحيدة التي أقدمها للإسكندرية، فهناك أيضا "فاروس وفاريلون" وهو مجلد يحتوي على عدة مقالات صدر عام 1923 عن دار النشر "كنوف" في الولايات المتحدة، وأيضا عن مؤسسة "هوجرت" للطباعة والنشر في إنجلترا.

إي. إم. فورستر
لندن ـ 1933

أنهى كفافيس قراءة المقدمة المقترحة، وشعر بحنين، وذلك بالضبط ما جعل تقييمه لها سلبيًا. كان صارمًا فيما يخص تصوره عن مقدمة لكتاب

فيه قدر من الدقة العلمية، هذا خطاب يمكن أن يتفهمه الأصدقاء بدرجات متفاوتة، أن يتعاطفوا معه، لكن فيما يخص كتابًا، وكتاب دليل بالذات، بدا له ما خطه صديقه هلوسة كارثية لمراهق. فكر فجأة في سن فورستر الآن، أربعة وخمسون عامًا. لم يعد "الإنجليزي العاطفي"، كما أطلق عليه، متطوعًا شابًا في الصليب الأحمر. عاطفي.. نعم.. وفكر كفافيس أنه أكثر من ذلك، فكيف تحوَّل ضيقه من المدينة إلى كل هذا الحنين؟.. سيترك هذه الرسالة لألكسندر، ربما تنفعه في كتابة قادمة للرواية، ويحتفظ بالأخرى، خيرًا فعل فورستر بهذه الحيلة التي لم يقصدها، وكأنه يشارك في اللعبة بطريقته. سيترك كفافيس لألكسندر أيضًا مسودة الرد الذي لن يرسله.

"العزيز فورستر. أنا في سن لم تعد تسمح لي بأن أحافظ على قدرتي على المجاملة كما كنت في السابق، وقد صرنا بالفعل الصديقين اللذين تمنينا أن نكونهما عندما تعارفنا في الإسكندرية خلال تلك السنوات المشبوبة والبعيدة الآن، عندما كنا نلتقي تحت المظلة الخشنة نفسها للمدينة التي تعذبك أصداؤها، يجب أن أهنئك على هذه العبارة، إنها سطر في قصيدة لم تُكتب، لكن ما يعذبك صداه ليس أكثر من رجل، شخص واحد في هذه المدينة كان اسمه محمد العدل. أستطيع أن أتخيل فكرة افتقادك لعضو آخر مختون، وذلك ما يجعله غير قابل للنسيان، ولو بمنطق الفن.. وقد مررت أنا بشيء مثل ذلك، في الليلة التي جلسنا فيها معًا، وحدثتك فيها إن لم تخني الذاكرة عن حسين التركي الذي خضت معه تجربتي الأولى في الأستانة. عليك أن تنهمك في جسدك. أجمل ما في الجسد أنه بلا ذاكرة. لو حافظت على تلك

العقيدة فلن تشعر بحسرة ولن تأمل في شيء".

لكنه في الرسالة الحقيقية كذب قائلاً: "هزني مخطط المقدمة بعنف، ما الذي يطمح فيه المرء أكثر من تصدير كتاب يُشعر كل من يقرؤه أنه صديق؟".

قبل أن يكمل كتابة الرسالة، باغتته الذكرى، ذكرى تساوي وجوده، وكان عليه أن يستدعيها، لكي يكتب ردًا مكتملاً لفورستر، ردًا يليق في الحقيقة بقسطنطين كفافيس الذي ما كان له أن يوجد، لولاه.

26

ضم كتاب "فاروس وفاريلون" لفورستر، المقال الذي يدين له كفافيس، بشكل ما، بحياته، فهو المقال الذي عرَّف الأوساط الثقافية الغربية بوجود شاعر أوروبي في جنوب المتوسط، لكنه أيضًا المقال الذي قدم كفافيس كوجه آخر للإسكندرية.

"الإسكندرية الحديثة هي بالكاد مدينة للروح. فلأنها تأسست على القطن بمزاحمة من البصل والبيض، وبُنيت بصورة سيئة، مع سوء تخطيطها، وسوء استنزافها، يمكن أن تُقال ضدها أشياء كثيرة قاسية، ومعظمها قيل بلسان أهلها، لكن بالنسبة لبعضهم، فثمة حدث مبهج يمكن أن يقع، فيما يعبرون الشوارع.. فهم يسمعون أسماءهم الشخصية تنطق بنبرات صارمة لكن تأملية، نبرات لا يبدو أنها تنتظر كثيرًا

ردًا ما، يفي بالتقدير لحقيقة الفردية. يستديرون ويرون سيدًا يونانيًا يضع قبعة من قش، واقفًا ساكنًا تمامًا عند زاوية طفيفة أمام الكون. ذراعاه ممدودتان، ربما. آه، كفافيس... نعم.. إنه السيد كفافيس، وهو يمضي إما قادمًا من شقته إلى العمل، أو من عمله إلى الشقة. ولو كان الاحتمال الأول، فإنه يختفي ما إن يُرى، بملمح طفيف من اليأس. ولو كان الاحتمال الثاني، فقد يُغلب على أمره ليبدأ جملة، جملة طويلة معقدة لكنها محكمة، مليئة بالأقواس والتحفظات، جملة تتحرك بمنطق إلى نهايتها المنتظرة، لكنها نهاية أكثر إثارة وحيوية مما توقع أحد. أحيانًا ما تنتهي الجملة في الشارع، وأحيانًا ما تغتالها وسائل المرور، وأحيانًا ما تواصل حتى الشقة. ورغم ثرائها الفكري واستشرافها الإنساني، فإن المرء يحس أنها أيضًا تقف طويلاً عند زاوية طفيفة إزاء الكون: إنها جملة شاعر".

• طالما أحب كفافيس هذا المقطع الأول، الذي لم يكن سوى فاتحة لقراءة موغلة في شعره، كان فورستر يبدو وكأنه يتوسل للعالم: اقرؤوا هذا الشخص، وقد نجح، بهذه الطريقة، في جعله أكثر من شخص يكتب الشعر في غرفة معلقة.

حاول كفافيس أن ينتزع نفسه من أفكاره حول فورستر المحب، ليصل إلى صيغة عن فورستر المهزوم. لماذا؟ لم يكن يعرف بالضبط. هو أيضًا لا يريد أن يبدو من جديد ممتنًا، ذلك أنه لم يطلب أبدًا ذلك الجميل، الذي طوق عنقه بالفعل.. فبقدر ما كان يُضاء هناك، يسطع بالتدريج في العالم الراقي لأوروبا، بقدر ما كان يزداد انكفاء هنا، يزداد ظلمة ونحولاً، كأنه

يُكفِّر يومًا بعد الآخر عن انتصاراته الصغيرة التي لم يقصدها.

فكَّر من جديد، بوجدان الرجل المحتضر، أن فورستر لم يكن فقط يحبه، أو متحمسًا لشعره، أو متمتعًا بحس بطولي لرجل يزيح التراب ليكشف جسد الإسكندر، لكنه كان يورطه، يضعه تحت العين الكبيرة التي لا ترحم، العين الشرهة التي عليها أن تتغذى باستمرار ولا يملك السبيل إلى إطعامها بانتظام.

لقد فعلت المدينة فيه ما تفعله بكل حالم، جردته من حلمه، وجعلته، بالمقابل، يحلم لها، أو نيابة عنها. أصبح فورستر الشخص الذي يقدم الإسكندرية عبر أضحية مثالية: شاعر لا يمكن أن يوجد عندكم، أيها الإنجليز، الإيطاليون، الفرنسيون. ورأى تخمينه يتجسد، لم يكتب عنه فورستر إلا وهو يستحضر الإسكندرية، وأدرك أنه استسلم للعبة ما كان يجب أن يستجيب لها منذ البداية، لكن فورستر - يستطيع أن يؤكد الآن بينما يراه رؤي العين - كان يقاوم موته الشخصي بالبحث عن جثة ملائمة يعيدها إلى الحياة. في النهاية عدل كفافيس عن كتابة رد، لأنه حدس أن رسالته هذه المرة قد تكون نهائية.

كل شيء، في هذا الصباح، يورطه من جديد في المدينة التي ظل يتحاشاها منذ عاد، لكنه، في هذه اللحظة، وبسبب من جميع الأصوات التي تطرق على رأسه، تأكد أن عليه ارتداء أقرب الملابس ليده، دون أن يعبأ بأناقته، أو بحالة الطقس، سيخبئ الأوراق إلى الغد، لو عاش إلى الغد، وسيترك جسده، جسده الواهن، جسده الصامت، جثمانه المحطم بمزق الذاكرة، نهبًا لمدينة الريح.

27

هاجمه هواء نوفمبر، وكان شارع ليبسوس بالذات، شارع سنواته الخمس والعشرين الأخيرة، الصغير حد أنه لا يقوى على شيء، يُطوِّحه بين جانبيه، كأنه ورقة شجر. يُصر، ويعبره، مثلما اجتاز ذات يوم فردوس الطفولة، مغادرًا، لأول مرة، شارع شريف الأنيق، الذي يعج بساريات الأعلام. يستعير عينين قديمتين، ليرى المدينة، مثلما رآها الطفل الذي كانه، وكانت المرة الوحيدة التي عرف فيها كيف يمكن لشخص أن يرى امرأة تتعرى.

تنسحب من عينيه الثريات والنوافذ، الجدران والغرف، يتكوم هواء البيت في ركن غامض من ذاكرته، كأنه لن يعود، وينحسر الضوء.. بينما

يعبر تيه الشارع، ليكتشف كم هو صغير، (لماذا بدا قبل ذلك واسعًا كأنه العالم)؟

يتردد، من أي طرفيه يخرج، ويود لو تمكّن من مغادرته عبر مخرجيه في نفس الوقت.. لكنه يختار الجهة التي يلوح منها ما يشبه القصر المسحور. يقترب، ليقع في الذهول.. بنك روما، حجر جيري مصقول ممزوج بقرميد أحمر باهت، لا يُصدِّق أن هذه التحفة الغامضة مكرسة للأوراق المالية، (سيظل ما تبقى من حياته يعتبره أرقى مباني المدينة)، يلوح ذئب من فوق بوابته، مهيأ لانقضاضة مباغتة، فيبتعد الطفل عدة خطوات.. يهبط بنظره إلى البوابة، حيث الحديد يستسلم للنقوش الغزيرة، التي تنتصب على جانبيها حاملات المشاعل.

لو خرج يومها من الجانب الآخر، لعبر البورصة التي سيعمل فيها بعد ذلك.. ولصار نقطة في قلب ميدان محمد علي. يجلس الرجل على حصانه، قبالة المحاكم المختلطة.. تلوح الحدائق الفرنسية وكنيسة القديس مرقص الانجليكانية، حيث يمكن للمار أن يرى عبر أسيجتها التمثال النصفي للجنرال المغدور إيرل.. لكن الطفل اختار الباب الذي لن يضطر لعبوره بعد ذلك.

يدلف إلى شارع طوسون باشا. يذهل أمام رواق نصف دائري بأعمدة، ليكتشف أنه مجددًا مكان لا تعرف غرفه سوى الأوراق المالية، "بنك مصر العقاري"، ثم يجد نفسه في شارع رشيد، كضرير باغته النور، ها هو الشريان الرئيسي لمدينة الإسكندر يصير حقيقة فجأة.

هل ظل يمشي إلى أن أصبح على مشارف الميناء؟ هل قطع الشوارع الطويلة التي تحتمي خلفها المدينة من الغرق؟ يذكر أنه في لمحة رأى خطوات سيدات المجتمع الذاهبات إلى أوروبا، رأى قُطّاع الطرق والحالمين والهاربين في تسللهم المتفق عليه. كان مشهدًا مدهشًا، وقد حوّل الفجرُ الغامضُ مقدمات السفن لأشباح غارقة في توحدها، تواجهه كأسماكٍ ضخمة مستسلمة. تشبث بملابسِ حمّالٍ، كان يريد أن يمنحه قروشه القليلة مقابل أن يصعد به إلى السفينة للحظات.. ورغم أنه كان ضئيلاً إلا أنه أخل بتوازن جرم الرجل الضخم، فسقطت الحقيبتان الضخمتان اللتان كان يحملهما، ولم يجد الرجل الحانق مفرًا من صفع ذلك الطفل الأحمق الذي ظل محدقًا فيه بعينين مندهشتين تحجرت فيهما الدموع.

• يقطع شوارع المدينة الخلفية الضيقة. ها قد صار في مدينة أخرى، ثم ثالثة ورابعة. كيف سيعود إليهم، كيف سيعثرون عليه؟ يعبر الروائح الحريفة والزحام، والسيدات المتشحات بالسواد في جلبة الأسواق، يتلفتن كل حين بحثًا عن أطفال تائهين. يغادر العالم الضيق للأزقة والحارات ورائحة التراب ويخطو باتجاه الكورنيش، هنا بحرٌ آخر، (كم بحر تطل عليه هذه المدينة؟ وهل تطل حقًا على البحر؟!.. كأنه لم يكن يعرف. لم يكن ليعرف. إنه يعرف ذلك فقط من الأحاديث المتناثرة في البيت، لكن مدينته الوحيدة كانت الغرف).

يقطع الشارع الواسع المندى خفيفًا وقد بدأت المدينة العالقة بملابسه تغادره، تودع كيانه، بينما يدنو البحر. لا يعير التفاتًا أيضًا لمراهقين يمشون

بأناة مشبوكي الأيدي.. أو يرتاحون على الدكك الخشبية المواجهة لحاجز الماء الحجري.

(صار يعرف الآن لحظات الحب المختلسة تلك.. يعرف الوردات المدفونة في صفحات الكتب المدرسية والصور الفوتوغرافية الموقعة بإهداءات وجلة، تنام في أعماق الحقائب وحافظات النقود، تحت الوسائد وفي عتمة الأدراج، يعرف هؤلاء الذين لا يزالون يصنعون ذكريات مزدحمة قد تعينهم على أيام وحدة طويلة قادمة، يفعلون ذلك دون وعي منهم.. ما زالت الدنيا واسعةٌ كالبحر).

هناك مساران من هنا، من تلك النقطة الغائمة التي وجد نفسه فيها الآن، في شارع البورصة القديمة، الترام ذو العلامة الحمراء، إلى بولكلي ثم سان ستيفانو ثم فيكتوريا، الترام ذو العلامة الزرقاء، أفقر في رحلته، إلى سان ستيفانو فقط، عن طريق باكوس. جعله فورستر المولع والمريض يحفظ أشياء ما كان له أن يعرفها، عبر رحلات طويلة قاده فيها الإنجليزي بالذات ليتعرف على ما لم يره أبدًا في مدينته.

الترام ذو العلامة الحمراء، يردد اسمه، لقد ارتبط بطريق السحر، كم رحلة مجهدة قطعها من خلاله بصحبة فورستر نصف المجذوب؟ هو أيضًا يمر بمقابر كثيرة، مدن كاملة للموتى. مقابر وحدائق، أصبح يستدعيهما الآن باعتبارهما شيئًا واحدًا، للرفات رائحة زروع نحيلة في أنفه، أنف الذئب كما تعود أن يطلق عليه.

يتحرك في الشارع، على اليمين نادي الوحدة الذي يرتاده الإنجليز، (صحبه فورستر إليه ذات مرة، يثرثرون كثيرًا، لكن فقط مع من يملك

نفس اللسان. وجوههم حمراء، كأنها مصفوعة طوال الوقت، ويدخنون سجائر ثقيلة الأنفاس؛ لم يحتمل عبقها المميت).

على اليسار ترقد البورصة القديمة، (كل هؤلاء يصرخون من أجل المال، كلهم عجائز، لماذا يتشبث العجائز أكثر من غيرهم بالمال؟).

يقفز في ترام فيكتوريا، لا يصدق أنه يفعل ذلك الآن، وينظر في عيني المحصل، شاب ومفتول، لكنه يمد له يده المرتجفة بالنقود، مشيحًا بعينيه، لم يعد يملك جرأة الماضي، ولم يعد يملك حتى صوتًا يحدث الرجال به، سيعبر مدينتين، واحدة للأحياء والثانية للموتى، سيتفرج على المدينة وهي تتجسد في النوافذ، ربما لمرة أخيرة.

محطة المزاريطة أولاً، يسميها محطة الحدائق، منحدرات العبير التي تشعره أنه على وشك السقوط، لكنها لا تلبث أن تحدق في الصورة الغائمة للموت، كأنها تسلمه لها: محطة الشاطبي. يندس الترام في منطقة الموتى حيث المقابر القديمة والحديثة، مملكة الموتى، أقربها إلى الترام المقابر اليهودية، وتليها الإنجليزية، فاليونانية والأرمنية ثم الكاثوليكية. في سنوات سابقة، كان يتخيل هياكل عظمية تتحرك، يراها من النوافذ، تسير أسرع من الحركة المعتادة للناس.. لكنه لا يزال يرى هذه الأشباح، تكبر في السن أيضًا، وتهرم. رجفة تنتابه.. لكنه يهرب من أفكاره بالتحديق في المدارس الفسيحة التابعة للجالية اليونانية، ومدارس "العروة الوثقى". على يسار المحطة، معهد الشاطبي للأحياء المائية. حدثته عنه كريستينا، قالت إنه يحوي معرضًا للأحياء المائية (أسماك تسبح خارج البحر، لم يستطع أن يتصالح مع فكرة كهذه) ومكتبة كبيرة وشاملة، (لم يستوعب أيضًا أن

يجلس المرء ليقرأ كتبًا عن الأسماك)، الشيء الوحيد الذي لفت انتباهه في كلام كريستينا، تلك النماذج من مراكب الصيد والشباك والأدوات البحرية التي تستعرضها كالمُلهَمة، هذا ما يبقى من الإنسان، (وكان يتمنى أن يتبقى منه قلم).

يغادر الترام مجددًا. أرض بور، حمامات الشاطبي، على يسارها "مدينة الموتى العظيمة بالشاطبي"، أقدم المقابر الكبيرة بالمدينة البطلمية، (كل هذه المدن للرفات تضمها مدينة واحدة للأحياء)، وآثار قليلة، وحفنة مدافن قريبة من الطريق، على طراز مقابر الأنفوشي. إلى اليمين، مدافن بطلمية ورومانية على طول الطريق إلى الترعة.. يجتاز الترام نفقا غير مسقوف، كأنه يلتفت لمدرسة الليسيه الفرنسية ليلقي عليها تحيةً عابرة.

كامب شيزار، الرفعة الغائبة في صفرة خريفية، بالرائحة المميزة، لا يدركها سواه، لاحتكاك أوراق شجر بالأرض، ثم الإبراهيمية، الحلبة الخضراء لسباق الخيل، التابعة لنادي سبورتنج، أشجار النزهة، وآثار مقابر قديمة. دائمًا هواء الخريف راقد هنا.. أوراق شجر متطايرة، خضرة متربة.

سبورتنج، بالقرب من المدرج المسقوف التابع لحلبة سباق الخيول، حيث أدمن في زمن ما سباقات الخيول، (ذلك الركض المتقن، إيقاع قصيدة، ينظم ضربات قلبه). من المقصورة تغمره بهجة الطقس النهاري. لم يربح أبدًا رهاناته، الحصان الذي يراهن عليه (دائمًا الحصان، وليس قائده، كأن الوجود الإنساني قد عثر أخيرًا على صيغة يكرس نفسه بها لانتصار حيواني) يخسر دائمًا، يُغيِّر فرس رهانه مرة بعد أخرى، ودائمًا يخسر،

حتى إنه بدأ يصدق أنه المسئول عن الخاسر، وعن كل من شاركوه رهانه. لكنه لا يحزن، يصغي لصخب المتراهنين، بالعيون الكبيرة كالنسيان، لمرح الخسارة وهو يشبه مرح المكسب. لا يصحب أحدًا، وتقريبًا لم يخبر أحدًا بذلك الولع. عندما يغادر، يكون مجهدًا، كأنه من كان يركض ويحرث الأرض ليوقظ غبارها.

على اليسار شاطئ للاستحمام، أجساد عارية، نظافة جماعية، ضحكات متغنجة، تصله أصداؤها، الأصداء القادرة على تهشيم الزجاج، لكن الأصداء تتحول إلى أشجار، فردوس مفاجئ.. إنها "كليوباترا" إذن. تبزغ على اليمين أشجار التين التي تشتهر بها سيدي جابر، أفضل أشجار تين في مصر، ثم أشجار موز، بأوراقها العريضة، (ببهجته غير المبررة)، وذرة، وأشجار أخرى لا يعرف ماذا تثمر.. وطريق جميل يؤدي إلى حدائق النزهة، مجتازًا السكة الحديد، بمحاذاة البحيرة.

يلتفت مجددًا، يبصر قاعدة جرف على حافة البحر، المقبرة البطلمية ذات الحوائط المدهونة، تحيط بها صخور مجلوبة من بركة الرهبان الصغيرة، (ترك نفسه لها قبل ذلك، مستسلمًا لجلال الوهم، يتحدث الموتى هنا، بأصوات سحيقة من فجر التاريخ، كم من القصائد أنصت لها في هذه البقعة ونسبها لنفسه!).

محطة سيدي جابر، بالقرب من محطة السكك الحديدية، القطارات القريبة بهديرها، سفر دائم، القاهرة البعيدة. كيف تبدو؟ يقولون إن شوارعها أوسع، وشمسها أقوى، يقطعها نهر. نهر؟ ماء عذب؟ كيف

يمكن أن تكون رائحته؟ رائحة ريف في مدينة كبيرة، والأجانب أقل، أقل بكثير. يحبون المدن القريبة منهم، المطلة على بحرهم.على اليسار الطريق المحفوف بالأشجار، يؤدي إلى أثر، عامود من الرخام الأبيض، على قمته مشعل، (كم من الرجال التقطهم هنا؟).. لينتزعهم من القداسة المزيفة، أمام النقش المحفور في العامود، الذي يبدو مثل حية بثلاثة رؤوس، "لذكرى السيد رالف أبركرومبي والضباط والرجال الذين لقوا مصرعهم في معركة الإسكندرية، في 21 مارس 1801، وكما كانت حياة هذا الرجل مشرفة، فقد كان موته مجيدًا، وستبقى ذكراه في سجلات تاريخ وطنه، وسيقدسها كل جندي بريطاني، وستصونها ذاكرة الأجيال القادمة المعترفة له بالجميل". جميع الخاشعين هنا استجابوا له فورًا، مسحوا دموعهم وتحسسوا أعضاءهم وأحكموا قبضاتهم على جسده.

على مقربة، مسجد سيدي جابر، الولي الرقيق، الذي يطير في الليل ليعتني بالأطفال في نومهم، يعبر بسرعة، كأنه يحجب وجوده عن نوافذ الترام التلصصية، تاركًا ذكراه تتفتت على صخرة محطة مصطفى باشا. يبتهج بمجرد استدعاء الاسم، هناك على اليمين، في أعلى الطريق، تل أبو النواطير، أعلى منطقة في الإسكندرية، تطل على بحيرتي الحضرة ومريوط، جمال يقترب من الرعب، خاصة في ليالي القمر المكتمل. الماء، نصف الراكد، مرآة من فضة. كم من المرات أطل من التل على وجهه في المساء؟ كم مرة رأى الله؟

على يسار المحطة، الثكنات البريطانية، يعبرها بسرعة، قبل أن توقفه محطة كارلتون، بالفيللا الكبيرة المقامة على التل، شبح متوحد، تضاعف

الرعب، أخبره فورستر ذات مرة أن صاحبها رجل ألماني، لكنه شيدها على الطراز اليوناني. عبث! أموال كثيرة صُبَّت في حجارتها، لكنها ليست جميلة، يقولون إن فيها أشباحًا.

تعيده محطة بوكلي لتماسكه المفقود، تعيده أيضًا لحقيقة أن الرحلة أوشكت على الانتهاء. يكفي أن تنحرف يسارًا لتصبح في خليج ستانلي، أجمل بقعة للاستحمام، دوامات الماء حول الأجساد الفتية.. ثم كنيسة جميع القديسين الأنجليكانية، صلاة من الصخر، سيظل الجميع يستحمون في المحطات القادمة، في خليج سابا باشا وجليمينو بولو، زيزينيا: سيدات عجائز يركضن وراء كلاب صغيرة بيضاء، بنباح مخنث.

محطة سان ستيفانو، استراحة للموسيقى، يصله صخب الموسيقى القادم من كازينو سان ستيفانو في الصيف، صخب يوقظ بيات المياه. يجتاز الترام "مار جرجس" و"لورنس" و"القصر"، وتحدق فيه "سيدي بشر"، على حافة شاطئ منعزل، الصخور البارزة، كتل أحجار جيرية بارزة ينشق عنها البحر، يعبرها الماء، وينبثق من بين ثغراتها وشقوقها، كثيرًا ما أكمل السير حتى غابات المنتزه.

أخيرًا محطة فيكتوريا، نهاية الحلم. هنا محطة سكة حديد لخطي أبو قير ورشيد، وفيكتوريا كولدج، زهو الطلبة ذوي الأفواه الحمراء. يشعر فجأة أنه تائه، أنه ابتعد، لكنه بسرعة يعود، عبر الترام نفسه.

يقذف بجسده في محطة الرمل، اعتقد أن ذلك جيد، خطوات تفصله عن شارع ليبسوس، غير أنه اكتشف في لحظة أنه يمشي في مدينة عجائز، (هل شاخ الجميع؟). لا وجود لطفل، لا أثر لمراهق، الجميع محنيون فوق

مصي، يمشون على الأرصفة، حتى إن الشوارع خالية بالكامل. يخرج إلى البحر، لا بد أن المدينة تدخر شيئًا للماء.

يقف على حافة السور الحجري، يُحدِّق في البحر من أعلى، يصيبه العمى للحظات حين تباغت عينيه التماعةُ الشمس الحادة على الملح. يستمتع رغم ذلك، مُطمئنًا لتلك الإغماضة التي تتحرك في عالمها الأسود بوَزْ ضوءٍ ساطع تظل تخاتله حتى بعد أن يفتح عينيه، ثم يترك جسده للهواء الفاصل بين السور والرمل. رفرفةٌ مرتجلة يغمض فيها عينيه على ملموسهما، حتى يحس جسده ساكنًا مبللاً بالندى البحري وموحولاً بالرمل، لحظتها فقط يستشعر البحرَ أعلى من مستوى بصره، متلقيًا موجات الزبد الشهباء الملحية كثعبانٍ عاجز. تهدر في تقدمها ثم تنسحب للخلف بوشيشٍ هامس، خجِل. حواسه مفتوحة على الملح. في هذه اللحظة فقط يستطيع تخيل السفن من الداخل: موائد المقامرات الدائرية التي يستعين المسافرون بفوضاها على ليالي البحر الطويلة.. قصص الحب الطارئة، الخطرة.. يرى وجوه المغامرين والحالمين والباحثين عن هواءٍ آخر.

يظل هكذا إلى أن يداهمه الغروب. فقط عند الغروب ينتهي البحر وتبدأ المدينةُ من جديد، تلتصق بملابسه وتبدأ في التسلل إلى أنفاسه. البحر يصير صفحةً معتمةً لا تعكس إلا أضواء بعيدة مشوشة يعجز عن تحديد كنهها أو مواقع انبثاقها.. لعلها في مدنٍ أخرى تتحدث لغات لا يعرفها. هي فقط تبدو إشاراتٍ غامضة آمرة، ليستدير باستسلام مغادرًا الشاطئ.



نـهايات

(الفصل السادس)

مسكونين بالخوف والشك

بعقل قلق وعينين مفزوعتين

نخترع - في يأس - مخرجًا لنا

لكننا كنا مخطئين

فكارثة أخرى لم تخطر ببال أحد،

تحل بنا فجأة في عنف، على غير استعداد

وتجرفنا..



*عثرتُ أخيرًا على نافذة في إحدى طرقات المستشفى الخلفية، يمكنني من خلالها أن أتطلع إلى شارع ليبسوس من طرفيه. أراه لأول مرة من نقطة مرتفعة، وأكتشف كم هو ضيق وصغير ذلك الشارع الذي كدت أصدق خلال السنوات الأخيرة أنه العالم نفسه.

يصدق البعض أن ليبسوس شارع أشباح. المصريون بالذات يخشونه، رغم أنني طالما رأيته ممرًا معتمًا للأرواح. في الليل يبدو في ضيقه الذي ينفتح فجأة على رحابة طريق الحرية كما لو كان دهليزًا ميتًا، يحيل دون مبرر لنهر من الحياة والضوء، وفي الصباح تتزاحم فيه الظلال، (ظلال أشخاص غير موجودين كما هيئ لي كثيرًا)، تتجول الأطياف الداكنة بحرية، وقد تحررت من عبء أجسادها، من عبوديتها لها، من تبعيتها التي وُلِدت بها. يبدو احتفال الظلال طقسًا مرحًا لكائنات مغدورة، فقدت ثقلها دون إرادة منها، لكنه، من هذه النافذة الجديدة التي لم أتوقع العثور عليها، صار أكثر تجسدًا.

أستطيع الآن أن أراهم، يركضون، يقطعون الشارع في خطوات واسعة قبل أن يبتلعهم، بينما أقرر أن أقوم برحلة أخيرة لبيته، لأنني أعرف أنني لن أدخل ذلك البيت بعد موته، موته الذي يصعد الآن درجات السلالم الملتفة للمستشفى اليوناني، وبعد قليل سيعثر على الغرفة التي جاء من أجلها، سيصعد السرير، ويُجرد الجسدَ الزائغ من الأنفاس.

أخطو إلى "ليبسوس"، كأنما لأول مرة، وينقبض قلبي، كما يحدث

لأي شخص من "أولاد البلد". أنظر خلفي، محاولاً العثور على النافذة التي كنت أطل منها، فلا أجد نافذة. كيف فقد المستشفى جميع نوافذه فجأة، في المسافة بين نزولي الدرج وعبور الحديقة إلى الشارع؟ هل سيختنق في غرفته؟

أمشي على مهل.. كأنني أتذوق الشارع بقدمي، لكنني أرى أشخاصًا يركضون، شتويين، تتوتر جلودهم وتتجعد. خائفون جدد يعبرون الشارع الذي كثيرًا ما ابتلع زواره. رغم ذلك أقدّر هذا الخوف. أبناء هذه المدينة يتفاءلون ويتشاءمون أكثر مما يفعلون أي شيء آخر.. وأسهل سلوك يمكن أن تأتي به امرأة لو استشعرَت خطرًا، أن تبصق بين ثدييها.

كثيرون من المصريين، يدخلون إلى هذا الشارع ليموتوا فقط، وتبدو كل الأصوات، المتنافرة ظاهريًا، كأنما تعزف لحنًا جنائزيًا مهيبًا.. فوفق الخرافة الرائجة، اختفت أكثر من فتاة عذراء وشاب "لم يدخل الدنيا" حسب تعبير المصريين، لدى مرورهم من الشارع الضيق، باتجاه طريق الحرية أو ميدان محمد علي.

وبعيدًا عن خرافات المصريين، يمكن للعديدين، من أشخاص مشهود لهم بعقلانية تقترب من الجفاء، أن يعددوا الأموات في البار القريب الذي يفقد فيه يائسون أو قليلو الحذر أرواحهم، في المستشفى.. حيث يستعير المرضى أرواح بعضهم وكأنهم في لعبة غامضة مع الموت، وفي الكنيسة عندما تتمدد الأجساد بعد اعترافاتها الأخيرة. كان شارع ليبسوس دائمًا

مكانًا لموت "الخواجات" أيضًا، وهو ما لم يعرفه ذوو البشرة الحنطية أبدًا.

لماذا أتحرك جيئة وذهابًا على هذا النحو؟ ما الذي يمكن أن أكتشفه بعد سبع سنوات من الحياة في العقار رقم 10؟

المدينة تتغير. قلتها لنفسي، رغم ما فيها من مبالغة شديدة، وسألت نفسي فجأة: ما الذي فقدته أنت؟ لقد كنتَ تريد أن تصبح شاعرًا فأصبحت خادمًا، كنتَ تفكر في فرج امرأة فصرتَ أسير مؤخرة رجل، حلمتَ بأوروبا فتحولتَ إلى سجين لهذه المدينة المعتمة الحارة، الأشبه بقفص ساحلي، لكن كل هذا وقع وانتهى الأمر، تقبلتَه كمصير كان ينجلي تدريجيًا طوال سبع سنوات مثل أنفاس ثقيلة تنقشع حثيثًا عن سطح لوح زجاج.. ما الذي فقدتَه في الشهور الثلاثة الأخيرة بالذات؟ بعضًا من شحومك؟ صرتَ تدخن بشراهة أكبر؟..

إنه يموت.. صرتَ تعرف ذلك خيرًا من أي شخص، خيرًا من الأطباء النحيفين أنفسهم، الذين رأيتَ إيماءاتهم اليائسة وإطراقاتهم التي تؤكد انعدام الحيلة، وهزات رؤوسهم التي تعني أنه لن يعيش. في مثل هذا الشهر، في إبريل من العام القادم، سيكون بالتأكيد تحت التراب.. اليوم أو غدًا، قد تعود إلى المستشفى فتجده تجرد من أنفاسه القليلة بينما يجاهد، فقط، لإطفاء ذؤابة لهب نحيل لشمعة يتخيل وجودها.. فيما أخته الرضيعة، الطاعنة المعمرة، تلهو بصخب فوق جثمانه.

ماذا ستفعل بعد أن تنفض يديك من تراب جثمانه؟ هل ستعود

من المقابر إلى البيت؟ بدونه؟ بصحبة جنونك وتلك العابثة الشبحية؟ وماذا عن تركته الثقيلة التي يعرف الجميع أنك صرت مسئولاً عنها؟.. جبال الوريقات التي ستضاف إليها قصاصات كلامه اليومي، كأنما كان يكتب سيرته مجبرًا، ودون أن يقصد؟

تلوح أخيرًا مصلحة الري، ما الذي أتى بالبناية هنا كنغمة نشاذ؟.. أفسَحت لنفسها مكانًا قبالة بوابة بيته، ها هو يعبر البوابة، داخلاً.. لا.. بل يعبرها مغادرًا، لآخر مرة، قبل عشر سنوات. 1922. قسطنطين ب. كفافيس، الكاتب المؤقت بمصلحة الري يخرج إلى التقاعد، سيتنفسون الصعداء أخيرًا، لم تكن أبدًا مفيدًا لهم وبالمقابل كانوا يتطلعون كل صباح لمؤخرتك كأنها ستخبرهم من ضاجعك أمس. حثالة. سيفتقدون التلصص اليائس على مؤخرتك فقط، وانهماكاتك غير المبررة في كتابة وتمزيق الأوراق بحثًا عن كائن غامض لا يدرون كنهه. هل كان لك عشيق من بين حفنة الموظفين المطبقين على هوائك؟ بالتأكيد لم تعدم واحدًا على الأقل.. ولو لم يكن حدث.. هناك دون شك بعض الفضائح، الصغيرة أو الكبيرة.. كم مكثت؟ نحو ثلاثين عامًا! ليس أقل.. وكيف احتملت؟ أي ترفع كنت تمارسه؟ ثمة رجال بالداخل وقَّعوا على مؤخرتك.. بلا شك.. غير أنني لم أعرف شيئًا عن كل تلك السنوات. عندما صرتُ ضيفا أبديًا في بيتك كانت هذه الصفحة من حياتك قد طويت.. حلَّقت عبر إحدى النوافذ كقصائد كثيرة لك، غير أنها لم تقع بين يدي ضمن ما وقع من قصائدك التي تحلق على الدوام في هوائي، وتستوقفني كقطاع طرق من الورق والحبر.

إنه يخرج، نعم، لآخر مرة، يغادر لنعيم التقاعد، دون تلويحة، دون نظرة أخيرة خلف ظهره.. والحارس الأسود الذي طالما انحنى له في دخوله وخروجه، يستوقفه، ويربت بكفه على مؤخرته. لقد انتظر الخادم المصري كل هذه السنوات كي يحظى بهذا الانتصار الأخير.

يقترب مني حارس في ارتياب، يبدو خارجًا من عالمه، لعله الحارس القديم نفسه، هؤلاء السود لا يشيخون، كأن ألوانِ بشراتهم الداكنة ملابس حداد فوق تجاعيد جلودهم. لقد قرأتُ رجلاً كهذا في قصيدة ما له، هل ضاجعه؟ يسألني إن كنت أريد شيئًا، أو شخصًا. أهم بأن أسأله عنه. سيندهش في البداية من ذلك الأبله الذي يسأل عن موظف غادر منذ كل تلك السنوات، لكنه في جميع الأحوال سيقبل سيجارتي شاكرًا ويبدأ، على مهل كعادة كل هؤلاء، في استعادة حياته. سيقذف بكل الأسرار في وجهي دفعة واحدة دون أن أطلب، ببشاشة وتبجح، بتمثيليات صغيرة تؤكد تعاطفه مع الشبح الذي يُمثّل بسيرته ويمنح الضوء لخطايا خفائه.

سيقبل السيجارة الثانية على مضض، وبعد تمنع كاذب، ثم.. بعد ذلك.. سيشير دون تحرج طلبًا للمزيد.. لينفث مع الدخان الكثيف حكايات لا تنتهي، وهو يداعب جسد السيجارة بلسانه، في عادة مصرية متأصلة فشلتُ دائمًا في فهم مغزاها.. تنتهي كل حكاية بالديباجة التي يتقنها المصريون.. "فليرحمه الله لو كان ميتًا وليمنحه العمر المديد لو كان حيًا"..

من جديد يسألني الحارس: هل تريد شيئًا؟

أهم بأن أسأله: "هل لوَّحت لي بيد ذات شِتاء؟.. ألم تقف ذات يوم على باب بيته؟"، بينما أقترب منه كأنني سأقبّله، أحدق في ملامحه، مستعيدًا هيئة مضببة لظل. نعم، هو الشخص نفسه الذي أشار بيده لبابه المغلق، عندما قطعتُ شارع ليبسوس الغامض لأول مرة، وقفزت السلمات القليلة، وصرت على مبعدة أنفاس من الهواء الشاحب الذي يحيا فيه الشاعر بصحبة ظلاله.

كانت شائعة موته قد بدأت تتردد، حتى صارت خلال أيام قليلة في ذلك الشتاء الهادر من عام 1926، الخبر الوحيد المؤكد. ورغم أن عددًا من أفراد الجالية اليونانية ممن يعرفونه عن قرب نفوا ذلك تمامًا بتأفف، فإن عدم جزمهم القاطع بالمكان الذي يتواجد فيه، أكد، ليس فقط الخبر، وإنما الفضيحة التي سرت بالتوازي معه، والتي تؤكد أنه قُتِل وتم التمثيل بجسده من قبل بعض "أولاد البلد" بعدما اغتصبوه واحدًا واحدًا. (بدأ كل شيء بصبي كما أشيع، رفض المجيء إلى بيته، وأصر أن يستضيفه في غرفته الرخيصة البعيدة عن العمران، ورغم تردد قسطنطين، إلا أن ولعه تغلب على حذره. سيُفاجأ بقطيع أجساد مشحمة يستعد ليرقص حوله، سيحاول الاعتذار، بدماثة، بلطف، بتحضر وبكلمات مقتضبة مهموسة، تاركًا شعوره بالمهانة الأكبر في حياته يرقد في قاع وجدانه، مع الشوائب الأخرى، لكنهم قيدوه، وتناوبوا عليه، لا تفهم الأجساد الشابة سوى ما تريده). هو ذلك

الحارس الأسود، نفسه، بالعينين المعكرتين بصفرة قاتمة، باليد المتكاسلة وكأنها لم تعد تنتمي لجسده، والتي أشارت لي، بالدخول، أو هكذا هيئ لي، قبل أن يغفو من جديد تاركا رأسه المعمم يسقط على صدره، لأواجه وحدي الهواء الكثيف لبيت الشاعر، أتردد في الخطى، أتعثر، في رحابة البيت المتروك، بيت الظلال الذي وَدَّعه بين قطعان من النوافذ. في كل حائط نافذة أو أكثر، تخترقها الريح البحرية المنداة، مطوحةً جميع الأوراق من على مكتبه. يتساقط بعض الأوراق على الأرض ويُحلق بعضها الآخر إلى ما لا نهاية في سماء الغرف، يُدوّمه الهواء، قبل أن تستقر ورقتان أو ثلاث على المكتب الخشبي العتيق من جديد.. أما البقية الباقية فكانت تتطاير بخفة عابرة النوافذ إلى الخارج، إلى سماء المدينة الشتائية التي بدت غريبة ونائية أكثر من أي وقت مضى، كأنها سماءُ مدينةٍ أخرى في حلم.

اقتربتُ منها مُلاحقًا الوريقات المتطايرة - والتي عبثًا حاولتُ أن أقبض على إحداها في تطوحها - كانت كل نافذة تُطل على مكان مختلف، على مدينة لا تطل عليها الأخرى: مستشفى صغير بحديقة في فضاء رمادي تطل عليه سماءٌ خالية، لا سُحب ولا طيور ولا شمس مخبأة تطل على استحياء، كنيسة ضخمة بُنَيَّة الأحجار، قطعة أسى شيّدها القَدَر قبل أي يد بشرية أو إرادة مقدسة، تقرع أجراسها بينما تتساقط أوراق الشجيرات المحيطة بها، ينهمر فوقها المطر بلا هوادة السرع القساوسة خطاهم في طريقهم للدخول، تتكاثف عليهم أوراق الشجر البنية فتُحَوّلهم لأشباح خريفيين بلا زمن. عَبْر النافذة الثالثة

أمكنني أن ألمح البار المختبئ كعاشق هارب، تصل لمسامعي المشاجراتُ الصغيرةُ وتغنجاتُ المومسات اللائي تبدأ أنفاسهن في الليل، وواجهَت عينيَّ نقاطُ الضوء الأبيض منبعثةً من عواميد الإنارة التي لم تَحُل دون العتمة المحكمة.

الشيء الوحيد الذي كان يمكن رؤيته عبر جميع النوافذ؛ ودون أن تتغير زاوية الرؤية هو المقابر. سكون عميق يخفي ملايين الخطى التي طالما عبرت شوارع تلك المدينة: مدينة الأنبياء والعشاق والحالمين والقتلة.

دفعني تيار الهواء إلى غرفة، كأنني ورقة، (سأعرف فيما بعد أنها غرفة جلوسه التي تتفرع منها الغرف الأخرى، غرفه السرية حيث عرف اللذة والألم).

أجبرني أن أستدير بعد أن استسلمت لانفلات جميع الوريقات من بين يدي.. قصائده المخطوطة التي رأيتها بعيني اليانستين بينما تغادر للأبد كأنما لم تكن أكثر من سرابات ورق، تتخلى عنها كلماتُها فور اقترابها من حواف النوافذ لتتحول إلى وريقات بيضاء، ترفرف فوق السماوات المتنائية التي لا تشبه إحداها الأخرى، فوق المستشفى والكاتدرائية والبار، وينطلق بعضها إلى سماء البحر، لعلها ـ بعد لحظات أو ساعات أو أيام أو شهور ـ تستقر في مدن أخرى.

على الطاولة الدائرية العتيقة، أطباق، اتسخت ببقايا طعام، لكن قيعانها مشغولة بالنقوش: أهي آخر وجبة تناولها الشاعر قبل موته؟ أم

هو الحارس يتناول طعامه هنا بلا اكتراث؟ حاولتُ تقليبها وتشممها غير أنني لم أستطع حسم الأمر. كانت بلا رائحة، حتى ما فيها من بقايا طعام لم أتعرف أبدًا على كنهه، لكنني انتبهت لفوران قهوة على موقد صغير بجوار المكتب. تأكدت، لحظتها فقط، أنني أتطوح في سحابات أنفاس الشاعر الذي أبى إلاَّ أن أقضي كل أيامي الفائتة مشوشًا، بأحلام سيئة وخوف مجهول، وها هو يواجهني بتشوش جديد لا قِبَل لي به، حياة مباغتة، حياة بشرية في بيت الوصايا، تؤكد أن ذلك النائم بلا مبالاة عند باب البيت محض عابث أبله، وأن الشاعر حي، يرقد في ركن، حيث يمكنه أن يشاهد العالم وهو يغزو سرَّه، ليس ميتًا مثلما أكد لي رفيق الترام الشائخ، الذي رأى انهماكي في قراءة ديوانه، بينما يهتز الترام مقرقعًا. "بالطبع قُتِل، المدينة كلها تعرف ذلك، ألستَ يونانيًا؟!".

صُعقت، واستعدت بشحوب هيئة الشبح الفضولي الذي ترك عينيه في كتابي، ونبَّهني أن لعنة الشاعر ستطاردني حتى يسرق نسخة كتابه.

قال إن أصحاب المكتبات يستيقظون ليجدوا الواجهات مهشمة ونسخ ديوانه منزوعة منها ومن الأرفف الداخلية، أما الكتب التي تخص مؤلفين آخرين فكانت نسخ منها أيضًا تختفي، نسخة واحدة من كل كتاب، فالشاعر مغرم بالقراءة ولا يستطيع مقاومة اقتناء كتاب جديد.

دون وعي مني وجدتني أنصت له، مستعيدًا هيئة الأحفاد الذين يستمعون لحكاية جدة طاعنة، يعرفون كذبها غير أنهم يقاومون النوم حتى تفرغ منها.

قال إن الشاعر منذ موته ينهض مبكراً، يغادر مقابر الجالية اليونانية ليتجول في المدينة، يخطف نسخ جرائد الصباح بخفة، "فالموتى كما تعرف لا يحتفظون بالعملات الورقية في جيوبهم"، يتركه الباعة: بعضهم يعرف أنه الشاعر، والبعض الآخر يعرف أنه ميت.. وفي الحالتين لن يجرؤ أحد على اعتراضه. بعد ذلك يتوجه إلى بيته، يلقي تحية مقتضبة على الخادم النائم الذي تنتشر في المدينة أنباء جنونه، (يقولون إنه كان يضاجعه أثناء حياته، وأنا أقول لك: ولا يزال يضاجعه بعد موته). يجلس الشاعر قليلاً إلى مكتبه ليكتب، يكون الخادم، الصديق، العشيق، سمّه ما شئت، قد أعد له طعامًا خفيفًا، يتناوله ثم يطلب القهوة، يتركها في أحيان كثيرة، (لعلك تعرف أن الموتى يحبون رائحة القهوة أكثر مما يحبون مذاقها)، وقبل أن يغادر يفتح نوافذ غرفة جلوسه الثلاث الكبيرة، يترك الريح تتخبط بين الجدران عابثة، في اليوم التالي يرى ما تبقى من الأوراق على مكتبه فيعرف أنه شعر جيد، أما ما يغادر البيت فينساه بلا ندم. قبل عودته للمقابر، (ويكون ذلك عادةً عند الغروب)، يختار واحدًا من أماكنه الثلاثة القريبة، أحيانًا يذهب إلى المستشفى، يجلس في الحديقة متأملاً المرضى، أحيانًا يتوجه إلى الكاتدرائية الخريفية التي لا تكف أوراق أشجارها عن التساقط، يعترف بأخطاء اليوم، (وغالبًا ما تكون

آثامه هي قصائده ذاتها)، أما في الأيام التي يكون فيها مبتهجًا، فيتوجه للبار، يحتل طاولة منزوية، وما إن يبلغ النشوة حتى يبدأ في ترديد قصائده الأخيرة التي قاومت الريح بصوتٍ عالٍ، مشروخ، يخص الأموات.

هل جاهدتُ أثناء إنصاتي لأخفي، دون جدوى، ابتسامات عابثة؟ هل اعتبرتها أضغاث أحلام يقظة لعجوز منهك؟ ربما انفلتت أيضًا ضحكة مني استقبلها هو بصمت خجل، وأدار وجهه متظاهرًا بالتطلع عبر نافذته قبل أن ينحني بأدب على شخص تفصلني عنه عدة مقاعد، تبادل بعدها مقعده معه، والتصق بالشباك، ثم ينهض فجأة، أطل من شباكه بانحناءة قاسية، وسلل جسده ليقفز. رأيت شبحه المتبخر، ولم أجرؤ حتى على الصراخ، بينما لم يبد على أحد من الركاب أنه اندهش لمشهد الانتحار الصامت لعجوز لا ينصت أحد لحكيه. غادرت الترام، على بعد خطوات من شارع ليبسوس، أفكر بندم في العجوز الذي فقد حياته بسبب سخريتي، لكنني بمجرد تنفسي لهواء الشارع، وجدتني أتذكر الحلم العاصف الذي ظل يهاجمني طيلة الأيام الماضية، أستيقظ صارخًا، غير مصدق أن اليقظة أنقذتني من موت المنامات المحقق: الشاعر يقبض عليَّ بكفٍ عظمية هائلة.. يعتصر جسدي في راحتها حتى يحوله لورقةٍ مستوية.. يضعها أمامه بهدوء ويخط عليها قصيدة جديدة، ثم ينصرف فاتحًا النافذة لتطير الورقة، ترفرف قليلاً في الهواء ثم تستعيد هيئتها الإنسانية، قبل أن يسقط جسدي على الأرض غارقًا في الدماء.

أفيق على ارتجاج الجدران أيضًا، تصطفق الأبواب المؤدية إلى الغرف الداخلية وأرى نساء وأطفالاً يتدافعون، يحملهم الهواء، يحلقون بطريقة مروحية أعلى رأسي.. ويخرج الشاعر في كل مرة ليقف عند ركن. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. وجه واحد على أجساد عديدة راحت تحتل الغرفة حتى لم أعد أعرف أيها الشاعر وأيها أشباهه. كنت أستعيد الآن فقط - مع تحديقي في وجوهه - هيئة رفيق الترام القديم العابر، وأصفع نفسي: كيف لم أنتبه من قبل؟!.. الوجه النحيف المائل للزرقة، البذلة الكتانية الإنجليزية العتيقة الأوسع من الهيكل المختبئ فيها، الملامح الدقيقة واللكنة الغريبة في يونانيته.

أقاوم، دون جدوى، تيار الهواء الذي بدأ يعلو بجسدي عن الأرض.. تنهار قدرتي على المقاومة، بينما يرفرف جسدي باتجاه النوافذ.

.. أسقط، لكني لا أموت. أجد نفسي أمام مبنى البورصة. أنفض التراب عن جسدي وأقاوم الدوار الخفيف الذي استشعرته بمجرد ارتطامي بالأرض بعد رحلة التحليق الغريبة. أتمهل، وأشعل سيجارة جديدة بوجل، وأكبح دموعي بكل القسوة الممكنة، كأنني أقف أمام المقبرة المظلمة لأبي. الشاعر يعبر البوابة، رجل مال، لكنه مرتبك، تزكم أنفه روائح المكسب والخسارة، فيُخرج منديلاً كبيرًا، تحتله سطور بخط يده، هل كان يكتب القصائد على صفحة المنديل البيضاء؟.. أراه يصافح أبي، وأبي يمد له يده بقصائد لابنه، بفرح وخجل.

لقد عاش هناك أكثر مما عاش في بيته. أدمن الصياح والجلبة.. وهذا الشفاء الشقي الذي انتشله من المقامرة.

أبي، رجل المال، صديق أخيه أريستيديس الأثير.. والذي أحب أشعاري (كم كان سخيا مع سذاجاتي، ليته ما فعل!) بقدر ما خشي على خيباتي القادمة، أدركها بحدس المقامر الخبير وبعين رجل المال التي تجيد ترجمة الأنفاس إلى أرقام. لقد تزوج بامرأة حالمة، تعزف البيانو، لها مقعد ثابت في مسرح الهمبرا وفي دور السينما الناشئة. تكتب يومياتها بخط متأنق، وتخفيها بحرص، وتخشى اللحظة التي ستموت فيها لينكشف كل شيء أمام عيني بالذات، المرأة التي انتهت جميع آمالها الكبيرة إلى حطام سيدة تُحوّل وقائع المدينة إلى حكايات لطفلها الصغير.. غير أنها لم تكن قادرة أبدًا على أن تعترف له بأنها أحبت المقامر الذي فيه، عشقت الخاسر الذي كانه عندما شاهدته في حفل. هل تعاتبه على ترميم ذاته؟ هل تطلب منه أن يعود إلى الموائد التي كانت تنتهي أمسياتها بخسرانه ودموعه وبأسلحة مشهرة كان يمكن أن ترديه قتيلاً أو أن تلوث يديه بدماء ضحايا غضبه الثمل؟.. لقد استيقظ ذات صباح متخذًا القرار بأن كل ما تبقى له من أموال لن ينقص جنيهًا بعد اليوم.

لا أعرف إن كان أسدى إلي معروفًا أم أهداني قطعة من الجحيم، حين دخل إلى غرفتي ذات مساء بعيد، متقافزًا كطفل، ووضع على مكتبي ديوانًا لشاعر اسمه قسطنطين.. ليشجع ابنه ذا الشعر الناعم الطويل الذي يغطي عينيه، والذي يكتب الشعر.. ويتباهى به أمام الرجال الذين لا يعرفون سوى المال، ويشبهونه.

قرأت، مأخوذًا، أربع عشرة قصيدة وأنا شبه محموم. سألته عن كنه هذا الشاعر فأجابني ببساطة أنه يعمل بالبورصة، مع أخيه أريستيديس، صديق أبي. من يدري؟ ربما كانت مجرد حيلة جديدة منه.. رسالة مختبئة بين الطيات، أن الشخص الذي يكتب الشعر يمكنه أيضًا أن يلهث وراء البنكنوت.

.. سألته إن كان ثمة كتاب آخر، عندما عرفت منه أن قسطنطين هذا في الرابعة والخمسين من عمره، فقال، ربما، لكنه لا ينشر كثيرًا. قالها محرجًا وكأنه يُواجَه بعورة تخصه. بعدها طلبت منه أن يدبر لي مقابلة معه. ظل أبي يعدني غير أن المقابلة لم تتم أبدًا في حياته. هل خشي عليَّ فجاءة من مقابلته؟ أم ربما يكون فشل في ذلك؟ تهرب منه أريستيديس وتعالى عليه قسطنطين بطريقته التي تفتقد للياقة؟.. حتى القصائد التي أخذها مني واعدًا بتعليق الشاعر عليها، لم تعد - وجدتها جميعها بعد ذلك في بيت قسطنطين - وظل الرجل الثري يتحاشاني، ويتفادى أي حديث عن أشعاري، حتى فقد أنفاسه ذات صباح.

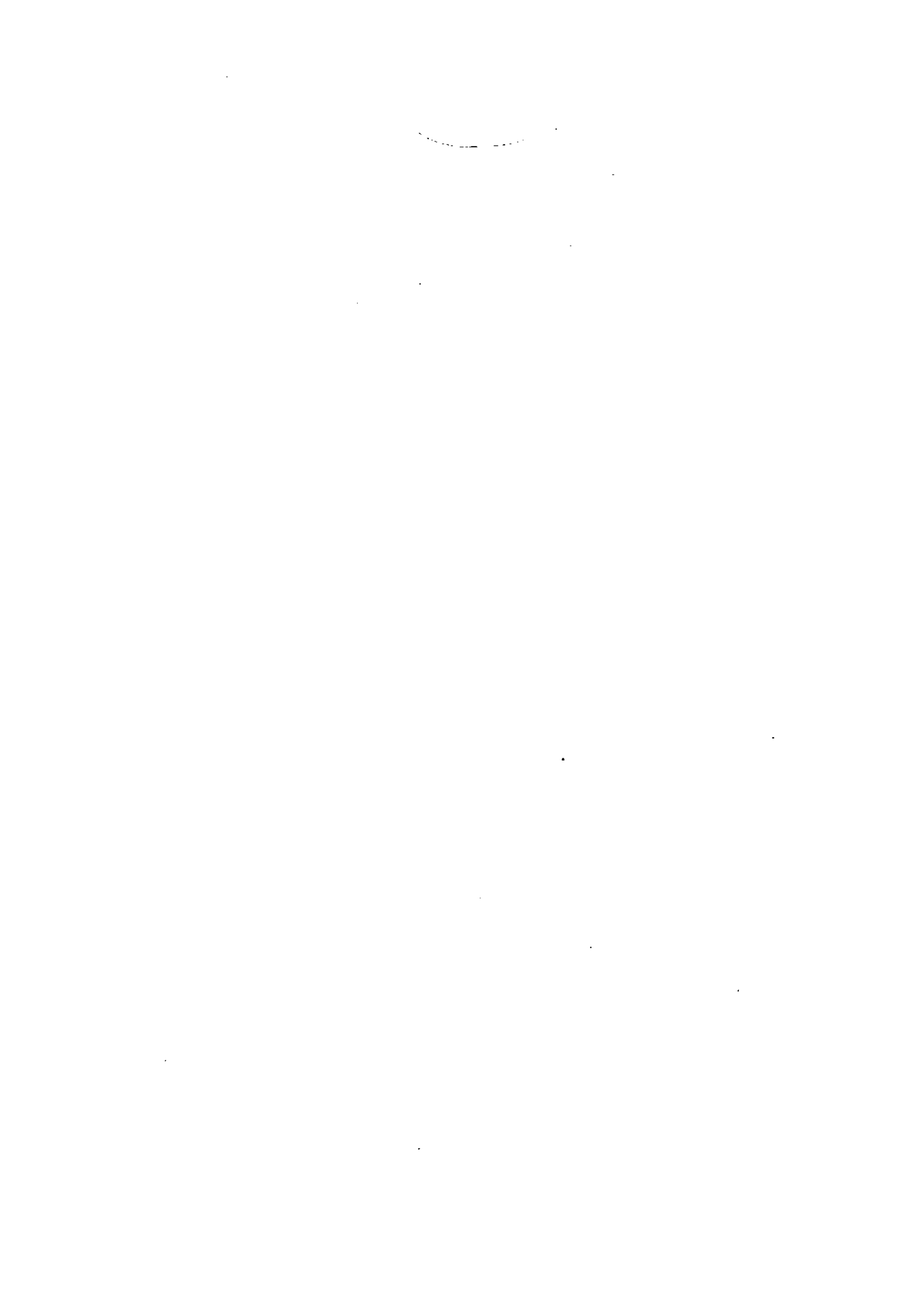
من جديد أصل إلى بيت النوافذ، بخوف الزيارة الأولى الذي لم تبدده سبعة أعوام من اقتحامي الأول لهوانه، بعد أن صرت أحد مقاعده، غير أني من جديد، وكأني لم أغادر الزيارة الأولى التي انتهت بركضي الفزع، أواجه رياحًا هوجاء بدأت تقتلع المكتب الضخم نفسه وترتفع به عن الأرض. تبرز نسخ من القصائد التي أعرفها جيدًا، تسبح أمام عيني، أرى ملحوظاتي المكتوبة بخط اليد وتواريخ قراءاتي للقصائد تسقط منها، تتعلق قليلاً أمام عيني قبل أن تتحول لبقع

صغيرة من الحبر، تستعيد الأغلفة تماسكها الذي جعدته أصابعي، وكذلك الصفحات المثنية عند قصائد بعينها تستوي من جديد، قبل أن تتقافز على المكتب الذي صارت اهتزازاته أشد عنفًا.

النوافذ من جديد، وهيليني تقف على أفاريزها جميعًا. رضيعة في نافذة، صبية في نافذة، مراهقة، امرأة في منتصف العمر، عجوز شائخة. ماذا فعلت بعد أن تركناها متجهين للمستشفى؟ كيف استنسخت نفسها على هذا النحو، متوحدة في متاهة النوافذ المتكررة إلى ما لا نهاية؟ الكراسي محطمة، تلال البراز الصغيرة في كل ركن، يبدو أنها واجهت أوقاتًا صعبة. لماذا أشعر بكل هذا القدر من التماسك؟ كيف لا أرتعب رغم أنني وحدي أمام الطفلة التي تتكاثر من نفسها، ورغم الظل الذي بدأ يسقط علي، كأنما ينبهني لوجوده؟

بعد لحظات، بدأت عاصفة أوراق في الهبوب، مخترقة النوافذ إلى الداخل، قصائده المفقودة تقرر العودة أخيرًا من تيهها. هل بالفعل كتب تلك التلال؟ هل تخلى عن كل ذلك طوعًا ودون ندم؟ كنت أشعر بغرق جسدي في فوضى الأوراق التي راحت تتكاثر حتى ملأت الجنبات غامرة الهواء بين الأرض والسقف، وفي احتضار الغرق صرخت للطفلة كي تغلق النوافذ، لكنني لم أتلق ردًا.

يد كريستينا ستبعث رعدة إلى جسدي، أنهض، لأقف من جديد أمام النافذة، أطل على شارع ليبسوس.. وأفكر، من بوسعه أن ينقذني من الغرق في بحر قصائده؟



هيليني

تتمرغ هيليني على سريره، لكنه هذه المرة معها، فوقها، يمتطيها كحيوان هائج، بكل جوع عمره لغزو امرأة.

يطوقها، يعتصر ثدييها الناضجين المتدليين، ويخبط بيديه على إليتيها الرجراجتين. تحاول التملص، لكنه لا يأبه بتوسلاتها، مواصلاً اعتداءه المجنون، واصلاً لأعمق نقطة داخلها.

أزحت باب الغرفة عندما وصلني صوت تأوهاتها الذي لا يمكن أن يكون لطفلة، ورأيت المرأة الناضجة، بوجه الرضيعة، تصرخ بينما نزيف بكارتها يغرق الملاءة.

(بدآ يتوحدان خلال الأيام الأخيرة بالطريقة التي لا يمكن تخيلها، والتي لا يمكن أن تحيل إلا للموت. تأتي الفتاة وتهمس في أذني نومه بكلمات، فينهض في آلية كدمية، يزيح الفراش ويضع يده في يدها، متجهين نحو الشرفة. ما أن يغادران باب الغرفة، حتى أقطع الخطوات القليلة لأتبعهما على أطراف أصابعي. على سياج الشرفة، يقفان متعانقين، يهمان بالقفز من فوقه. في هذه اللحظة

أطوق جسده بذراعي، وأحمله عائدًا به إلى الغرفة، تاركًا الطفلة ترفرف في الهواء وحدها، ناظرةً إليه بفزع الوداع.

أشد جسده الملتاث للداخل، محتملاً الصخب غير المحتمل لغضبه، بينما يحاول بكل ما أوتي من قوة (من وهن) أن يفلت من يدي ليلحق بها. يظل يتلفت خلفه عاجزًا ليراها. تكون في نقطة قريبة من الهواء المحيط بالشرفة، تتأرجح خفيفةً في مكانها كأنها معلقة بحبل غير مرئي يُبقي جسدها في اهتزاز هين لليمين واليسار.. توجه له نظرة عتاب قاسية، بينما تكون عيناها حمراوين.. إلى أن تغمرهما الدماء وتبدأ في التساقط، دموعًا دموية على وجنتيها. عندما نصل إلى الغرفة يكون غارقًا في بكاء مستسلم عاجز، لكنه عندما يستيقظ ينسى كل شيء، وأكون مرتاحًا لأن الطفلة ودعتنا أخيرًا.. سواء بالموت معلقة في السماء الشاحبة، بين دغل السحابات المظلمة المعبأة بالغرق.. أو بالسقوط على إسفلت أي من الشوارع المجاورة، أو حتى بالضياع في البحر القريب المتلاطم. تطعن هيليني توهماتي، إذ أستيقظ دائمًا لأجدها تمارس نزقها المعتاد بين جدران الشقة، بحياة مضاعفة..).

الآن، يلهث وهو يمتطيها، رافعًا ساقيها البيضاوين على ذراعين فتيين، بينما يلجها بعضو ضخم متحجر، أمكن لي أن أرى جزءًا منه بينما يدخله ويخرجه في ثقبها الضيق.

كأنه لم يرني. ظل منهمكًا في انهماره القاسي، وهو يحركها على السرير، وظللت تقاومه دون جدوى، ناشبةً أظافرها في لحمه دون أن يتأثر، وبين قدميَّ، راح خيط دماء بكارتها يتلوى كثعبان قان، تمدد قادمًا من الفراش، وبدأ يتحرك باتجاه الصالة.

يواصل، والفتاة تعبر أزمنتها تحت جسده، تخطو فوق عتبة المراهقة التي التقطها منها، لتبدأ رحلة منتصف العمر وهي تصرخ، ثم تشيب، وتشيخ، تعجز يداها المرتعشتان الطاعنتان عن نشب جسده، يظل في هياجه دون رحمة لتجاعيدها، لطقطقة عظام العجوز التي تحتضر، غير مدرك للساعات الطويلة التي قضاها في أعماقها، بينما ينتهي الليل كله ويسطع أول ضوء.. حتى ترتد هيليني لأول نقطة في وجودها، ويكتشف في لحظة ضآلة الجسد الذي لا يزال يغزوه، لرضيعة ولدت للتو، فينهض أخيرًا تاركًا البكاء الرضيع يتواصل على الملاءة.

أخيرًا يسقط، لاهثًا، خامدًا وخاويًا، وتخلص الرضيعة جسدها من فوضى الملاءات لتبدأ زحفها مغادرةً غرفة نومه، ملوثةً بدمها الذي راحت تحبو فوقه. تعبر الصالة، وتفتح الباب، زاحفةً باتجاه الشوارع، نحو المقبرة التي غادرتها قبل ثلاث سنوات.

أخمن أنها، أخيرًا، غادرت البيت للأبد، ولن تعود.



فورستر

وضع المخطوط الضخم أمام قسطنطين.

"لقد انتهيت.. صارت الإسكندرية كتابًا!".

توقظه كلمة النهاية، فيجرب تأمل وجه صديقه. يعثر على عينين تائهتين لشخصٍ ضائع. يبدو مريضًا، شاحبًا، في حفل وداع، وتضاعف ابتسامة واسعة في تأكيد ذبوله.

يبدأ بتصفح الكتاب، بينما الضيف المتهلل يسترسل..

"ما زلت غير مصدق أنني أنهيت هذا الكتاب..".

بأريحية يتحرك فورستر في الغرفة، ثم يعد كأسين.

يتدخل، بعد الرشفة الأولى، بالطريقة التي لا يحبها قسطنطين.

"حاولت بأسلوب احتفائي تقديم نشاطات الإسكندرية خلال ألفين ومائتين وخمسين عامًا من وجودها.. استعرضت سلالة البطالمة بادئًا بالمظهر البطولي للإسكندر الأكبر.. ومبرزًا بشكل أكبر لسيرة آخرهم: كليوباترا.. وقد اختصرتُ تاريخ العصر العربي؛ لأنه لا

أهمية له بالرغم من امتداده لأكثر من ألف سنة، من عمرو حتى نابليون..".

لا يرد، يقلب في الأوراق.

"إن مشاهد الإسكندرية ليست ممتعة في حد ذاتها.. ولكنها تجذبنا لأنها تشد انتباهنا إلى الماضي كلما اقتربنا منها..".

يبدأ في استعراض سريع للقسم الثاني، "الدليل"، يبحث عن عناوين الفصول، مندهشًا لهذه الرحلة الدقيقة من ميدان محمد علي، الذي جعله فورستر نقطة انطلاق ثابتة، تتشعب في كل فصل متخذةً طريقًا مختلفة لتكشف جانبًا من جغرافيا الإسكندرية.. ما كل هذه الخرائط، الصور التوضيحية، الرسوم؟

أثناء ذلك، لا يتوقف فورستر عن الكلام، كطفل سعيد بلعبة اخترعها.

"جهد خارق..".

قالها قسطنطين، فأتى فورستر بقفزة غير متوقعة خابطًا كفيه. الإنجليزي الرصين تَطيَّر، التهمت الإسكندرية عقله.

"سأتركه لك لتقرأه بإمعان وتتفضل بإبداء ملاحظاتك.. وإنني أدعوك يا عزيزي لأن تكون قاسيًا ما استطعت.. أعرف أنه مطلب ثقيل.. لكنه ربما يلائم المؤرخ الحقيقي الذي ينام بداخلك".

يبتسم قسطنطين، يشعر فجأة بالخجل من نفسه.

هذا الإنجليزي انتهى من كتابة الإسكندرية أثناء نزهة. وأنت مكثت فيها عمرك كله دون أن تعرفها.

شعر فجأة بحقد، حسد، أنساه شفقته الطارئة على صديقه. فكر أن يرفض الطلب، بلباقة مصطنعة، ثم فكر أن يستبقي المخطوط ولا يعيده، لقد سُرق، اختفى، لا بد أن أحدًا من الضيوف خبأه وانصرف به، يحدث ذلك مع قصائدي، كثير من قصائدي يرقد في بيوت أخرى، لا أعرف أي اعتذار يمكن أن أقدمه لك.

سيُقتل فورستر قبل حتى أن يقدم تبريره.

يريد الإنجليزي أن يسرد له حلمًا، أن يقذف في وجهه بسؤالٍ ‍اتل يجاهد كي يقفز من أعماقه، لكنه يتراجع في آخر لحظة، فقط ‍معن في وجه قسطنطين المزرق، ويتأكد أنه شبح المنام الذي ‍لماره ليلة أتم المخطوط، عندما غرق في متاهة.

يمشي على خريطة ضخمة مفرودة ـ خريطة بحجم الإسكندرية كلما خطا فوق نقطة. تجسدت. لتصبح شارعًا. ميدانًا. تبرز منها ‍موت ومحال وينبت على أرضها بشر. ثمة أبواب كثيرة. يقف عليها ‍كلها شخص واحد هو قسطنطين كفافيس. يتفرج على اللعبة. ‍يرتدي ملابس حراس البنايات. الجلاليب الفضفاضة وعمامات الرأس المعقدة. لكن بذلاته إنجليزية الطراز تلوح من تحتها. لماذا يتنكر على ‍ذلك النحو؟ عندما ينتهي من التجول في الخريطة الكبيرة المفرودة ‍تحت حذائه. تكون الإسكندرية كلها قد تجسدت. تختفي الورقة

الهائلة التي كانت دليله تحت إسفلتها. وتختفي الأبواب كلها. يبحث عن كفافيس المتعدد على الأبواب اللامنتهية. بصعوبة يعثر على واحد فقط. يقف أمام الباب الوحيد المتبقي. يشير له بالاقتراب مبتسمًا. مغمغمًا بعامية المصريين. بالطريقة التي كان يهمهم بها محمد العدل. فيركض فورستر ليخرج من المتاهة. بمجرد وصوله. وقبل حتى أن يصافحه. يفتح كفافيس الباب ويقذف به ثم يغلقه خلفه بسرعة. ليجد نفسه يغرق في البحر الذي كان مختبئًا خلف منفذ الخروج الوحيد.

استيقظ فورستر فزعًا. وظل لأكثر من نصف ساعة مصدومًا من غدر صديقه الذي لم يتوقعه. غير مصدق أنه خرج من حلم. وقرر. عندما يراه في المرة القادمة. أن يسأله ـ بينما يضع أمامه نسخة المخطوط ليطلع عليها ـ لماذا تدفعني للغرق؟

لكنه الآن يستبدل السؤال، بنظرة رجاء حار، توسل مُر، تتنقل بين الوجه الشارد والمخطوط المتكوم على طاولة.

كان قسطنطين يريد أن يقول شيئًا لصديقه، لم يقله.

"طالما أنهيت هذا الكتاب. فقد انتهت حياتك في هذه المدينة".

فُتنة

متى أخبرها أن حياتها انتهت في هذه المدينة؟ لا تتذكر، لكنها تشعر فجأة أنها من ورق (خارجة لتوها من قصيدة؟).. قصاصة تم صنعها على عجل، وبإتقان، بمقص دقيق وحاد.. بلا أبعاد (طالما تمنت ذلك قديمًا). امرأة من ورق، تحجل على ساقين مجعدتين.. تعبر جسدها سطور شعر باليونانية، بحبر غائم، أذابه المطر الآن.

هل سيسيل دم من جسدي لو اصطدمتُ بعجلات الترام؟ هل يمكن أن تموت ورقة؟ أن تنزف من فتوق مسامها؟

يمكن فقط أن تتمزق. مثلما سأتمزق بعد قليل. لكنها لن تفنى.

لا تزال بالحجم الطبيعي، بلا مؤخرة (يزعجها ذلك)، بلا صدر.. لو فكرت أن تشعل سيجارة ستحترق.

الشاعر فقط نجح في ذلك، وحده، دون مساعدة من أحد، ودون عناء.

"وأي قصائده خرجت أنا من بين سطورها؟.. إنه يكتب عن الرجال فقط"..

تقترب من بقالة. يقف فيها يوناني، يشبهه. جميع "الخواجات" يشبهون بعضهم. كلهم مؤرقون بالتنظير لأجسادهم. كلهم يحملون كتبًا.

تفكر مجددًا؛ أي قصيدة يمكن أن تكون أنا؟ تفتش في قصائده التي تحفظها، والتي عبأت بها حقيبة يدها، ولا تعثر على شيء يشبهها.

تفكر أنه أيضًا ورقة. قصاصة صنعتها أمه ثم نفخت فيها الروح فصارت كائنًا مجعدًا.. كان يمكن أن يكون كتابًا، أو صحيفة، أو لافتة.. أي شيء كان يمكن أن يكونه إلا أن يتحول لشخص من لحم ودم.

هو بنفسه قال لها شيئًا من ذلك القبيل ذات يوم. متى؟ لا تتذكر، أو ربما في وسعها أن تتذكر غير أنها لا تريد تحديد يوم بعينه.

لقد خرجَت من كل ذلك بديوان على أية حال. لا تعرف لماذا دسته في حقيبة يدها ليصحبها في رحلتها الأخيرة؟ "وجوه سكندرية"، سخر هو من العنوان بغلظة.

"هذا مدرسي جدًا".

رفض أن يقرأ قصيدة منه. كانت تريده حتى أن يقلبه، ليطالع الإهداء العاطفي، والقصيدة الأولى المهداة إليه.

يجلس في الظلام. لا يرى الظلام. لكن الظلام يراه.

تعجبها هذه العبارة التي استهلت بها قصيدتها عنه، أولى قصائد

الديوان، وأقصرها، لكنها من وجهة نظرها أقواها وأشدها كثافة.

"لو أردتِ أن تكوني شاعرة فعليك أن تتعاملي مع جسدك كورقة.. قابلةً لأن تُثنى.. لأن تُمزق ويعاد تجميعها ورتقها.. لأن يقرأها الجميع بالتساوي.. عليك أن تكوني موضوعًا وأن تختبئ ذاتك.. بحيث يصير وجودك الوحيد الممكن هو وجود من يتعاملون مع الورقة التي صرتِ عليها.. وعليك أن تحتملي هذا التناوب على جسدك.. وأن تتمتعي بقدر من إنكار الذات.. سيحبسك أحدهم بين دفتي كتاب.. في حقيبة.. سيمزقك شخصٌ آخر.. (تفكر أن تقول له: مثلما تفعل أنت)، سيتركِكِ واحد على مكتبه كمحطية يعود إليها عندما يريد أو لا يعود.. سيبصق أحدهم عليك.. بينما سيطويك آخر ويدسك في جيوب معطفه.. وفي كل ذلك ستعجبين البعض وسينفر منك البعض.. هل تفهمين شيئًا؟".

تومئ موافقة وهي تتطلع إليه، وتفكر أن تنهض لتحمله بين يديها وتضعه بهدوء في حقيبة يدها وتعود به إلى البيت لتقرأه في غرفتها، بعيدًا عن ذلك البيت الشبحي.

تستيقظ من سرحتها على اخضرار جديد، قاتم، كأنه امتزج بحمرة عتيقة، دم قديم. كيف صارت هنا؟ أول ما لفت نظرها تلك الحديقة المثلثة الخضراء. ميدان سانت كاترين؟ هل هي فعلاً هنا؟ تلمح دماء قديمة، لا تزال تسيل في الشقوق غير المرئية للأسفلت. دماء القديسة التي استشهدت في هذه البقعة ونقلتها الملائكة إلى

جبل سيناء. هل سمعته ذات يوم يقول "لا كرامة لسانت كاترين في الإسكندرية؟". ربما. تصحبها شذراته كلما انتقلت من مكان لآخر. إنه موجود في كل مكان هنا، حتى لو لم يكن عاشه، أو رآه. يزعجها ذلك فجأة. انتصار لا يليق به. كأن المدينة هي الورقة البيضاء الممددة أمامه ليكتب أقدارها، تنسكب من ذهنه لتتجول ثم تعود إليه لتنتقم منه، بينما يبدو هو غير مصدق أن ما صنعه بيديه يواجهه بكل ذلك العقوق والنكران.

عن يمينها، تنتصب كاتدرائية الجالية اليونانية الكالحة، اسمها "البشارة"، مزحة، بالقرب منها تتناثر مدارس الجالية.

خطوات أخرى. يجثو اثنان من قصور الآخرة. يجيد الموت التعبير عن نفسه في هذه المدينة. قصر رئيس الأساقفة الكاثوليك، وضريح سيدي المتولي الذي يبدو لها وكأنه برز من تحت الأرض ليرقد بعشوائية على جانب الطريق، في قلب حديقة جديدة.

يعبر أكثر من ترام، يعلو صراخها لدى الاقتراب منها، كأنها تدعوها للعودة إلى البيوت الواطئة التي أتت منها. ترام "كرموز" ذي المعين الأخضر، ترام راغب باشا "ذو الهلال الأحمر"، والترام الدائري ذو المثلث الأخضر. لكنها تشير لهم بالرفض. تفكر فُتنة أنها كانت تصلح لتكون ترامًا، تسير على الشريطين الحديدين لما لا نهاية، لكنها تتوقف فجأة (كأنما على نفس الشريطين)، قاطعةً جولة ذهنها، لتكتشف أنها في شارع الأخوات الراهبات، من هنا يمكنها

أن تقفز .في ترام المكس، ذي النجمة البيضاء. الرحلة المرهقة، غير الممتعة، التي طالما انتهت بها في بيتها.

شارع إبراهيم الأول، بالقرب من أرصفة الميناء.. بورصة القطن بمينا البصل، بالنافورة الصغيرة في منتصف الساحة المنبسطة أمامها.. كل ما في هذه المنطقة قطن، زغب أبيض، ثلوج دافئة، مخازن للقطن، آلات خشبية لتنظيفه وضغطه في بالات، الشوارع الزلقة بالزغب المشحم. ترعة المحمودية، ملوثة، لم تعد ماء. ثم القباري، فالمكس. كانت تنظر لمحاجر الحجر الجيري، "التي أمدت المدن القديمة والحديثة بأحجارها" كما ظل يقول، وكأنه يجرد بقعةً كاملةً من أنفاسها الإنسانية. هنا رحم الصخر، لكن لا أحد يعرف، سيبقى ركنًا منسيًا على حواف المدينة المضاءة. المحاجر محفورة في الجبل الذي يفصل البحيرة عن البحر.. تليها قرية الدخيلة، على الشاطئ، يمتد منها طريق قطاع طرق وحالمين حتى العامرية، لتبدأ الصحراء بعد ذلك.

تختفي قضبان الترام فجأة، وتنزعج فُتنة. يهاجمها شعور مثل تأنيب الضمير. كيف حادت عن موتها؟ تحاول أن تترك في كل مكان تتركه، في كل مكان لن تراه بعد اليوم، تذكارًا. لو كان بإمكانها أن تفعل، لقطعت من لحمها شرائح رفيعة تتركها واحدة تلو الأخرى حتى إذا اقتفى شخص أثرها يستطيع في النهاية أن يلصق جسدها من جديد. لكنها لا تجرؤ. تترك تذكارات أقل خطرًا،

أقل إيلامًا: بصقة، أو نفثة لا معنى لها، أو بذاءة بإصبع طباشير، سرقته من فوق مكتبه بالذات.

الترام. سيعود للظهور من جديد. عند انعطافة ما سيباغتها كضوء.

يسقط ظل ضخم على جسدها، كغطاء غامض، من الضخامة حتى إنه يتمدد أمامها، كسجادة داكنة، فتتعثر فجأة، كذبابة تائهة.

يبدو الظل تجسيدًا للشخص الذي تعرفه، للشخص الذي تهرب منه. رغم ذلك لا تعثر عليه عندما تتلفت. تندهش وهي تغوص في سجادة جسده الممدد أمامها، لأنه لا ينحسر. حتى عندما تنحرف، تخطو فوق رصيف أو تعبر الشارع لتسير على الجانب الآخر، يظل الممشى الداكن منبسطًا.. في الوقت نفسه يختفي ظلها، وتتلقى ذلك الأمر مرتعبة، فقد تعودت في رحلتها أن تتسلى بمراقبته. ترى أحجامه المتنوعة وأوضاعه المتغيرة كلما مشت. أشعرها غياب ظلها أنها صارت غير مرئية، حتى إنها راحت تتحسس جسدها لتتأكد أنه لا يزال موجودًا، كيانًا صلبًا يحتل حيزًا من الفراغ.. وحدست أخيرًا أن الظل الكبير ابتلع ظلها، وأنها لو تمكنت من الخروج من أسره، فستعود لرؤية ظلها.

تحاول التغلب على رعبها بالتفكير في السبب الذي يدعو ظله الهائل الآن للالتصاق بها هي بالذات، كأنه يستعير جسدًا كي يحافظ على حياته، ليقنع نفسه أنه انعكاس لوجود ما.

ثم تفكر فُتنة، ماذا لو كان هو الآخر يفكر في جسدها، يشعر أنه ألصق به، ويحاول بكل ما يستطيع التململ منه غير أنه يعجز؟.. لعله هو الآخر يحاول. فكرت أنها حرب لن تحسم إلا باختفاء أحدهما. لو اختفت سيعود للظل جسده المتروك، ولو انزاح سيعود لها ظلها.

تسرع فُتنة، ثم تركض، تجد نفسها في شارع سيدي المتولي، الضريح، فردوس صغير، آخرة معبأة في البناء الواطئ الهش. تحيط به حديقة أيضًا. خضرة صوفية، لكن الظل يتمدد، وتسمع صوته، كيف لها أن تصف صوت ظل لو أرادت؟

تشعر لأول مرة بإنهاك لا سبيل لمقاومته، تدنو منها الأبدية.

تبدأ فُتنة في تمزيق ملابسها.

كلوديا

"لقد انتهينا تقريبًا، احترق ديمتري، واختفى. لا أعرف من قال لي إنه بحث عنه في كل مكان، لكن الرجل المحترق، كيف يمكن أن يراه أحد؟ لا أعرف من أخبره أنني الوحيدة التي تزوره، لقد فوجئ بفستان حقيقي لأمه، ببذلة حقيقية على جسد عشيقة، وبنظارة تعرفها عيناه، وجن جنونه وهو جالس. فوجئ بقصائد لم يكملها تُلقى أمام عينيه، لك أن تتخيل كيف كان يرتعد في كرسيه. ربما تمنى شيئًا، حققه ديمتري، لم أتأكد أبدًا، ولم يجبني الرجل المحترق، هل كان أخيرًا يحقق انتحارًا كاملاً؟ لكنه أيضًا أخفق. انتهى جسده وبقي يتنفس".

تبتسم كلوديا. تبدو أكثر اطمئنانًا في كازينو سان ستيفانو، الفسيح والمبهج والمعبأ بالحياة، وحيث يبدو البحر قريبًا وأشد زرقة.

لا بأس.. إنها فرصة مثالية لتعيش بوجه آخر، ولو لدقائق قليلة.

أخيرًا تشرد، قذفت بركام الكلمات الذي أتت لتفرغه، ولم تعد تأمل في شيء.

تدير عينيها في المكان، تتفرس في الوجوه المنخرطة في الهمهمة.

"لم تعد المدينة تطاق".

أومأت موافقا دون أن أمنحها ردًا. ها قد بدأت كلوديا رحلة العودة إلى أعمق دهاليز وحدتها وأشدها عتمة..

"لقد عاد الحلم يهاجمني.. بشراسة أكبر.. حتى إنني أصبحت ملمة بجميع تفاصيل الجريمة التي تُحاك ضدي في الواقع".

الحلم من جديد، الحلم الوحيد القادر على إخافتها، يطلب الشاعر الشائخ، رأس شخص مختبئ في المدينة، تهديه له كلوديا، (هل يمكن أن تخون ديمتري؟)، كلوديا في النهاية تفعلها وتضع أمامه الرأس الذبيح، متدثرةً برداء الراقصة الملتهب، المطرز بالفضة، فتصير امرأة فراشِه، لكنه يأمر خادمه أن يأتي له برأسها، "عليك أن تقتلها خارج البيت"، "لا أريد لها أن تُذبح في بيتي"، "لا أريد أن أرى دماءها تلوث أحد أركان الشقة"، "دع جسدها وائْت برأسها فقط".. يظل الخادم يرقبها، يتحرك بها، بالسيارة السوداء كغراب معدني، ينتظر ركنًا في المدينة، ثم يتمكن من فصل رأسها عن عنقها؟ أين؟ تخيل.. أين؟.. هنا.. على هذه الطاولة.. أمام الجميع.. بينما فرقة منهمكة في العزف تصم الآذان والعيون عن نافورة الدم المتفجرة من فوهة العنق المبتور..".

تهذي كلوديا.

"هل ثمة حياة خارج أوهامنا عن الحياة؟ ما رأيه؟".

لا بد للشاعر أن يحضر، يتلقى سؤالاً من خلالي، ولا يجيب عنه.

"ألكسندر.. أنا لم أعد أستحم.. لي رائحة كلبة منتنة.. فهل تستطيع أن تجرب نزع الملابس عني؟ هل ستطيق رائحة العانة التي تنفجر من كل شبر في جسدي؟.. لا يعرف أحد أن جسدي احترق، تحت هذه الملابس لحم ذائب".

تقولها وتخرج زجاجة عطر تسكبها فوق ملابسها.

يبدأ الحفل السيمفوني، تبدو وقد اطمأنت أكثر للجلبة. لكن أحدًا من المنهمكين في هذه السوق الراقية للكلمات لا يصمت، كأن الأوركسترا تعزف لنفسها. تسحب كلوديا نفسها من الكرسي، وتنهض في صمت، أحدق غير مصدق أنها ستغادرني على هذا النحو، لكنها عندما تغادر الطاولة، أكتشف، محتقنًا من بطء بديهتي، أنها تركت حقيبتها وسجائرها. بدأت تتحرك بثقة في اتجاه الجوقة الموسيقية المنهمكة في عرضها الرصين، قانعةً بانصراف الآذان عنها للكلام العابر.

توقفت قبالتهم فجأة، وأتت بحركة حاسمة من يدها داعية إياهم التوقف، ارتبكوا، لكنها صرخت. توقف البعض واستمر البعض لحظات قبل أن يتوقفوا بدورهم، وظل أنين كمان يحلق لثوان،

محتضرًا في الحياة التي توقفت دون إنذار.

انتبه الجميع على الصمت المتوتر غير المتوقع، كأنه سيفضح أسرارهم التي تعالت مطمئنة لستار الموسيقى. بدأت كلوديا تلقي القصائد، صوتها بدأ منفردًا، قبل أن يبدأ الموسيقيون في تمييز اتجاهه، لتعود من جديد، على استحياء، مداعبات الأوتار.. إلى أن يندمج الجميع في تبطين مرتجل، لكن متقن، للقصيدة.

تعود لتجلس، محدقةً في جميع المتطفلين كأنها تخرسهم بعينين ذاهلتين.

"ماذا أحضرت هذه المرة؟".

وضعت أمامها عددًا من القصائد، ونظارة، ومرآة.

"أريد فستانًا يا ألكسندر.. وبذلة".

كنت أريد أن أخبرها أن ذلك مستحيل، لكنني قلت: في المرة القادمة.

"إن ديمتري أفضل الآن.. ونحن نتمرن على العرض.. خمسة وعشرون عامًا مرت.. إنه رقم يليق باحتفال بتلك الذكرى السوداء.. لكن ديمتري متحمس.. متحمس.. تخيل؟.. وماذا لوكانت النهاية هذه المرة؟ لن نخسر شيئًا.. رجل محترق.. وامرأة تقترب من الخمسين، بلا أمل..

عرض في عيد ميلاده السبعين.. وبعد مرور خمسة وعشرين

عامًا على العرض الأول.. أليس قدرًا؟ وهل ثمة جملة دعائية أفضل من تلك؟؟.. لعلي لم أخبرك أن ذلك الرجل المحترق زوجي".

تضحك كلوديا، فأشعر لأول مرة أنني رأيت شيئًا محترقًا في أعماقها.. سيحترق هذا الوجه.



عبد الفتاح

أخيرًا عرف، بجسده الذي يتفتت، ما ينبغي أن يقدم عليه.

يطرق باب عشيقه القديم، ويفتح كف يده، دون أن يبرر طلبه، دون حرج، دون أن يطرق رأسه كخادم، ويتلقى الهبة، من اليد الخائفة التي تشحب، من العينين اللتين تتفاديان عينيه، عينيه القديمتين، لو رفض يومًا منحي ما أريد، سأقتله، سأخرج السكين المخبأة خلف البالطو المنسدل على الجلباب، وأترك اليوناني الشاذ جثة. قسطنطين أيضًا يعرف. عليه أن يدفع ثمن ما فعله، ثمن الحياة التي ذهبت بها بلا رجعة، ثمن الشبح الذي أيقظ طيفه بطريقته الراقية في إخفاء الأجساد. لحيته التي طالت، وتلك البثور الكبيرة التي تزحف، كفقاعات داكنة، تغزو الوجه الحنطي، تكاد تطيح بأنفه، تزحف على ذؤابات أصابعه، مرض غامض، سيطيح بأطرافه، ستسيل أصابعه منه، سيسقط أنفه تحت قدميه، واليوناني، بينما يمنحه المال، مرة بعد مرة، يخشى مصافحته، يتأمل الحشرات الدقيقة في لحيته، والنتوءات، كقمم جبال دقيقة، تحتل تضاريس

الجسد. يخبره أحيانًا، بخجل كأنه يطلب مضاجعة، أن يتوجه إلى طبيب، ويبتسم توتو، طبيب! هذه الأشياء تعرفونها أنتم، أما نحن، فنموت عندما يجب أن نموت، مثلما تقع حبة الفاكهة، المال للطعام فقط، ولزجاجة رخيصة في حانة، ماء حارق، يُدَس في الحلق مع استبعاد مؤقت للحواس، وليس كزجاجاتكم، التي كزجاجات عطر، يقبض على المال، ملتفتًا لليد التي تحاذر أن تلمسه، للأنف الدقيق المخبأ خلف منديل معطر، للجسد النحيف المحصن ضد أوبئته، كأنه لم يكن ذات يوم مفتوحًا أمامه.

لكنه، لمرة أخيرة، لن يغلق يده على المال ويستدير، لن يشيح بوجهه اتقاءً لارتعاد عشيقه القديم، يدفع الباب للداخل، ويخطو، غير آبه بالعينين الفزعتين، يشهر جسده الممسوخ، أطرافه الذاهبة للتساقط، يقبض على الجسد المتأفف، الخائف من عدواه، وعلى سريره، النظيف، المرتب، في انتظار زائر، يحكم الجسد تطويق فريسته، يوجه قبضة أخيرة، بحثًا عن إغماءة مستسلمة، ويفرغ جسده، مثلما فعل أول مرة، في جسد اليوناني الهش.

28

الثاني والعشرون من ديسمبر 1932.

أنهى كفافيس السطر الأخير في الفصول الستة، وأعاد حزمة الأوراق إلى الحقيبة الجلدية. الخامسة عصرًا الآن. فكر أن يعد قهوة، لكنه ذكر نفسه: انتهت المهمة التي كانت تجبرك على تغيير عاداتك. صب لنفسه كأسًا، ووقف في النافذة، يرقب حركة الشمس الزائلة.

إتمام القراءة أشعره بحسرة لا سبيل إلى تجاوزها. الامتلاء الذي تركته عليه المطالعة اللاهثة لجبل أوراق ألكسندر، خلال أيام خمسة من الأمل واليأس والرعب، تحول فجأة إلى خواء موحش. كأنه، بعد كل هذه الحياة، لم يعد يجد شيئًا يفعله خارج قراءة سر صديقه.

لقد انتهوا، لكنهم، جميعًا، قادرون على العودة، لم يمت أحد بعد.

(أمل واسى به نفسه، وتساءل: هل فعلاً تتمنى أن تمتد الرواية؟).

تأرق لاحتراق ديمتري، بينما ترتدي خاريكليا فستان أمه (هذا الفستان، كما وصفه ألكسندر، موجود في الواقع، واختفى فعلاً من دولابه)، لكن كلوديا بالتحديد، ورغم كل شيء، منحته طاقة أمل، إنها تنتظر عرضًا جديدًا، يجب أن يتحقق لتنتهي حياتها، ولتنتهي حياة ديمتري المحترق. "فُتنة، قتلها ظلي، ألهذا الخد كنتُ ثقلاً يجثم فوقها لكنه في الحقيقة ليس أكثر من طيف؟"..مجددًا، استعار ألكسندر أحلامه بالطفلة، (ضاعف ذلك من أرقه). كان يحلم أحيانًا أنه يضاجعها وحكى للشاب تلك الأحلام التي كانت تشعره بوخزة ضمير، ليس للسبب الأخلاقي البسيط المتمثل في كونها شقيقته، لكن لأنه كان يعرف أية رغبة صادقة في قتلها تنطوي عليها أعماقه.

لم تنته الرواية إذن عند هذا الحد. القصاصات على الأقل تشي بذلك. ألكسندر أيضًا وَعَد مبكرًا، في قصاصاته الأولى بفصل نهائي في أديرة النطرون، ما يزال ينتظره مقتولاً بالغموض المُنتَظَر.

تذكر فجأة حفنة أوراق منفصلة في الفصل السادس، نحاها جانبًا دون أن ينظر فيها انتظارًا لانتهاء قراءته المسترسلة. "كيف نسيتها؟!"، ودب فيه أمل فجأة، لأن المهمة ستمتد ولو لبضع دقائق أخرى.

من جديد أخرج المخطوط، وفوجئ وهو يلتهم الوريقات المنفصلة، أنها تأملات حول دفتره "ملاحظات عن الشعرية والأخلاق". لقد قرأ الشاب إذن تأملاتي التي ظننته لم يرها.. هل ظل يعيش معي كل هذه السنوات، فقط، ليكتبني؟

29

عندمـــا استعرضتُ حفنـــة التأملات التي ضمَّنهـــا كفافيس دفتره "ملاحظات عن الشعرية والأخلاق"، اخترت بعض المقاطع، التي أعدت كالعادة نسخها، انتظارًا لوقت مناسب لتوظيفها، لكنها ظلت نائمة، كأن شهوتـــي وكل رغباتي، بل ومشاريعي بشأنها، انتهت بإفراغها بخطي، بالاطمئنان كوني، بشكل ما، امتلكتها.

الآن، بينمـــا أتصفح مـــا يمكن أن أدعـــوه "مختاراتي" من تلك التأملات، أفكر بنـــوع من الحيرة، في ذلك التنوع الهائل فيما كتب، حتى على مستوى طول المقاطع. وأذكر أن إحدى هذه التأملات حقق لي قدرًا من التشوش، عندما بدأت العمل في هذه الرواية، إذ تذكرته

فجـــأة بعد شروعي بالفعل في الكتابة، لكنني لم أعد لقراءته، خشية أن يفسد ذلك كل شيء.

"من يدري أية أفكار شهوانية ترفرف فوق تأليف معظم الأعمال الأدبية، أفكار شهوانية مستقلة، تلوي عنق التصور. ويبدو المؤلف أنه يكتب برداءة متعمدة، تُستمد من العمل الإلزامي الذي حوله المؤلف إلى انطباع أو حالة من الشهوة خلال التأليف. هذا الإحساس قوي للغاية - وكم هو شعري أحيانًا - ذلك أنه يدمج نفسه بالكلمات التي تخلقه. ويغدو الكاتب، حتى بعد مرور الشهور، غير قادر على تصحيح أو تنقيح أي شيء في النص، لأنه يستدعي بقراءته له رؤية انطباعه القديم، وبذلك يصبح أعمى ألوان إزاء جانب من عمله".

لا أعرف أي قدر من التورط يمكن أن يجعلني أعمى حيال هذه الرواية، ولا أستطيع الآن أن أجزم إن كانت ستخضع لتنقيح وتصحيح وإعادة كتابة، أم ستبقى على حالها بدافع من "الانطباع القديم". إنها أيضًا قد تبقى على حالها بدافع من الفتور، أو الاكتفاء، أو انعدام الحافز لتطويرها. هناك أيضًا، وهو ما لم يلتفت له كفافيس، القداسة التي يراكمها مرور الزمن، هل نجرؤ على تعديل أثر بيد الحاضر حتى لو كان بحاجةٍ فعلاً لقدر من التعديل يجعله أجمل أو أكثر اكتمالاً؟.. أعتقد أنه، وقد ظل يحتفظ بجميع مسودات قصائده، حتى المنشورة منها، بقي متشككًا، أي مرحلة في الكتابة تستحق البقاء، الأكثر صدقًا وقداسة أم الأكثر فنيةً وعرضة للزوال؟

*(لست أدري ما إذا كان الانحراف يمنح القوة. أحيانًا ما أعتقد ذلك. لكن المؤكد أنه مصدر للعظمة).

تلك الملحوظة مؤرخة بـ 1902. كان في التاسعة والثلاثين، أو ربما أوشك على إتمام الأربعين. إنه، (هكذا أفسر)، يفرق بين القوة والعظمة، كأنه يفرق بين القوة والضعف. هل يرى الانحراف وسيلة لبلوغ العظمة، أم لتفادي القوة، أم لتبرير لما تنطوي عليه العظمة من خواء وبالتالي تغدو غايةً مقبولة للشعرية في أشد أشكالها إخلاصًا لذاتها؟ إنه يريد لنفسه أن يكون عظيمًا وضعيفًا، مقابل أن يكون شخصًا عاديًا قويًا. هذا الإصرار على الثنائيات ما يجعلني أشك في سلامة حدسه، وهو ينطوي في ظني، في النهاية، على العنصر الذي يوهم طوال الوقت بأنه يحارب كي يتجنبه، أقصد الأخلاق بالذات.

في موضع آخر يكتب:

"لقد قللت من عملي قوانين المجتمع اللعينة، التي ليست نتاج تقدير صحي أو نقدي. لقد خنقت تعبيري، منعتني من إضفاء الضوء والشعور على من هم على شاكلتي. والظروف الفظة للحياة أجبرتني على العناء من أجل إتقان اللغة الإنجليزية. أي بؤس. فلو أنني عانيت على نفس النحو في الفرنسية ـ لو أن الظروف سمحت بذلك، فيما لو كانت الفرنسية مفيدة لي كالإنجليزية ـ فربما استطعت التعبير عن نفسي بحرية أكبر بهذه اللغة، نظرًا للسهولة التي توفرها الضمائر، التي

تُعلن وتُضمر في نفس الوقت. وفي النهاية، ماذا أفعل؟ إنني أمضي إلى الإهدار، بالمعنى الجمالي ، وسأظل موضوعًا للتأمل، وسيتم إدراكي بصورة أكثر كمالاً انطلاقًا مما رفضت".

أستطيع، بينما أقرأ، أن أجاهد لكي أصبغ أفكاره المجردة بمشاهد متجسدة، تبدو أكثر بساطة وقربًا من الفهم. كان يرهط في أحلامه بعبارات فرنسية، مدرسية، كتلميذ يتلقى أول دروسه في اللغة. كان يُعرّف نفسه، الاسم والسن والمهنة، ويخلق صورًا بدائية عن الطبيعة، عن السحب الحبلى، أو الأشجار الباكية، ثم ينهض متوترًا ويسألني، بقدر من الخجل، وقد شعر أن الشاعر قد أهين: "هل تحدثت أثناء نومي؟"، فأجيب ببراءةٍ مندهشة: "لا.. لم يحدث شيء من ذلك".

لكنه، على الجانب الآخر، كان يركض بقوة جنونية، تلائم العدو نحو الموت، باتجاه تحوله إلى موضوع، بتحلل ذاته مرة بعد أخرى، بإهانتها حد التدمير من أجل المتعة التي لا تلبث أن تخبو، وبحيث يصفو في النهاية، غير شاعر بشيء، كقطعة من الوجود معرضة لكافة أشكال التلقي.

ماذا لو قرأ هذه الرواية؟ أي مشاعر ستنتابه وهو يرى نفسه أخيرًا موضوعًا فنيًا يكاد ينبت عن تجسده؟ هل سيتمكن من اختبار جدي للفرضية التي ظل يحارب من أجل التحلل في تحققها؟ أم ستبزغ ذاته، كضربة نهائية، موجعة، لتقوض كل ما بناه ذهنه في حياته المتقلبة؟

.. لكنه، بشكل أو بآخر، يجيب بواحدة من طرقه الملتفة، فقد كان في النهاية شخصًا أقرب للساحر الذي فقد سحره كلما هجر القصائد

واقترب من التأمل، ذلك أن "سوء الفهم"، أو لنقل تراوحه بين قارئ وآخر، ظل الإنقاذ الحقيقي لشعره، والذي يطال تأويله، الشاعر نفسه، مرة بعد أخرى، كوجه آخر لما كتب وليس بالضبط لشخص كتب ما كتب.

"يا له من شيء خادع يمكن أن يكونه الفن، عندما تريد أن تحقق الصدق، فأنت تجلس وتكتب ـ غالبًا بصورة تأملية ـ عن المشاعر، وبعدها، مع الوقت، تشك في نفسك. لقد كتبت "شموع" و"أرواح العجائز" و"رجل عجوز" عن الشيخوخة، وعندما تقدمت نحو الشيخوخة فعلا اكتشفت أن هذه القصيدة الأخيرة لا تنطوي على تقييم صحيح.. بينما لا أزال أظن أن "أرواح العجائز" تنطوي على ذلك التقييم الصحيح، لكنني عندما أبلغ السبعين من العمر، فربما أجدها أيضًا ناقصة. أما "شموع" فآمل أن تكون بمأمن من ذلك".

أعتقد أنه يمكن لتأملاته تلك أن توظف في عبارات حوارية، تصلح لتغذية الرواية في كتابة لاحقة، مع تخفيفها من بعض الزوائد الذهنية، لكنها أبعد من ذلك، ربما لا تعود ذات أهمية، حتى إن قررتَ نشرها في كتاب بعد موته، إلا بفضل اسمه.

على أية حال، بدأ هذا المخطوط يجعلني شخصًا من وهم.

ثمة يد تحركني. ثمة شخص آخر يكتبني على حفنة أوراق، وهكذا.. كأن كل شخص في المدينة يكتب شخصًا آخر، وحيث تكون المحصلة النهائية: مدينة من ورق يقطنها لا أحد. لكن.. هل يمكن أن توجد مدينة واقعية خلف كل هؤلاء الأشخاص الوهميين؟ هل ثمة

حقيقة يمكن أن ندعوها الإسكندرية؟.. إنها تنسحب للوراء يوما بعد الآخر، كشعر رأس طفل يشيخ.

أشعر كأن الإسكندرية صارت ذكرى. كأنني تركت المدينة خلفي ولن أعود إليها.

هل يود أن يسألني أين أكون عندما يستيقظ ليجد نفسه وحيدًا؟ أم أن ذلك بدا له مثاليًا بعد أن تحوَّل لشخصٍ صامت؟

إنه لا يعرف شيئًا عن عالمي الآخر، جانبي المعتم الذي أخفيته عنه، كي أستبقي لنفسي شيئًا. في أوقات كثيرة كان كل ما ينتمي لعالمي يتحول تلقائيًا إلى ملكية مشتركة قبل أن يؤول في النهاية إليه. ولعله أدرك منذ فترة أنني أمتلك جانبًا مبهمًا لم أعد أطيق أن يشاركني فيه أحد، فلم يعد يسألني أبدًا أين كنت.

هو أيضًا ظل محتفظًا بعالم آخر غير قابل للخدش، عالم يقع خارج خطاياه المعلنة وغرابة أطواره المتفق عليها. أتعثر في عشاقه السريين أينما مشيت، ودون أن أستوقف أحدًا منهم، دون أن أتفرس فيهم، كنت أعرف من نظرة واحدة أي شخص ينتمي لمساءاته السرية، التي كان يلجها مترددًا ويخرج منها مهانًا ومنثورًا كالريح.

اسمي ألكسندر سينجوبوليس. أنا ألكسندر سينجوبوليس، ولا أزال موجودًا.

30

"اسمي ألكسندر سينجوبوليس، أنا ألكسندر سينجوبوليس، ولا أزال موجودًا".

يتردد في أعماقه الصوت الذي شعر به متألمًا لألكسندر، لكنه يشعر أن رفيقه بدأ يوغل في تعريته، والأسوأ أنه يفعل ذلك من خلف ظهره. كان بإمكانه أن يحتمل أي شيء إلا شعوره بعدم التقدير.

فكر، أن الرواية جعلت ألكسندر نفسه، كواحد من شخصياتها، شخصًا آخر غير ألكسندر الذي يكتبها، وكان بمقدور كفافيس أن يتخيل ذلك النوع من الألم لشخص يُحوِّل نفسه، قبل الجميع، إلى كائن من ورق. كم مرة خلال الكتابة فكر ألكسندر سينجوبوليس في أشد الطرق مثالية لكي لا يصبح نفس ألكسندر سينجوبوليس داخل الرواية؟.. كم

أخذ يبتعد عما يظنه حقيقته ليكون ندًا متجسدًا من وهم؟ وما محصلة ذلك؟ يزحف الآخر، حثيثًا وعلى مهل، ليُخفي الأول، يقلص من تجسده، يجعل ذاته تشحب يومًا بعد الآخر، حتى لا يعود له وجود. بانتهاء هذه الرواية سينتهي ألكسندر سينجوبوليس أيضًا، لن يكون أبدًا أطول عمرًا مني. وشعر فجأة بانتصار، وهو يفكر أن الرابح في نهاية اللعبة سيكون القارئ، وليس الكاتب.

بدأ يشعر بنوع من الشفقة امتزجت بحنقه، وفكر أنه قال دائمًا إن الفن يجب أن يجعلك مرتبكا، بين أقصى طرف للحب وأقصى طرف للكراهية، لكنه من جديد جذب دفتره، "تأملات في الشعرية والأخلاق".

يستعيد المقاطع التي اجتزأها ألكسندر، لكنه يقرر التوقف عند مقطع قديم لم يقترب عشيقه منه، يلوح له فجأة كوسيلة دفاعية غير متوقعة أمام زحف عدوه.

يمسك بالقلم، بينما يقرأ، متجولاً في المقطع المؤرخ بـ5 يونيو 1905.

"اتصل بي شاعر شاب. كان بالغ الفقر، يعول نفسه من عمله الأدبي، وبدا لي أنه كان حزينًا إلى حدٍ ما عندما رأى المنزل الجميل الذي أعيش فيه، وخادمي الذي قدَّم له شايًا لذيذًا، وملابسي التي صنعها خياطٌ بارع. قال: ياله من أمر فظيع أن تكافح لتحقيق الغايات، أن تحاول بقرع الطبول دعوة المشتركين لمجلتك والمشترين لكتابك.

لم أشأ تركه في الظلام، وأخبرته ببضعة أمور، على النحو التالي: إن مأزقك محزن ومرهق، لكن عليك أن تعرف كيف أضحي من أجل

رفاهياتي الصغيرة.. فمن أجل توفيرها، انحرفتُ عن المسار الطبيعي وأصبحتُ موظفًا (يا لها من حماقة)، حيث أقضي وأفقد ساعات كثيرة غالية كل يوم (ينبغي للمرء أن يضيف إليها ما يترتب عليها من ساعات الإرهاق والضجر). أي إهدار، أي إهدار وأي ضلال.. لكن حينما يكون المرءُ فقيرًا، فلن يفقد ساعةً واحدة، فهو دائمًا على أهبة الاستعداد، طفل مخلص وموهوب للفن.

كم من مرة، خلال وقت العمل، طرأت لي فكرة رائعة، انطباع نادر، مثل بيت شعري جاهز ومُحكم، وأُجبَر على تجاهلها، لأن الخدمة العامة لا تقبلُ التأجيلَ. وعندما أعود بعدها إلى البيت، وأسترجع نفسي قليلاً، أحاول استدعاءها، لكنها تكون قد ولت.

وهكذا بحق، فيبدو كأن الفن يقول لي: إنني لستُ خادمًا لك لتأمرني بالانصراف حينما أجيء، وبالمجيء حين تدعوني. إنني السيدة الأعظم في العالم، وإذا ما ازدريتني، أيها الخائن الوضيع، من أجل منزلك الجميل اللعين، ومن أجل ملابسك الجميلة اللعينة، ومكانتك الاجتماعية الجيدة اللعينة، إذن فلتَقنع بها، وبالمرات النادرة التي أخطُر لك فيها وتكون مستعدًا لاستقبالي، واقفًا أمام بابك، في انتظاري، كما ينبغي بكل يوم فريد".

بدأ كفافيس يكتبها من جديد، مضيفًا اسم ألكسندر سينجوبوليس لـ"الشاعر الشاب"، وبعد أن انتهى، نزع الورقة القديمة ومزقها. ستكون هذه المقطوعة آخر مقطوعة في الدفتر، الذي سيخرج للنور بالتأكيد ذات يوم، ولذلك ستكتسب أهميةً مضاعفة، وفي هذه الحالة، لن يكون لتقليل

ألكسندر من شأن تأملاته أي معنى، إلا أنه اطلع على هذه المقطوعة واغتاظ فقرر أن ينتقم.

وهنا فقط، ولأول مرة، قرر كفافيس، ليس فقط أن يخبئ دفتره جيدًا، لكن أن يمزق الورقة التي أوصى فيها كتابةً أن يكون ألكسندر سينجوبوليس هو الوصي على أعماله بعد موته.

ظل يفتش في دولابه إلى أن عثر عليها، ومزق الورقة التي كتبها قبل سنوات لمئات القطع الصغيرة. وعلى الفور، وبينما يفكر في ورقة أخرى لا بد أن يوقع عليها تحسبًا لأي احتيال من سينجوبوليس، بدأ يفكر في قائمة الأسماء المؤتمنة، القريبة منه، ولم يجد أفضل من اليونانية الشابة "كريستينا قسطنطين" ليأتمنها على موته.

القسم الثالث

31

في نهاية ديسمبر 1932 فاجأ ألكسندر سينجوبوليس كفافيس برغبته في السفر إلى أثينا، ليعيش هناك.

نزل القرار كالصاعقة على الشاعر.

"لماذا؟"

"لأنني لا أفعل شيئًا هنا".

"ما الذي تغير؟". كتبها كفافيس، وكان يريد أن يكتب: "ومنذ متى وأنت تفعل شيئًا؟".

أجاب ألكسندر وعيناه على الورقة، "أثناء وجودنا في أثينا عُرض علي أكثر من منصب كمحرر أدبي في الصحف". "من أصدقائي، ولأنك صديقي". الرد، ترك ألكسندر ممتقعًا.

"لم يعد يتبق لي الكثير في الحياة، وأنا بحاجة لك".

بينه وبين نفسه، كان كفافيس يفكر في الرواية التي أوشكت على أن تكتمل، يقتله الفضول ليقرأ رحلة الصحراء التي وعده ألكسندر بها، وأن يطالع مشهد موته.

"ما الذي فعلته بي خلال الأيام الأخيرة؟".

هيئ لكفافيس أنه يفهم مغزى السؤال، لكنه قرر أن يستوضح، بعلامة استفهام كبيرة.

"مَن ألكسندر سينجوبوليس الآن بالنسبة لأصدقائك؟ أنت جعلت مني فجأة، ودون مبرر، شخصًا غير موجود.. باتوا يرتابون فيَّ.. كلما قابلت أحدهم صدفة أشعر أنه يتجنبني.. هل تعلم أن كريستينا، صديقتك الصغيرة، سألتني عن السند الذي أزعم من خلاله أنني المسئول عن أعمالك بعد رحيلك؟ فعَلَتها بصدق وبراءة وكأنني بالفعل لا أحد.. وأكيليس، حلاقك السمج، داعبني قائلاً، لماذا ظللت تدعي أنك صديقه المقرب رغم أنك ضيف يحتفي بك فقط وفاء لذكرى أخيك الأكبر؟..ألم يحذرك فورستر من "خادمك الشاب الفضولي"؟.. ماذا تريد أن تفعل بي؟.. هل تستطيع أن تجيبني أين ذهبت الورقة التي أوصيتَ فيها بأن أكون مسئولاً عن أعمالك بعد رحيلك؟ كان يمكنني أن أحدس، ببساطة، أنها ضاعت أو فُقِدت، لولا أنني عدت للتفتيش عنها، فقط، لأؤكد لنفسي أني لن أجدها".

كان ألكسندر هائجًا، بصدق، كأنه لا يعرف ما فعل، كأنه لم يربط كل

ذلك ولو لوهلة بأن الشاعر قد يكون عرف بسره أو اطلع عليه.

في الأيام الماضية، بعد أن أنهى الفصول الستة، و لم يعد يجد شيئًا يفعله (كأنه لم يعد شاعرًا، لم يعد حتى يصلح قارئًا لشيء آخر غير ما يكتبه سينجوبوليس)، قرر أخيرًا أن يكسر عزلته، ولاحظ ألكسندر ذلك، لكنه لم يعره اهتمامًا زائدًا. لكن كفافيس انخرط في جلسات يومية منهكة، مع كل من يعرفهم في المدينة، وفي جميع الأماكن، حتى التي لا يحبها، بهدف واحد، أن يكتب مصير ألكسندر سينجوبوليس. كتب على عشرات الأوراق، لعشرات الأشخاص المشفقين على ضياع صوته، عشرات المعلومات المغلوطة والمتضاربة عن الشاب اليوناني، أودع سرَّه الكاذب لحلاقه النمام، وأكد عليه ألا يفشيه، مطمئنًا إلى أنه سيفعل بنفس قوة رجائه. قدم لكريستينا وصيته، ولاحظ ابتهاجها ورعبها من المسئولية الثقيلة التي ألقاها على عاتقها، تندَّر مع رجال الجالية اليونانية على ابن السمسار المحترم، الذي أصبح ضائعًا. وأخيرًا، شعر بالاطمئنان لما أنجز.. وجاء هياج ألكسندر الآن، ليؤكد له نجاحه في طمس تاريخه بجرة قلم.

"سأبدأ في ترتيب أوراقي للسفر.. ويمكنك بالفعل أن تعتبرني ضيفًا لشهر على الأكثر..".

ابتهج كفافيس. "لو كان الشاب يفكر حقًا في هجري، لأقام في مكان آخر حتى يحين موعد سفره". لم يقل له ألكسندر إنه سيظل معه لأنه يعرف أنه سيموت خلال أسابيع، وأنه قرر أن يحصل على جميع أوراقه لتكون بصحبته في أثينا، رغم أنف إرادته.

32

في الأيام الأولى من يناير 1933، كان كفافيس مشغولاً بقصيدة أخيرة، لم يمنحها عنوانًا بعد، لكنها ستصبح القصيدة المعنونة بـ"على مشارف أنطاكية". كان منهمكًا في إعادة كتابة مجهدة للقصيدة، عندما أنهى ألكسندر كتابة فصلين جديدين من الرواية، كانا الفصلين الأخيرين فيها.

إيثاكا

(الفصل السابع)

عندما تبدأ رحلتك

تمنَ أن يكون الطريق طويلاً..



*"إنها رحلة وادي النطرون.. هي التي قتلته.. كان عليك أن ترفض.. كان يجب أن تفعل شيئًا".

تُذكّرني كريستينا برحلة الصحراء، قبل مجيئه إلى هنا مباشرة.

تريد الآن أن تحمّلني مسئولية رقاده.. كأن شمس الصحراء قتلته، كأن سراب الرمل أودى به إلى الجنون الأخير. لماذا لم تعترض هي حينها؟ لماذا برقت عيناها وأنا أخبرها أنه مصر على القيام برحلة بين الأديرة ليكتب قصيدة طويلة عن الصحراء؟

أظل أنظر إليها. هل حقا فعلناها؟

لا بد أن أراجع ما كتبت، ما دونته عن رحلة التيه.

(هل صار المخطوط ذاكرتي الوحيدة؟ وهل أبحث الآن فيه عن الصدق أم عن الكذب؟؟).

*(انحنى القطار عند صحراء بئر فيكتوريا ليتزود بالماء، وكانت هذه اللحظة الأخيرة التي شاهدنا فيها العمران. كنت لا أزال غير مصدق أننا بالفعل في هذا القطار، نتطلع لصحراء مترامية كقيامة صفراء بينما نترنح مع اهتزازاته الرتيبة، لا نرى سوى حفنة غزالات بين الحين والآخر، أشباح نحيلة تعدو وكأنها تفر من عدو غامض.

عندما طلب مني، فيما يشبه الوصية، أن أستعد لرحلة أخيرة، لأنه يريد أن يخرج إلى الصحراء، ظننته مجرد نزق طارئ، سينتهي بعد دقائق، لكنه فاجأني برغبة صلدة لا تلين، وظل لعدة أيام يلح في الاستعداد للمهمة.

"أفكر في عدد من القصائد.. أو لعلها قصيدة واحدة في النهاية.. قصيدة نهائية عن تلك المعجزات وهي تتجسد رويدًا في عتمة الرمل.. هناك، في صحراء النطرون الغامضة، جثمان القديس بشوي الذي لا يزال حيًا في صندوقه.. شجرة التمر التي شقها في الرمل عكاز إبراهيم السورياني.. هل تعرف هذه الأشياء؟ لعلك لا تعرف... أردية الرهبان الداكنة، لا يرتدون شيئًا من تحتها.. عراة مقدسون.. قطيع أخيلة..".

كان يتحدث كالمُلهَم، محدقًا في الفراغ الذي بدا وكأنه يتمدد ليلتهم جدران الشقة.

أشيح بوجهي فأصطدم بهيليني المقرفصة على الأرض وسط تلال من القصائد. انهمكت الطفلة منذ عدة أيام في صناعة نعوش من ورق، من قصائده التي كتبها لها بالذات، في نزهات المقابر الطويلة والغامضة. كان يقذف بها إليها ببساطة، كأنه قرر فجأة أن يخفيها، عبر يديها. أتعثر فيها كلما تحركت في البيت فينقبض قلبي. كل لحظات تركض ببعض نعوشها الصغيرة المتقنة نحو الشرفة وتلقي بها للسماء، فكانت تظل معلقة، كأنها اختصرت مسافات لا مبرر لها يقطعها الموتى الأرضيون في رحلتهم للآخرة.

عادت الطفلة رغم كل شيء، فتحت الباب من جديد ذات مساء ودخلت.. وأصبحت تقلباتهما في سريره طقسًا يوميًا، تبادر فيه الطفلة بانتزاعه من فوق مكتبه، وتقوده لغرفة النوم التي شهدت دمها المتألم وتسببت في رحيلها المهزوم الذي ظنناه نهائيًا.

يناير 1933.

حل عام جديد، مؤذنًا بهواء ممطر ستحياه المدينة بعينين محشوتين بالماء.. وصار مزاجه معتمًا. يقف في الشرفة، يحدق في الحياة كأنه يشيح بوجهه عنها.

"الرحلة!.. سأقوم بها.. سأفعلها.. سأقترفها.. إنها نزهة الذنوب..".

كان فيما يبدو يريد أن يجرب مغادرة المدينة هذه المرة بشكل حقيقي، ولو لمرة، قبل أن يموت.

يحرضه يناير دائمًا (والذي كان يسميه الشيطان) على مغادرة الإسكندرية، للأبد.. ويبدو في مطلع كل عام وكأنه قرر بجدية، أخيرًا، أن يودع كل شيء هنا.. ينهمك في إخراج جميع أوراقه وكتبه وتذكاراته وحتى ملابسه، يُخضعها بصرامة وإحكام لعملية جرد شاقة، للاستغناء عما لا يلزم. يبدأ في إرسال خطابات لأصدقائه يطلب فيها تدبير مكان لإقامته.. في لندن.. أثينا.. اسطنبول.. روما.. وبعد عدة أيام يكتشف محبطًا أنه لا يستطيع الاستغناء عن شيء من ركام أمتعته وأوراقه. لقد كانت المدينة إرثًا يحمله على كتفيه، لكنه ظل غير قادر على التخفف منه، كأنه لو فعل، فسيتجرد من ملابسه طواعية، وربما من جسده ذاته.

في غمرة انهماكه يفاجأ بنفسه يستعيد حياته كلها فجأة، لينتهي به الأمر وقد تشبث أكثر بالبقاء في (المدينة المريضة به) على حد تعبيره.

هذه المرة بدت له الفكرة مثالية، فهو لن يخطو عتبة الحدود الصلدة لقوقعته.

".. مثل رحلة قصيرة للأبدية، عميقة ومحكمة".

اندهشت في البداية لأنه فكر في مكان قريب لسفرته، وقلت له، "يمكن أن تكون لأوروبا".

أجاب، "لم يعد هناك وقت لأغادر هذه المدينة حيًا..".

طلـــب أن يكون (الجميـــع) موجودين، ولم أفهـــم ما المقصود بالجميع.. غير أنني أومأت بالإيجاب.

"وائت بأصدقائك السريين.. لا تخش عليهم، فلم يعد لدي وقت لأتلصص على أحد..".

ثم ابتسم بوهن:

"أنا أيضا سأطلعك على أشخاص لا تعرف عنهم شيئًا..".

كان يهلوس، كأنما يتحدث عن رحلة أخرى، فيها مردة وغيلان بعين واحدة....).

يفعل ذلك مثلما يهلوس الآن، بالأبيات التي أستطيع وحدي تتبعها في أعماقه.

عندما تبدأ رحلتك إلى إيثاكا

تمن أن يكون الطريق طويلاً، عامرًا بالمغامرات والأشياء المثيرة

لا تخف من الغيلان والمردة آكلي لحوم البشر

الذين يبرقون في العتمة، ولا تخش تلك المخلوقات ذات العين الواحدة

المفتوحة في انتظار الفرصة.

*(في ظهيرة اليوم التالي، أتى رجل بجلباب مهترئ، محني الظهر بعض الشيء ويبدو عليه العجز.

"توتو.. صديق قديم".

صافحته وأنا أتأمل عينيه الصفراوين، وجهه المشوه، بينما يدخن بفم شره خالٍ من الأسنان سجائر ثقيلة لها رائحة خانقة. ربما فطن لشغفي فأطرق برأسه لكي لا تفضح عيناه أي سر قديم.

ها هو واحد من الأسماء المبهمة التي كانت تتردد أمامي يتجسد فجأة. جلس على الأرض متقاطع الساقين، محني الرأس.

غاب لساعات، حتى ظننته لن يعود، لكنه عاد بامرأة مصرية خمسينية، ممزقة الملابس، أعتقد أنني رأيتها قبل ذلك تهيم في الشوارع. دخلت الشقة مستغربة، وما أن رأتني حتى انقضت علي وخمشت وجهي. بحنين قال قسطنطين: فُتنة!

هل هذه المرأة البدينة الشائخة هي فُتنة المصرية؟

كان علي أن آتي بأصدقائي أيضًا. هو قال لي: "لك صديقة غريبة الأطوار.. يمكنك أن تدعوها، ستراها فكرة مذهلة.. إنها قارئتي الحقيقية، وهي شخص يثمن الرحلة إن كنت لا تعرف.. أما اليوناني محترق الوجه الذي لا يزال يتلصص عليَّ فأعتقد أنه سيتطير").

*يقول المخطوط إن كريستينا جاءت أيضًا، في رداء بني ثقيل. وإنها قالت لي : "فكرة ممتازة.. لا بد أن فورستر هو الذي أشار عليه بها"، وأنها بدت متحمسة لنزهة غير مسبوقة، وتابعت معي الاتصالات مع "شركة الملح والصودا"، التي تتمتع بحق تطوير ذلك الجزء من الوادي. وأذكر أني فتشت في أوراقه الأخيرة. وجدت بالفعل خطابًا من فورستر، يخطره فيه بأنسب الطرق لتأمين الرحلة، ووريقات منتزعة من كتابه "الإسكندرية تاريخ ودليل"، الفصل المعنون بـ"أديرة النطرون".

*(يشق القطار الصفرة الأبدية، ونهتز معه. أعتقد أننا جميعًا نفكر في شيء واحد، التيه.

يتطلع عبر نافذته، متحدًا بالشحوب، وكل عدة دقائق يتمتم بعبارات كأنما ليُطمئن نفسه الخائفة. أعتقد أنني سمعته يهمهم، "ولتكن الرحلة فرصة لإشباع شغفك بالمعرفة".. "تعلم قدر ما تستطيع وتحدث مع كل من يملك معرفة ليتسع خيالك". بدت لي تلك العبارات مدرسية عندما استقلت بنفسها عن القصيدة التي آوتها.

كان قد تورط فيما يبدو مع الفردوس المجدب الذي امتد أبديًا ومنبسطًا. بدا فزعًا جاحظ العينين، وهو يطالع في الخلاء جحيمًا يستحيل أن يتبدى لسواه. يلهث جسده ويتصبب عرق ثخين من جبهته (عرق لزج كالدم الطازج) بينما يفر يائسًا من الغيلان، والمردة آكلي لحوم البشر الذين يستيقظون في العتمة.. يحرك ذراعيه كالغريق بينما يمسك بتلابيبه بوسيدون إله البحر بعينه الواحدة ليأسره في مملكته.

في عالم آخر، بدا أن الجالسين غابوا في صلوات خاصة. كنت أكتشف لحظة تلو الأخرى أن كل هؤلاء معًا الآن، لأول مرة، كأنما اجتمعوا أخيرًا في العالم الآخر بفضل آصرة غامضة لم تعبأ بها حيواتهم المتباعدة، يحدقون في بحر الرمال المتهادي، تستقبل عيونهم هبات النسائم الصحراوية، بكريات الرمل الكبيرة الصلبة

التي تصطدم بزجاج النوافذ بلا هوادة، كأنها كائنات دقيقة ومخيفة، ستتحول بعد قليل إلى شيء آخر، حشرات مخاتلة لن تلبث أن تتضخم ناشبةً أذنابًا خرافية في الأعناق المتصلبة.

كلوديا تجلس بجوار ديمتري. أية لعبة جديدة تنتويها هذه المرة، وهي تعلن فجأة، في ضوء الشمس القوي، عن الرجل الذي ظل بالنسبة للجميع شبحًا حتى إنني كثيرًا ما تشككت في كون وجوده برمته واحدة من ألعاب مخيلتها؟ إنهما يتهامسان، بود. يبدو أقل قبحًا وفظاظة من تخيلاتي عنه ومن أحاديثها الغرائبية عن أطواره. كذلك يبدو متماسكًا رغم شيخوخته البادية، ليس الحطام الذي طالما التقطتُ بقاياه من حكيها. رغم ذلك، تغيب كلوديا بين الحين والآخر، تلصق وجهها بالزجاج، كعادة غريزية، كأنما يعود وجهها إلى رحمه. عندها يستريح في مقعده هو الآخر ويغلق عينيه. لا. إنه يبدل بينهما، فعندما تكون إحداهما مغمضة تكون الأخرى نصف مفتوحة. حكت لي كلوديا أنه ينام مفتوح العينين. يغط في النوم، ويشخر بقبح، ويغيب في أحلام، بينما عيناه مفتوحتان تطالعان عالم اليقظة.

ما الذي جعل توتو يختار فُتنة لتصير رفيقته في القطار؟ أو لعلها هي التي اختارت. لا بد أن تجلس فُتنة بجوار رجل. هل أعجبها؟ إنه يتأمل أسمالها الممزقة بإعجاب، أو بتمعن إذا شئت الدقة.. ولا يبدو متأففًا من هيئتها الرثة ورائحتها النفاذة (رائحة بقايا لا سبيل

إلى وصفها). تبدو له ربما قطعة من عالم منسي.

عادت فُتنة من موتها المحقق لتجلس هنا. (فُتنة الهائمة، التي لم تكن تصدق أن يمتد بها يوم خرجت فيه لتموت، ليصير أيامًا متشابهة نسيت فيها ما خرجت من أجله واكتفت بالسير بلا هدف، والنوم على الأرصفة. يراها الجميع. المدينة بأكملها تراها، تدحرج عريها، وتطلق سبابها، تكتب على الحوائط، بقطعة طباشير تتجدد بين أصابعها، سبابًا، قصائد، ودائمًا عنوان شقة الشاعر، ودعوة للرجال بالتوجه لبيت المتعة).

عليها أن تكون مدينة لتوتو بهذا الجميل للأبد. توتو؟؟ لا.. إنها مدينة بحياتها لقسطنطين بالذات. أليس من أرسل في طلبها؟ من أصر على وجودها في رحلته الأخيرة؟

جلستُ وحيدًا. هذا ما بدا للجميع، بينما يغيب وجهي في الأدخنة الكثيفة لسجائري، لكن هيليني كانت تجلس منتشية على المقعد المجاور لي، تلهو بنعوشها الورقية الصغيرة، وتتركها تسبح في سماء القطار المعتمة.. تبدو لي طيفًا منبعثًا من أدخنتي، يتجسد كلما ازدادت كثافة السحابات التي يلفظها صدري، بحشرجاته العالية كصرير سرير فقير، والبصقات الطائرة التي كنت أتركها دون تحسب تحلق فوق رؤوسنا قبل أن تلتصق بالمقاعد والنوافذ.

كريستينا تمارس سكينتها، بين يديها نسخة متآكلة الأطراف من

كتاب فورستر، تحدق فيها ويمتقع وجهها حتى إنها تشيح بعينيها كل لحظات كأنما تتقي سرابات في الصفحات.. بينما ظل هائل يعدو بموازاتنا في امتداد الصفرة.. في سباق خاص مع القطار. أحيانًا يتخلف حتى يختفي تمامًا لكنه لا يلبث أن يظهر من جديد، يعدو بموازاتنا إلى أن يسبقنا. خمنتُ أن السائق فطن لذلك، فقد شعرت أنه منخرط في هذه الحرب مع العدو الذي خلقه وهم الظهيرة.

يتبقى هذا الصبي المنفر، الذي اختاره قسطنطين للبقاء بجانبه، وكانت هيئته وملامحه تشيان بأنه بلغ توًا، إن لم يكن على عتبات البلوغ. كان له ذلك الصوت الغائم الغائب في خنوثة منفرة، المتحشرج بين الذكورة والأنوثة، وبروز عنقه خافت لم يكتمل بعد.. وتتناثر فوق شفته العليا شعيرات ناعمة لشارب يتشكل، عمّق، مع شعيرات أخرى متناثرة على وجنتيه، حداثة عهده بالرجولة. إنه قطعة من ثيوفيليس.. فكرت فجأة لماذا لم يأت؟ ألم يوجه قسطنطين الدعوة إليه؟

بالتأكيد فعل. لكن لعل ثيوفيليس رفض مغادرة قبوه.

عندما بدا أننا ألفنا الارتجاج الرتيب للقطار، وتعودت عيونُنا ذلك الجحيم الذهبي، فتح قسطنطين حقيبته الجلدية، وأخرج ورقة، فردها بينه وبين الصبي، وبدأ يرسمان معًا.

سأتجرأ وأقول لكريستينا: كانا يرسمان رجالاً، ظلال رجال

كثيرة تبرز منها أعضاء ذكورية ضخمة، لا تتناسب والأجساد النحيفة التي تحملها...).

... لكن كريستينا الآن تشاهده وهو يرسم، مغمض العينين على سريره، كأنما يصور أحلامه بالموت.

تحدق في فوضى المقابر مذعورة. تتخلى عيناها أخيرًا عن سكينتهما.

يرسم مقبرة حولها أزهار عملاقة في أحجام الأشجار، ويبتسم. يطلب ورقة ثانية، يرسم مقبرة تطل على البحر، محاطة بسمكات كثيرة، وفي البحر سفن راسية لها عيون وأفواه، كأنها تراقب المشهد. في ورقة ثالثة يرسم مقبرة معلقة في السماء وهيكل شخص يسقط منها، يرفرف، بجناحين نابتين من جنبيه.

* (انحدرت الأرض جهة اليسار. لاح شبح دير القديس مكاريوس عن بعد، وتراصت سلسلة البحيرات، حاملة الأخيلة الغائمة لأديرة القديس بشوي والسريان والبراموس البعيدة.

توقف القطار عند بئر هوكر، بالقرب من مصنع شركة الملح والصودا والاستراحة.

بدأنا نغادره منهكين، كأن يدًا هائلة أفرغتنا أخيرًا من عالم آخر، ظللنا نحياه لثلاث ساعات أمام مشهد واحد ثابت لا يتغير.

بدأ السحر ببحيرة تقع على يسار البئر مباشرة، أجبرتنا جميعًا على التوجه نحوها دون أن نتفق. تبدو كأنها مغطاة بجليد أبيض وقرمزي.. وكان الماء نفسه أحمر أرجواني داكن.. وضاعف السراب المحيط من الوهم، فقد تضخمت الطيور القليلة المحلقة لتكتسب أحجامًا إنسانية.. وتمددت كتلة الملح كقارب من الثلج.

بدا قسطنطين في قمة سعادته:

"إنه السراب!".

هبت عاصفة ترابية فجأة، ملأت العيون، وبدأنا نهرول بسرعة، نتخبط بعتمة العمى، غير أن صرخة هائلة قادمة من قطيع الحناجر الأشد ثقلاً في الدنيا أرعدتنا، مع دبيب هُيئ لنا أنه أرجف الأرض وهو يدكها في خطوات منتظمة.

عندما انقشع الغبار، رأينا العمالقة، الأطول من بنايات، مسوخ الظهيرة الذين حذرنا منهم بمجرد هبوطنا من القطار، بالعين الواحدة الكبيرة، العكرة، بلا حدقة، في منتصف الوجوه المشعرة المحترقة، بالقامات المتطاولة في الظهيرة، يحيطون بالمرأة التي انسلت من قطيعنا دون أن نراها.

كانت فُتنة، عارية تمامًا، على بعد الأمتار التي قطعتها ونحن نتخبط في العمى، ملابسها تطيرها الريح من حولنا، ولحمها العاري المحاصر الآن أيقظ جميع الأنوف المختبئة للغيلان. وبدأنا نبتعد، غير قادرين حتى على أن نلوح لها، بينما تطبق المسوخ الهائلة على الكائن الهش، المتضائل كنبتة بين أقدامها، والذي لم يطلق حتى صرخة توديع للحياة.

* لاحت الأسوار الحجرية، تحتجز أكداس رمل تهب كالموجات. تخاتلنا أشجار النخيل والمباني المعفرة، وتتحرك زواحف بلون الرمل على أرجل رفيعة، وعلى البعد، تنتصب أطلال الأديرة المندثرة. كلما تلفت أحدنا، كان قسطنطين يدعوه للتقدم، بقسوة، وبعبارة واحدة: "ليكن الوصول هدفكم الوحيد".

ثمة قنطرة تشق هذا الخواء أخيرًا، جسر حياة بشرية مفاجئ لم نتوقع سطوعه، ينتهي بباب خشبي صغير.

عبرنا الجسر، وشعرنا به يهتز من تحتنا وكأنه معلق في الهواء، إلى أن رأينا الأبواب والشرفات.

..وطرقنا.

في لحظة اكتظت الشرفات برجال في ملابس حالكة، كأنهم يتدثرون بالليل، برزوا فجأة وأخذوا يتطلعون إلينا ويهمهمون فيما بينهم، كأنهم يتلصصون على إحدى العجائب، أو يتأكدون من أن حفنة القامات البشرية المتطلعة لأعلى ليست سرابات أو أخيلة..).

(خرج لنا راهب بعد دهر، بدا بشوشًا، لكنه ظل يتقدم بحذر، وشَدَّ على أكفنا بقسوة، كأنه يتأكد من أننا آدميون. يتجسد الشيطان بين الحين والآخر، كمسافر منهك، يشير للرهبان، ثم يجذب من

يصدق كذبته ويحوله إلى تابع له. حذرنا قسطنطين ونحن نغادر القطار: "لا يجب أن نستسلم لأي راهب يمشي في الخلاء.. لأنه من أتباع الشيطان.. لن يستطيعوا إيذاءنا لو تجاهلناهم، لكن لو اقترب شخص ومد يده للمصافحة، فإنه سينقلب حجرًا في مكانه".. وهكذا ظللنا نرى طيلة مشينا، رهبانًا في أرديتهم الكهنوتية، ينهبون الرمال محنيين بصلبان أكبر حجمًا من المعتاد تتدلى على صدورهم، يشيرون لنا بوقار، فلا نعيرهم التفاتًا.

دعانا الراهب للدخول بعد أن تبادل كلمات قليلة مرحبة خرجت كهمهمات غير مفهومة.

بمجرد أن عبرنا الباب، تصلب قسطنطين أمام رسالة معلقة عن يمين الباب من الداخل، كتبها زائر، بعبارات عاطفية، حتى إن قسطنطين بدا خاشعًا وهو يطالعها.

"من يزر هذه القصور بإيمان ثابت، ورغبة متقدة، وتوبة حقيقية، وأعمال صالحة، فستغفر له كل خطاياه. الآن، يا آبائي المبجلين، ويا إخوتي الأحباء، دعونا نصلي لهؤلاء الإخوة الأعزاء الشرفاء القائمين على هذا الدير، والذين فاجأناهم بهذه الزيارة، دعونا نصلي ليسوع المسيح، الذي كان مع خدامه في جميع زمان ومكان، دعونا نصلي له ليكون معهم، وليخلصهم من كل آثامهم وخطاياهم، ولينعم عليهم بأفضل المنح وخير الجزاء، حتى يعوضهم عن كل ما عانوه من كدح، ومن مخاطر وتعب طوال رحلتهم إلى هنا".

"لقد كتبها فورستر!".

قالها مأخوذًا، فقرأتها من بعده، قبل أن يدعونا الراهب ببشاشة لنلج حجرة فسيحة فقيرة.

.. وجدنا أنفسنا في بيت الضيافة، محاطين بالأيقونات التي تكاد أن تنطق، حيث تناولنا قهوة وليمون. كنا ذاهلين، وقد بدأ العالم الداخلي للتيه يقبض علينا، نشعر بالتجمد، وتبدو وجوه الرهبان الخشبية، المملحة، أيقونات حية.. بقطعان اللحى المتفرقة على الوجوه، وبعطر غامض، نفاذ ومقبض، تبثه الأسمال الجافة لقابضي الأرواح النحيفين الذين ترتسم على وجوههم ابتسامات تبدو كما لو كانت أثرًا للبكاء.

أخرج قسطنطين ورقة، وانكفأ فوقها بقلمه، ثم امتدت بها اليد المرتعشة لأكبر الرهبان، والذي حضر للتو ليرحب بضيوف الرب.. رجل نحيف مخبوء الوجه، حيث يسدر غطاء رأسه الأسود فوق ملامحه. انحنى، بأدب جم، والتقطها، ثم بدأ يقرؤها بصوتٍ عالٍ من فمه البعيد الخفي.

كان صوته عميقًا وخشنًا، كأنما قدم من بئر سحيقة جافة، بينما يتلو ما كتبه الشاعر المحتضر وكأنه يقرأ نصًا مقدسًا.

"يرى الرهبان أشياء لا نراها، فهم يتوفرون على رؤى من العالم فوق الطبيعي. إنهم ينحتون أرواحهم بالعزلة والتأمل والكتمان،

ونحن نمنحها الخشونة بالاحتشاد، وغياب التفكير، والمتعة. ذلك هو السبب أيضًا في أنهم يرون أشياء لا نستطيع رؤيتها، فعندما يكون شخصٌ ما وحيدًا في غرفة صامتة، يمكنه أن يسمع بوضوح دقات ساعة الحائط، لكن عندما يدخل شخص آخر الغرفة، وتبدأ محادثة وتفاعل، يكف المرء عن سماعها، رغم أن الدقات ليست أقل منالاً من سمعه").

ـ كان ذلك أول شيء كتبه هناك، بدا الأمر في البداية مثل مجاملة رقيقة لأناس ليسوا من هذا العالم.. لكنني عندما سألته، أخبرني بشيء آخر تمامًا.. لقد كان يريد اختبار الخرافة التي تقول إن الأوراق التي تُقدم للرهبان تفقد سطورها واحدًاوراء الآخر حتى تعود بيضاء عند مغادرة الزائر..

*(.. استقبَلَنا دير القديس بشوي، الفخ الرحب المحاط بالأسوار، بالرائحة الخانقة للبصل المخزون، المنبعثة من حجرة الطعام المغلقة، ووجدنا أنفسنا نتحرك خلف سياج من البكاء، باتجاه الكنيسة التي تخدش الظهيرة.

عبرنا الرواق الفسيح الذي يقود للكنيسة من الداخل، وفي الصحن، هيئ لنا أن السقف المقبب آخذ في الاقتراب كسماء متحركة.. وقد ضاعفت ظلمة المكان من شعورنا باقتراب النهاية. أعمدة ضخمة، بقمم مقوسة، بدت أسلحة، منضدة لقراءة الإنجيل، وحوض صغير لغسل الأقدام في خميس العهد حيث يحتفل المعذبون بذكرى غسل المسيح لقدميه. أبواب ضيقة عالية مطوقة بأطر من العاج، بمصاريع قابلة للطي، تغلق الممر المقبي الذي يصل الصحن بغرف المرنمين والكهنة، وتنتشر المصليات.

دلف بنا قسطنطين مباشرة إلى مصلى العذراء، حيث قطع خطوات واسعة نحو الصندوق الذي وقف أمامه برهبة، وأخذ يتأمله كأنه يحاول كشف الجسد السجين خلف حجب الخشب.

"في هذا الصندوق تحيا رفات القديس بشوي".. قال الراهب مخبوء الوجه، وأكمل: "إن جسده لا يزال على حاله منذ مات.. العديد من الزائرين بل ومن الرهبان أنفسهم استثارتهم المعجزة

في أزمنة متفرقة ولم يستطيعوا مقاومة الفضول المميت. نحن لا نحرس الصندوق لأننا نعرف أن القديس قادر على حماية نفسه، من تسول له نفسه العبث به ومحاولة فتحه يتحول في لحظة إلى تراب.. كم من مرة جئنا فيها هنا لنفاجأ برداء كنسي متكوم على رماد صاحبه!"..

سيكتب بعد ذلك قصيدة عن الرجل الذي يتنفس داخل تابوته. ستكون المقطع الأول في قصيدته الطويلة النهائية.

- رجل يتنفس داخل تابوته!

- نعم.. وقد ذكرنا، أسمانا جوقة الأصدقاء..

(كنا رجالاً ونساء..

شيوخًا وأطفالاً..

جوقة أصدقاء أتت من الإسكندرية

لترقب أنفاس الرجل في تابوته..

اندهش ألكسندر..

ألجمت المفاجأة كريستينا..

وضحك شبح طفلة كانت بحوزتنا ولا يراها أحد

بينما تحول جسد الفقير الشائخ إلى رماد).

تشرد كريستينا حائرة، وكأنها تتذكر القصيدة، لكنها تبدو يائسة... ثم تتسع عيناها فجأة وهي تستعيد السطر الأخير..

ظل قسطنطين مفتونًا فور الاطلاع على المعجزة،، يتخيل نفسه بقعة رماد مكتفية بتيهها، وقد قال لي بعد ذلك: "أقصى ما يمكن فعله بعقولنا أن نجعل ما لا يُصدق قابلاً للتبرير".

رأيناه يتشمم الخشب، يتنسم عميقًا عرق القديس الذي لا يزال يتنفس، ويتمتم كمن مسه صعق: رائحة عرقه طازجة.. صوت أنفاسه يعلو ويهبط برائحة صندل.. وعضوه يتململ!

ظل شاردًا. وبصعوبة شديدة نجح الراهب مخبوء الوجه في اقتلاعه من السحر، ويبدو أنه حدس ما يفكر فيه الزائر النحيف من انحراف، لكن جسدًا آخر كان قد تجرأ وقبضت يداه على الغطاء السميك ثم بدأتا في خلخلته.. وقبل أن يتحرك الراهب، كان جلباب توتو يتهاوى على الأرض، خاويًا من جسده).

*(.."فُتنة وتوتو، لماذا المصريان بالذات؟".. لكنه همس في أذني، كأنما يطمئنني، "لن يكونا آخر المفقودين.. لا وجود لرحلة يعود فيها الجميع، ومن يعود منا لن يبقى كما ذهب".

ولجنا مصلى القديس اسخريون عبر أبواب مشغولة بنقوش قديمة، قذفت بنا في ممر مقبي، كنا لا نزال نرتعش، وبدا أن كلوديا المتطيرة أصبحت محمومة، وهي تحدق في كل شيء بفزع، وعندما طلب منا قسطنطين أن نقعي، لتلتصق وجوهنا بالأرض الرطبة، حيث يحب القديس أن يتخيل زواره صورته بهذه الطريقة، صرخت الإيطالية، ونشبت أظافر يديها في وجهه راسمةً الخدوش التي لن تُمحى بعد ذلك. خلصها ديمتري، وارتعد قسطنطين وهو يحدق لأول مرة في وجهه الذائب، بالعينين الضيقتين المختبئتين تحت ثنيات الجلد المهترئ. صحبهما راهب لإحدى غرف الضيافة، بعد أن أشار له مخبوء الوجه. ما إن غادرا حتى قال مخبوء الوجه في خشوع: يحدث ذلك لضعاف الإيمان.. لكنهم يعرفون خطأهم، للأسف، بتكفير نهائي.

في الحرم، خلف المذبح، فاجأنا قسطنطين بصعود المنبر، قاطعًا الدرجات الرخامية الست، التي تخربت زخارفها. في وسطه أقعى أمام المساحة الخالية التي كان ينتصب فيها عرش رئيس الدير الذي اختفى في أزمنة أخرى، قبل أن تبرز فسيفساء الرخام الضخمة،

بالصليب المهيب وسط القبة الشرقية. ظللنا نتطلع إليه، والراهب تقتله الحيرة من نزق العجوز الذي لا سبيل إلى كبحه، ومن جديد، اضطر لجذبه، ورأيناه يودع المشهد غارقًا في الدمع.

كنا نلهث عندما ولجنا كالمنومين غرفة الطعام، جلسنا حول مائدة حجرية كبيرة منخفضة، عليها خبز وبصل وملح. قال الراهب مخبوء الوجه:

"لا يأكل الرهبان هنا عادة، نفطر هنا فقط بعد صيامنا السنوي".

كان المكان أشبه بخزانة كبيرة لتجفيف البصل والخبز، وكتل ملح متراكمة على الحوائط. بقعة دنيوية بروائح حيوات مدخرة زكمت أنوفنا، وكان من الصعب تناول ذلك الطعام المتقشف، الذي كان قسطنطين، وحده، يلتهمه، بتلذذ لم أره عليه منذ عرفته، لكن رائحة احتراق قريبة، ما لبثت أن غمرت القاعة، لتوقظ الجميع من سبات الغرفة الحجرية، وحملت أول الأدخنة المتسللة من بين قضبان النوافذ رائحة ذكرى لن يكون بمقدورنا، حتى، أن نتأملها..).

.. كنـــتِ أنت بجانبي يا كريستينا.. لقد تبادلنا النظر.. في العتمة تبادلنا النظـــر.. ورأيت عينيك.. بينما تمر علـــى وجهينا رائحة النار البعيدة.. رائحة اللحم المحترق التي سنعرف بعد قليل من أي الأجساد كانت تنبعث..

(يغلق ديمتري باب الغرفة، ويمد يده لها بملابس المرأة التي لا تعرفها..

"أنت امرأة أخرى. في زمن آخر، ميتة الآن"..

تُحكم كلوديا إغلاق الغرفة، وتتعرى، تتردد قليلاً وهي ترى وجوه الأيقونات المصطفة تؤنبها، تشعر فجأة أنها قادرة على مغادرة الحوائط والانقضاض عليها، لكن ذلك يضاعف من إصرارها، هل ستهزمها الخرافة بعد كل ذلك؟

عندما يسدر فوق جسدها الفستان القديم، فستان خاريكليا نصف العاري، بعطره المخزون المعتق، تشعر أن جسدها يتآكل. الحلي أيضًا، تلتهم لحمها. لكنها تتذكر عبارة ديمتري، كالوصية، كأنه قالها ليموت.

"أنا امرأة أخرى. في زمن آخر، ميتة الآن".

كالمنومة، تستنشق عبير جسدها المختنق، لكن عبيرًا آخر لا يلبث أن يوقظها.

بإرادة، من القماش نفسه الذي ترتديه، رأت النار تتسلق جسدها، قبل أن تفكر، قبل أن تحصل على الفرصة لتصرخ، لتنتقم من الخدعة التي حاكها جنونه. بجسده المشتعل، يسكب النار على ملاءة السرير، على الأيقونات، على كل الهواء المقدس الذي أوحى له بمشهد النهاية، وحيث يهتز كل شيء في النار.

تحاول فتح باب الغرفة، لكنها ترى ألسنة النيران تلتهم كل شيء، بينها ديمتري، شخصًا من نار رأته قبل ذلك في نفس اللعبة، يتعثر في خطوته، كطفل يلهو.

سيفطن الرهبان لغرفة مشتعلة، وعندما يخُمدون كل شيء، سيرون العناق الأخير للجسدين المتفحمين).

* (ترجته كريستينا أن نذهب، نشجت لكي لا نبيت ليلتنا، تشبثت ببنطاله كطفلة، لكنه قال "لا بد أن تكتمل الرحلة..كلنا مفقودون".

صعدنا بضعة سلالم حجرية عريضة غير مستوية، قادتنا لسياج من خشب انحرف بنا، بعد ثلاث درجات من الخشب، لممر تتناثر على جانبيه الغرف المخصصة للنوم حيث سنبيت.. وحيث هيمنت فجأة رائحة الاحتراق التي لا سبيل لتحملها.

رأينا الباب المتفحم. "أين الجثتين؟" لم يجب أحد. أطرق الرهبان.

كانت رائحة الدم المحترق تعبق جميع الغرف، وبمجرد أن انصرف الرهبان، فور أن أغلقت خلفنا الأبواب الخشبية بحفيفها الذي يضخم الصدى، بدأت أشباح من فقدوا حيواتهم تتجول.

ظل ديمتري وكلوديا المحترقين يتجولان في الممر، سمعت حفيف خطواتهما إلى أن أزاحا باب غرفتي واستقرا، برائحة الحريق، أمام سريري. الشبحان المتفحمان أعادا المشهد الذي لم يره أحد، والنار تشبت من جديد في كل شيء، لقد احترقتُ، ورأيت لحمي وهو يذوب من فوق عظامي، حتى إنني عندما استيقظت قرب الفجر، لم أصدق أنني ما زلت أملك وجهًا.

الهيكل العظمي لفُتنة اقتحم على كريستينا غرفتها، وأخذ يحكي لها كيف التهم الغيلان لحمها وتركوها عظمًا. قالت إنها مبتردة،

وترجت كريستينا الميتة في الملاءة أن تمنحها فستانًا، فأشارت متجمدة لحقيبة ملابسها.. حيث ظلت المصرية تجرب جميع فساتينها إلى أن استقرت على واحد، ارتدته وغادرت الغرفة.

لكن ليلة الأشباح المغدورة تجسدت عندما تسلل الجلباب الخالي لتوتو إلى غرفة قسطنطين. وجده يتمرغ مع فتاه على الأرض في عناق شرس، فأكمل حفيفه إلى أن حط بخفة فوق جسديهما العاريين.. ثم التف على نفسه، مطوقًا عنق الفتى، حتى أخمد أنفاسه).

* (الليلة المرعبة تبعتنا بينما نصافح الرهبان في الصباح. بدوا شائخين في ملابسهم السوداء، أكثر مما كانوا عليه أمس. أشار لهم قسطنطين ليحملوا جثمان الصبي المختنق، دخل اثنان إلى الغرفة وخرجا به، غير أنهما فشلا في تخليص عنقه من الجلباب المحكم حوله. رغم ذلك لم يبد أن أحدهم استغرب أو انزعج. ظلوا نفس التماثيل التي تتنفس بالكاد، وصدقنا أنهم تعودوا على اللعنات في أيام توحدهم الطويلة المتشابهة.

قبل حتى أن نفكر، وجدنا أنفسنا نتبعه هو والراهب مخبوء الوجه، إلى دير السوريان. لم ينطق بكلمة. لقد تجمد قسطنطين من المشهد الذي لا يزال غير قادر على تصديقه، وهو يرى مشنقةً طائرة تحول الدماء الساخنة إلى ثلج. لكنه ما إن بدأ يتلقى رحابة الدير حتى لاحت على وجهه ابتسامة، حتى بدا كأنه نسي كل شيء فجأة، وصار مهيأ للسحر.

صَدَّقتُ الخرافة التي تقول إن ثمة سحابة كبيرة ثابتة في السماء، يمكن لمن يتأملها بقلب صاف، أن يرى بين ندفها وجه القديس إبراهيم السورياني. فبمجرد أن طلب الراهب منا أن نحدق في السماء بعيون مغمضة، (وهي الإشارة التي استجبنا لها دون أن نفهم كيف)، حتى تشكلت سحابة ضخمة، بيضاء رمادية في البداية،

ثم ما لبثت أن بدأت تتحول للون وردي باهت، أخذ يتشكل بأناة حتى صار وجهًا حقيقيًا لرجل مغمض ومبتسم. في اللحظة التي فتحنا فيها أعيننا، بأمر جديد من الراهب، أمطرت السماء فجأة، حتى هيئ لنا أن ماء الدنيا كله ينسكب علينا في هذه اللحظة المقتلعة.

وجدنا أنفسنا لصق السور الخارجي لكنيسة العذراء، حيث لاحت أخيرًا شجرة التمر هندي العتيقة التي شهق قسطنطين عندما رآها.. وبدا أنه يركض كي يلحق بها قبل أن تتحرك.

"وضع القديس إبراهيم السورياني عكازه هنا دون أن يقصد، فتحول في لحظة إلى شجرة متجذرة!".

سأل قسطنطين، بقليل من الحذر، عن قبو المخطوطات، حيث هُربت في أزمنة سابقة، مخطوطات سوريانية وحبشية وقبطية اكتشفها مغامر قبل نحو مائة عام، واستطاع الحصول عليها بتسهيلات من رئيس الدير مقابل المشروبات الروحية.

ارتجف رداء الراهب ورسم علامة الصليب، وبسرعة قاده لنغادر المكان.

في كنيسة العذراء، بدا أن الحلم الذي ودعناه يتكرر، لكن السقف الغربي، شبه الدائري، تركنا برهة في العمى، بالجدارية الجصية الضخمة، يصعد المسيح للسماء، اللوحات العاجية، تؤطر المتاهة، العذراء، القديس بطرس، وعلى عتبات الأبواب ودعاماتها كتابات

سريانية، غاب فيها قليلاً ثم بدا دانخًا. جذبه الراهب من جديد، ولم يفق إلا في دير البراموس.

قال الراهب مخبوء الوجه: هذا الدير غريب.. فهو مكرس لقديس غير معروف.

تيبس عند المذخر؛ حيث تحفظ الذخائر الدينية، وجثا أمام رفات الأخوين القديسين مكسيموس ودومتيوس.

"إنهما الشخصين اللذان صعدت من فميهما حبال متقدة إلى السماء أثناء صلاتهما..".

قالها كالمسحور، وظل يفكر في القديسين، بينما نواصل باتجاه دير القديس مكاريوس.

واجهتنا كنيسة مكاريوس، المبنية على الطراز البيزنطي.. حيث قطعنا خطوات سريعة لنجد أنفسنا داخل مصلى القديس يونان.

"هنا.. القصيدة الأخيرة!".

لقد بدا وكأن القديس الغريب يحوطنا بآلام جسده التي لا تزال تقتله في آخرته. ها هو قسطنطين يجلس أخيرًا في رحاب الرجل الذي طالما ألهبه بخيال شعري. سكندري هذا الرجل، يعرف البحر، يعرف الآثام إذن. لقد انتقم من نفسه لأنه قتل ناموسة. أية دعابة صنعت أسطورته! طالما ردد قسطنطين ذلك، غير مصدق. أصاب القديس ندم شديد، قرر التكفير عنه بأن يترك جسده عاريًا

للناموس بالذات، كي ينهشه ويقتنص ثأره.. انعزل عند المستنقعات القريبة - التي ظل قسطنطين يتأملها بوجل قبل أن ندخل - ومكث عاريًا ستة أشهر، يبكي بحرقة، ويطلب الصفح من قطعان الناموس الواخزة تاركا جسده كفزاعة مغلوبة على أمرها..عاريًا متوحدًا يحتمل العقاب الذي أنزله بنفسه.. حتى تورم جسده بالكامل، لدرجة أن الرهبان لم يتعرفوا عليه إلا من خلال صوته.. وقد اختار هذا المكان ليقام عليه ديره.. لبعده الشديد عن الناس وتعذر الوصول إليه.

كنا نسمع الصوت المعذب، بالتراتيل المتلاحقة، للقديس الغائب في موته، وبدا قسطنطين كأنما اقتُلع من الدنيا.

قال الراهب خاشعًا، "هنا تتجسد الأرواح الشريرة التي يستحيل ظهورها.. إنه صوت القديس يونان الذي يجعل الروح المتوارية تتجسد..".

لحظة أن أنهى كلماته، رفع ذراعيه، (اكتشفت أنا وكريستينا في هذه اللحظة أن له ذراعًا واحدة)، فانفجرت فجأة صرخة مولود، وتجسد الطيف الذي لم يكن لغيري أنا وقسطنطين أن نراه من قبل. برزت الرضيعة، كأنما من العدم، يد الراهب كانت أسرع منا، قبل الرجاء الذي تجمد في فم قسطنطين، والصيحة التي سالت من بين شفتي كريستينا، وهي ترى الطفلة لأول مرة في حياتها. انتزعت اليد المقدسة المرصعة بالخواتم السكين المخبأة في الأسمال

الكنسية الداكنة، وأطاحت بالرأس الذي تدحرج حتى استقر بين قدمي قسطنطين، المبتسم أخيرًا من أعماق جحيمه، ابتسامة نهاية الرحلة).

* (فقط، ونحن نودع الصحراء، عند آخر البوابات.. نزع الراهب الغطاء عن وجهه.. ورأينا الوجه الذي نعرفه.. بالعين الواحدة الكبيرة التي أشحنا بوجوهنا عنها.. بالفم المتحطم وتجاعيد القناع الغائرة في وجه لا يمكن إلا أن يحمل اسمًا واحدًا: ثيوفيليس.

كان يبتسم.. وقال قسطنطين عبارة أخيرة بينما يغيب في الوجه البعيد على اقترابه: إنه أنت!).

*تصرخ كريستينا في وجهي: هل عدنا؟

لكن صرخة الجسد الواهن في سريره تطفئ هلعها بصوت كالصدى السحيق:

لقد أعطتك إيثاكا الرحلة

وبدونها ما كنت بدأت.

33

ظل يتمتم، "لقد منحتك إيثاكا الرحلة.. وبدونها، ما كنتَ بدأت".

كان يهم بالتقاط القلم ليكتب شيئًا، لكنه شعر بالإعياء. ها هو ألكسندر يترك الجميع قتلى في إيثاكا جديدة، ها هم يفقدون أرواحهم على شرف قصيدة واحدة، نهائية، وموزعة على الجميع بالتساوي، بعد أن ولدوا من أرحام قصائد متفرقة متباعدة.

فكر أن رأيه الوحيد في هذا الفصل، يجب أن يتجسد فعليًا في خيانة عملية لألكسندر، بإنهاء قصيدة طويلة في صحراء النطرون، كان قد بدأ كتابتها بالفعل فور العودة من أثينا، بعد أن طرح ألكسندر فكرة الفصل في سطر واحد، لكن عليه الآن، وقد قرأ المغامرة كاملة، أن يعكف على

إنجازها.. وبدأ جديًا يفكر في عناوين جديدةٍ غير "سراب الوادي"، العنوان الذي اعتمده في البداية، ليختار من بينها، فكر في عناوين من قبيل "إيثاكا الصحراء"، "أيام الإيثاكي الأخيرة في النطرون"، و"معجزات السراب".

لكي يقاوم إعياءه، بدأ يتحرك في غرفة النوم الواسعة ليحرك عظامه المتيبسة. توقف فجأة أمام الدولاب، كأنه اكتشف وجوده في هذه اللحظة. فتحه فبُعثت أمه، لكنه تجاهل ذلك الحضور المباغت لرائحتها، والذي لم يستنشقه بتلك الحدة قبل ذلك، وأجهد ذاكرته في استدعاء ملابسها المفقودة، وفي النهاية خمن أن شبحها المختبئ فقد من أشيائه أكثر مما يجب. شعر بنقمة، غضب، لأنه خان جسدها البعيد، ترك أغطيته مباحة.

شعر أن التي احترقت في ملابسها هي خاريكليا فوتياديس، هل أتت النار على مجدها، أم ضاعفته؟ أيكون ذلك ما قصده ديمتري، بمعزل عن إرادة ألكسندر سينجوبوليس مجددًا؟

أحس بفراغ، ضاعفه الكحول القوي الذي يعبر حنجرته بإيلام وكأنه يعيد كي صوته، وهو يودع عالمًا من الظلمة، ظل يقرؤه، مصغيًا دون تذمر لهمهمات أشباح يرقدون في قبو مظلم، أخرجتهم يدُ رفيقه، واحدًا واحدًا، من تحت سريره بالذات.

بينما يتأمل الشقة شاردًا، فوجئ بها تخلو أمام عينيه من الأثاث، حتى الدولاب المفتوح أمامه تبخر في لحظة. لم يصدق أن كأسًا واحدة استطاعت أن تعبر به إلى ضفة الوهم، ولكنه قدَّر، من جديد، أن تغيير

العادة يمكن أن يتسبب في ضلالات مؤقتة. نفذ الوصفة التي يتقن تحملها، بالإفراط في ما يثير مخاوفه، وبعد الكأس الرابعة شعر بطمأنينة، لكنها كانت طمأنينة الاستسلام للوهم وليس التخلص منه. وفوجئ، لكن دون ذعر، بالوجوه التي تتسلل من تحت سريره، لتتدحرج على بلاط الشقة الذي تجرد من السجاد. كيف لم يتبق من كل أثاث البيت سوى سريره؟ نداء متعة شعر بأثره مضاعفًا عندما تخفف من جميع الشخصيات الثانوية التي زاحمت بطنه، المكتب ثقيل الوطأة، الأرائك والكراسي عديمة النفع، الطاولة المستديرة كأنها تدحض الزمن فقط من أجله، ودولاب الروائح الذي كان يثبت له دائمًا صدق فكرة مزيفة: أن ما مضى يمكن أن يحتفظ بأثر. الآن هناك سرير فقط، ورؤوس تتدحرج قادمة من العتمة التي ظلت ترقد تحته، شاهدةً على العمر الذي بلي فوق الفراش. أنت لم تكتب شيئًا يا ألكسندر سينجوبوليس، لقد أنصتَّ فقط للوهم الذي ظل يتخلق أسفل هذا السرير، كطفلٍ أقعى، باحثًا عن قطعة عملة تدحرجت من بين يديه، فعثر، دون أن يقصد، دون أن يريد، على كنز شخص آخر.

ولماذا لم تفعل أنت؟

التفت للصوت، ورأى القامة الشبحية لألكسندر تقترب. هيئ له أن رفيقه يترنح، و لم يستطع أن يحدد أيهما الثمل.

يفكر في عبارة، لكنه في العتمة لا يعثر على ورقة، ولا ينتظر ألكسندر رده. يتبخر مثلما ظهر، فاتحا باب الشقة، ويغادر دون أن يرده خلفه.

تتبقى وريقات، فصل صغير.

يجلس الشاعر.. على طرف سريره، متهيبًا.. وبكل ما تبقى له من شجاعة.. غائبًا في الوهم، ليقرأ مشهد موته.

أرواح العجائـز

(الفصل الثامن)

لقد سمعته..

صوت الموت يصعد درجات السلم

*ظلت النافذة الصغيرة توسع من نفسها طيلة المساء، وفي صباح يوم موته، كانت قد احتلت الجدار بأكمله.

كان مغمضًا، وحتى وهو مستيقظ، لم يعد يفتح عينيه، ولم يعد الأطباء يتحدثون. فقط يلقون عليه نظرات يائسة، يفتحون العينين ويغلقونهما، يقيسون النبض الخافت.

عندما دخلوا في الصباح، لم يبد عليهم أنهم اندهشوا للحائط الذي اختفى ولا للنافذة التي صارت جدارًا، كأن ذلك يحدث، علامة متكررة على الرحيل الوشيك.

على الزجاج، بدأت تتحرك الأخيلة، ومن التحديق الفزع لكريستينا، خمنتُ أنها تتلمس الرعب الداكن الذي سيغمر غرفته بعد قليل.

أزحتُ الستائر، التي تضخمت بدورها، وفتحتُ الزجاج الشاسع المتثاقل، ورغم أن كريستينا حاولت أن ترسم نظرة محتجة إلا أنها لم تكن حقيقية. اقتربَت، بساقين متخبطتين، ووقفت بجانبي، مغمضة. وضعت كفًا مرتعدة في كفي، ثم فتحت عينيها، وشهقت.

اتسعت الحديقة، حتى بدا انبساطها أبديًا، وفي شسوعها، في خلائها المفاجئ، من الأشجار، من الأرائك، من أشباح المرضى، كان ثمة جسد يزحف، مواصلاً في كل خطوة تغذية خيط الدماء الطويل الذي يسيل منه.

رأينا الرضيعة تحبو بامتداد العشب. كانت هيليني تتقدم، بعنق منحور تسيل منه الدماء.. رأسها شبه مفصول عن جسدها.

عَبرَت الباب الداخلي، ثم صعدت السلالم.. وأكملت زحفها غير المرئي حتى أزاحت باب الغرفة الموصد. ظلت تزحف إلى أن تعلقت بأطراف الملاءة، التصقت بها وتسلقت القماش الزلق مرتقيةً السرير، لتتمدد بجانبه. قربت أنفاسها من وجهه نصف الميت، وألصقت نفسها بجسده الذاهب للتيبس، ففتح عينيه بالكاد، ومنحها ابتسامة وداع، فيما كنت أنا أقترب، نافضًا يدي من كف كريستينا المتشبثة.

مع كل خطوة باتجاهها، رحت ألتقط رائحة احتضارها على سرير مرضه.. وكانت السنتيمترات التي فصلتني عن جسدها الذاهب، كافية لأرى شيخوخة السنوات التي لم تعشها وهي تعيد رسم وجهها المتغضن.

صارت الرضيعة امرأة طاعنة، جسدًا من التجاعيد يتكئ على عظام هشة.. كأن السنوات الثلاث التي قضتها معنا، منذ ظهورها الأول كجنين في مهده، مائة عام أو يزيد بقياس زمنها الخاص، الموحش، والغائب في العدم.

اقتربتُ منها أكثر، وسال الدمع الذي لن تصدقه.. دون أن أقوى للحظة، على التخيل، أنني سأودعها.. دون أن أجرؤ على أن أقول لها: ابقي قليلاً.

على سريره، تنظر إلي في رجاء حار للحياة أن تبقى قليلاً.. هنا.. بين هذه الجدران التي اختارتها.. وعبرت الشوارع الطويلة كي تصل إليها، بجسد رضيعة تحبو.. وقد صارت أخيرًا تلك المرأة التي تشيخ في كل لحظة.

واحتضنتها.. مستشعرًا التجاعيد التي تورق فوق عظامها، بينما أنصتُ لصوت أنفاسها وهي تخبو.

قبل أن يضعوا الغطاء على وجهها، زحفت من جديد، بجثمان شبح أزرق، انزلقت من بين الملاءات ليعاود طيفُها المنهكُ الزحف بين أقدامنا، حتى قفزت من النافذة، عائدةً لمقبرتها. رأيت رفرفتها الصامتة، في الهواء الثقيل المترب، وكانت الحديقة قد اختفت، ليحل مساءٌ على خلاء أصفر، تضيئه الشواهد.

فتح عينيه ثانية، وعندما لم يجدها بجانبه، نهض بقفزة النهاية التي لا يتحملها جسده، ليتعلق بالإفريز، أمكنه أن يرى ذؤابات الشواهد، تؤطر المقبرة المفتوحة، مقبرة الأسرة التي راح يتأملها مستعيرًا عين طفولته البعيدة، غير مصدق أنه يرى، بعد كل هذه السنوات، جسد أبيه وهو يختفي في ظلمة المقبرة، وجسد الرضيعة يزحف خلفه، بلا مهد أو كفن.

ارتجف، وهو يرى جثمان خاريكليا يلحق بهما إلى عتمة العالم الآخر، يوارونها التراب، بجسد في كامل زينته، تتلقى الرمل على جثمانها الذي خذلها فجأة.

وهيئ إليه أنها تغوص بكبرياء، مثلما كانت تغوص تحت الأغطية، وفي عتمات المعاطف الشتائية لوحدتها، وفي ماء المرآة.. امرأة الحجرات التي تهاوت في صدمة الضوء، وهي تسجل صورة نهائية لوجهها الميت في اللحظة التي فقد فيها حياته.

يذرف كل الدمع الذي اختزنه، يرى صمت نهايتها الذي لم يتخيل يومًا أنه سيكون شاهدًا عليه مرتين.

عندما يعود إلى سريره، ترتجف تلويحة يده الذاهبة إلى التراب، وهي تودع المرأة التي تموت الآن، ويطلب، لأول مرة، أن نأتي له بقس، من أجل المناولة.

*في الصباح أيقظه هدير الترام مجددًا، فتوسلت اليد المحتضرة للهواء، بحثًا عن ورقة.

رسم دائرة كبيرة. وضع في منتصفها نقطة. كتب عبارة أخيرة، لن يمهله الوقت لتعديلها، لجعلها سطرًا في قصيدة.

حاول النهوض ليزيح الستائر، لكن حطام الأنفاس الأخيرة لجسده خانه.

كان لا يزال شاخصًا نحو نافذة الوداعات، عندما أزاحت يدٌ موغلةٌ في القِدم باب غرفته، ودخلت امرأة.

حدق في خاريكليا الشابة، العارية، مرتعبًا، ذاهلاً، مفتونًا، وترك نظرة أخيرة، في بطنها المنتفخة، كأنه يقرأ وجه الجنين الذي يتحرك في مقبرة رحمها.

ـ ألم يدفنوها منذ قليل؟

لا يبدو أنها رأته أو استمعت لسؤاله الضائع. اتجهت بهدوء نحو سريره، ورقدت، أطبقت بجسدها المعبأ فوق جسده الخاوي، وارت عظامه التي تبخرت تحت ثقلها كأنه لم يكن غير طيف.

أطلقت كريستينا صرخة ضائعة، أذابتها زلزلة الصيحة المتقطعة، للمرأة التي وسعت بين ساقيها.

***

... إنه يولد الآن.

ألكسندر سينجوبوليس

يناير 1932

34

يعيد المخطوط إلى الحقيبة، شاعرًا أنه يحتضر.

يفكر فجأة أن موته في الرواية قد يتزامن مع موته في الواقع، يلهمه ذلك، يلهب يده، يجعله يبحث بسرعة عن قلم، عن ورقة، لكنه يحدس أنه لا يستطيع.

يده ترتعش وجسده كله يرتجف والاحتضار يناديه.

أين ذهب ألكسندر؟ لا يعرف.. "لكن لماذا تسأل الآن؟ إنه منذ عاد معك من أثينا، لم يعد موجودًا، شبح، حتى أن لو أحدًا تشكك في وجوده أمامك، ستصدق".

نظر في ساعته، التاسعة مساء. لا يعرف إن كان ذلك موعدًا ملائمًا لما يريد فعله، لكنه يرتدى ملابسه بسرعة، يفتح الباب – لا يعرف حتى

هل أغلقه خلفه أم لا ـ يقطع درجات السلم، تواجهه امرأة البيت السري فيزيحها كأنه يقذف بها إلى ذاكرته، يقطع الشارع، شارع ليبسوس، ويفكر، لأول مرةٍ يفكر، كم هو صغير وهش ومنسي ذلك الشارع.. ثم يتسمر قليلاً أمام بوابة كبيرة، تنزاح بمجرد أن يلامسها، كأنها تفسح له، تطيع نواياه، ليصبح داخل مستشفى الجالية اليونانية.

طالما توقف أمام أسوارها، في الليالي التي يضيئُها القمر، يطل على الحديقة الممتدة خلف البوابة، بالأشجار العشوائية، بالمقاعد المنثورة هنا وهناك. لا يعرف لماذا ظل محتفظًا بخيال طفولي، يؤكد له أن المرضى الذين يموتون يدفنون في هذه الحديقة، تحت هذه الأرض المعشوشبة غير المستوية.. هل سأدفن تحت هذا العشب المبلل؟

بدت له، في كل ذلك الليل، وجهًا معتمًا ببثور مضاءة.. يتردد، يفكر في العودة، يشعر بالحمى، لكنه يعبر الحديقة، شاعرًا بانقباض، وهو يرى نوافذ الغرف المضاءة، ويندم لأنه قرر المجيء في عتمة العالم.

يُهيأ له أنه يسير بصحبة ممرضة نحيلة ودمثة، تحمل سلسلة مفاتيح ضخمة، تفتح له بابًا بعد الآخر، يتنقل في متاهات الغرف مختلفة الأحجام، في كل منها مريض مغطى بالملاءات، ما إن يدخل حتى ينهض النائم فزعًا، ليكتشف أنه هو، تفتح له نافذة تلو الأخرى ليطل على المنظر الذي يفضل أن يراه في احتضاره، أن يودع به الدنيا.

الليلة، سيقضيها معروقا، محمومًا، يهلوس دون صوت، يود لو تكلم، يبحث عن نبرة.

في صباح اليوم التالي، سيسقط، تحت قدمي ألكسندر، جاحظ العينين، ومتيبس الجسد، بفم مفتوح على الصمت، كأنه كان يهم باستعادة كلمات ماضيه.

35

يرى نفسه، في الصباح الغائم، يعبر بوابة الأمس، يتجول على الأبواب التي أزاحتها يد العتمة قبل ساعات.

يريحونه على سرير يشبه ذلك الذي قرأه، في غرفة رآها من قبل.

في الأيام التالية سيتعود مراقبة ألكسندر وهو يختفي ويعود، متأبطًا حقيبته.

يخمن أنه يكتب الرواية من جديد، يتمنى بيأس أن يقرأها، لكنه يعرف أنه لن يستطيع.. وعندما تطرق يد أنثوية الباب، وتدخل كريستينا ممتقعة، سينظر لألكسندر، ويبتسم لآخر مرة.



تعقيب

بعد سنوات طويلة من كتابة المخطوط الأول لهذه الرواية - والذي ظللتُ قارئه الوحيد لثلاثين سنة، رَجَّحتُ خلالها أنه لن ينشر - يبدو لي من الصعب الآن، وقد قررت أخيرًا الإفراج عنه قبل أن أموت، كاحتفاء أخير بحياة قسطنطين كفافيس، أن يظهر للنور دون تخيل القصة الأكبر التي تسبب في خلقها، والتي أصبحت هنا قصة إطارية مقسمة على خمسة وثلاثين مقطعًا مرقمًا.

بدأ الموضوع بشكل روتيني للغاية، إذ كان المقطع الأول نواة لمقدمة أردتها غير تقليدية للرواية التي قررت أخيرًا نشرها، تكريمًا لكفافيس في ذكرى موته الخمسين، وقد أصبحت أنا نفسي في الثالثة والثمانين، غير مصدق أن الشخص الهش الذي مات أمام عيني في سرير صغير

بالمستشفى اليوناني بالإسكندرية، مات وهو يصغر الشخص الذي أنا عليه الآن بثلاث عشرة سنة.. لكن المقدمة ما لبثت أن ألهمتني فكرة رواية كاملة، تؤطر وتحف وتتقاطع مع مخطوط سينجوبوليس، كموجة كبيرة تحيط به وتخترق ثناياه.

وكنت أملك واقعة صغيرة لم أحك عنها لأحد، تتمثل في ذلك التلصص الطفولي للشاعر العظيم على مخطوط روايتي، والذي لم يكن من الصعب عليَّ كشفه، سواء في المقاطع البدائية التي قرأ أغلبها في مستشفى الصليب الأحمر بأثينا، أو المسودة التي أنجزتها في الإسكندرية طيلة نحو ثلاثة أشهر من العمل المميت فور العودة، والتي وإن كانت أكثر تماسكًا، إلا أنها لم تكن بدورها سوى فاتحة لمسودات أخرى كتبتها لتلك الرواية.

كنت أترك له الأجزاء المكتملة من المخطوط ليقرأها، وبعد موته، احتفظتُ بدفتر كبير يحوي ملاحظات مكتوبة على نصي، استفدت بأغلب أفكار كفافيس المودعة فيه، في تجسيد مشاهد قراءة الشاعر للرواية، ورصد انطباعاته ومشاعره وأفكاره عما يقرأ، كما أعترف باستفادتي الجمة منه في المسودات التالية، وصولاً لصيغة الرواية النهائية، التي لم أعرف أبدًا ماذا علي أن أفعل بها.

لقد عادت تلك المسودة المبكرة لتصير هي رواية ألكسندر سينجوبوليس الحاضرة هنا، وبالتالي فقد تخليتُ، مجبرًا، عن النسخة الأخيرة من هذه الرواية، والتي كانت في الحقيقة النسخة الثامنة أو التاسعة، لأنه كان من المستحيل إيرادها باعتبارها العمل الذي قرأه كفافيس بالفعل، في أيامه الأخيرة.

من أجل روح كفافيس، أنشر هذا النص الآن، ولعل ذلك لا يغضبه في عالمه الآخر.

ألكسندر سينجوبوليس

أثينا

29 إبريل 1983

إحالات

- أنا مدين بشكر عميق للكتب التي قرأتها، والتي كانت بمثابة مراجع تأريخية أعانتني على توثيق بعض الوقائع عن قسطنطين كفافيس، فضلاً عن استفادتي منها في ترجماتها المتنوعة والمُثرية لقصائد كفافيس إلى العربية، اعتمدتُ عددًا من سطور ومقاطع قصائد كفافيس الواردة بالرواية منها، بقدر من التصرف الصياغي أحيانًا.

- الأعمال الشعرية الكاملة، ترجمة وتقديم "رفعت سلام"، الهيئة العامة لقصور الثقافة. 2011.
- ديوان كفافيس شاعر الإسكندرية، د. نعيم عطية، دار سعاد الصباح، 1993.
- قصائد من كفافيس، د. نعيم عطية، المشروع القومي للترجمة، 2002.
- كافافي الشاعر والمدينة، وسام الدويك، دار مصر المحروسة، 2006.
- في انتظار البرابرة، ديزموند أوجريدي، ترجمة شوقي فهيم، الدار، 2005.
- الإسكندرية تاريخ ودليل، إي إم فورستر، ترجمة حسين بيومي، المشروع القومي للترجمة، 2000.

.. لكني أيضًا مدين لهذه المراجع؛ لأنها أعانتني في الحقيقة، وبالقوة نفسها، على تحريف وقائع أخرى أو اختراعها في النسيج التخييلي للعمل.. خاصةً وأن الفجوات الواسعة في بعض أزمنة الشاعر، فضلاً عن الحقائق والتواريخ التي وردت أحيانًا مشوشة أو متناقضة، وبعض المناطق الغائبة، منحتني فرصة ذهبية لإعادة تأويل حياة، حد خلقها وتخمينها، بعد أن بدت لي في كثير من الأحيان كما لو لم تكن وُجِدت قط.

طارق إمام

طارق إمام

- روائي مصري، مواليد 12/ 8/ 1977م، ويعمل صحافيًا بالقسم الثقافي بمجلة الإذاعة والتليفزيون القاهرية.
- فضلاً عن الكتابة السردية، يكتب النقد الأدبي، وله تحت الطبع كتابان نقديان: "قصيدة النثر المصرية.. جماليات نص الهامش"، و"شعرية التغريب في الرواية المصرية الجديدة".

أصدر سبعة كتب:

- طيور جديدة لم يفسدها الهواء – مجموعة قصصية – دار شرقيات – القاهرة – 1995م.
- شارع آخر لكائن – مجموعة قصصية – الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة – القاهرة – 1997م.
- ملك البحار الخمسة – مجموعة قصصية للفتيان – الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة – القاهرة – 2000م.
- شريعة القطة – رواية – دار ميريت – القاهرة، (طبعتان) – 2003، 2006.
- هدوء القتلة – رواية – دار ميريت – القاهرة (أربع طبعات)، 2007، 2008، 2009، 2010.

- الأرملة تكتب الخطابات سرًا - رواية - دار العين، القاهرة - 2009.
- حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة مات فيها - مجموعة قصصية - دار نهضة مصر، (ثلاث طبعات)، القاهرة، 2010م.
- ترجمت روايته "هدوء القتلة" للإيطالية، وتترجم حاليًا للإسبانية والإنجليزية، كما تُرجِم عددٌ من نصوصه للإنجليزية والفرنسية.

حصل على ست جوائز أدبية:

- جائزة الدولة التشجيعية بمصر، عن رواية "هدوء القتلة"، 2009.
- جائزة ساويرس 2008 عن رواية "هدوء القتلة".
- جائزة ساويرس 2011 عن مجموعة "حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة مات فيها".
- الجائزة المركزية لوزارة الثقافة المصرية لأفضل مجموعة قصصية مخطوطة، مرتين، عامي 2004 و2006.
- جائزة "سعاد الصباح" لأفضل مجموعة قصصية، 2005.



الحياة الثانية
لقسطنطين كفافيس

غادر قسطنطين كفافيس السفينة القادمة من أثينا، بصحبة شخص، يكتب رواية عنه، يخبئها في حقيبته، ويضيف إليها كل يوم سطرًا أو بضعة أسطر، فقرة أو فصلاً كاملاً. هذا الشخص اسمه ألكسندر سينجوبوليس، عشيقه اليوناني، عشيقه الأخير كما ستؤكد بعض الكتب، والشخص الذي ليس له وجود على الإطلاق في كتب أخرى أشد إسهابًا، ستتناول سيرة كفافيس فيما بعد. بدءًا من هذه اللحظات، وطيلة السنوات القادمة، سيصير ألكسندر سينجوبوليس أحد احتمالين، بنفس القوة، لشخص وُجد أو لم يوجد، لكنه، على الأقل في تلك الظهيرة من أكتوبر عام 1932، كان متجسدًا.

كفافيس الذي ظل يقرأ المشاهد البعيدة الممزقة، أولاً بأول، في المستشفى الأثيني، من خلف ظهر عشيقه، أو صديقه، أو حتى الشخص الذي لم يوجد، سيقرأ المسودة المكتملة في شقته بشارع ليبسوس بالإسكندرية، ولن يتهاون في تسجيل ملاحظات صارمة، بدفتر صغير في البداية، لن تلبث أن تتضخم وتتشعب، حاملةً اقتراحات، تساؤلات، ملاحظات فنية، إلى أن تُشكّل ما يصلح لرواية موازية.

الغلاف: بسمة صلاح




9 789774 901713